د. مصطفى حجازي

التخلف الاجتماعي

مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور



المركز الثقافي العربي

التخلف الاجتماعي

مدخل إلى

سيكولوجية الإنسان المقهور

الكتاب

التخلف الاجتماعي

المؤلف

د. مصطفى حجازي

الطبعة

التاسعة، 2005

عدد الصفحات: 256

القياس: 17 × 24

ISBN: 9953-68-075-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 ـ 307651

فاكس: 305726 ـ 2 212+

Email: markaz@inter.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

د. مصطفى حجازي

التخلف الاجتماعي

مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور

المركز الثقافي العربي

المحتوى

القسم الثاني:
الأساليب الدفاعية

مقدمة

أصبحت الكتابات حول التخلف من أوائل الخمسينات غزيرة، نظراً لبروز ظاهرة الدول المستقلة حديثاً، في ما يطلق عليه اسم العالم الثالث، والمشكلات والقضايا التي طرحتها مهمات النهوض الاجتماعي فيها. اتخذت هذه الدراسات وجهات متعددة، ولكنها تركزت أساساً حول الاقتصاد والصناعة، والعناية بالسكان (صحة، تعليم، تغذية، إعمار، إلخ. . .) فنشأ عن ذلك علم اقتصاد وعلم اجتماع التخلف. ولكن الإنسان المتخلف لم يعط الاهتمام نفسه الذي وجّه إلى البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. صحيح أن هذا الإنسان هو وليد البنية الاجتماعية المتخلفة، ولكنه ليس مجرد أمر مادي قابل للتغيير تلقائياً.

يعاش التخلف على المستوى الإنساني كنمط وجود مميز، له دينامياته النفسية والعقلية والعلائقية النوعية. والإنسان المتخلف، منذ أن ينشأ تبعاً لبنية اجتماعية معينة، يصبح قوة فاعلة ومؤثرة فيها. فهو يعزز هذه البنية ويدعم استقرارها، بمقاومة تغييرها، نظراً لارتباطها ببنيته النفسية. العلاقة إذاً جدلية بين السبب والمسبّب (البنية والنمط الإنساني الذي ينتج عنها) مما يحتّم علينا الاهتمام بهما كليهما عند بحث حالة أحد المجتمعات المتخلفة، بغية وضع الخطط التنموية.

ولقد أوقع تجاهل هذه الحقيقة دارسي التخلف وعلماء التنمية، ومن ورائهم القادة السياسيين الذين يقررون عمليات التغيير الاجتماعي، في مآزق أدت إلى هدر الكثير من الجهد والوقت والإمكانات المادية، بشكل اتخذ طابع التبذير الذي لا يمكن للمجتمع المتخلف، ذي الأعباء الثقال، أن يسمح لنفسه به. انطلق هؤلاء جميعاً في مشاريع تنموية طنانة، ذات بريق ووجاهة، قائمة على دراسات ومخططات جزئية، لم تتجاوز السطح معظم الأحيان، كي تنفذ إلى دينامية البنية المتخلفة من ناحية، أو إلى التكوين النفسي والذهني للإنسان المتخلف الذي أريد تطويره من ناحية ثانية. وضعت خطط مستوردة عن نماذج

طبقت ونجحت في بلدان صناعية، ولكن مسيرة هذه الخطط لم تخط بعيداً، فلقد أخفقت التجارب المستوردة، والمشاريع الملصقة من الخارج، كما فشلت المشاريع ذات الطابع الدعائي الاستعراضي في تحريك بنية المجتمع ككل، وفي الارتقاء بإنسان ذلك المجتمع.

ذلك لأن إنسان هذه المجتمعات لم يُنظر إليه باعتباره عنصراً أساسياً ومحورياً في أي خطة تنموية. التنمية، مهما كان ميدانها، تمسّ تغيُّر الإنسان ونظرته إلى الأمور في المقام الأول. لا بد إذاً من وضع الأمور في إطارها البشري الصحيح، وأخذ خصائص الفئة السكانية التي يراد تطوير نمط حياتها بعين الاعتبار. ولا بد بالتالي من دراسة هذه الخصائص ومعرفة بنيتها وديناميتها، وهو ما ندر الاهتمام به إلى الآن. فعلم النفس لم يحتل بعد مكانته المفروضة في هذا المضمار، ومع أنه يملك مفاتيح مهمة لمعرفة الإنسان، والقوى التي تحركه داخلياً وعقلانياً، والمقاومات التي يظهرها إذا مس توازنه، وكل تنمية لا بد لها إذا كانت فعالة، من المساس بهذا التوازن لإحلال آخر أكثر تطوراً ومرونة مكانه. لا بد من شمول النظرة من خلال الاهتمام بالبعد الذاتي «الإنساني» إضافة إلى البعد الموضوعي «الاجتماعي الاقتصادي»، ومن خلال فهم العلاقة الجدلية بينهما، إذا أردنا السير على طريق يحالفها الحظ في إيصالنا إلى الهدف.

ومن هذا المنظور، تنبع أهمية محاولتنا لدراسة نفسية الإنسان المتخلف. فإذا توقفنا ونظرنا ملياً، نجد أن ظواهر حياة هذا الإنسان التي تبدو مشتتة تذهب في كل اتجاه، وأن تصرفاته ونظرته ومواقفه واستجاباته التي يبدو عليها التفكك، هي في الحقيقة كل متماسك، له بنيته الخاصة وديناميته المتطورة. فحياة الإنسان المتخلف تنتظم في وحدة قابلة للفهم جدلياً، وحدة لها تاريخها ومسيرتها رغم ما يبدو عليها من سكون ظاهري، يسبغه تحكّم التقليد وما يفرضه من جمود في المجتمع.

يتلخص وجود الإنسان المتخلف، في نظرنا، في وضعية مأزقية، يحاول في سلوكه وتوجهاته وقيمه ومواقفه مجابهتها، ومحاولة السيطرة عليها بشكل يحفظ له بعض التوازن النفسي، الذي لا يمكن الاستمرار في العيش بدونه. هذه الوضعية المأزقية هي أساساً وضعية القهر الذي تفرضه عليه الطبيعة التي تفلت من سيطرته وتمارس عليه اعتباطها، والممسكون بزمام السلطة في مجتمعه الذين يفرضون عليه الرضوخ. ولذلك فإن سيكولوجية التخلف من الناحية الإنسانية تبدو لنا على أنها، أساساً، سيكولوجية الإنسان المقهور. تنبث علاقات القهر والتسلط من ناحية، ورد الفعل عليها من رضوخ أو تمرد من ناحية ثانية، في كل ثنايا وجود الإنسان المتخلف. تكوين الإنسان المتخلف النفسي، وتركيبه الذهني، وحياته اللاواعية، محكومة كلها بالاعتباط والقهر وما يولدانه من قلق جذري، وانعدام الشعور بالأمن والإحساس بالعجز أمام المصير. ولا يقف الإنسان المقهور مكتوف اليدين إزاء هذه الوضعية

عسيرة الاحتمال، نظراً لكونها تزلزل التوازن الوجودي، بل يحاول أن يجابهها بأساليب دفاعية جديدة، متعارضة جدلياً أو متكاملة في تعارضها. تطغى في كل مرحلة من تاريخه نماذج سائدة منها، تتغير تبعاً لتغيّر ظروفه. والكثير من معتقدات الإنسان المتخلف وانتماءاته وممارساته، تبدو في النهاية كمحاولات داعية للسيطرة على وضعيته المأزقية وإيجاد حلول معينة لها. هذه الحلول تتخذ أشكالاً فاترة أو نشطة، تشدّه إلى الوراء أو تدفع به إلى الأمام، تميل به إلى الاستكانة والانسحاب، أو تدفعه إلى المجابهة والتصدي، ولكنها دوماً تشكل نماذج من الاستجابات الممكنة، في ظروف تاريخية وعلائقية محددة لما يحيط بحياته من ضغوط.

التكوين النفسي والتكوين الذهني للإنسان المتخلف، بديناميته الخاصة، وحركته التاريخية، والأساليب المتنوعة التي يجابه بها مأزقه الوجودي، يشكلان قسمي هذا البحث. ففي القسم الأول ترسم الملامح النفسية الأساسية للإنسان المقهور. أما في القسم الثاني فنستعرض أهم الأساليب الدفاعية التي يجابه بها وضعيته في تفاعلها وتناقضها وتغيّرها. ويتضح من هذين القسمين أن حياة الإنسان المتخلف وممارساته وتطلعاته، هي أبعد ما يكون عن العشوائية والتشتت اللذين يبدو أنهما يميزانها ظاهرياً.

رغم أن الحديث يدور حول الإنسان المتخلف بشكل عام، إلا أن المادة مستقاة أساساً من واقع الإنسان اللبناني خاصة، والعربي عامة. بالطبع لا ينطبق كل ما سيقال على كل لبناني أو كل عربي، فهناك بالضرورة خصائص نوعية في كل حالة، تجعل سيادة نماذج معينة من التكوين النفسي ومن الأساليب الدفاعية أمراً محتوماً. إلا أن الخصوصية هذه لا تمنع محاولات النظر في إمكانية التعميم، انطلاقاً من مقارنة مختلف وضعيات الإنسان المتخلف في مختلف البلدان خارج العالم العربي.

إن انفجار العنف في «لبنان»، والأشكال التي اتخذها، وما يحيط به من ظروف، وما تحركه من قوى وعوامل، تعتبر في نظرنا فرصة كاشفة لما يعتمل في بنية المجتمع المتخلف من عنف، وما يصطرع فيها من مآزق وتناقضات، وهي بالتالي تبين لنا ما يتعرض له الإنسان في ذلك العالم من قهر واعتباط، وما يحل بقيمته الإنسانية من هدر. وإذا اتّخذ العنف وما يدفعه من قهر وهدر لكيان الإنسان في الحالة الراهنة، طابعاً صريحاً صارخاً ومأساوياً، فإنه هو نفسه، في رأينا، فاعل في بنى المجتمعات المتخلفة على تعدّدها، ومحرك لها، ومحدد لأنماط العلاقات والاستجابات فيها، إنما بأشكال مقنّعة وغير مباشرة، وراء حالة من السكون الظاهري. ذلك هو، على الأقل، افتراضنا الأساسي الذي دفعنا إلى الحديث عن سيكولوجية الإنسان المقهور باعتباره النتاج الرئيسي للتخلف الاجتماعي.

تقوم هذه المحاولة منهجياً على الملاحظة والتحليل النفسي والاجتماعي للظواهر

المعاشة. وهي تدخل في إطار علم النفس الاجتماعي العيادي، الذي يدرس الظواهر النفس اجتماعية بالطريقة العيادية. وقد يطرح، كونها لا تستند إلى أبحاث ميدانية أو تجريبية محدّدة بدقة، بعض ظلال من الشك حول درجة اليقين التي تتمتع به نتائجها. ذلك صحيح ولا شك. على أن الغاية من هذه المحاولة ليست الوصول إلى نتائج نهائية، فهذه تحتاج إلى أبحاث طويلة النفس، تكفي لملء حياة فريق كبير من العلماء. إن ما نهدف إليه، هو كتابة نوع من المدخل إلى علم نفس التخلف، وإسهامه الغني جداً بالنتائج التي تكمل الدراسات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الظاهرة. قيمة هذه المحاولة الأساسية، في نظرنا، هي طرح منهجية نفسية لدراسة الإنسان المتخلف، بمختلف خصائصه الوجودية. هذه المنهجية تبيّن، بلا شك، أن هذا الوجود متماسك في ظواهره على تنوعها وتشتتها، وهو ينتظم في بنية دينامية، هي وضعية الإنسان المقهور.

هذه المحاولة بما يعتورها من ثغرات، تطمح إلى فتح الطريق أمام أبحاث نفسية ميدانية، تحاول فهم الإنسان المتخلف بنوعيته وخصوصية وضعه، وبشكل حي وواقعي، لتكون مرتكزات علم نفس التخلف. بذلك وحده يمكننا أن نضع أخيراً حداً لإلباس هذا الإنسان القوالب النظرية، والتفسيرات الموضوعية لإنسان العالم الصناعي، والتي أدت إلى تعميمات متسرعة كانت نتيجتها أنها حادت عن غرضها المعرفي، نظراً لما تحمله من خطر إخفاء وطمس الواقع الحقيقي. تكون هذه المحاولة قد حققت غايتها، إذا تمكنت معطياتها من اتخاذ طابع الافتراضات العملية، التي تطلق أبحاثاً ميدانية تتمتع بالدقة والعمق الكافيين، لفهم واقع إنساننا العربي. هذا الفهم العلمي، وحده، يمكّننا من وضع خطط تنمية وتطوير فعالة، ويجعل مسيرتنا واضحة المعالم وطريقنا إلى أهدافنا في الارتقاء مضمونة.

القسم الأول

الملامح النفسية للوجود المتخلف

تمهيد

المهمة المطروحة أمامنا في هذا القسم، هي رسم صورة نفسانية حيّة، متكاملة وشاملة، ما أمكن، للوجود المتخلف. إذ إن البنية الاجتماعية المتخلفة التي تتخذ على المستوى المعاش نمطاً من الوجود، من النظرة إليه وإلى الذات، هي التي تحكم في النهاية السلوك الفردي. هذا النمط يشكل البعد الذاتي من مسألة التخلف، الذي يكمل البعد الموضوعي ويتفاعل معه جدلياً، في حالة من تبادل التأثير والتحديد. ولا يستقيم بحث في التخلف إلا إذا استوعب كلا البعدين معاً، وإلا فإنه يقع في التجزيئية الاختزالية التي تضلل الباحث والقارئ معاً، وتجعل الواقع يفلت من محاولة التنظيم والتنظير الفعالة، التي تسمح وحدها بوضع خطط تنموية مثمرة.

ليست هذه الصورة التي سنرسمها، سوى محاولة مبدئية نجرّب أن نجعلها تعكس غنى الواقع ما أمكن. ولكن، مما لا شك فيه، أنها ستترك مناطق ظلال تجعل هذا الواقع يفلت منا جزئياً. ذلك أمر حتمي في البحث العلمي الذي لا بد أن يسير في اتجاه العمق والشمول بشكل تدريجي. كل طرح أو منظور يؤدي مهمته، بالقدر الذي يلقي أضواء جديدة على الظاهرة موضوع البحث، ويسمح بإثارة مسائل تتجاوز تلك الأضواء وتقفز بمعرفة الواقع قفزة جديدة إلى الأمام، من خلال الأبحاث التالية التي لا بد أن تمهد لها السبيل. ذلك هو المنطق المنهجي المضمون معرفياً. فكلُّ معرفة لا تحمل في طياتها بذور تجاوزها، ولا تفسح المجال أمام هذا التجاوز، مضللة منهجياً ويجب الحذر منها.

القيمة الأساسية في نظرنا لهذه المحاولة هي في شق طريق البحث النفساني في مسألة التخلف. هي إدخال تنظيم مبدئي فيما كان يبدو عشوائياً واعتباطياً في تصرفات الإنسان

المتخلف وممارساته. قيمتها في المنهجية التي تحاول جمع شتات هذا الوجود المتخلف في كل مترابط، له بنيته وديناميته وصيرورته.

الصورة التي سنرسمها، لا بد لها، إذا أرادت أن تعكس الواقع وتعبِّر عنه، من أن تتصف بالحركية، وأن تبتعد عن السكونية والجمود بقدر دينامية الوجود المتخلف ذاته. بذلك تتجنب المنزلق السكوني الذي وقع فيه نفر من الباحثين في علم الاجتماع، عندما قالوا بتوحيد التخلف والتقليد. ليس هناك من مجتمع ساكن حتى ولو أغرق في التقليد. قد تكون حركيته ضئيلة في وتيرتها، وقد تكون خفيفة في مظاهرها، لكنها موجودة حتماً. هناك دائماً انتفاضات ومحاولات تغييرية تبرز من آن إلى آخر في أقل البنى دينامية، ولكنها تطمس بسرعة نظراً لشدة قوى القمع. حتى قوى القمع هذه، قوى فرض السكون الظاهري على المجتمع التقليدي، لا تخلو من دينامية، إنها دينامية فيما تمارسه من قمع. إذا كانت البنية الاجتماعية المتخلفة دينامية رغم جمودها الظاهري، فإن الجانب الذاتي منها (البنية النفسية للتخلف) دينامية بدورها، سواء في خصائصها وملامحها الأساسية أم في أوالياتها الدفاعية.

المقصود بهذا البحث في مختلف أبوابه وفصوله هو الجماهير العفوية، غير المنظمة أو المؤطرة سياسياً، التي لم تتح لها ممارستها الوصول إلى التعامل مع الواقع انطلاقاً من الوعي بجدليته وموضوعيته. تبدو خصائص التخلف النفسية وأوالياته الدفاعية بأبرز صورها في نمط حياة هذه الجماهير، وأسلوب توجهها ونظرتها إلى الكون، وخصوصاً في النسيج العلائقي الذي تنغرس فيه. ولكن هذا لا يعني أن الفئات المنظمة والمؤطرة، التي لديها تاريخ من الممارسة السياسية، قد تخلصت فعلاً من قيود التخلف ذهنياً وانفعالياً وعلائقياً. العكس هو الصحيح في معظم الأحيان، إذ يلاحظ تداخل بين أعلى درجات التنظير الفكري، وأشد أشكال التخلف في الممارسة. بل يمكننا القول إن هذا التداخل يميز إجمالاً الممارسة السياسية والعلمية والاجتماعية في العالم الثالث. وفي أحيان أخرى نلاحظ نوعاً من الهوة، بين الفكر، وبين المعاش اليومي خارج إطار الممارسة العامة. فبينما يتصف السلوك في الحالة الأولى بدرجة عالية من التقدم والتطور، نلاحظ أن المعاش اليومي على مستوى الحياة الخاصة، ما زال محكوماً بمعايير وقيم ومرتبية علائقية، وبنظرة إلى الذات والآخرين على درجة كبيرة من التخلف. ذلك كله سنقف عنده بشيء من التفصيل في مواضع متعددة.

حتى نعطي أقصى درجة من الوضوح والبروز لخصائص الوجود المتخلف وأوالياته الدفاعية، لا بد من تركيز حديثنا حول الفئة السكانية الأكثر غبناً في سلّم السيطرة والخضوع. لا بد من الانطلاق من دراسة الإنسان المقهور. على أن الفئة التي تتمتع بقدر من الحظ وتقترب من مواقع السيطرة على هذا السلّم، لا تخلو بدورها من التخلف على جميع الصعد. الواقع إنها تتصف بالخصائص نفسها وإن اتّخذ الأمر طابعاً مخففاً أو خفياً في غالب

الأحيان. إنها متسترة بقناع من التقدم، يكفي انتزاعه حتى نتحقق من أن سلوكها تحكمه القوى والمعايير نفسها والنظرة إلى الحياة التي تميز الإنسان المقهور. إنها على الأقل تعيش بشكل متخلف في النظام المرتبي الذي يربطها بالمجتمعات الصناعية المتقدمة. فبينما يتماهى الفلاح بسيِّده ويشعر بالدونية تجاهه، نرى السيد يتماهى بدوره بالمستعمر أو الرأسمالي الأوروبي ويشعر بالدونية نفسها تجاهه. وإذا كان السيد المحلي الذي ينمي النظرة المتخلفة إلى الوجود عند الإنسان المقهور، كي يستمر في الاحتفاظ بامتيازاته، يتمتع ببعض مظاهر التقدم، فإن هذه تبقى معظم الأحيان سطحية، إنها نتاج ما يطلق عليه الباحثون في علم اجتماع التخلف اسم (أثر الاستعراض)[1]. ويقصد بهذا المصطلح محاكاة المظاهر الخارجية للتقدم في جانبها الاستهلاكي على وجه الخصوص، دون أن يصل الأمر حد البعد الإنتاجي الابتكاري. شأن الكثير من متعلمي البلاد النامية، هو أيضاً شأن القلة ذات الحظوة من هذه الناحية. فوراء العلم الظاهري تظل النظرة الأساسية إلى الوجود ذات طابع متخلف. ليس تجاوز التخلف بالأمر السهل، نظراً لرسوخ خصائصه وأولياته في أعماق النفس على المستوى الفردي، وفي مختلف مظاهر البنية الاجتماعية على مستوى المجتمع. إن التغييرات الاستعراضية لا تكفي. لا بد من جهد طويل الأمد على المستوى الاجتماعي، ومن عملية وعي دائب على المستوى الفردي، للقضاء على مكامن التخلف النفسي التي تفعل فعلها بشكل خفي.

يقسم حديثنا عن الوجود المتخلف إلى فصول أربعة يتكوّن منها هذا القسم الأول. بعد فصل تمهيدي في تحديد التخلف وتعريفه، نتناول في فصل ثانٍ، الخصائص النفسية للتخلف، ثم نتبعه بالحديث عن الخصائص العقلية للتخلف في فصل ثالث. أما الفصل الرابع فنعرض فيه بسرعة لبعض ديناميات الحياة اللاواعية للإنسان المقهور.

---

(1) أثر الاستعراض (الإدلال) Effect de démonstration.

الفصل الأول

تحديد وتعريف

العالم الثالث، التخلف، التنمية، كلمات ثلاث تكاد تتلازم، طارحة أكبر قضية أو تحد تواجهه البشرية في القرن العشرين. ونعني به تحدي النهوض بثلاثة أرباع البشرية كي تلحق بركب بلدان العالم الأول (الصناعي الرأسمالي)، وبلدان العالم الثاني «الاشتراكي» التي يطلق عليها اسم البلدان المتقدمة. هذا التحدي يطرح على مجمل بلدان العالم الثالث والبلدان المتقدمة على حد سواء.

ولقد برز مصطلح التخلف بعد نهاية الحرب الكونية الثانية مع حصول عدد كبير من البلدان المستعمرة على الاستقلال. وذاع استعماله وكثرت الكتابات حوله ابتداء من الخمسينات. وتجمعت خلال خمس عشرة سنة آلاف المقالات والأبحاث حول موضوع التخلف، ذاهبة في كل اتجاه ومنطلقة من محطات مختلفة ومنظورات متنوعة، لدرجة صار يصعب معها على الباحث تنسيق هذه المعطيات في كل توليفي، يوضح نظرية التخلف وتعريفه له. هناك الآن إذاً خلاف بيِّن حول محكات التخلف وحول منظوراته وحول تعريفه. يرجع هذا الخلاف إلى تعدد من تعاطوا بحث هذه المسألة. فبعد أن كانت حكراً على نفر من علماء الاقتصاد، إذا بسيل من الباحثين من مختلف الاختصاصات يخوضون فيها: علماء اجتماع، سياسية، قانون، تاريخ، جغرافية، علماء لسان[1]، علماء أنام[2]. وقد يكون من الغريب أن لا نجد ذكراً بين هؤلاء لعلماء النفس الذين يأتون عادة متأخرين رغم أهمية إسهامهم..

أصبح مصطلح التخلف، ونظرية التنمية التي يتضمنها بالضرورة، خاصاً بوضعية

(1) علماء لسان أو الألسنية، أو اللّسْن Linguistique.

(2) علم الأنام أو الأنامية Ethnologie.

بلدان العالم الثالث، إذ لم يعد من الممكن اعتبار التخلف مشكلة اقتصادية محضة مرتبطة بنظرية الاقتصاد التقليدي، خارج إطار الزمان والمكان. فلقد كانت بلدان العالم الثالث تدمج قبل الخمسينات في النظرية والممارسة الاقتصادية الشائعتين في البلدان القديمة، حيث كان يعتقد أنه يكفي لتحريكها، اللجوء إلى الديناميات نفسها التي حركت العالم الصناعي، أي حرية التفاعل الاقتصادي والمبادرة الفردية، وتأسيس الأعمال والمشاريع الصناعية والإنتاجية. لقد أخفق هذا المنطلق بشكل واضح في بلدان العالم الثالث بعد استقلالها، حين ظن أنه يكفي الحصول على رؤوس الأموال الكافية والأطر الفنية الملائمة والإدارة التقنية، كي تنطلق على درب التنمية. لقد فشلت تماماً نظرية إدارة الاقتصاد انطلاقاً من الأساليب التي نجحت في البلدان الصناعية. وظلت هذه المحاولات في أحسن الحالات جزراً متقدمة في محيط من الجمود والبؤس، عاجزة تماماً عن تحريك المجتمع بأكمله.

هذا الفشل هو الذي أطلق دراسات التخلف والتنمية، بعد أن اتضحت نوعية حال بلدان العالم الثالث وخصوصيتها. فالبلدان النامية حالياً مختلفة نوعياً عن بقية العالم، لا كمياً فحسب. إنها حالة خاصة في علم الاقتصاد، فرضت ربط كل من الأوضاع السياسية، من ناحية، وعلم الاجتماع من ناحية ثانية. بعد اقتصاد التخلف، نشأ علم اجتماع التخلف، حين ثبت فشل تطبيق نظريات علم الاجتماع التقليدي، الموضوعة في بلدان العالم القديم، وانطلاقاً من بناها الخاصة على بلدان العالم الثالث. ولا بد في رأينا من وضع سيكولوجية خاصة للتخلف، تكمل اقتصاده واجتماعه، وتلقي الأضواء على مناطق الظلال التي تركها هذان العلمان، وهو ما نحاول أن نسهم بنصيب متواضع فيه في هذا البحث. وقد اتضح من الأبحاث على مسألة التخلف، ضرورة التنسيق بين معطيات مختلف العلوم في كل جدلي شمولي، متجاوزين التفتت والبعثرة في دراسة الظواهر التي عانت منها دراسة الإنسان قروناً طويلة. وقد يكون ذلك من فضائل العالم الثالث على المنهجية العلمية.

أولاً: نظريات التخلف

انطلقت الأبحاث حول التخلف من منظورات متنوعة، كما ذكرنا، ومرت خلال تلمس الطريق إلى لبّ المشكلة بفترة غير قصيرة من التشتت والتضارب حول تحديد التخلف ومحطاته وتعريفه. ولكن تقدم الأبحاث بدأ يبرز معالم اللقاء بين مختلف النظريات، فالمنطلق الاقتصادي بدأ يصب في الدراسات الاجتماعية ويبين حتمية أخذ الوضعية الاجتماعية والبنية الاجتماعية بعين الاعتبار. وقد بدأ المنطلق الاجتماعي يتجاوز دراسة العوامل الداخلية والبنى الداخلية، كي يصب في منظور علائقي بين البلدان المتخلفة والبلدان المتقدمة، واضعاً الاصبع على البعد السياسي الدولي والداخلي للمسألة على أنها قضية استغلال فئة قليلة لفئة كبيرة من

السكان في الحالتين، ومبيناً بجلاء أن التخلف هو في النهاية ثمرة الاستغلال والاستعباد[1].

وهذا ما نلتقي تماماً معه على أن سيكولوجية التخلف التي سنخوض في خصائصها، هي في جوهرها سيكولوجية الإنسان المستغَل المقهور.

لم تصل الأبحاث هذا المستوى من العمق والدينامية إلا بعد أن اصطدمت بالطبع بقصور وعجز المنطلقات والمحكات السطحية التي شاعت في البداية. ولذلك، فلا بد، ضماناً لحسن التسلسل المنهجي، من الاستعراض السريع لمختلف المنطلقات وتطورها قبل أن نحدد المنطلق النفساني لمسألة التخلف.

1 ـ الطريقة السطحية في دراسة التخلف

الطريقة الأكثر قدماً وشيوعاً، لدراسة التخلف، في رأي واضعي دائرة المعارف العالمية هي التي تعرّف الظاهرة بأغراضها. والنموذج عليها: الأبحاث والكتابات التي نشرتها الأمم المتحدة. فمن مميزات التخلف مثلاً: الفقر، حالة التغذية، الحالة الصحية، التعليم، وأهمها على الإطلاق متوسط الدخل الفردي. وهنا تقسم البلاد إلى عدة فئات، من الأكثر تخلفاً إلى الأكثر تقدماً. فالبلاد من الفئة الأولى، هي التي يقل دخل الفرد فيها عن /100/ دولار سنوياً. أما البلاد النامية فيتراوح الدخل فيها ما بين /100/ إلى /300/ دولار، وهي البلدان التي تضم النسبة الكبرى من سكان الكرة الأرضية. وهناك بلاد على طريق النمو يتراوح الدخل فيها ما بين /300/ و/1000/ دولار، وأخيراً، البلدان الصناعية المتقدمة ويتجاوز الدخل فيها /1000/ دولار ويصل أحياناً، كما في الولايات المتحدة، إلى أكثر من ألفين من الدولارات.

إلا أن مؤشر الدخل القومي مقسماً على عدد السكان مضلل جداً. فهو من ناحية لا يبين التشتت الكبير في مستوى مختلف الفئات التي يتكون منها المجتمع. فالدخل لا يتوزع مطلقاً بالتساوي. هناك فئة قليلة تحظى بالنسبة الكبرى من الدخل، وتعيش فوق مستوى الفئة المماثلة لها في البلاد المتقدمة، وفي حالة من البذخ المادي المفرط. بينما الغالبية الكبرى من السكان تعيش دون مستوى الكفاف، دون الحد الأدنى الحيوي. ومن ناحية ثانية هناك ظاهرة الغنى المفاجئ في البلدان البترولية، دون أن تعكس هذه الثروة تطوراً في البنى الاقتصادية والاجتماعية يرتقي بها إلى مستوى التقدم. هذه الثروة وليدة قطاع محدود ومعزول عن بقية قطاعات الإنتاج التي تظل متخلفة جداً وبدائية. ثم إن استخدام الثروات النفطية ما زال، في كثير من حالاته وفي نسبة مهمة منه، من النوع المتخلف (الاستهلاك الدخلي للسلع المستوردة أو التوظيف في الخارج).

---

(1) Encyclopaedia Universalis Vol. V, Développement.

أما «لاكوست»[1] فيلخص المحكات السطحية للتخلف في ثلاثة: الدخل القومي للفرد بالمتوسط، الوحدات الحرارية المستهلكة في التغذية، مستوى التعليم أو نسبة انتشار الأمية. هذه المحكات لا تتوافق دائماً فيما بينها. فالدخل القومي قد يكون كبيراً ولكن التغذية سيئة أو بالعكس. ومن رأيه أن الجوع هو أخطر أعراض التخلف وأكثرها عمومية، فهو يميز حالياً مجمل البلاد النامية (ص 26)، فثلاثة أرباع البشرية تعاني من سوء التغذية. وتزداد المشكلة خطورة بسبب التفاوت الهائل في المستوى المعيشي والغذائي للسكان. فهناك قلة تستهلك أكثر بكثير مما يجب من الوحدات الحرارية (السُعْرَة) (الكمية اللازمة عادة ما بين / 3000 و3500/ وحدة حرارية يومياً). ولكن الغالبية العظمى تعاني من النقص الذريع في الغذاء. يضاف إلى ذلك ويضاعف من خطورته انحسار زراعة المواد المعيشية، وتحول قسم مهم من الزراعة إلى التصدير الخارجي، مما يحرم غالبية السكان من المواد الغذائية الضرورية. وهنا يتعرض إنسان العالم الثالث، في رأي «لاكوست»، إلى غبن آخر خارجي، يضاف إلى سوء توزيع الثروة والغذاء داخلياً، وهو انعدام التكافؤ في عمليات التبادل الدولي بين المنتجات الزراعية والمنتجات المصنّعة لمصلحة البلدان المتقدمة.

لا تشرح الطريقة السطحية الظاهرة كنتاج للخصائص البنيوية للعالم الثالث، ولا الأواليات[2] التي أنتجت هذه البنى، وهي بالتالي لا تساعد على حسن التشخيص ووضع السياسات التنموية الملائمة. إنها تنطلق من مقارنة البلدان المتخلفة بما كانت عليه البلدان الصناعية قبل قرنين أو أكثر أو أقل من الزمن، متجاهلة الفروق النوعية بينها. فالتخلف ظاهرة حديثة في رأي «لاكوست». والبلدان النامية تشهد تفجراً سكانياً هائلاً لم يكن موجوداً في البلدان الصناعية في أوائل الثورة الصناعية. هذا التفجر السكاني مسؤول عن تفاقم حالة بلدان العالم الثالث، ووقوعها في ورطة التخلف، أي انعدام التوازن بين عدد السكان وكمية الإنتاج.

تعرّف الطريقة السطحية التخلف إذاً كظاهرة دونية[3] أساساً. فالبلد المتخلف هو أقل مستوى من بقية البلدان من حيث تأمين الحاجات الحيوية الضرورية للإنسان (غذاء وصحة وسكن وتعليم إلخ. . .) ومستوى إنجازاته الاقتصادية والتقنية منخفض. ولكن هذا التعريف لا يستقيم نظراً لعدم توحيد المعايير من ناحية، ولصعوبة المقارنة بين البلدان المتقدمة والنامية من ناحية ثانية، ولوجود بلدان غنية حالياً، ولكنها ما زالت متخلفة اجتماعياً من ناحية ثالثة.

---

(1) Yves Locost, Géographie du sous - développement, Paris, 2ème éd. P,U,F,.. 1968.

(2) أوالية (أواليات) Mecanismes.

(3) دونية Infériorité

لا بد إذاً من دراسة نوعية البنى الاقتصادية والاجتماعية لبلد ما كي نحدد التخلف.

2 ـ الطريقة الاقتصادية في دراسة التخلف

ركّزت هذه الطريقة في مرحلة أولى على أدوات الإنتاج ومستواه، متخذة منطلقاً تقنياً صناعياً. ثم تطورت في مرحلة تالية للاهتمام بدراسة البنى الاقتصادية للبلد المتخلف، وهو تطور يذهب في اتجاه مزيد من العمق والشمول في البحث عن ديناميات التخلف، بينما اعتبرت المرحلة الأولى التخلف مجرد مسألة تأخر تقني: بدائية في وسائل الإنتاج، ضآلة في مستوى التصنيع.

1.2 ـ التخلف الصناعي والتقني

يكاد التخلف يكون مرادفاً لقلة التصنيع وبدائيته. هناك سوء استغلال للثروات، يصل أحياناً درجة انعدام الاستغلال، وتبقى الوسائل الصناعية المستوردة (آلات وغيرها) مكدسة يصيبها التلف بعد حين، لعدم وجود من يستخدمها ولرداءة صيانتها. وتكون الزراعة بالوسائل البدائية والأعمال الحرفية ضئيلة المردود هي النشاطات الأكثر انتشاراً.

يميّز فالكووسكي[1] الذي يربط الاقتصاد المتخلف بمستوى الإنتاج وتطور أدواته، بين الاقتصاد المتأخر، والاقتصاد قاصر النمو، والاقتصاد في طريق النمو.

أما البلد المتأخر فيتصف بالطابع السكوني للاقتصاد. وهذا يعني مستوى منخفضاً من القوى الإنتاجية، وبالتالي مستوى منخفضاً من وسائل العمل ومهارة اليد العاملة. فوسائل الإنتاج بدائية بشكل عام، يطغى عليها الطابع اليدوي الحرفي. ووسائل الإنتاج لم تتغير منذ قرون متطاولة خلافاً لشأنها في البلدان المتقدمة. وتنجم عن هذه الوسائل إنتاجية ضعيفة ودخل منخفض هو السبب الرئيسي في ظاهرة الفقر وبؤس السكان معيشياً. العلة في رأيه ترجع إلى الافتقار إلى وسائل ترفع المستوى التقني للإنتاج، والافتقار إلى اليد العاملة الفنية التي لا يمكن بدونها الإفادة من وسائل الإنتاج الحديثة. وينتج عن هذين الأمرين انخفاض في الدافع إلى التوظيف المالي بسبب قلة الربح.

ولكن لا يفوت هذا الباحث أن يوضح أن انخفاض مستوى القوى الإنتاجية، يرتبط أساساً بالبنية الاجتماعية، وبالنظام الاجتماعي السياسي السائد، وهو عادة من النوع الإقطاعي الذي تندر فيه التحولات الرأسمالية. إن ربط المستوى التقني بالبنية الاجتماعية

---

(1) فالكووسكي، مشكلات تنمية العالم الثالث، بيروت، دار الحقيقة، 1971.

بالإضافة إلى ضرورته، يضع المشكلة في إطارها الصحيح. فالعلاقات الإنتاجية الإقطاعية لا تسمح، كما سنرى، بالتطوير الاجتماعي الكلي، وهي تعتبر في رأي معظم الباحثين المحدثين المعرقل الأساسي لعملية النمو.

ويورد المؤلف، من هذا المنظور، تعريفاً قدمه أوسكار لانج لخصائص الاقتصاد المتخلف على النحو التالي: «إنه اقتصاد لا يكفي مجموع رؤوس الأموال المتوفرة فيه، لاستخدام اليد العاملة المتاحة، على أساس التقنية الحديثة للإنتاج ولا لاستثمار الثروات الطبيعية» (المرجع نفسه، ص 22). واضح أن هذا التعريف يركز على مشكلة رأس المال من ناحية وعلى أدوات الإنتاج من ناحية ثانية. ولكن يؤخذ عليه أن رأس المال، المتوافر أحياناً، كما هو حال بعض الدول النامية الغنية، لا يوظف في غايات إنتاجية، إنما يصرف في أغراض استهلاكية استعراضية. أما مسألة قلة الأطر الفنية، وبدائية وسائل الإنتاج، فهي نتائج لعوامل أعمق منها، تضرب جذورها في بنية المجتمع المتخلف.

ولقد أصبح واضحاً لمعظم الاختصاصيين في التنمية صعوبة السير في الطريق التقليدي، أي الاكتفاء بتأمين رأس المال والتقنية. فالصناعة كما يقول «رستو» (ذكره «لاكوست» في كتابه السابق ص 48) لا تكفي وحدها لتصنيع بلد ما. إن التصنيع ظاهرة أكثر اتساعاً وتعقيداً من الصناعة. التصنيع هو مجمل الخصائص الاقتصادية والاجتماعية التي هي أسباب ونتائج النمو الصناعي الذي شهدته البلدان المصنعة منذ القرن التاسع عشر.

إن البلدان النامية لا تفتقر إلى الصناعة المتطورة ولا إلى الزراعة المتطورة كلياً. إنها ليست مطلقاً ما كانت عليه البلدان الصناعية قبل الثورة الصناعية. ولكن التصنيع والتطور الزراعي فيها يتصفان بخصائص مميزة ليس لها سابقة في تاريخ البشرية.

هناك في الزراعة، قطاع تشغله النسبة الكبرى من اليد العاملة بين المواطنين، ولكنه ذو إنتاج هزيل، إنه القطاع الوطني. وثمة إلى جانبه قطاع آخر متقدم جداً، وذو إنتاجية عالية، ولكنه محدود في حجمه وهو حكر على المستعمرين وعلى حلفائهم في الداخل، تذهب نتائجه إلى الخارج أو تتركز في أيدي القلة ذات الامتياز.

أما على المستوى الصناعي، فيقول «لاكوست» (ص 48 وما بعدها) بوجود تناقض صارخ بين قطاع الحِرف ذات الطرق البدائية والقطاع الصناعي المتقدم والحديث، والانفصال الاقتصادي بينهما شبه تام. فالحِرف من نصيب سكان البلاد، أما القطاع الصناعي فهو يخص القلة أو المستعمر، وهو متوجه إلى الخارج أساساً، من حيث الاستيراد والتصدير ومصير الأرباح. هذا القطاع المتقدم يظل معزولاً اجتماعياً، لا تأثير له في تغيير بنية المجتمع وتطويرها، كما أن مردوده المادي لا ينعكس على المستوى الشعبي رخاءً وازدهاراً. ثم إن

الصناعة تظل موجهة نحو إنتاج السلع الاستهلاكية، لا لتأسيس صناعة وسائل الإنتاج. تظل الصناعة معزولة، كما ينعدم التنسيق بين مختلف القطاعات الصناعية، وفي الحالتين لا تؤدي إلى تحريك التصنيع بشكل عام.

أما في البلاد المتقدمة، فالتصنيع ظاهرة شاملة، متنوعة، متماسكة وتراكمية. فهي تشمل مختلف قطاعات السكان، وتنعكس عليها وعلى نمط حياتها. وهي متماسكة فيما بينها، فهناك تكامل بين الآلات والمواصلات والنظم الحسابية، وهي تراكمية بمعنى أن نظم الآلات تنتج آلات أخرى، تطورها وتزيد من فعاليتها. ذلك هو الفرق بين الصناعة والتصنيع كما أوضحه روستو، وهو الفرق عينه بين البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة.

قصور التصنيع واستغلال الموارد والثروات الأولية، لا يترجم إذاً قصوراً في الإمكانات فقط، بقدر ما يترجم تنوع وقوة الكوابح الاجتماعية التي تمنع الرجال من النشاط والفعل (لاكوست، ص 40). وهنا يلتقي علماء التنمية الغربيون مع الشرقيين في تقرير واقع البلدان النامية. يقول الأخيرون إن التخلف الصناعي ينتج من ضمن ما ينتج عن بنية اجتماعية متيبسة تشلّ النمو عن طريق الاستهلاك الترفي، أو الاكتناز الذي لا يوظف في مشاريع منتجة (فالكوسكي، ص 37). عملية التنمية في رأيه تشمل، في آن معاً، بحث القوى الإنتاجية والعلاقات الاجتماعية. إن التنمية الزراعية والصناعية على حد سواء، «إنما تعني تغيرات متلازمة في التقنيات وفي مجال العلاقات الاجتماعية. ويبدو أن الجمع الواعي بين العاملين الاجتماعي والتقني، هو الشرط الذي لا غنى عنه لنجاح أي مشروع» (فالكوسكي، ص 90).

2.2 ـ التخلف الاقتصادي البنيوي[1]

إذا كان البلد المتخلف هو الذي يتصف ببنية جامدة ساكنة، من وجهة نظر تقنية صناعية، فإنه من وجهة النظر الاقتصادية البنيوية، أبعد ما يكون عن السكون. إنه دينامي ولكن هذه الدينامية تتصف بخصائص مميزة هي في مختلف نقاطها، على النقيض من دينامية البلدان المتقدمة، مما يحد من إمكانيات التطوير في الحالة الأولى، بينما يساعد عليه في الحالة الثانية.

تتصف بنية الاقتصاد المتخلف، في رأي دائرة المعارف العالمية، بمحكات ثلاثة: التفاوت الهائل في التوزيع القطاعي للإنتاج، تفكك النظام الاقتصادي، والتبعية للخارج. ويضيف إليها «لاكوست» محكات أخرى أهمها تضخم قطاع الخدمات على حساب قطاع

---

(1) انبناء أو بنية Structure.

الإنتاج، وما يتضمنه ذلك من بروز واضح للنشاطات الطفيلية، والاستغلال التجاري الفادح على مستوى الإنتاج والاستهلاك معاً. ونستطيع أن ننسق هذه المحكات المختلفة في صورة متماسكة تشكل بنية الاقتصاد المتخلف.

1.2.2. تفاوت التوزيع القطاعي للإنتاج

يلاحظ في البلاد النامية، وجود قطاعات إنتاجية متقدمة جداً، في الزراعة والصناعة على حد سواء. ولكنها محدودة لا تتجاوز كونها جزر تطور في محيط من التأخر، يسيطر عليها ويحظى بثرواتها قلة ضئيلة من الوجهاء المحليين، المتحالفين مع الرأسمالية الخارجية أو مع المستعمر. إلى جانب هذه القطاعات هناك غالبية السكان التي لا تحظى إلا بنسبة ضئيلة من الدخل تمارس أعمالاً حرفية بدائية، وأساليب زراعية متخلفة، ذات مردود ضئيل، مما يفرض عليها البؤس المادي والحياتي. ينشأ عن ذلك تفاوت هائل في مستوى معيشة السكان قد يصل واحداً إلى 10 أو أكثر، بينما نجده لا يتجاوز واحداً إلى 3 في البلدان النامية. هذا التفاوت الهائل يؤدي إلى تبخيس تدريجي للعمل في الريف، وفي الحرف، وإلى الهجرة إلى المدينة للتكدس حولها في أحياء الصفيح، التي تشكل أحزمة بؤس حول عواصم البلدان النامية. وبمقدار بوار الأرض وتدهور الحرف التقليدية، تزداد نسبة النشاطات الطفيلية التي يمارسها سكان أحياء البؤس. نشاطات تهدف إلى الارتزاق تبعاً للظروف، وكيفما تيسر، بشكل تختلط فيه الأعمال المشروعة بالنشاطات المخالفة للقانون. والنشاط في الحالتين ظرفي عابر تتخلله فترات من البطالة الظاهرة أو المقنّعة. وهكذا يتعرض مفهوم العمل، في البلاد النامية، لنوع من التشويه والتبخيس، فوجاهة النقود المكتسبة بدون عمل عظيمة جداً والمهن التي تسمح بالكسب السريع تتمتع بجاذبية كبيرة (لاكوست، ص 57). ويؤدي هذا الأمر إلى بروز ظاهرة الزلفة[1] وتفشي الهامشية المهنية، مما يفتح السبيل أمام ازدهار مختلف أشكال السلوك الجانح عند الكبار والأحداث على حد سواء.

2.2.2. تفكك الصلات في النظام الاقتصادي

تتكامل قطاعات النشاط الاقتصادي الثلاثة في البلدان النامية. قطاع الإنتاج الأولي(معادن، مواد أولية) مرتبط بشكل وثيق ومتناسق مع القطاع الثاني (صناعة الآلات والمواد الاستهلاكية)، وكلاهما متوازن ومتكامل مع القطاع الثالث (تجارة وخدمات) وهكذا فكل نمو في أحد القطاعات، ينعكس على بقية القطاعات، دافعاً إياها إلى النمو بدورها، نظراً لتكامل دورة الإنتاج والتوزيع داخلياً. أما في المجتمعات المتخلفة فنجد تفككاً في

---

(1) الزلفى، الازدلاف: الاستزلام.

الدورة الإنتاجية والاستهلاكية، مما يجعل الاقتصاد برمته أسير الاقتصاد الخارجي. وهكذا يزدهر إنتاج المواد الأولية للتصدير، كما تزدهر تجارة الاستيراد خصوصاً استيراد المواد الاستهلاكية. ويرتبط قطاع الخدمات (المصارف) أساساً بحركة التصدير والاستيراد هذه، دون توظيف كاف لرؤوس الأموال في مشاريع إنتاجية أو في تصنيع أساسي. وينحسر قطاع الصناعة كي يقتصر على صناعة المواد الاستهلاكية، التي لا تزيد الثروة القومية، خصوصاً وأنه يعتمد على آلات مستوردة ومواد نصف مصنّعة في الكثير من الأحيان.

هذا التفكك يؤي إلى طغيان القطاع التجاري على قطاع الإنتاج الصناعي. ففي البلاد النامية يمتص التجار النسبة الكبرى من فائض رأس المال من أثمان المواد الأولية المصدرة، في استيراد سلع استهلاكية تطغى عليها الكماليات. وذلك ما يسمح للتاجر بتحقيق ربح كبير. كما أن التجار يبتاعون المحاصيل الزراعية بأرخص الأسعار، ويسوقونها بأسعار عالية، كي يبيعوا للمزارعين المواد المستوردة (من آلات ومواد زراعية ومواد استهلاكية) بأغلى الأسعار. وهكذا تتجمع الثروة تدريجياً في أيدي هذه الفئة، بدل أن تنعكس رخاء عاماً على جميع فئات السكان في المجتمع.

ويميل التجار وأصحاب الثروة في البلاد النامية حين يفكرون بتوظيف أموالهم محلياً إلى قطاع البناء. هذا التوظيف الكبير في قطاع البناء على حساب التصنيع، يعطي انطباعاً بتقدم زائف، حين تنشأ أحياء سكنية فخمة ملفتة للنظر، لتناقضها مع البؤس وسوء التجهيزات السكنية «المساكن الشعبية» المحيطة بها. نشأة المدن الكبرى الجديدة في العالم الثالث مع ما يستتبعها من حركة نزوح كبيرة من الريف وتفريغ سكاني له، هي، في رأي «لاكوست»، من مظاهر الخلل في البنية الاجتماعية الاقتصادية للبلدان النامية. ويسبب هذا الأمر مشكلات مأسوية لتلك البلدان غير المؤهلة لتأمين الخدمات الكافية، لهذا التكدس السكاني الكبير في المدن الجديدة (من الأمثلة الصارخة على ذلك القاهرة وبيروت). هذا الأمر يشجع نشأة الأعمال الطفيلية التي أشرنا إليها في النقطة السابقة.

3.2.2. التبعية للخارج

يؤدي طغيان إنتاج المواد الأولية للتصدير واستيراد المواد الاستهلاكية، وما يجرّانه من تضخم لقطاع الخدمات والتجارة، إلى نشوء تبعية للاقتصاد الخارجي. ينتج عن هذه التبعية إفقار تدريجي للبلد من خلال استنزاف المواد الأولية، ورخص أسعارها من ناحية، والاحتفاظ بأثمانها كتوظيفات مالية في البلد الخارجي، أو استرداد هذه الأموال كثمن للمواد المصنّعة الاستهلاكية، التي يصدّرها البلد المتقدم بأسعار عالية. ثم هناك ظاهرة استنزاف رؤوس أموال البلدان النامية من خلال بيع الأسلحة لها، والتي أصبحت أكبر سوق لنهب

ثروات العالم الثالث، بعد أن تفجرت فيه الصراعات الداخلية أو الصراعات بين أقطاره.

وهكذا نجد أن العلاقات الاقتصادية الأساسية للبلدان النامية هي مع البلدان الصناعية الرأسمالية، بينما النسبة الكبرى لتجارة هذه الأخيرة هي في ما بينها أو داخلية.

تستنتج دائرة المعارف العالمية من هذا الأمر خلاصة صريحة حول التخلف الاقتصادي: «إن التخلف من الناحية الاقتصادية هو جزء من آلة النظام الرأسمالي العالمي. إنه يلعب دوراً محدداً ووظيفة معينة في هذا النظام. وكأن هناك توزيعاً دولياً للعمل لمصلحة الرأسالية العالمية. هذه المصلحة هي التي سببت بروز البلدان النامية، وحافظت عليها لتخدم أغراض التراكم الرأسمالي. نظرية التخلف والتنمية لا يمكن إلا أن تكون نظرية تراكم رأسمال على مقياس عالمي. التخلف هو إذاً ثمرة الاستغلال والاستعباد.. ولا بد للتنمية أن تتموضع في منظور تحرر اقتصادي وطني» (دائرة المعارف العالمية، المجلد الخامس، ص 505 ـ 506).

مرة أخرى تقودنا أبحاث التخلف في منظور البنيوية الاقتصادية إلى القضية الاجتماعية السياسية، إلى قضية العلاقة الاستغلالية داخل المجتمع المتخلف، والعلاقة الاستغلالية بين هذا المجتمع والمجتمعات الرأسمالية المتقدمة.

3 ـ الطريقة الاجتماعية في دراسة التخلف

بعد فشل محاولات تطبيق نظريات علم اجتماع البلدان المتقدمة على بلدان العالم الثالث، بدأت تظهر ملامح علم اجتماع خاص بالبلدان النامية. اتخذ الأمر أولاً طابع الافتراضات النظرية والأفكار القبلية التي لم تؤيدها الحقائق الميدانية. ثم من خلال الاحتكاك المباشر أخذت الخصائص الاجتماعية للبلدان النامية تتضح تدريجياً.

وهنا أيضاً انطلقت الأبحاث من المستوى السطحي على شكل رصد لمحكات التخلف الاجتماعية الاقتصادية، ثم سارت شيئاً فشيئاً على طريق النظرة الدينامية.

محكات التخلف الاجتماعية عديدة أهمها المحكات الاقتصادية والإنتاجية، أشرنا إليها في الفقرات السابقة (الاقتصاد هزيل المردود، تبديد الثروات وسوء استغلالها، سوء استغلال الطاقة العاملة المتوفرة، اختلال البنى الاقتصادية، تصنيع محدود وغير كامل، تضخم وطفيلية القطاع الثالث، وضعية التبعية الاقتصادية)، يضاف إليها محكات خاصة بالسكان، وأخرى متعلقة بالبنى الاجتماعية.

أما السكان فيتصفون بعدة خصائص أولية، أهمها على الإطلاق في نظر «لاكوست» الانفجار السكاني الذي يشهده العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية. بعض بلدان العالم المتخلف يتضاعف عدد سكانه خلال خمس عشرة سنة، وبالتالي فسيزيد أربع مرات خلال

السنوات العشر التالية. تنشأ هذه الزيادة الهائلة من عدة عوامل، أهمها انخفاض المستوى الثقافي، وانحسار نسبة الوفيات بين الأطفال نتيجة للقضاء على الأوبئة والأمراض الفتاكة جماهيرياً بفضل العقاقير الحديثة رخيصة الثمن، وصغر سن المرأة عند الزواج، ما يجعل فترة الإخصاب متسعة المدى. يقدر بعض الباحثين مسيرة الأمومة عند المرأة في العالم المتخلف بحوالي عشرة أولاد بينما هي حوالي النصف أو الثلث في العالم المتقدم.

وعلى عكس هذه الزيادة الهائلة فإن الموارد الاقتصادية لا تزيد القدر نفسه، ما يخلق اختلالاً متزايداً في التوازن بين عدد السكان والموارد المتوفرة، ويؤدي إلى مآزق اقتصادية واجتماعية متنوعة تسير نحو تفاقم الخطورة مهددة بالكوارث.

يزداد الاختلال نظراً لقلة الإنتاجية النابعة من الأمية المتفشية ولسوء التغذية، وقلة العناية الصحية والنظافة. هذه العوامل الأخيرة تساعد على تفشي الأمراض المزمنة التي تهدد الصحة وتستنزف قوى اليد العاملة، مما يجعل إنتاجية العامل متضائلة باضطراد. كما أن غزو الأمراض المزمنة لصحة العامل، تجعله يخرج بسرعة كبيرة نسبياً من دائرة الإنتاج، دافعة إياه إلى الهامش المهني، إلى الطفيلية والبطالة المقنَّعة.

يضاف إلى ذلك كله، ويضاعف من خطورة اختلال التوازن بين عدد السكان والموارد، انتشار قلة الاستخدام بشكل واسع، وبمظاهر متنوعة. «فالعالم الثالث هو عالم العاطلين المزمنين عن العمل، التخلف وانخفاض إمكانيات العمل يسيران معاً» (لاكوست، ص 94).

ولا تقتصر قلة الاستخدام أو انخفاضه على العمل اليدوي، بل تشيع في مختلف القطاعات الفكرية والإدارية والاقتصادية، «حتى إن مفهوم العمل يصبح صعب التحديد» (لاكوست، ص 95).

ثم هناك الكثير من أشكال البطالة المقنَّعة، أهمها كثرة عدد الموظفين أو العاملين في مهمات لا تحتاج لهذا العدد، وتضخم عدد الخدم والعناصر الرديفة. المهم الارتزاق وليس الإنتاج، مما يفتح السبيل عريضاً أمام الوساطات والاستزلام، عوض أن تكون الكفاءة هي المقياس.

ويكتسب الارتزاق (الدخول في عمل، أو وظيفة دون حاجة فعلية إلى الشخص) طابع الحظ، مما يبخس مفهوم العمل تماماً، نظراً لأن المثل الأعلى لطالب الوظيفة ليس المؤهلات والجهد الإنتاجي، بل هو تلك الفئة المحظوظة التي تسبح في الرخاء المادي، والعاطلة عن العمل بالوراثة، نظراً لتكدس الثروة في أُسرها.

هذه المحكات السطحية على صوابها، ليست سوى الأعراض الاجتماعية للتخلف. إنها نتاج بنية متخلفة من الضروري النظر فيها لاستشفاف ديناميتها.

على مستوى البنية الاجتماعية للتخلف، هناك من عدَّد بعض المحكات انطلاقاً من الربط بين التخلف والمجتمع التقليدي «أ. هاجن» (دائرة المعارف العالمية، المجلد الخامس، مادة علم اجتماع التنمية) يعدد خمسة محكات لذلك المجتمع: انتقال العلوم من جيل إلى آخر بشكل جامد إجمالاً، تحكم العادة والتقليد بالسلوك لا القانون، نظام اجتماعي تحكمه مرتبية جامدة، تحديد المكانة الاجتماعية للفرد ولادياً، أكثر مما تتحدد من خلال الكفاءة، إنتاجية منخفضة جداً. وأهم من ذلك هناك مقاومة للتغيير تنبع من تضافر نظرة رضوخية إلى العالم الطبيعي (الرضوخ لسيطرة البيئة والقوى الماورائية)، مع بنى اجتماعية ذات نمط تسلطي تنشأ شخصية ذات بنية تسلطية، مما يخلق ويعمم نظاماً من العلاقات يتصف بالسيطرة= الرضوخ، والامتثال يعرقل عملية التغيير من خلال سد السبيل أمام ظهور قوى الرفض.

رغم أن هذا الباحث يؤكد على خصائص هامة للبلدان النامية من حيث تحكم المرتبية الجامدة فيها، وانتشار بنى التسلطية ـ الرضوخية، فإن الكثيرين يأخذون عليه رد هذه البنى إلى التقليد والسلفية. إن في ذلك الرد نوعاً من التستر على حقيقة المشكلة التسلطية التي تتحكم ببلدان العالم الثالث، ولا تعود إلى التقليد بقدر ما تعود إلى تحالف قوى معاصرة داخلية وخارجية ضد القطاع الأكبر من السكان، خالقة بذلك ظاهرة بنية التسلط ـ الرضوخ معاصرة تماماً، أو هي قد استفحلت في هيمنتها وآثارها السلبية منذ ظهور الاستعمار بأشكاله المختلفة. إنها ظاهرة سياسية في نهاية المطاف، تتميز بالقهر المفروض على مجمل السكان في البلدان النامية. يتحدث «لاكوست» عن هذه الظاهرة تحت عنوان «البنى الاجتماعية القامعة والمولدة للشلل» (ص 73 وما بعدها). فمن الخصائص الأساسية قطعاً للبلاد النامية، التعارض الحاد والصارخ بين الغنى المفرط لقلة من السكان، وبؤس غالبيتهم الساحقة. هذا التفاوت العنيف مميِّز لكل البلاد النامية.

بين هذه القلة ذات الامتيازات المفرطة، والغالبية البائسة، تقوم علاقات إقطاعية أو شبه إقطاعية. العلاقات الاقتصادية بين المستخدم ورب العمل لا تقوم على العقد، بل تتصف بالتبعية. يرتبط الفلاح بمالك الأرض، والعامل بصاحب رأس المال، في علاقات شبه عبودية تفرض عليه الرضوخ، إذا أراد ضمان قوته والاطمئنان ليومه وغده. مالك الأرض هو السيد بالنسبة للفلاح، يجد هذا الأخير عنده الحماية (من خلال الرضوخ والاستزلام) من بعض غوائل الطبيعة والناس.. مصير الفلاح أو العامل مرهون برب عمل واحد، ليس له حرية الحركة في عمله أو في إقامة اتفاقياته. إنه رهن اعتباط قانون السيد. ولا بد له إذا أراد تجنب التشرد أو الاضطهاد من البقاء في حالة التبعية هذه، لا يملك من خيار إلا الانتقال من الولاء لسيد إلى سيد آخر. هناك أيضاً التبعية للمرابي الذي يقيد بالديون المزمنة.

هذه التبعية تنتقل من الريف إلى المدينة، ومن مجال العمل الزراعي واليدوي أو

الصناعي إلى مجمل العلاقات الإنسانية، العلاقات التسلطية نفسها في كل مكان. وترسخ السلطة الرسمية علاقات التبعية هذه من خلال أنظمة الحكم، ذات الطابع الاستبدادي إجمالاً (ديكتاتورية، تسلط فردي، ثيوقراطية، الخ. .) فليس هناك ديمقراطية (أي علاقات مساواة وتكافؤ) في البلدان النامية. كما ترسخها الإدارة الفاسدة التي تخدم أغراض وامتيازات القلة. ويتوج الكل جهاز شرطة وجيش قمعيين أساساً.

هذه القلة متوجهة نحو الخارج إجمالاً، ومتحالفة تقليدياً مع الاستعمار، القديم منه والحديث. ولقد أدى هذا التحالف إلى توليد أنظمة اجتماعية اقتصادية هجينة ذات سطوة كبيرة. فلقد تحالفت قوة رأس المال والتكنولوجيا مع قوة الإقطاعي المستمدة من استعباد الفلاح والعامل. وهكذا تحول الصناعي الأوروبي إلى رأسمالي قامع مستعبد، وتحول الإقطاعي إلى رأسمالي مهيمن بشكل مزدوج بشرياً ومالياً. واكتسب كلاهما قوة ندر أن تمتعا بها قبل قيام هذا الحلف. هذه القوة المهيمنة على الإنسان والإنتاج، هي لب البنية الاجتماعية المتخلفة. وهي المعطل الأول لنمو البلدان المتخلفة، لأنها أفقرت تدريجياً القدرة الإنتاجية والشرائية لمجموع السكان، وحدّت من قدرة السوق المحلي. كما أنها المسؤولة عن الحدّ من الخدمات والتقديمات الحيوية، (التعليم والصحة والتجهيزات الحضرية والريفية) مما يفاقم مشكلة التخلف.

تلتقي النظرة الاجتماعية للتخلف إذاً مع النظرة الاقتصادية، كما تلتقي كلتاهما مع النظرة التقنية، وحتى السطحية كما رأينا من العرض السابق، في أن لب مسألة التخلف هو بنية تتصف بالقمع والقهر، بالتسلط والرضوخ، أي بحرمان الإنسان من إنسانيته. وهو ما سنحاول طرحه من خلال المنظور النفساني الذي يكمل في رأينا الصورة، ويشكل في الأساس موضوع هذا البحث.

ثانياً: المنظور النفساني للتخلف

المنطلقات التقنية والاقتصادية والاجتماعية، السطحية منها والدينامية، أكدت على نوعية وتركيب البنى المتخلفة. ولكنها جميعاً، فيما عدا إشارات عابرة، أهملت البنى الفوقية (النفسية، العقلية، القيم الموجهة للوجود)، التي لا بد أن ترافق البنى الاجتماعية الاقتصادية، وتنتج عنها وتكملها. ولذلك فلا يستقيم الحديث عن التخلف، ولا يمكن لصورته أن تكتمل إلا إذا أعطينا لهذه البنى الفوقية مكانتها. فهي وإن كانت في الأصل نتاجاً للبنى الاجتماعية الاقتصادية، وما يحكمها من قيم ومعايير التنشئة والتشريط وأنماط التربية والعلاقات، وما يحكمها من قيم ومعايير وأساطير، قوة قائمة بذاتها متفاعلة جدلياً مع البنى التحتية. إنها تتحول إلى عامل يرسخ هذه البنى التحتية ويعزز وطأتها. فإذا كان تحالف القلة

المحظوظة مع القوى الأجنبية يشكل، كما رأينا في العنوان السابق، أكبر عقبة في طريق التطوير لأنه السبب الأهم في بروز ظاهرة التخلف وتضخمها، فإن البنية الفوقية النفسية التي تتلخص في خلق أنماط البشر وأنماط من الوجود متميزة بطابع التسلط والرضوخ، تشكل مصدراً هاماً لمقاومة التغيير. وليس من باب المبالغة في شيء، أن نقرر أن ذوي المصلحة في التغيير، في الخروج من هوة التخلف، يشكلون في مرحلة ما إحدى العقبات الأساسية أمام هذا التغيير، بعد ما تعرضوا له من استلاب لإنسانيتهم.

المثل الأفصح على ذلك هو المرأة، التي يقع عليها عادة الغرم الأكبر ويفرض على كيانها القسط الأوفر من الاستلاب، من خلال ما تتعرض له من تسلط وما يفرض عليها من رضوخ وتبعية وإنكار لوجودها وإنسانيتها. هذه المرأة المستلبة اقتصادياً وجنسياً في البلدان النامية، تعاني من استلاب أخطر بكثير وهو الاستلاب العقائدي. ويقصد بالاستلاب العقائدي تبني المرأة لقيم سلوكية، ونظرة إلى الوجود تتمشى مع القهر الذي فرض عليها، وتبرره جاعلة منه جزءاً من طبيعة المرأة. وبذلك فهي تقاوم تحررها، وترسخ البنى التسلطية المتخلفة التي فرضت عليها. وأكثر من هذا تعممها على الآخرين، من خلال نقلها إلى أولادها. تنقلها إلى البنات منهم حين تفرض عليهن عملية تشريط من أجل الرضوخ للرجل (الأب والأخ والزوج) وتفرضها على الصبيان من خلال غرس النظرة الرضوخية للسلطة، والتبعية لسيادة القلة ذات الحظوة.

وإذا كان التخلف في جوهره ولبه، هو استلاب اقتصادي اجتماعي من الناحية المادية، فإنه لا بد أن يولد استلاباً نفسياً على المستوى الذاتي. لا بد إذاً من الخوض في هذا الاستلاب الذاتي، حتى تكتمل أمامنا الصورة، ونتمكن من السيطرة على كل القوى الفاعلة في ظاهرة التخلف، مما يشكل شرطاً ضرورياً لأي عملية تغيير، لأي مشروع تنمية يؤمل أن يكون له من النجاح نصيب معقول ومتناسب مع مقدار الجهد الذي وظف فيه.

التخلف هو ظاهرة كلية ذات جوانب متعددة، تتفاعل فيما بينها بشكل جدلي، تتبادل التحديد والتعزيز، مما يعطي الظاهرة قوة وتماسكاً كبيرين، ويمدها بصلابة ذات خطر كبير في مقاومة عمليات التغيير.

وإذا كان التخلف التقني والصناعي والاقتصادي والاجتماعي واضحاً في خصائصه ومحطاته، فإن التخلف النفسي الوجودي ما زال بحاجة إلى جهد كبير لاستجلاء غوامضه.

التخلف نفسياً هو، فوق هذا أو ذاك من المحكات المادية، نمط من الوجود، أسلوب في الحياة ينبت في كل حركة أو تصرف، في كل ميل أو توجه، في كل معيار أو قيمة. إنه نمط من الوجود له خرافاته وأساطيره ومعاييره التي تحدد للإنسان موقعه، نظرته إلى نفسه،

نظرته إلى الهدف من حياته، أسلوب انتمائه ونشاطه ضمن مختلف الجماعات، أسلوب علاقاته على تنوعها. إنه موقف من العالم المادي وظواهره ومؤثراته، وموقف من البنى الاجتماعية وأنماط العلاقات السائدة فيها، على المستوى الذاتي الحميم، كما على المستوى الذهني، هناك مجموعة من العقد التي تميز الوجود المتخلف. نمط الوجود المتخلف غير محتمل فهو يولد آلاماً معنوية تهدم التوازن النفسي. ولذلك تبرز أواليات دفاعية ضد هذه الآلام وذاك الخطر المهدد للتوازن، أواليات تجعل تحمّل وضعية الاستلاب ممكناً. هذه الخصائص وتلك الأواليات تشكل محور بحثنا.

هذا النمط من الوجود المتخلف، بماذا يتصف؟ وراء مختلف العقد والأواليات والقيم والتوجيهات والممارسات، يبرز التخلف كهدر لقيمة الإنسان. إنه الإنسان الذي فقدت إنسانيته قيمتها، قدسيتها، والاحترام الجديرة به. العالم المتخلف هو عالم فقدان الكرامة الإنسانية بمختلف صورها. العالم المتخلف هو الذي يتحوّل فيه الإنسان إلى شيء، إلى أداة أو وسيلة، إلى قيمة مبخسة، يتخذ هذا التبخيس، هذا الهدر لقيمة الإنسان وكرامته صوراً تتلخص في اثنتين أساسيتين: عالم الضرورة والقهر التسلطي.

أما عالم الضرورة فهو تعبير عن الاستلاب الطبيعي الذي يتعرض له الإنسان والبلد المتخلف. إنه أسير الاعتباط حين يرضخ لغوائل الطبيعة التي تهدده في صحته، وأمنه، وقوته، وسلامته. إنسان العالم المتخلف منذ أن يولد يخرج إلى الحياة بشكل شبه اعتباطي. إنه يولد كمصادفة أو عبء، أو أداة لخدمة أغراض ورغبات أهله أو الآخرين. إنه لا يولد لذاته ولا يعيش حياته لذاته. ثم هو يتعرض لغزو المرض، ولسيطرة الأمية والجهل، ولقسوة الطبيعة وغوائلها بدون حماية أو سلاح كافيين. يتعرض لسوء التغذية وفقدان فرص العمل، وصعوبة المأوى. يقف عاجزاً أمام عالم الضرورة هذا، لا يعلم أي نوع من الضحايا يمكن أن يكون، أين ومتى؟

وأمّا عالم القهر التسلطي، فهو عالم سيادة القلة ذات الحظوة التي تفرض هيمنتها على الغالبية بالتحالف مع قوى خارجية استعمارية صريحة أو مقنّعة، خالقة نموذجاً عاماً من علاقة التسلط والرضوخ، تمارس فيها أنواعاً متعددة من العنف المادي والمعنوي. علاقات التسلط والعنف هذه تميز مختلف المستويات المرتبية وتتغلغل في نسيج الذهنية المتخلفة، مكوّنة الشبكة الاجتماعية للتخلف. هناك دائماً علاقة سيطرة من طرف، ورضوخ وتبعية من طرف آخر. سيطرة تفرض من خلال لغة العنف أساساً. نجد هذا النمط من أعلى قمة الهرم إلى أدناها، من الحاكم الأول إلى مرؤوسيه ومن هؤلاء إلى مرؤوسيهم، ومنهم إلى غالبية السكان. وبين هؤلاء من الأقوى إلى الأضعف، من الرجل إلى المرأة، من الكبار إلى الأطفال، وبين الأخوة من الأكبر سناً إلى الذين يلونهم. وأما قمة الهرم فهي ترضخ لنمط مقنّع من السيطرة يفرض

من خارج الحدود. إذ إن علاقة التحالف بين القلة ذات الامتياز والقوى الخارجية المالية والسياسية والعسكرية التي تدعمها، ليست علاقة تكافؤ ومساواة، بل علاقة سيادة وتبعية. هناك استلاب لقيمة الإنسان يفرض بالتسلط والعنف أبدع «فرانز فانون» في عرضه وتحليله في كتاباته المتعددة حول ظاهرة الاستعمار.

فالسيد المستعمر يقوم يومياً «بإدخال العنف إلى عقول وبيوت المستعمَرين وهو يدخل في وعيهم أنهم ليسوا بشراً وإنما أشياء»[1].

في رسالة استقالته الشهيرة التي وجهها إلى الحاكم الفرنسي في الجزائر من منصبه كطبيب في مستشفى الأمراض العقلية، إبان حرب التحرير يقول: «..إن الإنسان العربي في الجزائر، يحس بالغربة والوحشة في بلده.. إنه يعيش في حالة تجريد من آدميته.. إن البناء الاجتماعي الذي فرضته فرنسا على الجزائر يعادي كل محاولة لانتشال الفرد الجزائري من حالة عدم الآدمية، وإعادته إلى حالة الآدمية التي هو بها جدير[2]..».

الاستعمار تهديم مستمر ويومي لشخصية الفرد الجزائري.. لقد تكشفت «لفانون» من خلال عمله العلاجي، عقد النقص التي غرسها وعمَّقها الرجل الأبيض في الفرد الجزائري.. تكشفت له الأساليب الأوروبية في امتصاص دماء الكرامة من شرايين الفرد الجزائري، وإحلال الخوف والمذلة والمهانة مكانها[3].

بدل الفهم والحوار الذي لا يقوم إلا في حالة التكافؤ الإنساني، هناك لغة السوط القمعي، بدل الإقناع هناك الإخضاع. وليس المستعمر الصريح فقط هو من يفرض هذا الاستلاب الذي يستغل الإنسان، بل قوى التسلط الداخلي على مختلف مراتبها. وليس العنف الصريح أو القمع الظاهر فقط هو الذي يمارس، بل هناك العديد من أشكال العنف المبطن والقمع المستتر تمارس على نطاق أوسع انتشاراً وأكثر تغلغلاً، وتحت أكثر الشعارات بريقاً ونبلاً.

والأمر ليس وقفاً على البلدان النامية تقنياً وصناعياً، بل يطال العديد من المجتمعات التي وصلت قمة التقدم التقني، ويضم كل المجتمعات التي تصدِّر العنف إلى خارج حدودها. التقدم الصناعي إذا كان يخلص الإنسان من قهر عالم الضرورة، ما زال في الكثير

(1) بسام الطيبي، نظرية فانون عن العنف وتأثيرها بالفلسفة الهيجلية، مجلة «دراست عربية» السنة السادسة، العدد 7، بيروت 1970.
(2) د. إبراهيم سعد الدين، فرانز فانون وفلسفة العنف الثوري، مجلة «دراسات عربية»، السنة السادسة، العدد 5، بيروت 1970.
(3) المرجع نفسه.

من أحواله عاجزاً عن إعطاء الإنسان كل قيمته واعتباره. في تلك المجتمعات ما زال الإنسان أداة إنتاج واستهلاك. كل ما يقدم له، أو الكثير مما يقدم له على مستوى الخلاص من عالم الضرورة، لا يعدو كونه نوع من الصيانة التي تعطى للأداة كي تستمر في عملها بشكل جيد. ذلك هو سبب بروز تيارات الرفض وثورة الشبيبة في البلدان المتقدمة. إنها ثورة على الاعتداء الحاصل على قيمة الإنسان وضد تحويله إلى مجرد أداة إنتاج واستهلاك. ثورة الشباب، كثورة المرأة من أجل استعادة الإنسان لذاته ومقاومة عمليات استلابه. إنها ثورة من أجل استعادة كيانه واحترامه من خلال فضح أساليب القمع الخفية (التشريط والتدجين وتزيين قيم حياتية وهمية ذات طابع استهلاكي).

التخلف بالمنظور النفسي العريض يتجاوز إذاً إلى حد بعيد مسألة التكنولوجيا والإنتاج، ليتمحور حول قيمة الحياة الإنسانية والكرامة البشرية. كل هدر لها أو تحويل إلى أداة هو تخلف. سيكولوجية التخلف، هي في رأينا، سيكولوجية الإنسان المقهور أو المشيأ[1]. معيار التخلف ومستواه يبرزان من خلال بحث حالة وحجم أقل فئات الناس حظاً في المجتمع الواحد، وأقل المجتمعات حظاً على مستوى كوني. ذلك هو المعيار الحقيقي، وأما التقدم المادي مهما بلغ مستواه فليس سوى مظهر جزئي لا يجوز أن يخفي المشكلة الحقيقية.

---

(1) مشيىء (تشييء) Chosifié (chosification).

الفصل الثاني

الخصائص النفسية للتخلف

تطرح علينا دراسة النفسية المتخلفة مهمة منهجية ذات وزن، إذا أردنا أن نعطي عنها صورة دينامية متماسكة تجمع شتاتها الظاهري. لدينا منهجان ديناميان يتكاملان جدلياً، يغطي كل منهما وجهاً أساسياً من وجوهها. الأول هو المنهج الانبنائي الذي يجمع هذا الشتات الظاهري، في شبكة متناسقة ذات معنى هي نمط الوجود المتخلف. والثاني هو المنهج التاريخي الذي يتتبع خصائص هذا الوجود الغالبة في كل مرحلة من مراحل تطوره. إذ إن النفسية المتخلفة متغيرة ومتطورة زمنياً.

لا غنى لأحد المنهجين عن الآخر، كما أنه لا أسبقية لأحدهما على الآخر. ينطلق كلاهما من محور أساسي يؤلف لب الوجود المتخلف، وهو علاقة التسلط والرضوخ، علاقة السيطرة والقهر التي تجعل الإنسان المقهور المعبر الأفصح عن التخلف، من الناحية النفسية. كل الخصائص النفسية التي سنتحدث عنها هي مظاهر متنوعة لهذه العلاقة، نتاج لها، رد فعل عليها أو دفاع إزاءها. هذه العلاقة تخلق، انبنائياً، نمطاً من الوجود، متطوراً بدرجات مختلفة السرعة تاريخياً. وفي كل مرحلة تطغى على بنية هذا الوجود سمات بارزة تميزها عن غيرها من المراحل.

علاقة القهر

يعيش الإنسان المقهور في عالم من العنف المفروض. عنف يأتي من الطبيعية وغوائلها التي لا يستطيع لها ردعاً، والتي تشكل تهديداً فعلياً لقوته وأمنه وصحته (الجفاف، الفياضانات، الحريق، الأمراض والأوبئة، الحروب، الآفات الزراعية، الخ. . .). هذا العنف يجعله يعيش في عالم الضرورة، في حالة فقدان متفاوت في قدره للسيطرة على مصيره. إنه اعتباط الطبيعة عندما تقسو دون أن يجد وسيلة لحماية ذاته، للشعور بالأمن إزاء

ما تشكله من تهديد. إنه يفتقر إلى سلاح للمجابهة. ولذلك تبدو أخطار الطبيعة مضخمة وبالقدر نفسه تتضخم مشاعر عجزه وقلقه. يعيش الإنسان المتخلف في حالة تهديد الطبيعة الدائم الصريح أو الكامن لحياته. هل ستحمل له الخير والرخاء من خلال عطائها أم البلاء والشقاء من خلال قسوتها؟ القلق على الصحة والرزق والأمن يلازمه على الدوام منذ الصباح حتى المساء، خارج البيت وداخله.

إن الإنسان المعرّض دوماً لكل مفاجأة قد تحمل المصيبة أو الخير، ليس أكيداً البتة من أية ضمانة فعلية له أو لذويه، ما عدا تلك التي يؤمنها التمسك بالماورائيات، التقرب من القوى التي تسيطر على الكون، أو تلك التي يؤمنها الرضوخ للسيد. عندما نستمع إلى الأدعية التي يبدأ بها يومه، ونبحث في نوعها، نلاحظ إلى أي حد هي من نوع محاولة مجابهة هذا الاعتباط الذي يتهدّده بالتمني السحري، أو التعلق بالخرافة، أو الاتكالية المفرطة.

لدى الإنسان المتخلف ميل سحري لأنسنة[1] الطبيعة. إنه يصورها على غرار الأم الرحوم المعطاء تارة، وعلى صورة الأب القاسي العنيف الذي ينزل أشد العقاب وشر البلاء بأبنائه تارة أخرى، أو على غرار صورة الأم التي تمنع عن ولدها العطاء. وذلك ما يثير فيه أشد أشكال القلق الضمني بدائية، قلق الرضيع لترك الأم إياه، قلق الطفل إزاء قصاص الأب القاسي. إنه يعيش بشكل نكوصي[2] كل القلق والمخاوف التي عاناها في طفولته، من حالات الإحباط أو الإهمال والقسوة التي أَلَمَّت به وتحيا في لاوعيه[3] كعقاب له على ذنب وهمي اقترفه أو غلطة ارتكبها. اعتباط الطبيعة الراهن يحرك ويثير كل مشاعر العنف التي لا بد قد تصورها في طفولته. وهو عنف بدائي وطفلي، أي أنه عنف بلا حدود.

وكعجز الطفل أمام هذه المشاعر التي تملأ عالمه، يعاني الإنسان المتخلف عجزاً شبه جذري أمام غوائل الطبيعة. القدرية والأمثال الشعبية، كلها محاولات سحرية لإدخال بعض التنظيم على هذا الاعتباط، بغية السيطرة عليه، إمّا من خلال الاستكانة للمقدّر والمكتوب، أو من خلال تبريره كجزء من طبيعة الحياة نفسها يجب قبوله كما هو.

علاقة القهر والرضوخ تجاه الطبيعة، علاقة العنف الكامن بينه وبينها، تضاف إلى قهر من نوع آخر، قهر إنساني. الإنسان المتخلف، هو في النهاية الإنسان المقهور أمام القوة التي يفرضها السيد عليه، أو المتسلط، أو الحاكم المستبد، أو رجل البوليس، أو المالك الذي يتحكم بقوته، أو الموظف الذي يبدو وكأنه يملك العطاء والمنع، أو المستعمر الذي يفرض

---

(1) الأنسنة (الإيسانية) Anthropomorphisation.
(2) نكوص Regression.
(3) اللاوعي Inconscient.

احتلاله. بالطبع هذه السلسلة تترابط حلقاتها لما تقوم بينها من مصالح، كي تقيده وتفقده السيطرة على مصيره، فارضة عليه قانونها الذي يتميز أساساً بالاعتباط، وبذلك يصبح الإنسان الذي لا حق له، ولا مكانة، ولا قيمة، إلا ما شاء الطرف المتسلط أن يتكرم به عليه.

لا يجد الإنسان المقهور من مكانة له في علاقة التسلط العنفي هذه سوى الرضوخ والتبعية، سوى الوقوع في الدونية كقدر مفروض. ومن هنا شيوع تصرفات التزلف والاستزلام، والمبالغة في تعظيم السيد، اتقاء لشره أو طمعاً في رضاه. إنه يعيش في عالم بلا رحمة أو تكافؤ إذا أراد المجابهة أو فكر في التمرد. فسيأتي الرد عندها حاسماً يقنعه بقمع أفكاره التمردية. إن عالم التخلف هو عالم التسلط واللاديمقراطية، يختل فيه التوازن بين السيد والإنسان المقهور. ويصل هذا الاختلال حداً تتحول معه العلاقة إلى فقدان الإنسان لإنسانيته، وانعدام الاعتراف بها وبقيمتها. تنعدم علاقة التكافؤ لتقوم مكانها علاقة التَشَيّؤ(1).

بدل علاقة أنا ـ أنت التي تتضمن المساواة والاعتراف المتبادل بإنسانية الآخر وحقه في الوجود، ذاك الاعتراف الذي يشكل شرط حصولنا على إنسانيتنا من خلال اعتراف الآخر بنا كقيمة إنسانية، بدل هذه العلاقة تقوم علاقة من نوع أنا ـ ذاك. ذاك هو الشيء، هو الكائن الذي لا اعتراف به، بإنسانيته وقيمتها، أو بحياته وقدسيتها. باعتباره شيئاً، يصبح كل ما يتعلق به أو ما يمت إليه مباحاً (غبن، اعتداء، تسلط، استغلال، قتل، الخ...)، ذلك هو الإنسان المقهور، إنسان العالم المتخلف. على العكس تتضخم ذاتية المتسلط بشكل مفرط يحتوي الآخر الشيء، ويجعله تابعاً له وأداة لخدمته في حالة من طغيان الأنوية(2). لا اعتراف إلا بـ أنا ـ السيد، لا حياة إلا له، لا حق إلا حقه. مما يجعل كل تصرف، كل نزوة، كل استغلال وتسلط مبرراً كجزء من قانون الطبيعة. وبمقدار ما تتضخم ذات المتسلط تفقد ذات التابع المسود أهميتها واعتبارها حتى تكاد تتلاشى إنسانيتها كلياً. والواقع إن السيد لا ينظر إلى الآخر المقهور كإنسان فعلي. إنه يفقد التعاطف معه والإحساس بمعاناته وآلامه ومخاوفه وحاجاته. ومن هنا تلك القسوة البادية في تصرفاته تجاه من يخضعون له، تلك اللامبالاة تجاه معاناتهم.

تحتاج علاقة القمع باستمرار إلى تغذية نرجسية السيد، إلى مزيد من تضخم أناه، حتى لا يتهددها بروز الحس الإنساني، بروز التعاطف النابع من التكافؤ بين الذاتية والغيرية. ومن هنا استمرار العنف والتعسف، واستمرار التبخيس الذي يصيب إنسانية الإنسان المقهور. نجد

---

(1) التشيؤ Chosification.

(2) الأنوية Egocentrisme.

نموذجاً لذلك في التسلط الإقطاعي أو التسلط الاستعماري. ففي الحالتين لا يتم التفاهم والحوار إلا بلغة السياط. يعمل كلاهما على خنق كل انتفاضة لإنسانية الإنسان المقهور، أو حتى مجرد التفكير بهذه الانتفاضة، التفكير بالتعبير عن حقوقه. فالحق هو حق السادة والحياة هي حياتهم فقط. السيد المحلي وحليفه المستعمر يقوم كلاهما يومياً «بإدخال العنف إلى عقول وبيوت المستعمَرين.. يدخلان في وعيهم أنهم ليسوا بأناس، إنما هم أشياء[1]». كلاهما ينظر إلى أبناء الفئة المستغلَّة ككائنات هزيلة، مستضعفة وجبانة، ولا بد أن تبقى على هذه الحالة، لا بالإقناع والمنطق، بل بالقوة والقسر. وبمقدار ما يبخس الإنسان المقهور، ويفرض عليه الانحطاط والشقاء، يصبح اتكالياً مستكيناً مستضعفاً. وهذا بدوره يؤكد في ذهن المتسلط أسطورة تفوّقه وخرافة غباء وعدم آدمية الإنسان المستضعف. من الأمثلة البارزة على ذلك نظرة الامبريالية الصهيونية إلى العرب. إنها نظرة ازدراء واحتقار. بينما ينظر الصهيوني إلى نفسه بتعالٍ وتفوّق من خلال نشر أساطير القدرة في الإنتاج والعلم والغنى والحرب. أما العربي فيصوّر ككائن جاهل متأخر، أهوج، لا يفيد ولا يستفيد شيئاً من البيئة حوله[2]. تلك كانت صورة الإنسان العربي قبل الغزو الصهيوني لفلسطين في كتابات زعمائهم (هرتزل، الدولة اليهودية)، من أنه لن يكون للعرب سوى وظيفة واحدة وهي القيام بالأعمال المنحطة (تنظيف وجمع القمامة، تجفيف البرك، ملاحقة الثعابين وتطهير الأرض منها، الخ...).

بقدر ما تتضخم «أنا السيد»، وينهار الرباط الإنساني بينه وبين المسود، يصبح الأول أسير ذاته، وينحدر الثاني إلى أدنى سلّم الإنسانية. ويصبح عنف علاقة التسلط مضافاً ومتفاعلاً مع قسوة الطبيعة واعتباطها، هو القانون الذي يحكم حياة الإنسان المقهور بأجمعها (على مختلف مستوياتها وأوجهها وتفاصيلها) يعمم نموذج التسلط والخضوع على كل العلاقات وعلى كل المواقف من الحياة والآخرين والأشياء. تتسم علاقة الرئيس بالمرؤوس بهذا النمط التسلطي الرضوخي، كما تتسم به علاقة الرجل بالمرأة والكبير بالصغير، والقوي بالضعيف، والمعلم بالتلميذ، والموظف ورجل الشرطة بالمواطن. كل سلطة، مرتبية كانت أم طبيعية، تصطبغ لا محالة بهذه الصبغة. حتى الموقف من الحيوان والجمادات يتميز بالموقف التسلطي الرضوخي نفسه. تثبت علاقة القهر والرضوخ بما تحمله من عنف في نسيج الحياة النفسية بجوانبها الانفعالية والعاطفية والذهنية. حتى الحب يعاش في البلاد النامية تحت شعار التسلط والرضوخ، تسلط المحبوب ورضوخ الحبيب.. حتى حب الأم لأبنائها بكل ما يتميز به من

(1) بسام طيبي، نظرية فانون عن العنف وتأثيرها بالفلسفة الهيجلية، مجلة «دراسات عربية»، السنة السادسة، العدد 7، بيروت 1970.

(2) د. إبراهيم سعد الدين، فرانز فانون وفلسفة العنف الثوري، مجلة «دراسات عربية»، السنة السادسة، العدد 4، بيروت 1970.

حرارة عاطفية يغلب عليه الطابع التملكي، أي في النهاية التسلط من خلال أسر الحب.. وهكذا كيفما تحرك إنسان العالم الثالث: في العمل كما في المدرسة، في البيت كما في الشارع، يجابه باستمرار بأشكال متنوعة من علاقات التسلط والقهر، تفقده الشعور الأساسي بالأمن والسيطرة على مصيره، وتجعله نهباً للاعتباط والقلق. كل إنسان راضخ وتابع على أي مستوى معين من سلم السيطرة والقهر، يلعب دور المتسلط على من هم أدنى منه مرتبة أو قوة.

كل الخصائص النفسية للإنسان المتخلف التي نعرض لها في هذا الفصل تنبع من هذا الواقع المحوري: التسلط والاستكانة، وما يتبعهما من انعدام جذري للشعور بالأمن. فإذا أخذنا بالمنهج التاريخي نجد أن واقع الإنسان المتخلف قابل لأن ينتظم في أنماط ثلاثة من الوجود من مرحلة الرضوخ إلى مرحلة التمرد والثورة مروراً بمرحلة اضطهادية. وسنجد أن لكل مرحلة بنيتها النفس اجتماعية وخصائصها المميزة، التي تعكس بمجموعها جانباً من الوجود المتخلف.

أولاً: مرحلة القهر والرضوخ

خلال هذه المرحلة التي تمتد زمناً طويلاً نسبياً، يشكل زمن الرضوخ والاستكانة أو الفترة المظلمة من تاريخ المجتمع، عصر الانحطاط، وتكون قوى التسلط الداخلي والخارجي في أوج سطوتها وحالة الرضوخ في أشد درجاتها. عملية انهيار قيمة الإنسان المقهور وطغيان أنوية المتسلط تأخذ أبرز أشكالها وضوحاً وصراحة. تكون الجماهير في حالة قصور واضح في درجة التعبئة التي تؤهلها للرد والمقاومة، فيبدو وكأن الاستكانة والمهانة هي الطبيعة الأزلية لهذه الجماهير، وهذا ما تحاول قوى التسلط على كل حال غرسه في نفسيتها، في حملة تيئيسية منظمة تقطع السبيل أمام أي انتفاضة أو أمل في الانتفاضة. سكون الموت المخيم لا تقطعه سوى فقاعات تمرد فردي، لا تلبث أن تغيب، مخلفة وراءها مزيداً من القناعة في استحالة الخلاص من خلال المجابهة، نظراً لما تقابل به من ردود فعل عنيفة، تأخذ شكل البطش الذي تمارسه الفئة المتسلطة.

هذه المرحلة لونت بخصائصها، وصبغت بسماتها البارزة، الأفكار الشائعة بين التخلف بكل ما فيه من سلبية وجمود وخرافية وانحطاط. وهي التي شجعت الأحكام التبخيسية المسبقة التي كوَّنها المستعمر والمتسلط الداخلي عن الشعوب المقهورة، جاعلاً من خصائص مرحلة واحدة طبيعة ثابتة لتلك الشعوب، مما يبرر استغلاله وتسلطه: إنها جماهير منحطة لا تستطيع أن تحكم نفسها أو تستغل إمكاناتها وثرواتها، ولذلك فلا بد لها من حاكم متسلط، ولا بد لها من مستغل حليف له، يثمِّن هذه الثروات المهدورة. معظم الكتابات الغربية عن

التخلف لم تستطع أن ترى منه سوى هذه المرحلة التي تتصف بالعجز والقصور على جميع الأصعدة. وهو أمر يدعو للدهشة حقاً، نظراً لما يعتوره من عمى إدراكي، يؤدي فعلاً إلى تبخيس مقصود، أو لا إرادي لهذه الشعوب ولطاقاتها التغييرية الكامنة حين لم تر سوى الكسل والجهل والمرض، والرضوخ والغرق في الخرافة والقدرية. تلك هي مشكلة الملاحظة الخارجية والنظرة التي تظل طافية على السطح، والتي لا تدرك سوى الظواهر الخادعة، وهي في الحقيقة مشكلة البرود الإنساني، انعدام التعاطف مع الإنسان المتخلف موضوع البحث والنظر إليه كظاهرة مادية جامدة. إنها لم تستطع الغوص في وجدان هذه الشعوب المقهورة كي تتلمس بذور التمرد والانتفاضة التي تنمو في أحشائها بصمت وبطء ولكن بشكل أكيد وحتمي. وعندما تحين ساعة الانتفاض تتفجر الطاقات التغييرية التي تفاجئ أول ما تفاجئ الفئة المتسلطة داخلياً وخارجياً وتتجاوز في مداها تصورات أكثر الملاحظين الخارجيين تفاؤلاً.

ولكن بين هذه الانتفاضة وبداية عملية القهر الإنساني تعيش الشعوب المتخلفة ليلاً طويلاً تجتر خلاله مأساة المعاناة الوجودية.

أبرز ملامح هذه المرحلة اجتياف(1) عملية التبخيس(2) التي غرسها المتسلط في نفسية هذه الجماهير. تتمثل عدوانيته وقهره ذاتياً على شكل مشاعر إثم ودونية. يزدري إنسان العالم المتخلف ذاته ويخجل منها ويود لو تهرّب من مواجهتها، كما ينقم عليها في الوقت نفسه. وهنا يكيل النعوت السيئة لنفسه، متهماً إياها بالتقصير والتخاذل والجبن. يميل إلى إنزال العقاب بنفسه حتى أنه يرى أحياناً في القهر والظلم الإنسانيين، كما في قسوة الطبيعة واعتباطها، عقاباً مستحقاً له على تخاذله واستكانته. وبذلك يصبح حليف المتسلط الأول في حربه ضد وجوده، ووجود الآخرين أمثاله. بينه وبين هؤلاء تقوم علاقة ازدراء ضمني، لأنهم يعكسون له مأساته وعاره، كما يعكس مأساتهم وعارهم. ويصيب المرأة والاتباع، في عملية التحقير هذه، النصيب الأوفر. تصب عليها كل مشاعر العار والضعف، والعجز والرضوخ. العار غير المحتمل، نظراً لما يولده من آلام معنوية وما يفجره من قلق حول انهيار قيمة الذات، لا بد له من أن يفرّغ بصبه على الخارج، على العناصر الأضعف والأقل حظاً. وهكذا تسفل المرأة من خلال أدوار الرضوخ التي تفرض عليها (رضوخ للأب وللأخ ثم للزوج)، تحول إلى أداة للمصاهرة والإنجاب، إلى خادمة، إلى المعبرة عن المأساة، إلى الإنسان العاجز القاصر الجاهل الغبي الذي يحتاج إلى وصي، تماماً كحال الإنسان المقهور أمام القوى التي تسلطت عليه. فما يلقاه من تبخيس ومهانة، وما يفرض عليه من تبعية يعود فيمارسه

---

(1) اجتياف Introjection.

(2) تبخيس Dépréciation.

على زوجته ونساء أسرته، كما يمكن أن يفرضه على اتباعه ومن هم في إمرته.

تكثر في هذه الحالة الميول الانتحارية النابعة من تفاقم مشاعر الإثم ومن تراكم العدوانية المرتدة إلى الذات. تتخذ هذه الميول طابعاً صريحاً أو رمزياً، والأخير هو الأكثر شيوعاً. ومن أبرزها القسوة على الذات وإرهاقها، التعرض للإصابات، وللحوادث، التعرض للأمراض المتنوعة. وهنا يحدث تواطؤ بين هذه الميول المرضية وبين قوى القمع التي تهمل مسؤولياتها في الحفاظ على صحة المواطنين ووقايتهم من الأمراض، تحرمهم التغذية الجيدة والعناية الصحية من خلال استنزاف طاقتهم في الأعمال المضنية، تهمل اتخاذ إجراءات الأمان الضرورية في العمل مما يعرض العامل إلى أخطار متعددة. وعندما يلم الخطب بالإنسان المقهور يعيشه كمصيبة حلت به عقاباً على ذنب هوامي[1].

إلا أن أبرز مظاهر اجتياف التبخيس والعدوانية يفرضهما عليه المتسلط هو الإعجاب به والاستسلام له في حالة من التبعية الكلية. وبمقدار ما ينهار اعتباره لذاته يتضخم تقديره للمتسلط ويرى فيه نوعاً من الإنسان الفائق[2] الذي له حق شبه إلهي في السيادة والتمتع بكل الامتيازات. تلك علاقة رضوخ «مازوشي» من خلال الاعتراف بحق المتسلط بفرض سيادته. ومن هنا تبرز حالات الاستزلام والتزلف والتقرب. يتحدد الاعتبار الذاتي انطلاقاً من درجة التقرب من المتسلط. ولا بد من الإشارة هنا إلى التواطؤ الذاتي الذي يحدث بين الإنسان المقهور وبين ما يمارسه عليه المتسلط من قهر. في الواقع، لم يترك المتسلط مجالاً لنوع آخر من العلاقة معه. وهو عندما يدفع به إلى ذلك الموقع المازوشي التبعي، يعود فيزدريه من جديد لرضوخه واستكانته وتبعيته، محملاً إياه كل الوزر، معتبراً دونيته كجزء لا يتجزأ من طبيعته، مما يبرر لنفسه كل أشكال القهر التي يمارسها «هؤلاء لا يحسون، إنهم لا يفهمون بالكلام، إنهم لا يمشون إلا هكذا. . . بالقوة، بالسوط. . .». ويغيب عن باله أن الاستزلام والتزلف هما الوسيلتان الوحيدتان اللتان تركهما للإنسان المقهور كي يضمن لنفسه بعض الأمن على حياته وقوته. فإذا حاول هذا الأخير رفض الواقع، كانت استجابة المتسلط عنيفة بشكل يكفل ردعه عن كل محاولة، مع ما يضاف إليها من اتهام بالجحود ونكران النعمة، وقلة الوفاء والغدر، مما يبرر له بطشه. وذلك بدوره يثير مشاعر الذنب والقلق عند الإنسان المقهور دافعاً إياه إلى حالة من هجاس[3] الحفاظ على النعمة التي تكرم بها عليه السيد من خلال تكرار مظاهر الرضوخ والتبعية.

---

(1) هوام Fantasme.

(2) الإنسان الفائق Surhomme.

(3) هجاس Obsession.

على أن العلاقة ليست جامدة بهذا الشكل وبصفة مستديمة، يغلب عليها واقعياً التجاذب الوجداني[1]، التذبذب بين التبعية والرضوخ وبين الرفض والعدوانية الفاترة[2]. يحاول الإنسان المقهور، كما سنرى جلياً في بحثنا للمرحلة الاضطهادية، الانتقام بأساليب خفية (الكسل، التخريب) أو رمزية (النكات والتشنيعات). وهذا يخلق ازدواجية في العلاقة: رضوخ ظاهري، وعدوانية خفية. أبرز مثل على هذه الازدواجية هو موقف الرياء والخداع والمراوغة والكذب والتضليل. محاولة النيل من المتسلط تصبح قيمة بحد ذاتها باعتبارها نوعاً من البراعة والحذق (كما يشيع جماهير المصريين). الإنسان المقهور متربص دوماً للمتسلط كي ينال منه كلما استطاع، وبالأسلوب الذي تسمح به الظروف. هذه الازدواجية تشكل مرحلة وسطاً بين الرضوخ والتمرد. ولكن، هنا أيضاً، نجد الإنسان المقهور يستخدم أسلوب السيد المتسلط نفسه ويخاطبه بلغته نفسها. الكذب والخداع والتضليل هي قوام اللغة التي يخاطب بها المتسلط الجماهير المقهورة. إن خطابه هو أبداً كذب ونفاق عندما لا يكون تهديداً صريحاً. خطابه وعود معسولة وتضليل تحت شعار الغايات النبيلة: الوعود الإصلاحية، الخطط الإنمائية، الأخلاق، الرقي والتقدم، المستقبل الأفضل.. كلها هراء اعتادت عليها الجماهير. وهي بدورها تخادع وتضلل حين تدعي الولاء وتتظاهر بالتبعية.

وهكذا يصبح الكذب جزءاً أساسياً من نسيج الوجود المتخلف، على مختلف الصعد وفي كل الظروف. الكذب بين المتسلط والإنسان المقهور يعمم على كل العلاقات: كذب في الحب والزواج، كذب في الصداقة، كذب في ادعاء القيم السامية، كذب في ادعاء الرجولة، كذب في المعرفة، كذب في الإيمان. كما يكذب المسؤول على المواطن، وكما يكذب رجل الشرطة حين يدعي الحفاظ على القيم والأخلاق والنظام، وكما يكذب الموظف على صاحب الحاجة، وكما يكذب التاجر على المشتري، كذلك يكذب الحرفي على الزبون. معظم العلاقات زائفة، معظم الحوار تضليل وخداع. يكفي أن نرى كيف يزين الناس في العالم الثالث الأمور بعضهم لبعض، حتى يتم استدراج الآخر واستغلاله. ذلك الاستدراج عندما ينجح يعتبر نوعاً من البراعة في التجارة والعمل والوظيفة وممارسة المسؤولية. وعندما يتحول العالم إلى زيف وتضليل يصبح لزاماً على كل واحد أن يلعب اللعبة كما تسمح له إمكانياته، وويل لذي النية الطيبة. إنه لا يغرّم فقط من خلال استغلاله، بل يزدرى باعتباره ساذجاً وغبياً. تدلنا علاقات التكاذب والتضليل على مدى الانهيار الذي ألمّ بقيمة الإنسان في العالم المتخلف، حين يتحول إلى مضلل أو ضحية تضليل. فالآخر ليس مكافئاً لنا، بل أداة نستغلها

---

(1) تجاذب وجداني Ambivalence.

(2) فاتر Passif.

بمختلف الوسائل الممكنة، أداة لخداعنا. ولكننا في النهاية نحكم على إنسانيتنا بالتبخيس من خلال هذا الخداع.

هذه الوضعية العلائقية وما يتبعها من إحساس بالعجز أمام المصير المهدد دوماً، وانعدام مشاعر الأمن تجاه قوى الطبيعة، تؤدي إلى بروز مجموعة من العقد تميز حياة الإنسان المقهور، أهمها عقدة النقص، وعقدة العار، مع اضطراب الديمومة واصطباغ التجربة الوجودية بالسوداوية. وهذه جميعاً تدفع الإنسان المقهور بدورها نحو الاتكالية النكوصية والقدرية الاستسلامية، وطغيان الخرافة على التفكير والنظرة إلى الوجود. لا بد إذاً من وقفة قصيرة عند كل من هذه النقاط كي تكتمل لدينا صورة هذا الإنسان المقهور في مرحلة القهر.

1 ـ عقدة النقص

تميز مشاعر الدونية بشكل عام موقف الإنسان المقهور من الوجود. فهو يعيش حالة عجز إزاء قوى الطبيعة وغوائلها، وإزاء قوة السلطة على مختلف أشكالها. مصيره معرض لأحداث وتغيرات يطغى عليها طابع الاعتباط أحياناً والمجانية أحياناً أخرى. يعيش في حالة تهديد دائم لأمنه وصحته وقوته وعياله. يفتقر إلى ذلك الإحساس بالقوة والقدرة على المجابهة الذي يمد الحياة بنوع من العنفوان ويدفع إلى الاحترام والمجابهة. الإنسان المقهور عاجز عن المجابهة. تبدو له الأمور وكأن هناك باستمرار انعداماً في التكافؤ بين قوّته وقوة الظواهر التي يتعامل معها. وبالتالي فهو معظم الأحيان يجد نفسه في وضعية المغلوب على أمره. يفتقد الطابع الاقتحامي في السلوك، سرعان ما يتخلى عن المجابهة منسحباً أو مستسلماً أو متجنباً، إما طلباً للسلامة وخوفاً من سوء العاقبة، أو يأساً من إمكانية الظفر والتصدي. وبذلك يفقد موقفه العام من الحياة، الطابع التغييري الفعال، ويقع في أسلوب التوقع والانتظار، والتلقي الفاتر لما قد يحدث. ثم هناك انعدام للثقة بالنفس، إذ لا شيء مضمون في وجوده. ففقدان الثقة هذا يعمم منه على كل الآخرين أمثاله. وهكذا يشعر أنه وإياهم لا يستطيعون شيئاً إزاء قهر الطبيعة وقوى التسلط. ويصل الأمر حد انعدام الثقة بقدرة الجماهير على الفعل والتأثير، مما يلقي به، وبشكل نكوصي، في الاتكالية على منقذ منتظر بشكل سحري. صورة هذا المنقذ هي على العكس تماماً من صورته عن ذاته. إنه القوي الذي يتمتع بالجبروت، الكفيل بقلب الأمور رأساً على عقب، حامل الخلاص العاجل. ومن البديهي أن ذلك الموقف يهيئ هذه الجماهير إلى التعلق بالزعيم الفرد، تعلقاً يغري بالتسلط والدكتاتورية، تحت شعار إنقاذ الوطن وخلاص الجماهير. إنسان العالم المتخلف يفتقر نظراً لما يعانيه من مشاعر دونية إلى الإيمان بالجماهير. يحس إحساساً عميقاً بأنه لا يمكن أن يُنتظرَ شيء يذكر من هذه الجماهير المقهورة على غراره. وإذا كان هناك من خلاص ممكن فهو بالتأكيد لن يأتي، في نظره، عن

طريق هذه الجماهير العاجزة. كل ذلك يشكل عقبة فعلية إزاء تحريك هذه الجماهير وتعبئتها لأغراض النضال والتغيير الاجتماعي. محاولات التحريك ستجابه بنوع من المقاومة النابعة من الإحساس بالعجز عن تحمل المسؤولية الذاتية ومسؤولية المصير. عقدة النقص التي تتحكم بإنسان العالم المتخلف، تجعله عدواً للديمقراطية التي تنبع في الأساس من الإيمان بالجماهير وطاقاتها الخلاقة.

عقدة النقص تجعل الخوف يتحكم بالإنسان المقهور: الخوف من السلطة، الخوف من قوى الطبيعة، الخوف من فقدان القدرة على المجابهة، الخوف من شرور الآخرين. مما يلقي به في ما يمكن تسميته بانعدام الكفاءة الاجتماعية[1] والمعرفية. فهو يتجنب كل جديد، ويتجنب الوضعيات غير المألوفة. إذا خرج من دائرة حياته الضيقة يحس بالغربة الشديدة وبانحسار الذات، يجمد في الزاوية التي هو فيها في نوع من الشلل الوجودي. كل جديد يثير فيه القلق، وإحساسه الجذري بانعدام الأمن، ولذلك فهو يخشى التجريب، ويتشبث بالقديم والتقليدي والمألوف. مما يجعل عملية التحديث تجابه في معظم الأحيان بمقاومة شديدة تحيط البرنامج التنموي.

وتتجلى عقدة النقص بوضوح ظاهر في موقف الإنسان المقهور من العلم والتكنولوجيا. فهو يضع نفسه مسبقاً في وضعية العاجز عن استيعاب التكنولوجيا الحديثة. يظل أمامها مبهوراً لأن الآلة بالنسبة له ليست عبارة عن أواليات تحكم حركتها وبنيتها مجموعة من القوانين الفيزيقية والرياضية، بل هي كيان سحري يمتّ إلى عالم يتجاوز عالمه. ولهذا فهو يقبل عليها بحذر وتردد، يصاب أمام معرفتها والسيطرة عليها بنوع من الصد[2] المعرفي. ذلك أيضاً يشكل عقبة أمام التغيير والتطوير، لأنه يدفع بالإنسان المقهور نحو التقليدي والمألوف سواء في الوسائل والطرق الإنتاجية أو في الأدوات.

لا شك في أن الفئة المتسلطة، بغية استمرار تسلطها، تعمل على تغذية عقدة النقص والعجز هذه لدى الجماهير، حتى تظل على استكانتها وتبعيتها، وحتى لا تحاول اتخاذ زمام المبادرة في تقرير مصيرها بنفسها. الأمثلة على ذلك لا تحصى، ويكفي أن نرى ما يحاوله المستعمر عادة من غرس مشاعر النقص في الشعوب التي يستغلها، من ناحية، وغرس وهم تفوّقه عليها علماً وفناً وتقنية وحياة، لدرجة التضليل، والزعم أنه أتى لتعليمها والارتقاء بها من خلال احتذاء مثاله. ويقوم عادة كي يصل إلى هذه النتيجة، باستعراض قوّته وأدواته التي يحيطها بنوع من الجبروت السحري، جاعلاً منها وسائل لا تقهر، وبالتالي فهو نفسه لا يمكن

(1) انعدام الكفاءة الاجتماعية Incapacité sociale.

(2) الصد Inhibition.

أن يقهر، وليس هناك من سبيل أمام الجماهير إلا القبول بالأمر الواقع.

2 ـ عقدة العار

عقدة العار هي التتمة الطبيعية لعقدة النقص. الإنسان المقهور يخجل من ذاته، يعيش وضعه كعار وجودي يصعب احتماله. إنه في حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره، افتضاح عجزه وبؤسه. ولذلك فالسترة هي أحد هواجسه الأساسية. إنه الكائن المعرّض ويخشى أن ينكشف باستمرار. يخشى ألا يقوى على الصمود. يتمسك بشدة بالمظاهر التي تشكل ستراً واقياً لبؤسه الداخلي. هاجس الفضيحة يخيم عليه «فضيحة العجز أو الفقر أو الشرف أو المرض». حساسيته مفرطة جداً لكل ما يهدد المظهر الخارجي الذي يحاول أن يقدم نفسه من خلاله للآخرين. ولذلك فإن جدلية الحياة الحميمة والمظاهر الخارجية، جدلية ما يخفى وما يعلن، تجعله يعيش حالة امتحان دائم، وتهديد دائم بفقدان توازنه من خلال فقدان دفاعاته، وتعرّي حياته الحميمة التي يجتر مأساتها بصمت وألم. همه الأول اجتياز الامتحان والاحتفاظ بـ «السترة». نظرة الآخرين، تعليقاتهم، تكتسب قوة شديدة الوطأة على نفسه، تهدد مكانته الركيكة واعتباره الذاتي الذي يحافظ عليه بمشقة بالغة.

مع هذه العقدة نضع الاصبع على ما يمكن تسميته نفسياً «بالجرح النرجسي»[1] وهو الذي يشكل أكثر مواطن الوجود الإنساني ضعفاً ومساً بكبريائه الذاتي. إنها الكرامة المهدّدة. ولذلك فإن العزة والكرامة تحتلان مكانة أساسية في خطاب الإنسان المقهور: بقاء الرأس مرفوعاً، الاحتماء من كلام الناس، قضايا مصيرية بالنسبة له. يستطيع الإنسان أن يعيش بدون خبز، ولكنه يفقد كيانه الإنساني إذا فقد كرامته وظل عارياً أمام عاره. تلك هي النقطة التي تنهار معها الطاقة على احتمال مأساة القهر والبؤس.

ولكن الرجل المقهور يسقط العار أساساً على المرأة: المرأة العورة، أي موطن الضعف والعيب. بسبب هذا الإسقاط يربط شرفه كله وكرامته كلها بأمر جنسي ليس له أي مبرر من الناحية البيولوجية المحض، ونعني الحياة الجنسية للمرأة. طبعاً إن للوظيفة الاجتماعية لحياة المرأة الجنسية دوراً بارزاً في هذا الربط، كما سنرى في الفصل المخصص للحديث عن المرأة في العالم المتخلف. ولكن من الناحية الظواهرية المحض، ليس من قبيل المصادفات أن تحاط المرأة بكل هذه الأساطير حول دورها في التعبير عن الشرف المهدد. فطالما أن أكبر درجات الغبن تلحق عادة بالمرأة في المجتمع الذي يتصف بالقهر، ليس من المستغرب إذاً أن يربط الشرف بها ويسقط العار عليها. يصل الأمر حداً من التطرف يجعل القتل مبرراً ومعترفاً به

---

(1) الجرح النرجسي Blessure narcissique.

اجتماعياً تحت اسم جناية الشرف. مبرراً لأنه يعتبر انتفاضة مشروعة لاستعادة الكرامة والسمعة اللتين هدرتا. يحق لنا أن نتساءل بعد دراسة عدة حالات مما يسمى بجنايات الشرف (قتل الأخت، أو البنت، أو الزوجة، أو الأم لأسباب جنسية) إذا لم يكن في الأمر خدعة تمارسها الفئة المتسلطة من خلال القيم التي تفرضها على الفئة المقهورة، حيث تصور لها ارتباط شرفها وكرامتها بالمرأة بدل أن تربط بالمكانة الاجتماعية والمهنية، أليس في ذلك تحويلاً للأنظار عن مصدر العار وسببه وهو الاستغلال والتسلط وما يفرضانه من قهر على الإنسان ودوس لكرامته؟ فالإنسان المقهور، بدل أن يثور ضد مصدر عاره الحقيقي، يثور ضد من يمثل عاره الوهمي وهو المرأة المستضعفة. هذا بينما تحتفظ الفئة المستغلة لنفسها بلقب الشرف والنبل من خلال ما تتمتع به من امتيازات.

إن الكثير من التصرفات الاستعراضية التي تشيع في البلدان النامية، تهدف، بالتحديد، إلى التستر على عقدة العار، خصوصاً الاستعراض الاستهلاكي. يأتي بعده كل أشكال الادعاء والتبجح وخداع الآخرين بجاه أو مال أو حظوة لا أساس لهما من الواقع. إن إنسان العالم المتخلف هو أسير المظاهر، مهما كانت سطحيتها، ما دامت تخدم غرض التستر على عاره الذاتي.

ليست عقدة العار وقفاً على الفئة المقهورة، بل هي عامة في المجتمع، حتى الفئة ذات الحظوة لا تخلو منها، وإن كانت درع المظاهر التي تحتمي بها أقوى وأصلب وأكثر مناعة. القوة المتسلطة ليست بمنأى عن خوف الفضيحة التي يكشف هزال وجودها وزيف وجاهتها وامتدادها. كما أنها لا تخلو من عقدة النقص إزاء الأجنبي والمستعمر الذي يشكل نموذج الرقي بالنسبة إليها. وكما أن الإنسان المقهور يتشفى من المرأة كي يستر عاره، كذلك يشتطّ المتسلط في فرض سلطاته وبطشه على المستضعفين من الناس. من خلال بطشه يحس بالمتعة والقوة، ساتراً بذلك نقصه وعاره.

3 ـ اضطراب الديمومة

وجود الإنسان منغرس في المكان وصائر في الزمان. ولا بد للسلوك كيما يتكيف ويصل مرتبة الخلق، من التوافق مع جدلية الزمان والمكان هذه، وملاءمتها بدورها للمشروع الوجودي. والتقدم، من حيث هو سيطرة على المصير إزاء قانون الطبيعة وقانون السلطة، يتلخص في مدى السيطرة على قوى الزمان والمكان. وبالتالي فالتخلف يبدو من هذه الزاوية، كعجز متفاوت الدرجة عن هذه السيطرة.

عجز الإنسان المتخلف عن التحكم بمصيره مرتبط بوثوق، باضطراب الديمومة. ونقصد بهذا المصطلح أن الزمان جدلي وليس تسلسلياً يذهب من الماضي إلى المستقبل، مروراً

بالحاضر باتجاه واحد جامد. الماضي والحاضر والمستقبل تشكل الأبعاد الثلاثة للديمومة، أي للتجربة الوجودية المعاشة زمنياً. فالماضي يحدد الحاضر والمستقبل. ولكن الحاضر يلوّن بخصائصه تجربة الإنسان التاريخية من ناحية، ويصبغ استشفافه لمستقبله من ناحية ثانية. كذلك فإن المستقبل يؤثر على نوع تجربتنا الحاضرة، على إدراكنا له، كما يؤثر على إدراكنا لماضينا. كل من أبعاد الديمومة يتحدد بالبعدين الباقيين، ويحددهما في آن معاً، مما يجعلنا نعيش الزمن في أي لحظة كوحدة كلية لها لونها الوجداني المميز. آلام الماضي تؤثر على الحاضر فتجعله أشد وطأة، وعلى المستقبل فتجعله أكثر مدعاة للقلق. أفراح الحاضر تدخل التفاؤل على المستقبل كما أنها تخفف من معاناة الماضي. الآمال التي يحملها المستقبل تخفف بدورها من وطأة المعاناة الحاضرة وتنسينا متاعب الماضي. تلوّن أي بعد من أبعاد الديمومة، ينعكس سلباً أو إيجاباً على الديمومة كلها. ولكن هذا اللون بدوره يتحدد شدة ودلالة انطلاقاً من كلية الديمومة.

إن طول معاناة الإنسان المقهور، ومدى القهر والتسلط الذي فرض عليه، ينعكس على تجربته الوجودية للديمومة على شكل تضخم آلام الماضي، وتأزم في معاناة الحاضر، وانسداد آفاق المستقبل. العجز أمام التسلط وما يستتبعه من عقدة نقص، والعجز أمام قوى الطبيعة وما يحمله من انعدام الشعور بالأمن، يجعلان الإنسان المتخلف فاقداً للثقة بنفسه وإمكاناتها، فاقداً الإحساس بالسيطرة على مصيره في يومه وغده. كلك فإن انعدام الضمانات في الصحة والرزق يجعله نهباً للظروف واعتباطها. فهو لا يدري متى يعمل ويحصل على قوته وقوت عياله، وإذا عمل فلا يدري كم يستمر العمل وكم يدوم الرزق. وهو لا يدري متى يقعده المرض وإلى أي حد وماذا سيحل به وبذويه من بؤس.

القهر والعجز وانعدام الضمانات المستمرة، ماضياً وحاضراً، تصبغ المستقبل بالتشاؤم، فتنسدّ آفاقه، ويفقد الإنسان المتخلف الثقة بإمكانية الخلاص. انسداد آفاق المستقبل يضخم بشكل غير محتمل آلام الحاضر ومشكلاته. اليأس من الخلاص، ومن خلال الجهد الذاتي، هو ما يميز نظرة الإنسان المقهور إلى المستقبل. ولذلك فإن قلق الحاضر ومصاعبه تأخذ طابعاً متأزماً. كل شيء يثير في نفسه خوف الكارثة. إذ إن المعاناة الحاضرة التي لا تجد لها إمكانية خلاص في مستقبل منظور تحول الحياة إلى جحيم. درجة التوتر الانفعالي عالية بشكل غير طبيعي مما يجر ردود فعل متطرفة، وذات طابع انفعالي خال من العقلانية والتقدير الموضوعي للواقع. ومع ذلك التوتر تزداد العدوانية المتراكمة والمقموعة وطأة، وتصل عتبة الانفجار، مما يثير قلق هذا الإنسان خوفاً من نتائج عدوانيته التي يخشى أن تفلت من عقالها. وهو لهذا السبب يضاعف جهده لقمع طاقته الحيوية، من خلال مزيد من الرضوخ الاستسلامي طلباً للسلامة.

إزاء هذه الأزمة الوجودية لا يملك الإنسان المقهور حلاً سوى الهروب إلى الماضي: الخرافي أو الواقعي الذي قد تحمل أمجاده بعض العزاء له. كما قد يهرب من إطار الزمن بتفجير الديمومة من خلال الغرق في الممارسات التي تنسيه واقعه المؤلم: كالذكر، والمخدرات، والزار، والتخريف. ومن وسائل الهرب الشائعة التمسك بأوهام الخلاص السحري، من خلال معجزة ما، تقلب الواقع وتنسف معطياته وتغير مصيره: الخلاص على يد زعيم منقذ، أو من خلال تدخل الحظ، أو العناية الإلهية.

على عكس حلول الهرب، وبالإضافة إليها، يشيع في العالم المتخلف الاجترار السوداوي[1] للمأساة الوجودية. هذا الاجترار يجمد الزمن من خلال اجتياف[2] مرارة الحياة، وبالتالي يسيطر على هذه المأساة. من هنا نفهم طغيان الطابع الحزين على الحالة المزاجية للإنسان المقهور. طابع الحزن يعمم على كل شيء تقريباً ويبدو بأوضح صوره في الأغاني الشعبية التي تكاد تدخل جميعاً في إطار المراثي. ومن اللافت للنظر أن نلاحظ ندرة الأغاني ذات الطابع الفرح المتفائل والدينامي في الموقف من الحياة. إن الأغنية تعبير فصيح عن المعاناة الوجودية عموماً، وليس تركزها حول عذاب وآلام العشق سوى ستار يخفي آلام الوجود التي تسقط[3] على علاقة الحب. الأغنية الحزينة مرآة يرى فيها إنسان مجتمعات القهر ذاته ويعيش من خلالها إحباطاته[4] بالإضافة إلى الأغاني، هناك القصص الشعبية والملاحم الشعبية التي تغنى في المناسبات، وهناك الأفلام وما يطغى عليها من حزن، كلها مرآة تعكس اجترار الآلام التي لا خلاص منها والتي يغرق فيها ذلك الإنسان.

تتفاعل عقد النقص والعار واضطراب الديمومة فيما بينها، مما يزيد حدتها ووطأتها لدرجة يصعب احتمالها. وهكذا يغرق الإنسان المقهور في ضعفه وعجزه واستسلامه إزاء قوى يحس أن لا قبل له بمجابهتها تتحكم بمصيره الذي لا يملك السيطرة عليه. كلما زاد غرقه اشتد تخلفه بالضرورة لأنه يفقد العزم، يفقد القدرة على الفعل والتأثير والمبادرة والمجابهة، ويقع في التخاذل ويسيطر عليه الجمود، فينطوي على ذاته مجتراً مأساته.

ولكن الآلام المعنوية والمعاناة الوجودية التي تنتج عن هذه الوضعية، لا يمكن احتمالها إلا بقدر ولمدة معينة. فجميع وسائل الهرب والاجترار لا تحل المشكلة بشكل جذري ومقبول. وهي لا تسمح للإنسان المقهور بالاحتفاظ بالتوازن النفسي الضروري، كيما يتمكن

---

(1) اجترار سوداوي Rumination mélancolique.

(2) اجتياف Introjection.

(3) إسقاط Projection.

(4) إحباط Frustration.

من الاستمرار في العيش. وهكذا عاجلاً أو آجلاً، لا بد للتوتر أن يزداد وللعدوانية أن تتراكم. وهنا يدخل في زمن الاضطهاد قبل الوصول إلى مرحلة التمرد والانفجار.

ثانياً: مرحلة الاضطهاد(1)

يشكل الموقف الاضطهادي من الآخرين والطبيعة، مرحلة وسطى بين حالة الرضوخ ومرحلة التمرد والانتفاض، ويتداخل مع كل من المرحلتين السابقة والتالية. فتلاحظ هناك حالات رضوخ اضطهادي على طرف، يقابلها حالات اضطهاد تمردي على الطرف الآخر. وتتوقف هذه المرحلة من حيث امتدادها وشدتها على نوعية بنية المجتمع من ناحية، وعلى المعادلة الشخصية للفرد تبعاً لقواه النزوية وتركيبه النفسي من ناحية ثانية. وحديثنا عن مرحلة قائمة بذاتها، لا يعني تساوي الميول الاضطهادية عند جميع أفراد المجتمع. الأمر لا يعدو كونه تياراً عاماً يبرز عما عداه من التيارات الرضوخية والتمردية، وغيرها التي تكون فاعلة في الوقت نفسه. هذا التيار يبرز عادة بعد مرور المجتمع المتخلف بمرحلة الرضوخ المتفاوتة طولاً وشدة تبعاً لتاريخه الخاص.

مع بروز التيار الاضطهادي، تكون الحالة النفسية للإنسان، قد بلغت درجة عالية من التوتر الانفعالي والوجودي العام. يدخل في مرحلة من الغليان الداخلي للعدوانية التي كانت مقموعة بشدة، والتي بدأت تفلت من القمع وتطفو على السطح، بعد أن كانت مرتدة على الذات من خلال أوالية التبخيس الذاتي، وما يرافقها من رضوخ مازوشي. إذ إن كل أواليات مرحلة الرضوخ تظل عاجزة عن التصريف الملائم للتوتر العدواني الناشئ عن القهر. إنها لا تفي بالحاجة إلى التوازن النفسي الضروري لأن الإنسان لا يمكنه احتمال التبخيس الذاتي بشكل دائم. لا بد له من الإحساس بشيء من العزة والكرامة، بشيء من الاعتبار الذاتي في نظر نفسه ونظر الآخرين. إن فشل تحقيق الذات، فشل الوصول إلى قيمة ذاتية تعطي للوجود معناه، يولِّد أشد مشاعر الذنب إيلاماً للنفس، وأقلها قابلية للكبت والإنكار. هذه المشاعر تفجر بدورها عدوانية شديدة تزداد وطأتها تدريجياً بمقدار تراكمها الداخلي. وعندما تصل العدوانية إلى هذا الحد لا بد لها من تصريف يتجاوز الارتداد إلى الذات وتحطيمها، كي يصل حد الإسقاط على الآخرين.

لب الشعور الاضطهادي هو التفتيش عن مخطئ يحمل وزر العدوانية المتراكمة داخلياً. الإنسان الاضطهادي بهذا المعنى، لا يستطيع أن يكتفي بإدانة ذاته. إنه بحاجة لإدانة الآخرين ووضع اللوم عليهم. الإنسان الاضطهادي يصاب بذعر لا يمكنه احتماله إزاء إمكانية شعوره

(1) اضطهاد Persécution.

بالذنب، إنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية ذنبه، لأن العدوانية في هذه الحالة تهدد وجوده بالانفجار. وهكذا لا يجد أمامه من سبيل إلا اتهام الآخرين بالذنب، وبالتالي بالعدوانية. إنه يصب عدوانيته فيهم وعليهم ويجعلهم ممثلين لها، حاملين أوزارها وأوزار تقصيره الوجودي. تحويل الآخر بهذا الشكل إلى مصدر للعدوانية ورمز لها، يفسح المجال في مرحلة تالية لإمكانية تبرير الاعتداء عليه. الاعتداء يصبح مشروعاً لأنه يتخذ طابع الدفاع عن النفس: إذا كنت عدوانياً تجاه الآخر، فما ذاك إلا كي أدافع عن نفسي ضد التهديد الذي أتعرض له من عدوانيته. ثم إنّ إلصاق العيب الذاتي بالآخر يحوله إلى رمز للنقص والعار. نتخلص بذلك من عارنا الذاتي من ناحية (مما يمكننا من استعادة بعض الاعتبار الذاتي)، ونجعل الاعتداء عليه مشروعاً ومبرراً لأنه عدوان على رمز العيب والعار. الاعتداء على الآخر انطلاقاً من هذه الوضعية، ليس اعتداء على قيمة إنسانيته، بل هو بكل بساطة تحطيم لرمز السوء والعار. من خلال الوضعية الاضطهادية يتحول الآخر إلى عقبة تعرقل الوصول إلى تحقيق الذات. وبمقدار ما تترسخ هذه النظرة عن الآخر كعقبة، يفقد إنسانيته تدريجياً في نظرنا، ويتحول إلى أسطورة شر ليس هناك من التزام تجاهها أو حرمة لوجودها، بل على العكس لا بد من القضاء عليها في حالة من التشفي. وهو فعل يتخذ طابع القضاء على العقبة الوجودية، مما يجعلنا نفهم السهولة المذهلة التي يتم فيها العدوان.

في المرحلة الاضطهادية إذاً، تسقط مشاعر الذنب والتبخيس الذاتي على الآخر، لا المتسلط بل الشبيه، الآخر المقهور أو الأكثر قهراً. وتوجه إليه العدوانية المتراكمة متخذة طابع الحقد المتشفي. والهدف من ذلك هو تحطيم الصورة غير المقبولة عن الذات التي يعكسها للإنسان المقهور من هو أكثر غبناً منه، مما يعطيه انطباعاً، ولو وهمياً، بالإفلات من ذلة القهر. أما تجاه المتسلط فتبدأ العدوانية بالظهور نحوه، إنما من خلال التعبير اللفظي والرمزي، وكل أشكال التعبير غير المباشر الذي لا يتضمن مجابهة صريحة. وهكذا يخلق مناخ عام من العنف يسبغ العلاقات الاجتماعية بمجملها بطابعه.

وهذا المناخ وما يتضمنه من أسلوب متوتر في التفاعل، كان بدوره مصدراً استغله المستعمرون والمتسلطون الداخليون، حين فسر بشكل مزور على أنه جزء من طبيعة بعض الشعوب التي عانت طويلاً من القهر. تلك الشعوب اكتسبت شهرة الدموية أو العناد وركوب الرأس أو العدوانية، التي فسرت جميعاً بأسباب عرقية أو ما شابهها من التفسيرات المجحفة، التي لا هدف لها سوى تبرير البطش الذي ينزله المستعمر أو المتسلط الداخلي بها: إنهم لا يفهمون سوى لغة القوة.. اللطف لا يجدي معهم.. لا يجوز التساهل معهم، لأنهم سيستجيبون بالعنف والتخريب، سيتطاولون على أرباب نعمتهم.. هنا نلاحظ مأزقاً آخر يحشر فيه الإنسان المقهور. إنه ضحية عنف مزمن ومنظم، ولكن يطلب منه أن يكون مهذباً

ولطيفاً، يلام على خشونته وتوتره. في الحقيقة إن ما يطلب منه هو الرضوخ.

تتحول الحالة النفسية في مناخ العنف لتتخذ مظاهر متنوعة من الاضطهاد، بالإضافة إلى العدوانية الحركية الموجهة إلى الأقران. من هذه المظاهر الحساسية لأدنى مظاهر الغبن، الاستجابات المفرطة في شدتها لما لا يتناسب مطلقاً مع أسبابها المادية المباشرة. أقل نزاع يأخذ أبعاداً مضخمة قد ينتهي بمأساة، كالاقتتال على رأس ماشية، أو إتلاف زهيد الخسائر لمتاع يخص الآخر، أو حتى القتل على أفضلية المرور (كما حدث مرات عديدة في بيروت قبل انفجار الحرب الأهلية بفترة وجيزة). ثم هناك الشك والحذر من الآخرين، كل الآخرين، وكأن العالم قد تحول إلى غابة ذئاب لا يمكن فيها الاطمئنان حتى إلى أكثر الناس قرباً، ولا يمكن الثقة حتى بأكثر الناس صدقاً. لأتفه الأسباب يحدث تشكيك في أطيب الناس من حيث النوايا. ويصاحب تعميم مشاعر الاضطهاد وعلاقات الاضطهاد، تعبئة نفسية موازية. استعداد دائم للهجوم أو الرد في أية لحظة، الغضب والعنف حاضران دائماً للانفجار.

وبشكل أكثر خفاء تعمم علاقات اضطهادية من النوع الخوافي[1] التطيري[2]، خصوصاً قبل تراكم العدوانية. في الواقع هذه العلاقات وما يصاحبها من ممارسات هي أقرب من حيث شيوعها إلى مرحلة القهر. ولكننا نتحدث عنها هنا لأن الأوالية[3] التي تسيرها هي الإسقاط: الحسد والغيرة، والعين وما تقاوم به من كتابة وأحجية ورقى وتعاويذ، كلها تخفي شكاً وحذراً من الآخرين. كلها تخفي الخوف من المكروه والشر الذي يتوقعه الإنسان من أمثاله عندما يصيبه غنم (رزق، أو ولد). في هذه الحالة يضع الإنسان نفسه في وضعية المحظوظ ويخشى العدوانية الكامنة (الحسد هو الرغبة العدوانية في الحلول محل صاحب الحظ) التي يشعر بها المغبون تجاهه. إنه في الواقع يسقط حسده المزمن لذوي الحظوة على شبيهه هو، ويتمنى أن يكون محظياً ومحسوداً.

كما أن هذه الممارسات تساعد على إسقاط مسؤولية التقصير الذاتي على الآخرين. إذا أصابني سوء أو فشل أو تعثر فليس بسبب قلة حيلة وتدبير، أو جهد، بل لنتيجة حسد الآخرين الذين يتربصون بي ويريدون تحطيمي أو بقائي في موقع الفشل والمعاناة. نلمح من هذه الحالة مدى شيوع المناخ الاضطهادي، ومدى الإحساس بالعدوانية الكامنة لدى الإنسان المقهور.

تلقي إذاً علاقات الاضطهاد، مسؤولية فشل تحقيق الذات الذي يعاني منه الإنسان

---

(1) خواف Phobie.

(2) تطير Superstition.

(3) أوالية Mécanisme.

المقهور، على الآخرين (خصوصاً الأقران والمشابهين)، مما يسمح بتصريف العدوانية المتراكمة بصبها عليهم وتحميلهم وزر المأساة الذاتية. ورغم نجاح هذه الأوالية في تخفيف المأزق الوجودي نسبياً، بالمقارنة مع أوالية الرضوخ، إلا أنها لا تحمل حلاً ملائماً بصفة دائمة. فالاضطهاد مرهق كنمط وجودي، يجعل الإنسان يعيش دائماً في حالة توقع للخطر مما لا يسمح بارتياح كاف. ثم إن الآخرين الذين نصب عليهم نقمتنا ونفرغ عدواننا ليسوا الأعداء الحقيقيين، بالإضافة إلى الصلات الإيجابية التي تربطنا بهم: صلات تعاون وتساند وصلات قربى، وصلات تعاطف نابعة من المأساة المشتركة. العلاقة معهم ليست اضطهادية محضة، ولا هي علاقة تعاطف خالص، إنها من النوع المتجاذب عاطفياً بحيث يختلط الحب والحدب مع العداء والحقد بقدر متفاوت. ولذلك فالحل الاضطهادي يظل واهياً. ولا بد بعد فترة تطول أو تقصر من الوعي بمصدر المأساة الحقيقي، وهو المتسلط الداخلي وحليفه الخارجي!. ولا بد بالتالي من توجيه العدوانية والعنف نحو هذا المصدر، بعد فترة إعداد واختمار تنضج خلالها إمكانية التمرد والانتفاضة.

ثالثاً: مرحلة التمرد والمجابهة

وهكذا فالشعب الذي «ظلوا يقولون له إنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القسوة، يحزم أمره الآن، على أن يعبّر عن نفسه بلغة القسوة» (فانون، معذبو الأرض. دار الطليعة) إن بزوغ فجر الكفاح المسلح «يشير إلى أن الشعب قد قرر أن لا يثق إلا بالوسائل العنيفة»، وأن «الاستعمار لا يفهم إلا بلغة القسوة»[1].

«العنف المسلح هو السبيل الوحيد ليتخلص الشعب المقهور من عقد النقص والجبن والخوف التي غرسها في عروقه الاستعمار الغربي. إنه أيضاً من خلال هذا العنف الثوري يحقق الشعب ذاته، وينقي نفسه من الكسل والخبل والاتكالية»[2]. «يطهر العنف من السموم، إنه يخلص المستعمَر من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فساداً، كما يحرره من مواقفه التأملية البائسة ويبعد عنه الخوف، ويرد إليه اعتباره في نظر نفسه» (بسام الطيبي عن فرانز فانون من كتاب: معذبو الأرض).

يصل المجتمع المتخلف بالضرورة في مرحلة من مراحل تطوره إلى العنف، بعد فترة شيوع العلاقات الاضطهادية. وهنا يتوجه العنف ضد القوى المسؤولة عن القهر (المستعمر والمتسلط الداخلي). يتضح للشعب المقهور أن العنف المسلح هو السبيل الوحيد كي يعبّر عن

---

(1) عباس محمد علي، مجلة «دراسات عربية»، السنة السابعة، العدد 2، بيروت 1970.

(2) د. إبراهيم سعد الدين (عن فانون) مجلة «دراسات عربية»، السنة السادسة ـ العدد 5، بيروت 1970.

نفسه وعن حقه في الوجود. لقد يئس من إمكانية الوصول إلى الحق الذاتي بالرضوخ أو بالعنف الداخلي. ليس هناك من لغة ممكنة من قوى التسلط سوى لغة مماثلة للغتها، لغة القسوة، لغة الغلبة. ومع ترسخ اليأس من الحوار السلمي أو الرضوخ، يترسخ الإحساس بضرورة العنف وإلا تحول الشعب إلى ضحية دائمة ونهائية. نحن هنا أمام الظاهرة التي يسميها علماء الأحياء برد الفعل الحرج والتي تتلخص في الخيار بين الفناء أو المجابهة. وهي تلاحظ عند الإنسان والحيوان على حد سواء. فقد يستسلم الكائن الحي ويرضخ أو يهرب طالما برزت لديه إمكانية للنجاة، ولكن عندما تنعدم هذه الإمكانية يتحول الضعف إلى قوة يستجيب برد فعل حيوي، يعبئ كل طاقاته ويكثفها في دفاع مستميت عن وجوده. ومن المعروف في هذه الحالة أن فئة مستضعفة قد تغلب فئة قوية، أنست إلى قوتها واطمأنت إلى أن الغلبة ستكون بجانبها، ولذلك فهي تستجيب بشيء من التراخي الذي يشكل مقتلاً لها. الكثير من الانتصارات المفاجئة وغير المتوقعة التي حققتها فئة قليلة ضد فئة تفوقها عدة وعدداً، كان للاستجابة الحرجة دور هام فيها.

يمد العنف في مجابهة المتسلط بنوع من الإحساس بالقوة، التي تصبح رمز الحياة. المهمة الأساسية، أو المرحلة الحاسمة في هذه المجابهة هي في التغلب على خوف الموت. إن تحدي الموت وقهره يحمل في النهاية معنى الانتصار على القهر والرضوخ اللذين يعنيان موتاً معنوياً ووجودياً. منذ اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان المقهور بتحدي الموت والظفر عليه يكون قد قلب، من الناحية النفسية الذاتية المحض، معادلة التسلط أو الرضوخ وانتصر على ذاته، مما يتيح له الانتصار على قوى القهر فيما بعد. إن الانتصار على الموت هو قضاء على اجتياف التبخيس الذاتي الذي يعني النقص والمهانة، ويعني بالتالي انعدام القيمة الذاتية. ومن هنا نلاحظ أهمية الشعارات التي تطرح في بداية مرحلة التحدي والانتفاض: استعذاب الموت والشهادة، قوافل الشهداء، تمجيد العمل المسلح. إن الحاجة إلى قهر الموت هي المدخل إلى عملية التحرير. ففي ذلك انتصار على كل العقد الذاتية، انتصار على الخوف والاستكانة، انتصار على اليأس، انتصار على قلق الحاضر والمستقبل، وتحول في المصير. قهر الموت ينسف مشاعر الخوف المتأصلة في نفسية الإنسان المقهور. كما أن العنف ينسف مشاعر التنكر للذات وللجماعة وصب الحقد عليها. إنه يوحد الشعب، يقيم صلحاً بين الذات والجماعة، ويرد إليهما معاً الاعتبار الذاتي، يحفظ كيانهما ويحقق الأمل المشترك في الوصول إلى الإنسانية. ولذلك تنشأ لحمة قوية بين أفراد الشعب المقهور، وتبرز مشاعر الاعتزاز بالانتماء إليه. تتغير دلالة الذات والجماعة من سلبية مطلقة إلى إيجابية مطلقة، من أشد درجات التبخيس إلى أقصى درجات التقدير.

من خلال السلاح يحدث انقلاب جذري في الأدوار، يتحول الضعف إلى قوة. يتخذ

السلاح دلالة مبالغاً فيها تكاد تكون سحرية، فهو درع وحماية، وهو رمز الوجود الجديد. ومن هنا مباهاة الإنسان المقهور باستعراض سلاحه. استعراض كيانه الجديد الذي قضى نهائياً على الرضوخ. يصبح السلاح أو يكاد القيمة الحقيقية الوحيدة. ولذلك يتعرض العمل التحرري إذا لم يكن منظماً ومؤطراً بشكل كاف، إلى نوع من الانتفاضة السحرية. وكأن التحرر كله هو في حمل السلاح الذي أعطى الإنسان المقهور الحرية الذاتية. تنحسر قيمة العمل الصامت طويل النفس (الإعداد والتنظيم) لحساب القتال. وبما أن الحاجة إلى التحرر واستعادة الاعتبار الذاتي ملحة ومزمنة، فإن الشعب المقهور لا يستطيع الانتظار طويلاً، إنه يريد نتائج عاجلة وآنية، عملاً ملموساً يطمئنه، إنه يريد حلاً سحرياً ويستخدم السلاح كعصا سحرية، تقضي على الماضي الأسود البائس إلى غير رجعة.

هذه الحاجة إلى خلاص سريع من خلال القتال، قد تخلق عقبة فعلية في وجه التنظيم والإعداد لمعركة طويلة النفس. من خلال خطر تحول الثورة إلى فورة، واختزال العمل الثوري في مجرد خوض معارك قتال. وتنبع هذه العقبة، كما سنرى بعد قليل، من استمرار تأثير أساليب العمل القديمة والمرتبية القديمة (مرتبية التسلط والرضوخ) فعالة حتى في العمل المسلح والعلاقات الجديدة المسلحة.

لا يعم استخدام القوة كل الشعب مباشرة. لا بد في البداية من قلة تقود هذا العمل. وتتماهى[1] الجماهير بهذه القلة متمثلة شيئاً من بطولتها، وجاعلة منها رموزاً للجماعة. ومن خلال عملية التماهي هذه تكتسب الجماهير شيئاً من الثقة بالنفس والإمكانات الذاتية، وتبرز لديها الحاجة إلى تجاوز استسلامها وشعورها بالعجز. والقلة القائدة فعلاً هي التي تستطيع أن تعمم أسلوب المجابهة عند كل الناس. إذ هناك خطر لأن تظل منفردة في مواقع البطولة، تستقطب الجماهير التي تظل على تبعيتها المزمنة، مع تغيير في التبعية، من متسلط قديم إلى مخلِّص جديد.

عندما ينتفض الشعب المقهور ويحمل السلاح بما يعنيه من معاني الخلاص السحري، ويقهر الموت منتصراً على خوفه منه، يلاحظ تغيّر في التجربة المعاشة والسلوك، هو على النقيض تماماً من مرحلة الرضوخ. فبدل عقدة النقص تبرز عقدة التفوق والاستعلاء، وبدل العجز والاستسلام تبرز عقدة الجبروت[2]، وبدل انعدام المكانة تبرز عقدة الاستثناء. هذا الإنسان الذي حمل السلاح، دون انتماء سياسي منظم وتثقيف كاف، وفي كثير من الأحيان مع توفر هذين الأمرين، يعوض عن نقصه بنوع من التفوق والاستعلاء على من حوله. يحس

---

(1) التماهي Identification.

(2) الجبروت Toute puissance.

بشيء من الجبروت. بأنه وجماعته المسلحة فئة لا تقهر، تنهار أمامها الحواجز والصعاب. يحس بنوع من الاستثناء، فكل شيء مسموح له، وكل التجاوزات. ولذلك فهو يزدري كل القيم السابقة، ويشعر بالحاجة إلى كسر كل القواعد التي حكمت حياته. ويحدث في أغلب الأحوال نوع من التركز حول الذات، فكأن العالم كله يجب أن ينتظم انطلاقاً منه هو وتبعاً لوضعه. هناك تضخم ذاتي يقابله انحسار في قيمة وأهمية المحيط، على العكس تماماً من مرحلة الرضوخ. هذا التضخم يؤدي إلى سيطرة مزاج نفاجي[1] على الإنسان، نوع من الإحساس بالامتداد والعظمة. فبدل الاجترار السوداوي وما يرافقه من إدانة للذات وانحسار لها وجمود للديمومة ويأس من المستقبل، نلاحظ أن الإنسان المقهور الذي حمل السلاح وقهر الموت، يعيش نوعاً من السيادة على مصيره. كأن الزمن قد أذعن له، فتكتسب الحياة دينامية متسارعة، وتسود العجلة، وتظهر التصرفات الاهتياجية[2] بما فيها من تسرع وطنين وصخب، ويبدو كل شيء في متناوله، يطغى نوع من الحبور على الحالة المزاجية، ويصطبغ المستقبل بالتفاؤل المفرط والمبالغ فيه دون سند كاف من الواقع. هذه الحالة إذا كانت حتمية في بداية العمل المسلح، فإنها تحمل خطر التحول من خلال ترسخها والثبات عليها (لما تحمله من إرضاءات وتعويضات نفسية) إلى عقبة أمام عملية التحرر طويلة الأمد، التي تتطلب الكثير من الجهد الصامت والتعامل الصبور مع الواقع بكل تفاصيله. إذ إن سيطرة المزاج النفاجي والحالة النفسية الاهتياجية تلغي الواقع تماماً من خلال ازدرائه، وهنا مكمن الخطورة فيها، وضرورة التنبه لها. فمن الممكن إلغاء الواقع سحرياً، ولكن ذلك لن يغيره بحال من الأحوال. تلك مشكلة توقف عملية التحرير عند حد ردود الفعل التعويضية[3].

من الأخطار التي تنتشر في هذه المرحلة، نظراً لغياب الأطر المرجعية الجديدة (التغييرية) وعدم حلولها محل الأطر المرجعية السابقة، استمرار هذه الأطر، وممارسة العمل المسلح من خلال مرتبية التسلط والرضوخ. نقصد بذلك تحديداً مسألة التماهي بالمتسلط في استعمال العنف والسلاح. فالإنسان المقهور الذي حمل السلاح دون ثقافة سياسية كافية، توجه وضعه الجديد، قد يقلب الأدوار في تعامله مع الجمهور أو مع من هم في إمرته فيتصرف بذهنية المتسلط القديم. يبطش، يتعالى، يتعسف، يزدري، وخصوصاً يستغل قوته الجديدة للتسلط والاستغلال المادي والتحكم بالآخرين. أو هو يمارس العمل المسلح بذهنية عشائرية، يتمسك بالانتماء العشائري والإقليمي في تعامله مع الآخرين جمهوراً ومسلحين،

---

(1) نفاج Mégalomanie.

(2) الاهتياج Massie.

(3) رد الفعل التعويضي Réaction de compensation.

مما يوقعه في تحيزات تشكل عقبة فعلية في وجه التحرر الحقيقي. ومن الإشكالات الشائعة في هذه المرحلة الانشطار[1] الذي يحدث بين مختلف قطاعات الحياة والشخصية، بين الثقافة الثورية النظرية والممارسة المسلحة والحياة اليومية. فهو متحدث ممتاز في النظريات الثورية، ولكنه يمارس العمل المسلح بشكل سحري، ويعيش حياته اليومية بشكل عشائري أو مرتبي (يتحكم بالآخرين، يعامل زوجته وأولاده بشكل تسلطي، الخ. .) كل تلك أمور قد يكون لنا وقفة ثانية عندها.

التخلف ظاهرة كلية، وعلاجها يجب أن يكون شمولياً، يتنبه إلى كل مواطن مقاومة التغيير التي يتضمنها ويتصدى لها بنفس طويل. وأشد نقاط المقاومة استعصاء على التغيير هي البنية النفسية التي يفرزها التخلف، بما تتميز به من قيم ونظرة إلى الكون. فكما أن الآلة، نتاج التقنية المتقدمة، قد يعاد تفسيرها كي تستخدم بشكل خرافي أو سحري في البلد النامي، كذلك عملية التغيير الجذري (الثورة) قد يعاد تفسيرها كي تمارس من خلال الأطر المتخلفة وتفقد بالتالي قدرتها التغييرية.

---

(1) الانشطار Clivage.

الفصل الثالث

العقلية المتخلفة

لا بد لأي دراسة نفسانية للتخلف، من وقفة هامة عند العقلية التي تحكم السلوك وتحدد النظرة إلى الكون. العقلية المتخلفة أو الذهنية المتخلفة، تحتل مكاناً بارزاً في الآراء الشائعة عن التخلف، حتى يكثر الربط بين هذه الظاهرة ونمط التفكير والنظرة إلى الأمور. فالتخبط الذهني، والفوضى، والعشوائية، وسوء التخطيط والارتجال كلها تعد من ملامح التخلف الأساسية.

تنبع أهمية دراسة الذهنية المتخلفة وخصائصها من الدور الحاسم الذي يلعبه الفكر في تقدير الواقع وتكوين الأحكام الموجهة للسلوك. هذه العقلية إذا اتصفت ببعض الخصائص التي تجعل ملامستها للواقع سطحية، عاجزة عن الغوص فيه والسيطرة عليه، وإذا اتسمت بالجمود والقطيعة، تؤدي إلى خلق عقبات معرفية جدية تعرقل خطط التنمية التي لا بد أن تنطلق من التقدير الدينامي الشمولي لذلك الواقع. إنها تعطي المبررات الذهنية لمقاومة التغيير. والأخطر من الأمرين معاً احتمال إعادة تفسير المنهجيات النظرية والأساليب التقنية المستخدمة في التنمية، من خلال القوالب التقليدية للذهنية المتخلفة، مما يفقدها بدورها قدرتها التغييرية، أو على الأقل يحد منها إلى درجة كبيرة.

لا بد لنا أن نكون منهجيين في دراستنا للعقلية المتخلفة. وأول شروط هذه المنهجية الاعتراف بحدودنا الذاتية. إن ما سنستعرضه في هذا الفصل من خصائص الذهنية المتخلفة وأسبابها الممكنة، لا يعدو كونه محاولة أولية لا تدعي الشمول في عرضها للواقع، ولا تدعي لذلك القطيعة. فهي عبارة عن محاولة مبدئية لتنسيق معطيات الملاحظة والمعايشة اليومية للنمط المتخلف من النظرة إلى الوجود، والتعامل مع ظواهره. إنها لا تستند إلى بحث تجريبي أو استقصاء يغطي الظاهرة ويسمح باستنتاجات نهائية. المهمة المطروحة أمامنا في هذا الفصل، هي بكل بساطة محاولة رسم صورة تدخل بعض التنظيم، تعرض بعض الخصائص الأساسية

وأسبابها. وهي تصل غايتها إذا تمكنت من طرح تساؤلات حول ما تتضمنه من ثغرات تشكل منطلقاً لأبحاث ميدانية أكثر تحديداً.

الحديث عن العقلية المتخلفة يتضمن مرحلتين. الأولى رصد الملامح والخصائص الأساسية، أما الثانية فهي محاولة بحث الأسباب والقوى المولدة لهذه العقلية، التي تغذيها وتعمل على استمرارها.

أولاً: الخصائص الذهنية للتخلف

الملامح الذهنية للتخلف متعددة ومتنوعة. قابلة للانتظام في موضوعات أساسية، وأخرى متفرعة عنها تبعاً للمنظور الذي يتخذه الباحث. ونحن لا يسعنا أن نكتفي بمجرد سرد هذه الملامح وتوضيح كل منها، بل لا بد من تبيان الرابطة بينها، ما أمكن، من خلال تصنيف يبدو لنا أكثر منطقية وواقعية من سواه: هناك من ناحية خصائص ذهنية منهجية، ومن الناحية الأخرى خصائص ذهنية انفعالية. ترتبط الأولى باضطراب منهجية التفكير، وقصور التفكير الجدلي. أما الثانية فتختص بتبيان تدخل العوامل الذاتية والعقلانية في النظرة إلى الوجود. هذه النظرة تختلف في البلدان المتقدمة عنها في البلدان النامية. فبينما الأولى تسير نحو مزيد من التجرد من الانفعال وتنحو نحو الموضوعية، نرى الثانية ما زالت أسيرة الانفعال والذاتية والغيبية، وخصوصاً أسيرة نظام القهر (التسلط والرضوخ)، الذي يحكم الوجود المتخلف. على أن تقسيماً كهذا لا يعني انفصالاً على مستوى الواقع والممارسة. فالعقلية المتخلفة هي جزء من ظاهرة كلية. هي الوجود المتخلف الذي يتصف بالدينامية والتماسك الداخلي.

1 ـ الخصائص الذهنية المنهجية

وهي الأكثر ألفة بين الناس حين الحديث عن التخلف من الناحية العقلية. وتتلخص في أمرين أساسيين: اضطراب منهجية التفكير من ناحية، وقصور الفكر الجدلي من ناحية ثانية. ويتلخص الخلل في الحالتين بصعوبة السيطرة الذهنية على الواقع بكل تفصحاته. هناك عجز عند الإنسان المتخلف (المقهور خصوصاً) إزاء ظواهر الطبيعة والحياة والعلاقات، تجعله راضخاً مستسلماً تجاه ما يبدو عليها من غموض وتداخل. تبدو له ظواهر الحياة والمجتمع أقوى من طاقته على الاستيعاب. ذلك أمر مرتبط بعقدة النقص التي ناقشناها في الفصل السابق. وهو لذلك يتوسل وسائل سحرية أو خرافية لسد النقص هذا. من وجهة نظر التحليل النفسي يأخذ الأمر على المستوى اللاواعي طابع الخصاء الذهني[1]، الذي يميز بعض

---

(1) الخصاء الذهني Castration mentale.

حالات الضعف العقلي الزائف[1]. ويتلخص الخصاء الذهني بنوع من صد[2] القدرة على الفهم، بنوع من العجز عن توكيد الذات في مواجهة العالم. أما من الناحية الاجتماعية فيرجع الأمر إلى رضوخ الإنسان المتخلف لاعتباط قوى الطبيعة، وتسلط الفئة المسيطرة. هذا الرضوخ هو المسؤول عن توليد حالة الخصاء الذهني التي نحن بصددها، والتي تشكل الامتداد النفسي لوضعية القهر الاجتماعي. وهكذا فالإنسان المتخلف لا يقبل على العالم بخطى ثابتة، يبدي التردد ويتجنب وضع إمكاناته موضع الاختبار خوف الفشل، وقد يذهب في ذلك إلى درجة يدّعي معها عدم القدرة سلفاً حتى لا يصاب بخيبة أمل أو حتى لا يتضح عجزه. يبدو هذا الموقف واضحاً أمام كل الظواهر غير المألوفة، إزاء كل مستجد أو غريب. أو هو يميل إلى التعسف هرباً من عجزه فيطلق الأحكام المسبقة والآراء المتسرعة مدعياً القدرة على آنية الفهم وفجائيته، دون أن يجشم نفسه عناء الجهد الفكري الضروري لتحليل الواقع، والوصول إلى استنتاجات بشأنه. في الحقيقة يتذبذب الإنسان المتخلف ما بين الشعور الشديد بالعجز عن استيعاب العالم، وبين طغيان مشاعر السيطرة على الواقع من خلال الحذق (الفهلوة)، الذي يعتد به الجمهور كوسيلة مفضلة للفهم.

1.1. اضطراب منهجية التفكير

أول ما يطالعنا في اضطراب منهجية التفكير هو سوء التنظيم الذهني في التصدي للواقع. تقترب الذهنية المتخلفة من الواقع وتتعامل معه دون خطة مسبقة ذات مراحل منطقية واضحة سلفاً. الفوضى والعشوائية والتخبط والمحاولة شبه العمياء هي المميزة. وهكذا فبدلاً من تنظيم الواقع والسيطرة عليه تزيد من حدة ما يبدو عليه من فوضى وانعدام في التماسك. يقع الإنسان المتخلف في الغموض والحيرة مما يجعله يلجأ إلى التمنيات بخروج سحري من المأزق. ففي مناقشة مسألة ما مثلاً، نجد الحديث يتشعب، ويذهب كل مذهب، في حالة من تداعي الأفكار التي تبتعد تدريجياً عن الموضوع الأصلي، ثم تعود إليه كي تطرح قضايا جديدة تكون بدورها منطلقاً للانجراف في أمور جانبية. وهكذا يخرج المجتمعون بعد نقاش طويل دون تكوين تصور واضح عن المسألة وإيجاد الحلول لها. تطرح عدة قضايا تظل جميعاً معلقة لا يذهب التفكير فيها أبعد من السطح، ويتحول عنها عند الاصطدام بما تتضمنه من عقبات وصعوبات تتطلب جهداً لاستجلائها وحلها.

بينما نرى العقلية المنهجية تتقيد عادة بعدة خطوات في بحثها لأي مسألة، يبدأ الأمر بمحاولة تعريفها بأكثر ما يمكن من الدقة والوضوح، ثم نحدد الهدف المطلوب الوصول إليه

---

(1) ضعف عقلي زائف Pseudo - débilité.

(2) صد Inhibition.

من هذا البحث. بعد التعريف وتحديد الهدف تأتي خطوة بحث المشكلات التي تتضمنها. وهذه تقسم إلى أساسية وثانوية مع تبيان العلاقة بين الفئتين. الخطوة التالية هي جمع المعلومات والمعطيات المتوافرة عن المسألة في مختلف جوانبها ومستوياتها. وفرز هذه المعلومات من حيث أهميتها ومدى تمثيلها للواقع. عند هذا الحد يصبح ممكناً طرح تصورات متعددة عن الحلول الأنسب تبعاً للهدف المقرر. هذا الطرح يتلوه مناقشة كل حل ومدى فعاليته، وما يعترضه من صعوبات وما يتضمن من تسهيلات. وانطلاقاً من هذه المناقشة للحلول يمكن ترجيح الحل الأنسب تبعاً لإطار المشكلة وظروفها من ناحية، وللهدف المحدد من ناحية ثانية. وأخيراً ترسم خطوات ومراحل التنفيذ وأدواته وأساليبه. طبعاً لا يأخذ الأمر دوماً هذا التسلسل المنهجي المتين. إنما في الذهنية المتقدمة هناك باستمرار تنظيم للتفكير واسترشاد بإطار منطقي يمكن الباحث من العودة إلى الطريق السليم، إذا انجرف في اعتبارات جانبية.

أما الذهنية المتخلفة فهي تغرق في التخبط عند كل مرحلة من المراحل السابقة. كما تقفز من مرحلة أولية إلى مرحلة نهائية كي يتضح لها العجز عن متابعة السير، فتعود القهقرى إلى الوراء. وتظل هكذا بين إقدام وإحجام، لا تستطيع أن ترجح حلاً على آخر. وهي إن فعلت فأغلب الظن نتيجة لتدخل عوامل ذاتية وانفعالية أكثر منها مراعاة لاعتبارات منطقية. ومن هنا ندرك مدى الهدر في الوقت والجهد الذي تتعرض له العقلية المتخلفة، ومدى التذبذب وانعدام اليقين، نظراً لافتقار الحلول إلى المتانة المنطقية.

ولا يتوقف هذا التخبط والمحاولة والخطأ على بحث الأمور النظرية، بل هو النمط الشائع في التصدي للحياة بقضاياها اليومية. حتى إن العمل المهني لا يسلم من هذا التخبط. فنجد العامل مثلاً يقدم على تصليح آلة ما عن طريق المحاولة والخطأ، وهو ليس على يقين من مصدر العلة ولا من احتمالات النجاح في علاجها. يرجع هذا الأمر بطبيعة الحال إلى الجهل في أغلب الأحيان، والإقدام على ممارسات يفتقر فيها العامل إلى التخصص الكافي. ولكنه نظراً لحاجته لكسب قوته يدعي المعرفة فيما لا خبرة له فيه، فإذا نجح كان ذلك حظاً وتوفيقاً، وإذا فشل فإنه يغطي فشله باختلاق أعذار وتفسيرات تبدد جهد ومال من استعان بخدماته.

وإذا كان التخبط واعتباطية الالتماس يميزان أسلوب الفئات غير المتعلمة، فإنهما لا يقتصران عليها مطلقاً. إنهما على درجة كبيرة من الانتشار بين أغلب فئات المتعلمين، حتى أولئك الحاصلين على الدرجات الجامعية. على المستوى الجامعي يلاحظ المرء مدى الصعوبات التي تعترض الطلاب من الناحية المنهجية. هناك عجز شبه تام عن اتباع المنهج المنطقي في عرض الأمور، ذلك هو السبب المباشر لفشل نسبة هامة من الطلاب في الامتحانات، رغم حفظهم المادة عن ظهر قلب. إنهم لا يعرفون ماذا يختارون للإجابة، ولا يعرفون كيف

يعرضون المادة المختارة، مما يجعل إجابتهم أقرب إلى تداعي الأفكار منها إلى عرض منظم للموضوع. تبلغ هذه الصعوبة أقصى درجاتها حدة في الدراسات العليا. تبعاً لخبرتنا الشخصية، يمكننا القول إن العجز المنهجي هو العقبة الأساسية التي يصطدم بها الراغب في القيام ببحث علمي. يبدو القصور مذهلاً على هذا المستوى، وهو الذي يصرف غالبية هؤلاء عن متابعة مشاريعهم، بعد نجاحهم في امتحان الدروس النظرية. عندما نطلب إلى الواحد منهم وضع تصميم للموضوع الذي اختاره يعجز عن تحديد ماذا يريد أن يبحث وكيف. الغموض يسيطر عليه لدرجة اليأس إذا لم يلق مساعدة هامة من المشرف على بحثه. التشوش والتداخل يجعلانه عاجزاً عن الاستفادة من معلوماته.

لا يقتصر الأمر على الطلاب، بل نجد الكثير من المؤلفين الجامعيين يفتقرون إلى الدقة والتنظيم المنهجي في كتاباتهم. إنهم يذهبون في كل اتجاه، ويتحدثون عما يلائم وما لا يلائم الموضوع، ويقعون في التكرار، مما يجعل كتاباتهم أقرب إلى تكديس المعلومات منها إلى تنسيقها. إن الذهن المتخلف ما زال عاجزاً عن إدخال التنظيم على الواقع، لأنه يفتقر هو ذاته إلى التنظيم والمنهجية، ويعيش في التخبط والعشوائية.

ويرتبط بمسألة انعدام المنهجية قصور عمليات التحليل والتوليف كخطوتين مترابطتين ومتتابعتين في بحث المسائل. يظل الإنسان المتخلف على مستوى الملاحظة الساذجة والانطباعات الأولية، مما يدفع به إلى الاكتفاء بالمعرفة الحدسية التي لا تذهب بعيداً عادة في البحث العلمي، إذ إنها تشكل مرحلة أولية منه. وهكذا يظل على السطح، لا يمسك من الظواهر إلا جوانبها الخارجية. هناك عجز عن الغوص في تحليل التفاصيل والمقارنة بينها. وهنالك عجز عن استعراض مختلف جوانب المسألة. يظل التفكير انطباعاً قاصراً عن الالتماس النقدي (ما لكل أمر وما عليه). إن تحليل الظواهر عمقاً واتساعاً هو الشرط الأساسي للسيطرة على الواقع. وبمقدار عمق التحليل ترتقي الاستنتاجات. يعجز الذهن المتخلف عن الذهاب بعيداً في تحليله للأمور، لأنه لا يدرك أن لكل ظاهرة مستويات متعددة من العمق والاتساع. وأنها تبدو مختلفة تبعاً لكل مستوى. والخطر كل الخطر هو الاكتفاء بالمستويات الخارجية التي تشكل عادة قناعاً يخفي الحقيقة بقدر ما يعبّر عنها. خطر هذا الموقف المتسرع، يتلخص بإطلاق الأحكام القطعية والنهائية بشكل مضلل. فالحقيقة نسبية دائماً وقيمتها رهن بالمستوى التحليلي الذي بنيت على أساسه. كل حقيقة تخفي وراءها أخرى أكثر محورية منها. كل حقيقة هي بهذا المعنى قناع، لا بد من تجاوزه عمقاً واتساعاً إذا أردنا الارتقاء بالمعرفة الإنسانية للوجود.

يبدو وكأن الذهن المتخلف العاجز عن الغوص في تحليل الظواهر عمقاً واتساعاً،

مصاب بنوع من الصد المعرفي، بشيء مما يسمى في علم النفس اسم «الحشرية الممنوعة». فهو أسير النقاط العمياء في عملية الإدراك التي تظل قاصرة ومليئة بالثغرات. ويرتبط هذا الأمر بما عرضنا له من عجز أساسي عن السيطرة على الواقع، ومن شعور بالنقص تجاه ظواهر الطبيعة والعلاقات.

لا يقف الأمر عند حدود العجز عن التحليل الشامل، بل يتخذ مظهراً آخر هو صعوبة الانتقال من هذا التحليل إلى مرحلة التوليف[1]. ليس للتحليل من قيمة عملية إلا بالقدر الذي يسمح معه بالخروج بتصورات متماسكة عن الواقع، تؤدي إلى قرارات ومواقف فعالة. وكما أن هناك عجزاً في استعراض مختلف جوانب الظاهرة، هناك أيضاً عجز في الربط بينها في وحدات كلية، وعجز في إعادة ترتيبها في صيغ جديدة. فالفكر الخلاق هو ذاك القادر على إعادة تفسير الوقائع، أي بلغة مدرسة الشكل[2] إعادة ترتيبها في علاقات جديدة توضح خصائصها التي كانت غامضة، مما يجعل الواقع يبدو أكثر شفافية وتماسكاً. الذهن المتخلف يظل حائراً أمام شتات الظواهر، لا هو بقادر على النفاذ إلى لبها، ولا هو بمستطيع إعادة ربطها فيما بينها في صيغ جديدة، ولذلك فهو يصطدم بصعوبات الحل. كما أنه يعاني من صعوبات في الانتقال من مرحلة التفصيلات، إلى مرحلة التنسيق الكلي. ويرتبط هذا الأمر بخاصية الجمود والقطيعة التي يبدو أنه يتصف بها. فهو يعمل، كما سنرى في الفقرة التالية، تبعاً لمبدأ «إما، أو» عاجزاً عن جمع الطرفين معاً.

وبهذا المعنى فإن الذهن المتخلف يعاني من قصور الفكر النقدي، إنه متحيز بشكل تلقائي نظراً لتدخل العوامل الانفعالية والعاطفية في أوالية التفكير. وهو قطعي في تحيزه، فإما أن يكون مع أو ضد أمر ما. ويبدو قصور الفكر النقدي بالتالي من خلال العجز عن الجمع في سياق واحد بين الأوجه الموجبة والأوجه السالبة لمسألة ما، بين المميزات والعيوب. فقط هذا الجمع يسمح بتلطيف الأحكام، وزيادة قدرتها التمييزية، وبالتالي زيادة فعاليتها من خلال التقدير الفعلي لوزن ومدى الأوجه المختلفة للظاهرة. إن هذا القصور في الفكر النقدي هو نتيجة طبيعية للانفعالية المسيطرة على عقل الإنسان المتخلف. هذه الانفعالية هي بدورها، كما سنرى نتاج مباشر لسيطرة نظام التسلط والقهر على وجوده، ذلك النظام الذي ينسف كل منطق، ويعطل كل عقلانية.

بالإضافة إلى قصور عمليات التحليل والتوليف، وقصور التفكير النقدي، يتسم الذهن المتخلف بانعدام المثابرة. التركيز على التفكير في أمر ما محدود زمنياً، سرعان ما يداخله التعب

---

(1) توليف Synthèse.

(2) مدرسة الشكل ـ علم نفس الشكل (Gestalt) école de la forme.

والتشتت، ينطلق بحماس كبير ولكنه يفقد حماسه بالسرعة نفسها التي بدأ فيها. إن حماسه والتزامه بلا غد. ولذلك تكاد الخطط بعيدة المدى تصبح مستحيلة. إنه بحاجة إلى نتائج آنية وشبه سحرية. ولا قدرة له على الجهد الطويل النفس المركز حول المسألة نفسها. وينتج هذا الأمر، كما اتضح لنا في الفصل السابق عن اضطراب الديمومة. ولهذا يصعب على الإنسان المتخلف أن يكون باحثاً متخصصاً، لأن البحث يحتاج إلى جهد دؤوب ومثابرة تتغلب على صعوبات البداية، وصعوبات وملل مرحلة الإعداد والاختمار قبل الوصول إلى النتائج. تلك نتيجة منطقية لعالم يحكمه الحظ والحظوة ولا مكان فيه للارتقاء من خلال الجهد الذاتي البعيد المدى. إنه نتيجة اليأس من إمكانية الوصول من خلال الجهد الذاتي. وهكذا يظل الطابع السائد في المجتمع المتخلف لمواجهة الأمور، هو طابع تدبير الحال، طابع البحث عن المناسبات التي تحمل إمكانات النجاح السريع.

من السمات البارزة أيضاً للعقلية المتخلفة في تقديرنا، انعدام الدقة والضبط في التصدي للواقع، وفي تقدير الأمور. كل شيء يظل على مستوى التقدير الإجمالي والانطباع العام. الدقة الرياضية لا مجال لها في العالم النامي. كل شيء عرضة للتهاون والتراخي والتساهل حتى الاستهتار. نلمح ذلك في مختلف أشكال الالتزام تجاه الآخرين: الالتزام بالواجبات، الالتزام بالمسؤوليات، الالتزام بالتعهدات التي قطعها الإنسان على نفسه، الالتزام بدقة المواعيد. العالم النامي يطفو على سطح الظواهر ويكتفي بعمومياتها. كل شيء يعمل كيفما اتفق، من تصليح الآلة، إلى تنفيذ المهمات، إلى مسائل الإنتاج ووضع خطط مختلف المشاريع. إن مقدار الدقة والضبط في التعامل مع الواقع والآخرين يدل على مدى السيطرة على الوجود، ومدى تنسيقها تحديد المسؤوليات والالتزامات. ولا غرابة إذاً في فقدان العقلية المتخلفة للضبط والدقة، ما دام الإنسان يعيش في حالة تعمية للمسؤوليات وتنكر للالتزامات ورضوخ لاعتباط الطبيعة وقهر المتسلط.

تتلخص كل الخصائص السابقة في العجز عن التخطيط، فالذهنية المتخلفة تنظر إلى الواقع بشكل تجزيئي زمانياً ومكانياً. من الناحية الزمنية يغلب عليها التركيز على الحاضر، الانحسار ضمن حدود آنية، الأفق المستقبلي يظل ضيقاً ولا يصل مستويات بعيدة المدى. بينما يخطط العالم المتقدم لعدة سنوات وحتى لعشرات السنوات مع تقسيم للمراحل، نجد العالم النامي يعيش ليومه. يلاحظ أحياناً نوع من الحماس للتخطيط فتوضع خطط (ثلاثية، وخمسية الخ. .) ولكن ندر أن تنفذ، ومن الأندر، إذا نفذت، أن تصل غايتها. توقف الخطة بعد فترة تطول أو تقصر، تحور وتبدل مما ينسف جوهرها، مع ما في ذلك من تبديد خطير للجهد والإمكانات التي يحتاجها العالم الثالث أكثر من غيره. وتظل الأمور على حالها من التخبط. يلاحظ هنا أن المسؤولية لا ترجع فقط إلى قصور القدرة على التخطيط، بقدر ما

ترجع إلى انعدام رغبة من هم في موقع المسؤولية في التنفيذ. توضع الخطط لإيهام الجمهور بمستقبل يضع حداً لآلامه، وتظل في النهاية من نوع الإلهاء وامتصاص النقمة.

إن الآنية، العيش في الحاضر وانسداد آفاق المستقبل، هي إحدى الخصائص النفسية للوجود المتخلف، إنها نتيجة تعرّض الإنسان المقهور لاعتباط قوى الطبيعة وقوى السلطة، وهي أيضاً نتيجة انعدام الضمانات الحياتية، فالإنسان الذي فقد السيطرة على مصيره يستحيل عليه التخطيط لهذا المصير، ويظل بالتالي أسير الظروف. يعيش ليومه غير عارف ما يمكن أن يحمله الغد. إن التخطيط باعتباره وسيلة للسيطرة على المصير وتوجيهه وجهة ملائمة للإنسان، يشكل تحدياً فعلياً للإنسان المتخلف لأنه لا يملك أسبابه. ولذلك فإن عجز هذا الإنسان يسير عموماً في اتجاه التفاقم. نظراً لأن التخبط والعيش في اللحظة الراهنة يرسخان وضعه. وهكذا يتقلب الإنسان المتخلف ما بين التفاؤل والتشاؤم تبعاً لطبيعة اللحظة الراهنة التي يمر فيها، يفرط في تفاؤله أمام الظفر العابر، ويفرط في تشاؤمه أمام الانتكاسة الآنية.

أما مكانياً، فالإنسان المتخلف يظل تجزيئياً، يعجز عن النظر أبعد من دائرة ضيقة، هي حدود محيطه المباشر. إنه عاجز عن الشمول، وعن استشفاف آفاق بعيدة، عن وضع خصائص المحيط المباشر في أطر أكثر اتساعاً وعمومية. هذا الانحسار لحدود المجال الحيوي الذي يعيش ضمنه الإنسان المتخلف يؤدي عموماً إلى بروز، أو ترسيخ ظواهر نكوصية[1] في التفكير، الذي يكتسب ساعتئذ خصائص طفلية وبدائية. وهي بدورها تزيد من درجة التوتر الانفعالي الذي يفقد الذهن صفاءه وشموله، ويلقي به في مزيد من الآنية والعينية. وهكذا يجد الإنسان المتخلف نفسه متمسكاً بالمحسوس والملموس ومكتفياً بما هو آني. ويؤدي انحسار المجال الحيوي على هذا الشكل إلى تضخيم الأمور حتى التافه منها. تأخذ القضايا البسيطة أبعاداً مفرطة في حدتها لدرجة تطمس معها رؤية ما عداها، واستشفاف ما يتجاوزها. إن هذه القضايا البسيطة تطغى على وجود الإنسان المتخلف حتى تشكل محوره. وبالتالي يتوجه السلوك انطلاقاً من هذه المحورية الضيقة مما يجعل قدرته على التصدي للواقع ضئيلة أو شبه منعدمة، طالما أن الثانوي يحتل إمكانية التكيف، ويفسح المجال أمام الانفعالات والتفكير السحري للبروز والسيطرة على الإدراك والممارسة. يتوقف مستوى التكيف عموماً على اتساع المدى الزماني والمكاني للإدراك. هذا الاتساع كلما كان شاملاً ساعد على التفكير الخلاق والسلوك الناجح المبتكر. إنه وحده الذي يسمح بسلوك الالتفاف[2] الذي يشكل أحد الشروط الأساسية للسيطرة على الواقع. ويتلخص هذا السلوك في الابتعاد الآني عن الهدف

---

(1) نكوص Regression.

(2) سلوك الالتفاف Conduit de détour.

للوصول إليه بشكل أكثر فعالية ودواماً من خلال سلوك مسارات غير مباشرة. ذلك ما يميز إجمالاً السلوك الاستراتيجي الذي يتضمن تخلياً جزئياً أو خسارة مؤقتة من أجل نجاح أكبر.

عندما توضع الظواهر المحلية في إطار أعم وأشمل تأخذ حجمها الطبيعي، ضمن نظام عام من القوى، مما يسمح بسيطرة أكبر على الواقع. إن السيطرة على المصير رهن في النهاية بمدى شمولية النظرة زمانياً ومكانياً. بذلك يحتل العقل دوره الحقيقي في توجيه الحياة. وبذلك ينحسر طغيان الانفعالات وما يرافقها من نكوص.

لا يقتصر الأمر على المستوى الفردي، بل إن التخطيط الرسمي يشكو في البلدان النامية من جزئية النظرة ومحدوديتها. توضع مشاريع كثيرة وتصرف عليها الأموال الطائلة، ولكنها تظل مشاريع معزولة أو قطاعية، لا تدخل ضمن تخطيط شامل، ولا تدرس أبعادها ونتائجها انطلاقاً من حالة مختلف قطاعات المجتمع. فالتصنيع مثلاً يتخذ في الكثير من الأحيان شكل المشاريع الرائدة، أو المجمعات الكبرى، أو جزر الصناعة الثقيلة، دون إعداد كاف وتخطيط مستفيض. وبالتالي تقع هذه المشاريع في مآزق متعددة بعد فترة غير طويلة من الزمن: فقدان الأطر الفنية، فقدان القدرة على الصيانة، فقدان التبصر بتأثيرها على التوازن الاجتماعي والسكاني والسلوكي، يضاف إلى ذلك فقدان القدرة على تطوير هذه المشاريع، مما يجعلها تقع في السكونية فتصبح قديمة، سرعان ما يتجاوزها التجديد المتصاعد في البلدان الصناعية. وهكذا تتحول في بعض الحالات إلى نوع من هدر الثروة القومية، دون أن تؤدي إلى التطوير الاجتماعي المرتجى. ليس هذا الهدر غريباً في الواقع على جشع أوساط المال والصناعة في البلدان المتقدمة، تلك الأوساط التي لا تفكر إلا باصطياد فرص الربح الأكبر والأسرع التي توفرها البلدان النامية. وهكذا تزين هذه الأوساط من خلال الخبراء الذين يبدون محايدين وعقلانيين، مشاريع ضخمة تدغدغ نرجسية الحكام وحاجتهم إلى الشعور بالعظمة، من خلال المظاهر الطنانة الدعائية. تقام هذه المشاريع التي تصور كمفخرة قومية، في إطار عام متخلف عاجز عن استيعابها والاستفادة منها بالشكل المرجو، وإذا بالعقبات الإنتاجية تبرز تباعاً بعد فترة لا تطول. ولا يستبعد أن يأتي خبراء آخرون ليكتشفوا أخطاء كبيرة في إنشائها، ولا يستبعد أن يقرروا عدم ملاءمتها أصلاً لذلك المجتمع، مما يؤدي إلى قرارات بإلغائها أو تجميدها. الأمر الأكيد في رأينا، أنها ليست مطلقاً مسألة مصادفة، أن لا تحدث اكتشافات مأسوية بهذا الشكل إلا في المشاريع الطنانة التي تقام في البلاد النامية.

2.1. قصور التفكير الجدلي

قصور التفكير الجدلي هو لب الذهنية المتخلفة. فهي جامدة قطعية، وحيدة الجانب، تتبع مبدأ السببية الميكانيكية، عاجزة عن العمل تبعاً لمبدأ التناقض. ويلاحظ هذا القصور في

مختلف النشاطات وعلى مختلف الأصعدة ومختلف مستويات المسؤولية. وذلك ما حدا بأحد الباحثين[1] إلى الحديث عن التخلف في العمل السياسي، باعتباره أساساً عجزاً عن استخدام المنهج الجدلي بمختلف مبادئه.

تنطلق الذهنية المتخلفة في نظرتها للأمور من مبدأ العزل والفصل. الشيء قائم بذاته، منفصل عن بقية الأشياء والظواهر. تطلق حكماً تقويمياً نهائياً بشأنه، من خلال إطلاق صفة الثبات عليه، الأشياء هي ما هي عليه. على العكس من ذلك نجد المنهج الجدلي يقول بالدينامية والصيرورة من ناحية، وبالتحديد العلائقي من ناحية ثانية. الشيء لذاته هو تجريد فارغ لا حياة فيه. كل شيء هو لذاته وللآخرين، كل شيء هو دوماً في علاقة، أو مجموعة علاقات مع أشياء أخرى. ليس الإنسان وحدة منعزلة، بل هو جملة العلاقات الأساسية التي يقيمها مع الآخرين والتي ينغرس فيها تاريخياً. إنه جملة الدلالات التي يأخذها انطلاقاً من هذه العلاقات، بينما تظل النظرة المتخلفة للواقع تفتيتية تكديسية، تعزل الظواهر بعضاً عن بعض، لتعود فتكدسها بدون إدراك علاقات الترابط، القائمة بينها بالضرورة، مما يجعل العالم يبدو كفسيفساء لا لحمة بينها. كما أن هذه الذهنية بعجزها عن النظرة الكلية الدينامية، لا ترى من الأمور إلا جانباً واحداً فقط. إنها تخفق في إدراك الترابط والتفاعل الشبكي والتاريخي بين الظواهر، وما ينتج عنه من حركية وتغيّر.

تتحكم نظرية الجوهر الثباتية بالنظرة المتخلفة إلى العالم. فالأشياء تبدو ساكنة بصفة مستديمة، ويبدو العجز واضحاً عن رؤية التحولات الحتمية في هذه الأشياء. وعندما تدرك الحركة في ظاهرة ما، فهي تدرك كحركة ميكانيكية، تذهب في اتجاه واحد، صاعداً أو هابطاً لا تستطيع أن ترى ترابط القفزات، وتكامل حركة التقدم وحركة التقهقر كوحدة جدلية. إنها تعجز عن «إدراك الصيرورة الزمنية على أنها قفزات متناقضة ولكنها مترابطة ومحددة لبعضها البعض، وليست خطاً متواصلاً صاعداً»، (د. نديم البيطار، المرجع السابق).

تنطلق الذهنية المتخلفة من مبدأ السببية الميكانيكية في النظر إلى الأمور، السببية ذات الاتجاه الواحد: سبب معين يؤدي إلى نتيجة معينة، التأثير يأتي من السبب ويؤدي إلى النتيجة. أما الحركة في الاتجاه المعاكس (تأثير النتيجة على السبب) فغير متصورة. كما أنها تنطلق من السببية المبسطة: سبب واحد أو عدة أسباب مترابطة تؤدي إلى نتيجة ما. وتقوم بين هذا السبب وتلك النتيجة علاقة مغلقة تعزلهما عن بقية الأسباب والنتائج. وهي بذلك تقصر عن الإمساك بالواقع الذي تتفاعل فيه الظواهر زمانياً ومكانياً، وتتبادل التحديد والتأثير.

---

(1) د. نديم البيطار، التخلف السياسي وأبعاده الحضارية، مجلة «دراسات عربية» السنة العاشرة، العدد 9، بيروت 1974.

ومن أخطر أوجه القصور في الذهنية المتخلفة العجز عن رؤية قانون التناقض، أو تكامل الأضداد. الأشياء والإنسان هما دائماً في علاقة. هذه العلاقة تضم طرفين أو أكثر في حالة تفاعل دائم وتأثير متبادل. ولا بد لفهم أمر ما من دراسة كل من طرفي العلاقة وفهم المركز الخاص الذي يحتله كل منهما، والشكل المحدد الذي يعتمد به على الآخر. فكل طرف يتطلب وجود الطرف الآخر، المتناقض معه كشرط لوجوده. وحدة العلاقة تقوم على دينامية التناقض. الحقد مثلاً، ليس ظاهرة تذهب في اتجاه واحد. إنه لا يتم إلا في علاقة مع آخر ينصب عليه الحقد، ويقف منه موقفاً محدداً يعطي لذلك الحقد طابعه الخاص، وبدونه لا يظل ممكناً. الحاقد وموضوع الحقد، تجمعهما وحدة العلاقة رغم تعارضهما. شحنة الحقد تنطلق من الطرف الأول، وتصل إلى الطرف الثاني الذي يستجيب لها بشكل مميز، استجابة تنعكس على الطرف الأول وتعدل من موقفه ومن قوة الشحنة الانفعالية. وهذا التغيير الجديد يعود فينعكس على الطرف الثاني، مما يؤدي إلى تغييرها في حركة تاريخية دائمة. العلاقة السببية ليست طولية، بل تفاعلية تصاعدية تذهب من الأول إلى الثاني ومن الثاني إلى الأول، بشكل يجعل كلاً من الطرفين فاعلاً ومنفعلاً، سبباً ونتيجة في آن معاً.

لا تقتصر الذهنية المتخلفة في إدراك هذه العلاقة فقط، بل إنها تعجز عن تقدير دور كل من طرفي التناقض. تعجز عن التفريق بين الأساسي والثانوي، بين المحوري والحدودي، بين القاعدي والعابر، تساوي كل هذه الأمور في الأهمية، وتساوي بين وزن هذه الظواهر جميعاً. بينما يعلمنا المنهج الجدلي أن هناك دائماً طرفاً أساسياً وطرفاً ثانوياً في التفاعل. كما يعلمنا أن العلاقة لا تظل ثابتة على الدوام في صيغة واحدة، كما يذهب الذهن المتخلف، بل هي متحولة. فالطرف الذي كان أساسياً في التفاعل قد يصبح ثانوياً في مرحلة تالية، بينما يحتلّ الطرف الثانوي دوراً أساسياً.

بالإضافة إلى التناقض الخارجي بين شيء ما وغيره من الأشياء، هناك التناقض الداخلي ضمن ذلك الشيء. فالظاهرة ليست كتلة واحدة متماسكة، بل هي نتاج تفاعل قوى داخلية متعددة في اتجاهها ومتكاملة في تعارضها. الشكل الذي تتبدى فيه ظاهرة ما، هو نتاج هذا التناقض الدينامي الذي يكوّنها داخلياً. كذلك هو حال الزمن الذي يتكوّن من وحدات متناقضة، كل منها يشكل شرط وجود الأخرى ويحدد مظهرها واتجاهها. بالإضافة إلى علاقة التناقض والتحديد المتبادل بين الجزء والكل، بين الذاتي والموضوعي، بين العقلاني والانفعالي، بين النفسي والمادي، بين العام والخاص، هناك تناقض وتحديد متبادل بين العناصر المكوّنة لكل من هذه الأمور. الذهنية المتخلفة لا تستطيع إدراك قوى الشد والجذب، قوى التقدم والحركة في علاقتها الجدلية مع قوى الصد والجمود، داخل كل ظاهرة وفي علاقة الظواهر فيما بينها.

كذلك تعجز هذه الذهنية عن إدراك العلاقة الجدلية بين الزمان والمكان، بين التاريخي والانبنائي. تبدو الأمور إما متطورة تاريخياً، أو محددة انبنائياً خارج إطار الزمن. ولكن الظواهر ليست منعزلة بهذا الشكل، فالزمان والمكان، التاريخ والبنية أمران متلازمان يتبادلان التحديد والتأثير. تاريخ ظاهرة ما يحدد بنيتها الراهنة. وهذه البنية تنعكس على صيرورتها فتحدد تطورها اللاحق الذي يعود فيغيّر من بنيتها. وهكذا فلا علاقة أو بنية خارج التاريخ، ولا تاريخ خارج شبكة العلاقات التي تحكم ظاهرة ما.

إن قصور التفكير الجدلي الذي يميز الذهنية المتخلفة يجعلها عاجزة عن النفاذ إلى مختلف مستويات وأبعاد الظاهرة. فلكل ظاهرة مستويات متعددة من أقصى الذاتية إلى أقصى الموضوعية، ومن أقصى الخصوصية إلى أقصى العمومية، وهي محصلة هذه المستويات جميعاً في تحديدها المتبادل. وتتراتب هذه المستويات جميعاً، ويكتسب كل منها خصوصيته التي يمكن دراستها بشكل مشروع شريطة ربطها ببقية المستويات، إذ إن كلاً منها يرجعنا إلى كل المستويات الأخرى.

يخلق هذا القصور، الذي أشرنا بسرعة إلى جوانب منه، حالة من التصلب الذهني، يجعل الإنسان المتخلف يفتقر إلى المرونة، وإلى القدرة على بحث الأمور من جوانب متعددة ومنظورات ومستويات شمولية. هذا التصلب يحجب رؤية النسبية في الأشياء والظواهر، ويميل إلى المواقف القطعية (إما، أو)، بينما هذه الظواهر هي دائماً مزيج متفاوت من الأوجه السالبة والموجبة. كما أن انخفاض درجة المرونة يعطل القدرة على التكيف للوضعيات المتخلفة، وللخصائص النوعية لكل وضعية. كما أنها تعطل القدرة على استخدام وسائل مختلفة في حل تناقضات مختلفة، فتظل أسيرة الجمود في النظر والموقف والحلول المطروحة. من الواضح أن انعدام المرونة الذهنية مرتبط بحالة عامة من انعدام المرونة الوجودية في التصدي للعالم، مما يشكل عقبات جدية في وجه التطوير والتنمية.

ولا بد في ختام هذه الملاحظات السريعة حول قصور التفكير الجدلي، واضطراب منهجية التفكير، من التأكيد على أن هذا القصور ليس وليد خلل عضوي أو انحطاط تطوري، كما يحلو لبعض المتحيزين من علماء الغرب أن يدعوا. إنه نتاج البنية الاجتماعية المتخلفة، ووليد عوامل القهر والاعتباط التي يخضع لها الإنسان المتخلف. قصور منهجية التفكير يتناسب بشدة مع درجة القهر المفروض، وجمود البنية الاجتماعية.

2 ـ الخصائص الذهنية الانفعالية

الوجود المتخلف معاش وجدانياً أكثر مما هو مصوغ ومنظم عقلياً. فبينما نرى طغيان العقلانية والحياد الانفعالي على أسلوب مجابهة الواقع والتصدي لمشكلاته في البلاد الصناعية،

نلاحظ أن إنسان العالم المتخلف يرزح تحت عبء انفعالاته التي تفيض على العالم، ملونة إياه بصبغة ذاتية واضحة. العالم وقضاياه تعاش من خلال الذات، من خلال قوالب التفكير المنطقي، ولذلك فإن درجة الموضوعية تنحسر في معظم الأحيان كي تتلاشى كلياً في حالات خاصة، وبالتحديد في أوقات الشدة. وبينما تتطلب وضعيات الحياة الصعبة مزيداً من الموضوعية والعقلانية كي يمكن مجابهتها بدرجة معقولة من الفعالية، نجد الإنسان المتخلف يغرق في تلك اللحظات بالذات في تيار جارف من الانفعالات، يجعله يفقد السيطرة على الواقع، ويدفع به إلى الارتماء في التفكير الخرافي والسحري والغيبي، كوسيلة وحيدة متبقية للخلاص من المأزق.

إن طغيان الانفعالات وما يرافقها من نكوص على مستوى العقلانية، ظاهرة مألوفة في الأزمات، ولكنها عند الإنسان المتخلف تكاد تكون الأسلوب الأساسي في الوجود، لأنه بالتحديد يعاني من أزمات مزمنة تتخذ طابع المأزق المعيشي، الذي لا يرى لنفسه خلاصاً منه. هذا المأزق يجعله يعيش في حالة دائمة من التوتر الانفعالي الذي ينبث في حنايا شخصيته معطلاً القدرة على الحكم الموضوعي، والنظرة العقلانية إلى الأمور. وهكذا فإن التوتر الانفعالي، بمقدار ما يتصعّد يخلق عقبات معرفية متفاقمة أمام الإنسان المقهور. إذ إن إرصان[1] الواقع، وما يتطلبه من حياد نفسي (نسبي بالضرورة)، يستلزم ضبط الانفعالات ضمن حدود لا تتعداها. هذه الحدود تتلخص بمد الذهن بالقوة الدافعة للاهتمام بالعالم واتخاذ المواقف تجاهه. إذ إن غياب الانفعالات، وشحاح الوجدان يفقد العالم جاذبيته، دافعاً بالمرء إلى حالة من البرود وعدم الاكتراث التي قد تصل حد الجمدة[2]، مما يجعله يدير ظهره لذلك العالم، ويقع في التبلد الكلي. أما القمع المفرط للانفعال والوجدان فيحول الإنسان إلى آلة صمّاء، أو يلقي به في الأسلوب الهجاسي[3] في مجابهة الأمور. ويتلخص هذا الأسلوب الأخير في عقلانية مفرطة ومتزمتة، في حال من هوس التحليل والدقة والتركز حول التفاصيل التي ترهق المرء وتفقد حياته كل حرارتها. هذه الحالة تلاحظ حالياً في العديد من قطاعات الصناعة المتقدمة التي تقوم على الضبط الرياضي والدقة العلمية المفرطين، محولة الإنسان إلى مجرد آلة، أو ترس في آلة الإنتاج الضخمة.

هذا التوازن الضروري بين الانفعال والوجدان، وبين المنطق والعقل، لا يتيسر لإنسان العالم المتخلف لأسباب عديدة، سنأتي على ذكرها في القسم الثاني من هذا الفصل، وأهمها القهر وانعدام مشاعر الأمن وطغيان مشاعر الدونية. كلها عوامل تصد الذهن نظراً لما تولده

---

(1) إرصان Elaboration.

(2) جمدة Catatonie.

(3) هجاس Obsession.

من قلق. فإذا زاد هذا القلق عن حد معين، فإنه يشلّ القدرة على الحكم الموضوعي. كما أن حالة القمع المزمن التي يعيشها الإنسان المتخلف تؤدي، كما رأينا في بحثنا لمرحلة الرضوخ ومرحلة الاضطهاد، إلى تراكم مفرط للانفعالات وإلى تأجيج للعواطف وتفجير للمشاعر الأكثر طفلية وعنفاً، مما يجعله يبدو مركّزاً تماماً حول ذاته. هذا التركز الذي يبلغ درجة النكوص إلى الأنوية[1] في أحيان كثيرة، يؤدي إلى انهيار القدرة على التجريد الذي يشكل أحد أرقى المظاهر الذهنية في التكييف للواقع والسيطرة عليه.

إن طغيان الانفعالات على هذا النسق يضع الإنسان المتخلف أمام الحاجة الملحة للتخلص من ضغطها وما تخلقه من توتر داخلي صعب الاحتمال. ومن المعروف نفسياً، أن أكثر الوسائل فعالية وبدائية للتخلص من هذا التوتر، هو الإسقاط[2] الذي يسمح بتصريف الانفعالات من خلال صبها على الخارج، على العالم وظواهره وعلى الأشخاص والعلاقات معهم سواء بسواء. ولذلك فإن الإنسان المتخلف يرى أعداء حوله في ظواهر الطبيعة وعقباتها، وفي مواقف الآخرين منه. يتلوّن العالم بصبغة انفعالية بقدر التوتر الداخلي الذي يعاني منه، مما يصعد من حدة انفعالاته من خلال إرجاع الأثر[3] كوسيلة لمجابهة العداء الخارجي. وهكذا ينجرف في دوّامة الانفعال النشط (العدوان والإقدام)، أو الفاتر (المعاناة واجترار الآلام الوجودية)، مما يجعل العالم يبدو اعتباطياً غير منطقي. ومن الحتمي ساعتئذ أن يعجز هذا الإنسان عن إدراك القوانين الموضوعية لظواهر الوجود، التي تتطلب إعمال العقل وضبط العاطفة.

تنتج عن هذه الحالة عدة ظواهر، كثيرة الشيوع في العالم النامي، أبرزها سرعة تدهور الحوار العقلاني والتفكير المنطقي، والتعصب والتحيز وسرعة إطلاق الأحكام القطعية والأحكام المسبقة، وسيطرة التفكير الخرافي والسحري.

من المظاهر التي تلفت نظر الملاحظ، السرعة الواضحة في تدهور الأداء العقلي والحوار المنطقي بين الناس في العالم المتخلف. فالنقاش الذي يبدأ موضوعياً واقعياً لا يلبث أن يفجر انفعالات تؤدي إلى اضطرابه. ويتحول الأمر من الحوار الهادئ، من المنطق الذي يجابه الحجة بالحجة إلى صراخ ومهاترات، كي ينزلق بسرعة إلى حوار الطرشان، عند أول عقبة مادية أو مقاومة يبديها الشخص الآخر. وحوار الطرشان هو بكل بساطة انهيار علاقة التفاعل وانكفاء على الذاتية ذات الانفعالات المفرطة، التي تحوّل الآخر إلى مجرد عقبة تعوق الوصول إلى

---

(1) الأنوية Egocentrisme.

(2) الإسقاط Projection.

(3) إرجاع الأثر Feed - Back.

الهدف الشخصي. ويتحول النقاش إلى صراخ وخصام يسير صعداً نحو مزيد من تدهور العلاقة وانهيار المنطق. ومن الصراخ إلى الشتائم يسير التدهور نحو اللغة الحركية، لغة القوة والإخضاع بعد أن فشل الإقناع. ذلك هو سبب سرعة الصدام العنيف عند إنسان العالم المتخلف، الإحساس بعدم القدرة على السيطرة على الواقع، من خلال العقل والمنطق، لأن هذا الواقع يبدو في النهاية لا عقلانياً ولا منطقياً.

إن طغيان الانفعالات على هذه الصورة يعطل التجريد العقلي والتكيف للواقع، لأنه يؤدي إلى انحسار المجال الحيوي. تنحسر آفاق المستقبل ويلغى الواقع العريض الذي يعطي الأشياء والظواهر حجمها الحقيقي. هذا الانحسار زمانياً ومكانياً يؤدي بدوره إلى التركز حول الحاضر، حول المشكلة الآنية التي تبدو عندها كمسألة أزلية، أو كل المسألة الوجودية، كما أنه يؤدي إلى تضخيمها بشكل مفرط فتكتسب أهمية ليست لها في الواقع. وهكذا يتمحور الوجود عند الإنسان المتخلف، حول قضايا بسيطة يبدو أنها تكوّن حياته كلها، مما يجعله يستجيب بشكل مفرط في انفعاليته وحدّته. إنّه يستجيب، لا لهذا الأمر الطارئ أو البسيط، بل في الحقيقة لوجوده الذي يعاني من القهر المزمن والذي يتفجر في كل لحظة وعند كل عقبة. كل عقبة ترجعه إلى المأزق الحيوي الذي يعيش فيه، وتجعل استجابته بالتالي من نوع الاستجابات الحيوية، استجابة على مستوى المأزق. وهكذا تنشأ الحلقة المفرغة، عجز العقل عن السيطرة على الواقع يفجر الانفعالات، وهذه بدورها تزيد من حدة هذا العجز.

أحكام الإنسان المتخلف على الظواهر والأشخاص يشوبها الكثير من التحيز والقطيعة. إنها أحكام متسرعة ونهائية تصنف الظواهر والناس في فئات جامدة، سالبة كلها أو إيجابية كلها، أو هي متأثرة إلى حد كبير بالأفكار المسبقة والآراء الشائعة التي يطغى عليها التعصب. ذلك أن طغيان الانفعالات، بإلغائها لوظيفة النقد العقلي، تفتح الباب واسعاً أمام بروز الميول الاختزالية[1]، التي تحول الآخر من حالته كشخص إلى مجرد أسطورة تلعب دور السند المادي للإسقاطات الذاتية على الخارج. يتحول الآخر إلى مجرد رمز للسوء، أو الشر أو التعطيل أو الخطر أو الضعف أو العنف، أو الحب والعون، الخ. . ومنذ تلك اللحظة يتحدد التعامل معه والموقف منه انطلاقاً من دلالة الرمز الذي أعطي له، الذي يستخدم أصلاً، كتبرير مادي للانفعال الذي ارتبط به، سلباً أم إيجاباً.

إزاء مأزق العقلانية، وتعطل المنطق، وإلحاح الحاجة إلى الحل نظراً لتأزم التوتر الداخلي، ينجرف الإنسان المتخلف في التفكير الخرافي الغيبي كوسيلة سحرية للخلاص. ومن هنا كثرة انتشار الخرافة في أوساط الجماهير المقهورة. الخرافة، تبعاً للدكتور «إبراهيم

---

(1) ميل اختزالي Tendance Reductioniste.

بدران» والدكتورة «سلوى الخماش»[1]، هي أفكار وممارسات وعادات لا تستند إلى تبرير عقلي، ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية أو التطبيق. الذهنية الخرافية هي تلك التي تحاول أن تصل إلى أهداف الفرد أو المجتمع على أسس لا تستند إلى العلم والعقل. الذهنية الخرافية هي تلك التي يكون فيها للخرافة مكان بارز سواء في نقل المعلومات أو تمثيلها وفي تفسير الأحداث أو تعليلها (صفحة 13).

وتتفشى الخرافة في الطبقات الفقيرة، كوسيلة لتخفيف الآلام من خلال الأوهام. ويتناسب انتشارها مع مقدار العجز عن التصدي لمشكلات الحياة المختلفة. ولكن رغم شدة انتشارها في الطبقات المقهورة من السكان، فإن الفئات المتعلمة لا تفلت منها. فأهم من الخرافة الواضحة هناك الخرافة المغطاة بقشور من التعليم، أو بقشور من التقدم والحداثة السطحية، لأنها تشكل عقبة فعلية في وجه التغيير والتجديد والإبداع، عقبة في وجه العقلانية والموضوعية. والمشكلة هي في استفحال الخرافة في أوقات الأزمات والوضعيات العصيبة التي تتطلب أعلى درجات العقلانية والموضوعية والتخطيط للتصدي لها. فأزمات المجتمع العربي «تكشف أن هناك وحشاً خرافياً متربصاً بالذهن العربي على استعداد للانطلاق وهدم كل ما أقامته الجامعات الشهيرة في ذهن المتعلم العربي» (المرجع نفسه، ص 20). هناك خطر الانجراف في عملية نكوصية عند المتعلمين كي ينحدروا إلى ممارسات خرافية، بتأثير الضغوط الحياتية والاجتماعية والقمع السياسي. وإذا كان التعلق بالحلول الخرافية عند العامة يأتي في المقدمة، فإنه عند المتعلمين يشكل الحل الأخير، حين ينكص الواحد من هؤلاء أمام الأزمات التي يستعصي عليه حلها.

إن العجز عن التصدي العقلاني الموضوعي للمشكلات والأزمات الحياتية يدفع المرء إلى النكوص إلى المستوى الخرافي، إلى الحلول السحرية والغيبية. وهذه بدورها تعمل، حين تتأصل في النفسية، على إضعاف أوالية التحليل العقلي والنظرة النقدية إلى الأمور، من خلال مزج الواقع بالخيال، والتغاضي عن الحقائق المادية بإرجاعها إلى قوى غيبية (الجن، الشيطان، الحسد، الكتابة، السحر، الخ..). وكلما زاد القهر والعجز تفشت الخرافة، ولذا فليس من المستغرب أن نجدها تعشش في عالم المرأة ومجابهتها للحياة في العالم المتخلف، لأنها أكثر من غيرها قد حرمت أهم إمكانات المجابهة العقلانية الموضوعية للواقع، وفرض عليها تجسيد الانفعالات والعواطف على مختلف ألوانها. وهي بدورها تعمل على نشر الخرافات وترسيخ التفكير الغيبي من خلال غرسها في ذهنية الطفل، الذي يكبر مع بقاء الخرافة متأصلة في

---

(1) د. إبراهيم بدران ود. سلوى الخماش، دراسات في العقلية العربية، الخرافة، بيروت دار الحقيقة، 1974.

أعماقه، جاهزة للبروز أمام الصعاب.

نرى من هذا الاستعراض السريع لبعض ملامح العقلية المتخلفة مدى المعوقات التي تعاني منها هذه العقلية. ولا شك في أن هذه المعوقات تؤدي إلى ترسيخ نمط الوجود المتخلف، وتشكل بالتالي عقبات فعلية أمام عمليات التطوير، وخطط التنمية. إذ إنه كما بيّنا، حتى المعلومات العلمية والتقنية قد يعاد تفسيرها بشكل خرافي، كي تدخل في القوالب الذهنية المتخلفة، مما يفقدها كل فعاليتها التغييرية.

ثانياً: عوامل تخلف العقلية

كل ما عرضناه إلى الآن من ملامح العقلية المتخلفة، سواء من ناحية اضطراب منهجية الذهن، أو قصور التفكير الجدلي، أو طغيان الذاتية والانفعال والخرافة، والتي تتلخص جميعاً بموقف عاجز عن السيطرة على الطبيعة والمصير، خصائص تستدعي التفسير والتعليل العلميين. ولقد أعطيت العديد من التفسيرات التي يتفاوت حظها من الصحة، أو التي تؤكد على عوامل محددة أكثر من غيرها. ولكن لا بد قبل الخوض فيها من إزالة لبس اتخذ شكل الأحكام المجحفة بحق الإنسان المتخلف، ونقصد به تلك التفسيرات المتحيّزة التي قدمها بعض علماء الغرب لأسباب تخلف الذهنية، والنظرة إلى الحياة في بلدان العالم الثالث. وهي على كل حال، تفسيرات قديمة نسبياً برزت مع المد الاستعماري، كتبرير علمي مزعوم لاستغلال شعوب العالم الثالث.

من هذه التفسيرات القول بالقصور التطوري لسكان هذه البلاد. فهم أناس بدائيون لم يتجاوزوا في سلّم التطور المرتبة الحيوانية أو الطفلية في أحسن الأحوال. ولذلك نجد العديد من هؤلاء العلماء المزعومين، يعقدون مقارنات بين الإنسان البدائي والحيوان والطفل. كل منهم تسيطر عليه الغرائز والنزوات والانفعالات. وكل منهم يفتقر إلى العقلانية ونمو الملكات الذهنية العليا، والتجريد والمنطق والتفكير النقدي، وهو لذلك يغرق في ذاتيته وفي النظرة السحرية إلى الكون وظواهره. ومنهم من قال بالقصور العرقي، جاعلاً العقلانية والقدرة على العمليات الذهنية العليا حكراً على العرق الأوروبي الأبيض. ومنهم من أرجع انتشار الخرافة وما يرافقها من قدرية واستكانة واستسلام وعجز عن التصدي إلى عوامل ثقافية ودينية (الشرق الخرافي القدري الانفعالي، مقابل الغرب العقلاني المنطقي التقني).

والواقع أن كل هذه التفسيرات تفتقر إلى أبسط مقومات النظرة العلمية. إنها مجرد تحيزات وأحكام مسبقة تهدف إلى تبرير الاستغلال وتكريس التسلط. وهي في ذلك تتواطأ مع التفسيرات التي يشيعها وينشرها المتسلط الداخلي لتخلف ذهنية الفئات المسحوقة وللغرض نفسه.

إن الأمر كله يجد مفتاح تعليله في دراسة العلاقة بين البنية الاجتماعية والذهنية التي تنتج عنها، لا أكثر ولا أقل. كل بنية اجتماعية بما تتضمنه من نظام علاقات ومرتبية وإنتاج تفرز ذهنية تتصف بنفس خصائص تلك البنية، تخدم أغراضها وتعززها من خلال ترسيخ نظرة معينة إلى الكون، وأسلوب محدد لمواجهة تحدياته وقضاياه.

هناك من درس ضمن هذا المنظور مسألة التخلف في العقلية، خصوصاً على مستوى الممارسة السياسية، من خلال الطبيعة الزراعية للمجتمع العربي. من رأي د. نديم البيطار[1] أن أسباب التخلف ترجع إلى الخصائص الزراعية التي يتصف بها الإنسان العربي وأهمها في نظره ما يلي:

- الشعور بالعجز عن السيطرة على الطبيعة والتاريخ. بينما يتمكن الإنسان المتقدم من ذلك بفضل قدرته على الكشف عن الاتجاهات، والقوى والقوانين الفاعلة فيهما، من خلال استخدام التقنيات والعلوم المضبوطة.

- رد التغيرات والظواهر إلى قوى فردية، ربط ما يحدث بتغيرات النفوذ والسلطة، أي رد الأمور إلى قوى ذاتية لا إلى قوانين طبيعية وتاريخية، مما يرسخ قوالب ذاتية في التفكير والنظرة إلى الحياة.

- انعدام التكنولوجيا والاعتماد على وسائل بدائية من حيوانات ويد عاملة، مما يجعل العلاقة، علاقة سلطة ذات طابع انفعالي، أكثر مما هي علاقة علمية موضوعية (كما تفرضه الآلات، والتقنيات والعمل معها). عقلنة الإنتاج هي عقلنة الإنسان نفسه، عقلنة العلاقات التي تحيط به.

- الاعتماد في المجتمع الزراعي على الظواهر المحسوسة الملموسة في الطبيعة والعلاقات لا على القوانين العلمية. يحكم الإنسان الزراعي على الأمور انطلاقاً من ظواهر الطبيعة وتغيراتها المناخية، أو من سلوك الحيوان.

- تحكُم التقليد في السلوك، من خلال تجميده من ناحية، وشده إلى الماضي من ناحية ثانية، مما يفتح السبيل أمام الغيبيات والتفكير الخرافي. هذا التقليد يغرس جذوره عميقة وعنيدة في أعماقنا مؤثراً على الممارسة والنظرة إلى الأمور «رغم الدروس والشهادات التي تظل سطحية طالما أنها ليست وليدة ثورة داخلية ولم تفرز من داخل، طالما هي ظاهرة نقلدها وليست تحولات نفرزها نتيجة تحولات داخلية» (المرجع نفسه، صفحة 34).

---

(1) د. نديم البيطار، الأسباب البعيدة لظاهرة التخلف السياسي، مجلة «دراسات عربية»، السنة العاشرة، العدد 10، بيروت 1974.

يذهب «نديم البيطار» في تفسيره للتخلف مذهباً قريباً من وجهة نظر «جيرار ماندل»[1]، الذي يقول إن التكنولوجيا تلعب دوراً هاماً في تشكيل اللاوعي الجماعي، من خلال المثل الأعلى الذي تفرضه على المؤسسات الاجتماعية، وما يحدثه من تغيير في النظرة إلى العالم وأسلوب الممارسة. فالآلة والتقنيات المتقدمة تفرض التجرد العاطفي وتنمي العقلانية والمنطق والترتيب والدقة من أجل حسن سيرها. الدماغ الالكتروني مثلاً، يخلق شخصية ذات نمط شرجي[2]: الدقة على مستوى أصغر التفاصيل العقلانية والمنطق المفرط، التوقع والتخطيط والضبط وانعدام العاطفة. كما أن المثل الأعلى الإنتاجي، يخلق نماذج بشرية مركزة حول الفعالية والإنتاج كقيمة أساسية موجهة للذهن والسلوك. بينما المثل الأعلى الاستهلاكي يخلق نموذجاً بشرياً مركزاً حول المظاهر والاستعراض وينمي عقدة المشهدية[3].

ذلك كله صحيح، ولكنه لا يغطي كل الظاهرة ولا يقدم تفسيراً كافياً لمسألة التخلف في الذهنية. يجب بادئ ذي بدء التمييز بين المجتمع الزراعي المتخلف، والمجتمع الزراعي المصنّع. فالأمر لا يكمن في الزراعة بحد ذاتها بقدر ما هو نتاج للبنية الاجتماعية. ومجرد نظرة متفحصة إلى النقاط التي أوردها البيطار، توضح لنا أنه يتحدث عن مجتمع زراعي يتصف أساساً بالعجز أمام قوى الطبيعة من ناحية، وسيادة نموذج التسلط والقهر والتقليد من ناحية ثانية، وهي نفسها في نظرنا محور مسألة التخلف. ويشير البيطار في معرض حديثه عن انعدام التكنولوجيا في المجتمع الزراعي وشيوع علاقات السلطة ذات الطابع الانفعالي، إلى ظاهرة حمل العصي والسياط باعتبارها أدوات قيادة الحيوان. ولكن ألا تشير هذه الظاهرة إلى نظام التسلط والقهر أكثر مما هي مجرد أدوات؟ ليست الدابة وحدها تقاد بالسوط بل الفلاح المقهور أيضاً... كما أنه يسرد من ضمن أسباب التخلف ربط التغيرات الاجتماعية بتغيرات النفوذ والسلطة، واضعاً بذلك الاصبع على لب مسألة التخلف دون أن يعلن ذلك صراحة.

إن لبّ تخلف العقلية يكمن في نظرنا في أسباب اجتماعية سياسية، هي المسؤولة عن نمط الإنتاج وأدواته وتقنياته وانعكاساتها على الذهنية. هذه الأسباب تذهب في رأينا، في الوطن العربي على الأقل، في اتجاهين أساسيين مترابطين هما: سياسة التعليم في المجتمع، وعلاقات التسلط والقهر السائدة فيه.

---

(1) G. Mendel, la revolte contre le père. Paris, Payot, 1980.

(2) نمط شرجي Type anal.

(3) عقدة المشهدية Complex spectaculaire.

1 ـ سياسة التعليم وتخلف الذهنية

لا شك في أن مدى تفشي الأمية في العالم النامي، مسؤول بالدرجة الأولى عن استمرار الذهنية غير العلمية التي تسيطر عليها الخرافة. ولا شك في أن تطور الذهنية يسير بشكل عام مع ارتقاء المستوى التعليمي في المجتمع، وما يجره من سيطرة على الواقع والتاريخ. ليست هذه الأمور مجالاً للشك والمناقشة، ما يهم هو بحث تلك الظاهرة اللافتة للنظر والتي تلخص باستمرار العقلية المتخلفة، رغم انتشار التعليم في العديد من البلدان النامية، وفي الشرائح التي وصلت درجات متقدمة من الدراسة. فهناك شعور بأن الخرافة والتقليد ما زالا يعششان في أعماق نفسية الإنسان العربي الحائز على درجات جامعية، تؤثر على ممارسته ونظرته إلى الأمور المصيرية على وجه الخصوص، يجمع على هذا الأمر العديد من الباحثين.

وتكمن العلة، في الوطن العربي، كما في العديد من أقطار العالم الثالث، في نوعية التعليم ومدى تأثيره على تغيير الذهنية. يبدو أن التعليم لم يكامل في الشخصية، بل ظل في الكثير من الأحوال قشرة خارجية تنهار عند الأزمات، لتعود الشخصية إلى نظرتها الخرافية. «إن العلم لا يشكل بالنسبة للعقل المتخلف أكثر من قشرة خارجية رقيقة يمكن أن تتساقط إذا تعرض هذا العقل للاهتزاز. إن العلم ما زال في ممارسة الكثيرين لا يعدو أن يكون قميصاً أو معطفاً يلبسه حين يقرأ كتاباً أو يدخل مختبراً أو يلقي محاضرة. ويخلعه في سائر الأوقات» (د. بدران ود. الخماش، الخرافة، ص 174). هناك إذاً نوع من الازدواجية في شخصية الإنسان المتخلف، بين دور التعليم ودور الإنسان الممارس حياتياً. ما زال الانفصام أو الانشطار[1] هو السائد. ففي الحياة اليومية نرى التقليد وانتشار الخرافات والنظرة المتخلفة إلى الوجود (بما فيها من اعتباط وتسلط ولا منهجية) هي السائدة. أما في المناسبات العلمية فنرى الواحد من هؤلاء، أو بعضهم، يحلّق في الأجواء العليا ولكن للحظات.

أسباب هذه الظاهرة متعددة، من أهمها تعرّض الطفل منذ الصغر لتأثير الأم الجاهلة معظم الأحيان، والتي نظراً لوضعيتها المقهورة تتأثر إلى درجة خطيرة بالتفكير الخرافي والغيبي، وتتسلط عليها معتقدات لا علمية (الجن والشياطين، والشعوذة، والقدرية، الخ..). وموطن الخطورة في ذلك هو أنها تنقل هذه الأفكار إلى طفلها، مما يجعل نظرته إلى العالم منذ البداية خرافية ولا علمية. ليست الأم فقط هي التي تغرس هذه الذهنية المتخلفة في أعماق الطفل، بل أيضاً الإطار الحياتي العام الذي يعيش فيه قبل سني الدراسة، والذي تتفشى فيه الأفكار البائدة والممارسات الخرافية والنظرة الغيبية (من غول وعفاريت وجن

---

(1) انشطار Clivage.

وأشباح وأرواح). من النادر أن يجيب هذا المحيط على تساؤلات الطفل، بعد الثالثة من العمر، حول أسرار الوجود وقوانين ظواهره المختلفة إجابة علمية رصينة. هناك ما يشبه المؤامرة المستمرة عليه من خلال الكذب والتخويف. يكذبون عليه في إجاباتهم حتى لا يجشموا أنفهسم عناء الشرح، أو حتى يغطوا جهلهم، أو يخيفونه (بالأشباح والعفاريت) حتى يقيدوا حركته ويصدوا حيويته التي تزعجهم. يكفي أن نذكر التهويل الذي يمارس على الطفل من خلال بعض الأوهام الدينية (التهديد بالنار والحساب العسير الذي يفجِّر أشد المخاوف بدائية عنده) بغية ردعه عن بعض التصرفات.

هذا المعاش الخرافي والخوافي[1]، وما يستتبعه من ممارسات غير علمية يحمله الطفل معه إلى المدرسة. وتتفاقم المشكلة لأن المدرسة ببرامجها الحالية لا تستطيع أن تقتلع هذه الأفكار والممارسات. هذا إذا لم يقع الطفل على معلِّم يتابع نهج الأهل وللأسباب نفسها. في أحسن الحالات، تمتزج المعلومات الملقنة بالأفكار الخرافية، أو أنها تأتي لتكون قشرة خارجية تسقط عند أول اختبار أمام الأزمات الحياتية، بينما تظل التجربة الخرافية للوجود متأصلة في الأعماق. بالطبع لا يساعد ذلك مطلقاً على اكتساب العقلية العلمية المنهجية.

ما زال التعليم في مختلف مراحله وبشكل إجمالي، سطحياً في معظم البلدان النامية في طرقه وفي محتوياته. طرق التعليم ما زالت تلقينية إجمالاً، تذهب في اتجاه واحد، من المعلم الذي يعرف كل شيء ويقوم بالدور النشط، إلى التلميذ الذي يجهل كل شيء، ويفرض عليه دور التلقي الفاتر[2] دون أن يشارك أو يناقش أو يمارس، دون أن يعمل فكره فيما يلقن، بالطبع لا تساعد هذه الطرق على اكتسابه التفكير النقدي الجدلي، وبالتالي لا تكسبه الصيغ العلمية في النظر إلى الأمور. إنه في أحسن الأحوال يحفظ العلم دون أن يستوعبه. يحفظ الامتحان دون أن تعدّ شخصيته بشكل علمي.

تمارس عملية التلقين بالضرورة من خلال علاقة تسلطية: سلطة المعلم لا تناقش (حتى أخطاؤه لا يسمح بإثارتها، وليس من الوارد الاعتراف بها) بينما على الطالب أن يطيع ويمتثل. هذه العلاقة اللاعقلانية تعزز النظرة الانفعالية إلى الوجود، لأنها تمنع الطالب من التمرس بالسيطرة على شؤونه ومصيره. وهي كما سنرى في فقرة تالية، مسؤولة إلى حد بعيد عن استمرار الذهنية المتخلفة، لأنها تشكل حلقة من حلقات القهر الذي يمارس على مختلف المستويات الرتبية في حياة الإنسان المتخلف. أما من حيث المستويات فإن المواد الدراسية تظل إجمالاً غريبة عن الإطار الحياتي للتلميذ. إنه يتعلم عموماً إما محتويات دراسية مستوردة من خارج المجتمع (نظريات وعلوم الغرب مطبقة على ظواهره) في المراحل العليا من التعليم،

(1) خواف Phobie.

(2) فاتر Passif.

وإما مواد لا تمتّ إلى واقع التلميذ بين الفئات الشعبية في المراحل الابتدائية والمتوسطة. معظم المناهج تعالج قضايا تمتّ إلى حياة الطبقة المسيطرة، وتغرس في الطفل المثل العليا السائدة لهذه الطبقة، والتي لا يمكنه عملياً وواقعياً ممارستها في حياته اليومية. يظل العلم إذاً مسألة نظرية، لا يعالج واقع الطالب في العالم المتخلف، لا يتيح له فرصة الإرصان[1] العقلي لهذا الواقع، وانفصام عنه في المدرسة التي تفرض على الطالب حالة من الاغتراب عن قضاياه المعاشة. ولذلك فإنه يلبس ثوب العلم في المدرسة، يتعامل بشكل لفظي محض مع العلم وقوانينه، بينما هو يتعامل مع واقعه بأسلوب انفعالي، خرافي تقليدي.

ومن مشكلات التعليم الشائعة في البلدان النامية، الانفصام بين لغة العلم ولغة الحياة اليومية. ونعني بذلك دراسة العلوم المضبوطة بلغة أجنبية، يظل غالبية الطلاب، ما عدا أبناء القلة ذات الحظوة، عاجزين عن التعامل بها، ولا يمتلكونها إلا بشكل ناقص جداً. العلم كاللغة الأجنبية التي ندرسهم بها، يظل غريباً عن عالمهم وواقعهم، يشكل في أحسن الحالات قشرة خارجية لا تتجاوز السطح. بينما عالمهم المعاش تحكمه اللغة الأم المشحونة بالانفعالات والغيبيات والخرافة، والبعيدة كل البعد عن العلمية.

إن مسألة تعريب العلوم المضبوطة وتدريسها باللغة الأم من مسائل الساعة. وهي تمس قضية ديمقراطية التعليم الصميم. هل نعلّم العلوم المضبوطة بلغة الشعب، كي نسهم بذلك في إدخال القوالب العلمية على هذه اللغة، وبالتالي على الذهنية نفسها، باعتبار أن اللغة (كما أصبح معروفاً في علم اللسان) تشكل الذهن وتحدد النظرة إلى الوجود، أم نستمر في الحفاظ على الانشطار بين العلم والحياة، وبالتالي نرسخ استمرارية التخلف الذهني عند القطاع الأكبر من المواطنين؟

لقد طرح الدكتور «نزار الزين» هذا الموضوع بشكل واضح في بحثه القيّم حول تعريب التعليم العالي في لبنان[2]. ولوضع المسألة في إطارها الصحيح ينطلق من بحث العلاقة بين اللغة والتكوين العقلي والنظرة إلى الوجود، التي أثبتتها الدراسات الحديثة في علم اللسان «فأسلوب الاستجابات والمواقف في مجتمع من المجتمعات يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة والفكر». «وعلى هذا فإن الصيغ اللغوية تؤثر في الذهن وتنظم التفكير بشكل معين». «فالانبناء اللساني الذي يتلقاه الفرد من محيطه، مسؤول أساساً عن الطريقة التي ينظم بها نظرته إلى العالم».

فإذا كانت اللغة الأم متشبعة بالانفعالات والنظرة اللاعلمية إلى الواقع، باعتبارها تعكس الوجود المتخلف، فإنها ستؤدي حتماً إلى ترسيخ هذه الانفعالية اللاعلمية وتشجع

---

(1) إرصان Elaboration.

(2) د. نزار الزين، تعريب التعليم العالي في لبنان، بحث منشور في مجلة «المقاصد»، العدد الأول، بيروت 1973.

بالتالي النظرة الخرافية إلى الوجود. ومن هنا ضرورة تعريب العلوم الإنسانية والمضبوطة. فهذا التعريب يدخل الصيغ العلمية على اللغة ويطورها، مما يؤدي بالتالي إلى إدخال الصيغ العلمية على الذهنية العربية، يرتقي بها إلى مستوى المنهجية المضبوطة. وهكذا «كلما استطعنا أن ندخل الصيغ العلمية في لغتنا وإلى مجتمعنا، استطعنا أن نؤثر على الذهن في مجتمعنا ونوجهه نحو إدراك علمي للواقع». وإذا كانت الصيغ العلمية في اللغة نتيجة تفاعل الذهن مع ظاهرات الواقع وأسلوب البحث المستخدم، وإذا كان إدخال الصيغ العلمية في لغة مجتمعنا يؤثر على نشاط ذهننا وإدراكنا، فإن سلوكنا يتأثر بفعل إدراكنا الجديد ويستجيب للوضعيات المختلفة متأثراً بأسلوب الصيغ العلمية التي تركزت في اللغة. ويتحول السلوك تدريجياً إلى استجابات أكثر واقعية وأكثر رصانة (المرجع نفسه، ص 52ـ 53).

وهكذا فإن نقل العلم بلغة الشعب تطوير له ولحياته ولهذه اللغة على حد سواء، وإلا فإن هناك خطراً من تحول العلم إلى وسيلة للانفصال عن الشعب والتعالي عليه أو التنكر له. وهناك خطر في ظهور عدد من السحرة الجدد على شكل «بقع لماعة تبهر الأنظار على سطح مجتمعنا دون أن تكون لها قابلية النفاذ إلى صميمه لأنها لا تعبر بلغته.. فإننا نضع بذلك حائلاً في وجه ديمقراطية التعليم عامة ونساعد على هجرة الأدمغة وهي أثمن ما نملك من ثروات» (المرجع نفسه، ص 54). إن عدم تعريب العلوم المضبوطة يترك اللغة الأم مقتصرة على الصيغ الانفعالية والوجدانية ذات الطابع الخطابي الذي يهيج المشاعر ولكنه يعجز عن التخطيط والسيطرة على الواقع. ومن رأي الدكتور الزين «أن التقصير في تعريب التعليم العالي.. يحملنا على أن نظل في ضبابية تجاه واقعنا الاجتماعي والنفسي، لا نستطيع أن نقدره أو نقومه تقويماً صحيحاً.. ولعلنا بعدم تعريب التعليم العالي نخطط لعدم تنمية مجتمعنا» (ص 55).

الواقع إن عدم التعريب يهدف إلى الحفاظ على امتيازات القلة المسيطرة، التي هي وحدها تتقن اللغة الأجنبية وتتعامل بها، لأنها لغة حلفائها الأجانب. وبالتالي تتيح لأبنائها فقط فرصة اكتساب العقلية العلمية، من خلال تمثل العلوم المضبوطة وآخر مستحدثاتها. وهي وحدها التي تعمل على إرصان واقعها المعاش بشكل علمي، يزيد من سيطرتها على المجتمع والتحكم بمقاليده. أما إذا تمكن أحد أبناء الفئة الشعبية من الوصول إلى مستوى علمي عال وتمثل العقلية العلمية والعلوم المضبوطة باللغة الأجنبية، فإنه في أغلب الأحيان يتحول إلى أداة في يد الفئة ذات الحظوة، مسخراً علمه لخدمة أغراضها كوسيلة وحيدة لكسب عيشه. وهو بهذا ينفصل عن انتمائه الشعبي، ويعاني من حالة اغتراب لا تترك أمامه من خيار سوى الهجرة، أو خدمة أهداف لا تتمشى مع مصالح الشعب، لناحية الارتقاء به من المستوى اللاعقلاني إلى المستوى العلمي.

يضاف إلى ذلك كله، توجه موقف الفئة ذات الحظوة، التي تمتلك السلطة، من العلم عموماً. إنها لا تشجع مطلقاً انتشار العقلية العلمية والممارسة الحياتية العلمية. وإذا شجعته جزئياً فلكي تجيره لخدمة أغراضها وزيادة سطوتها (أبرز مثل على ذلك تجيير علم أو تخصص أحد أبناء عشيرة ما لخدمة سطوتها أو زيادة جاهها). وهي تقاوم بشدة محاولات التغيير الذي يحاوله هذا المتخصص، بما يشكله من تهديد لامتيازاتها ونظامها الحياتي.

على العكس من ذلك فإن الفئة المسيطرة تمارس صنوفاً من الضغط والإرهاب المعيشي على المتعلمين الذين يحلمون بالتغيير. كما أنها تشجع على انتشار الخرافات واستمرار النظرة التقليدية المتخلفة إلى الوجود. وتستخدم هذه النظرة في تكوين رأي عام مستعد لمقاومة دعاة التطوير. وهكذا يعاني المتعلم في العالم المتخلف من استمرار الذهنية اللاعلمية لتضافر عدة أسباب: شدة غرس التفكير والمعاش الخرافي في ذهنه منذ الطفولة، سطحية التعليم وعدم مكاملته[1] في الشخصية، لبعده عن تناول القضايا الحياتية والاجتماعية، الانفصام بين العلم النظري والتجربة المعاشة، الخوف من التصدي للتيارات السائدة (الخوف من الاتهام بالإلحاد) حفاظاً على لقمة العيش في مجتمع قامع لا يضمن حرية الفكر ولا يؤمّن للإنسان غده[2]. وهكذا تسد السبل على أكثر من صعيد أمام تجاوز تخلُّف الذهنية والارتقاء بها إلى المنهجية العلمية المضبوطة.

2 ـ علاقات التسلط والقهر وتخلف الذهنية

من استعراضنا لمختلف أسباب تخلف الذهنية، رأينا أنها جميعاً تتضمن عنصر قهر حياتي يقع الإنسان المتخلف ضحية له. قهر الطبيعة وغوائلها، قهر المتسلط في المجتمع الزراعي، قهر التقاليد العشائرية الجامدة التي تشل الفكر، وتمنع الموقف النقدي من ظواهر المجتمع وأنظمته، ثم القهر الذي تمارسه السلطة في المدينة على اختلاف وجوهه وأشكاله وتبريراته. كل ذلك يخلق جواً عاماً من العنف يمارس على الشخصية، مانعاً تفتحها وانطلاقتها وتصديها بشكل أوثق لمختلف قضاياها الوجودية.

التقليد الذي يفرض جموده على المجتمع الزراعي العشائري، يقيد حرية الحركة السلوكية وحرية الموقف من الحياة، ويخلق بالتالي ذهنية متصلبة محدودة الأفق، يتحكم فيها القهر من الداخل. كل حركة فكرية تصبح إثماً يستحق العقاب الشديد (النبذ، التصفية، السخرية، فقدان المكانة، الخ..)، كل موقف نقدي من نمط الحياة السائد الذي يصب في مصلحة العناصر المتسلطة على العشيرة، يصبح اعتداء على المحرّمات والأقداس التي لا يجوز أن تمس.

---

(1) مكاملة Intégration.

(2) د. بدران ود. الخماش، دراسات في العقلية العربية، «دار الحقيقة»، 1974.

ابن العشيرة، وابن القرية المتأخرة كلاهما ملك لعشيرته ولقريته (مالياً وجسدياً وحياتياً وجنسياً) وبالتالي فذهنهما ليس ملكاً لهما. القيود المفروضة عليهما تؤدي إلى استلاب إمكاناتهما النقدية والتحليلية والجدلية.

المرأة تشكل مثالاً صارخاً على هذا الاستلاب. إنها ملكية اجتماعية (العشيرة أو القرية أو الأسرة، أو الزوج وقبله الأب والابن والعم والخال)، كيانها ليس ملكاً لها. ليس لها أن تختار، وبالتالي ليس لها أن تناقش، أن تفكر وتحلل. عليها أن ترضخ للسلطة، أن تكون موضوعاً وأداة. وهكذا فقدت نتيجة لهذا الاستعباد المزمن القدرة على استخدام طاقاتها الذهنية ودفعت إلى مواقع العاطفة والانفعال والمعاناة والخرافة والحلول السحرية تجابه بها وضعها. بعد أن فرض على ذهنها الجمود والشلل، وبعد أن غرقت في الخرافة، يأتي الرجل ومن ورائه قوانين القهر التي فرضتها الفئة المتسلطة لمصلحتها الذاتية، ليبرر تسلطه ووصايته عليها من خلال اتهامها بقصور العقل، وانعدام الفهم، تماماً كما يبرر المتسلط في الريف ما يفرضه من قهر على الفلاح، بغباء هذا الأخير وانعدام حيلته وعجزه عن التصدي لقضايا حياته.

وتفرض المرأة على أطفالها هيمنتها العاطفية كوسيلة تعويضية عما لحق بها من غبن باسم الأمومة المتفانية. تغرس في نفوسهم التبعية من خلال الحب، تشل عندهم كل رغبات الاستقلال (يجب أن يظلوا ملكيتها الخاصة). وتحيطهم بعالم من الخرافات والغيبيات والمخاوف. ينشأ الطفل بالتالي انفعالياً، خرافياً، عاجزاً عن التصدي للواقع من خلال الحس النقدي والتفكير العقلاني.

يأتي الأب، بما يفرضه من قهر على الأسرة من خلال قانون التسلط والرضوخ الذي يحكم علاقاتها، ليكمل عمل الأم. يغرس الخوف والطاعة في نفس الطفل ويحرم عليه الموقف النقدي مما يجري في الأسرة، من الوالدين وما يمثلانه من سلطة (تحت شعار قدسية الأبوة وحرمة الأمومة). ويتعرض الطفل باستمرار لسيل من الأوامر والنواهي باسم التربية الخلقية، وباسم معرفة مصلحته وتحت شعار قصوره عن إدراك هذه المصلحة. يفرض عليه أن يتلقى المنع والقمع وأن يطيع دون نقاش. وهذا يشل بالضرورة تفكيره، ويغرس في ذهنه نظاماً من القهر والتسلط والاعتباط يصبح فيما بعد القانون الذي يتحكم بعقله. هذا النظام بما يتضمنه من انفعالات ومخاوف، وبما يفرضه من قيود يشل الفكر الجدلي والإرصان الذهني للتجارب الحياتية، يعطل القدرة على التجريد. وهي جميعاً الشروط الحاسمة للارتقاء الفكري والحياتي.

علاقة الطفل في العالم المتخلف مع والديه تخلو من الإرصان العقلي للتجارب الحياتية. الاستجابة الأساسية تجاه مختلف وضعيات الحياة تظل انفعالية أو قهرية. فبعد أن يتعرّض لسيل من تفسيرات الأم الخرافية، يندر أن يوازنها بعلاقة حوار مع الأب، تجعله يتمكن من

الصياغة الفكرية لتجارب الحياة. الأب إما أن يكون عاطفياً، أو أمراً، أو غاضباً أو معاقباً، وهنا قد يستخدم اللغة الحركية (الضرب). وكلها بعيدة بالطبع عن تدريب الطفل على تحكيم العقل في سلوكه، وتحكيم قوانين المنطق والعلم في تجاربه الحياتية.

وتتابع المدرسة عملية القهر والشلل الذهني التي بدأت في الأسرة من خلال سلسلة طويلة من الأنظمة والعلاقات التسلطية يفرضها نظام تربوي متخلف، ومعلمون عاجزون عن الوصول إلى قلوب الطلاب وعقولهم إلا من خلال القمع. وتتحول الدراسة إلى عملية تدجين، تفرض الخصاء الشخصي والفكري على الطفل، كي يكون مجرد أداة راضخة. يتم ذلك بالطبع تحت شعار غرس القيم الخلقية (قيم الاحترام والطاعة والنظام وحسن السيرة والسلوك). لا يسمح للتلميذ أن يعمل فكره، أن ينتقد، أن يحلل، أن يتخذ موقفاً شخصياً، أن يختار، لا يسمح له ببساطة أن يكون كائناً مستقلاً ذا إرادة حرة. وبالتالي يقع ضحية عملية خصاء ذهني أصبحت معروفة تماماً لدى علماء التربية والاجتماع المحدثين الذين حللوا عملية التدجين المدرسي، وهي في الواقع في صلب حركات الرفض الطالبية الحديثة.

تتابع سلسلة القمع والقهر المفروضين على الذهن والنفس جميعاً أثناء التدريب المهني، وأثناء العمل، وفي كل مكان. إنها الخاصية الأساسية للعلاقات السائدة في العالم المتخلف. وعندما يعشش الإرهاب والقهر في الإنسان على هذا النسق، عندما لا يكون أمامه نموذج آخر سوى نموذج التسلط والرضوخ، لا بد للذهن أن يفقد مرونته وحرية حركته والاتجاه التحليلي النقدي. الجبرية والقدرية اللتان بدأ يغرسهما الموقف الخرافي والغيبي من الوجود في الطفولة، تعززان من خلال الاعتباط والتصلب اللذين يفرضهما التسلط فيما بعد. يفقد العقل سيادته نظراً لتحكم التسلط في نفسية الإنسان المتخلف. فالجدل والتفكير النقدي لا يتاح لهما النمو في النهاية إلا في جو من العلاقة الديمقراطية الحقيقية، التي وحدها تجعل الحوار ممكناً، وتفتح الطريق أمام قانون التناقض، تلاقي الـ «مع» والـ «ضد» في علاقة الجدل. الذهن المتخلف يعاني من التفكير وحيد الجانب والاتجاه، نظراً لتحكم علاقة التسلط والرضوخ: كلمة السيد وأوامره، قانونه، يقابلها معاش انفعالي عند التابع الذي يعمم بدوره الموقف الذهني نفسه في مختلف وضعيات الحياة. شلل الفكر النقدي نابع من فرض الطاعة دون حق النقاش والفهم.

وراء القصور المنهجي، وقصور الفكر الجدلي، ووراء طغيان الذاتية، نعتقد أن ما يميز العقلية المتخلفة هو ذلك النموذج من التسلط والقهر الذي يحكمها، هو تغلغل الإرهاب حتى أعماق النفسية كأسلوب وحيد لتصور العالم. هذه الوضعية المترسخة تخلق مقاومة عنيدة وخطيرة بقدر ما هي خفية لكل تغيير. ولكل تنمية في اتجاه الاعتبار الحقيقي لإنسانية الإنسان.

الفصل الرابع

الحياة اللاواعية

أولاً: مقدمة

تشكل الحياة اللاواعية[1] الوجه الخفي للتجربة الوجودية للإنسان. وتكتسب كل وزنها وتأثيرها من خاصيتها الأساسية، وهي الإفلات التام من سيطرة الوعي والإرادة، من ناحية، ومن شدة ومدى الضغط الذي تمارسه المكبوتات[2] على جميع أوجه النشاط الحياتي من ناحية ثانية. اللاوعي يتغلغل في كل حركة وسكنة وتوجه ونظرة وقيمة تحيط بحياتنا أو تعطى لها. لم يعد بالإمكان حالياً القيام بدراسة نفسية لوجود الإنسان دون التوقف عند نشاط حياته اللاواعية. فكما أنه من الخطأ منهجياً دراسة الواقع الموضوعي دون بحث علاقته الجدلية بالواقع الذاتي، كذلك فإنه من غير الجائز دراسة هذا البعد الذاتي دون الغوص في نواته الأساسية (في الوجود الأثري الطفلي والحيواني)، كما هو، ممتد عرضياً من الذات إلى المجتمع العريض، مروراً بجميع المراحل والدوائر العلائقية.

هذه المسلمات المنهجية النفسانية هي التي أدت إلى نشوء فرع جديد من فروع علم النفس وهو علم النفس الاجتماعي العيادي[3]، أو التحليل النفسي للمعاش الاجتماعي للإنسان. وهو فرع آخذ في الانتشار نظراً لما أدخله من غنى على دراسة الظواهر النفسانية والاجتماعية على حد سواء، مخرجاً الأولى من عزلتها الذاتية بربطها بالمجتمع، ومعطياً الثانية دفقة ذاتية أمدت بالحياة برود وتجريد المنهج الاجتماعي، وأعاد إلى الإنسان وحدته وكليته بعد

---

(1) اللاواعي Inconscient.

(2) المكبوت Réfoulé.

(3) علم النفس الاجتماعي العيادي Psychologie sociale clinique.

أن مزّق أشلاء خلال زمن طويل بين الأحيائي[1] والنفساني والاجتماعي.

العلاقة جدلية والتحديد متبادل بين الاجتماعي واللاواعي. فالبنية الاجتماعية بمؤسساتها الرئيسية تشكل الشخصية الإنسانية في قوالب خاصة. تنقش نظامها السائد في أعمق أعماق الإنسان، من خلال تشكيل حياته اللاواعية (مستودع النزوات وما يرتبط بها من أنماط العلاقات الأثرية[2] الأولية). ولقد أصبح معروفاً من الناحية النفسية، أن نمط الشخصية وبنيتها هو نتاج نظام العلاقات الأولية الذي يظل فاعلاً في اللاوعي. وهكذا فإن النظام السائد للبنية الاجتماعية يعود فيتعزز ويترسخ من خلال ثبات النماذج الأولية لحياة العلاقة في اللاوعي، من خلال ثبات البنية العلائقية اللاواعية، كما أنه يعكس وينقل الصراعات والأزمات اللاواعية الخاصة بالروحية الجماعية لذلك النظام.

ونخلص من ذلك إلى نتيجة هامة، بصدد موضوعنا، وهي أن شدة وعمق تأثير وطأة وضعية القهر المميزة للمجتمع المتخلف لا تتوقف على بعدها الاجتماعي فقط، بل تتعزز من خلال الانعكاسات اللاواعية التي تثيرها وتصاحبها. اضطراب العلاقة الاجتماعية يفجر اضطراب العلاقات الهوامية الطفلية الكامنة في لاوعينا، والتي تكونت انطلاقاً من الأولى. إن أكبر حليف للمرض الاجتماعي هو المرض النفسي في بعده اللاواعي. وإن أكبر متواطئ مع الاضطراب الاجتماعي هو الاضطراب النفسي الذي يصاحبه ويشكل وجهه الخفي. أبرز مثل على ذلك الفاشية السياسية، التي سيكون لنا وقفة عندها. درجة القمع الاجتماعي ومقدار الرغبة فيه، تتناسب مع درجة القمع النفسي الذي يصيب نزوة الحياة[3]، ودرجة الحقد والتعصب السياسي تتناسب طردياً مع مقدار العدوانية المتراكمة في اللاوعي. التبخيس الذي يلحق بالمرأة في نظام التسلط والقهر الذي يحكم المجتمع المتخلف، يتلاقى ويتكامل مع التبخيس اللاواعي الموجه إلى الأنوثة عند من يعاني من عقدة الخصاء[4] ويتنكر لها.

الظاهرة نفسها قابلة للتفسير المتماسك منهجياً على كل من المستويين الاجتماعي واللاواعي. التفسير في الحالة الأولى لا يتعارض مع الثانية بل يتكامل معها جدلياً. ولكن الدلالة ليست دائماً واحدة على المستويين. تأخذ الظاهرة معاني متعددة على مختلف أبعاد الوجود الإنساني. ولكن هذه المعاني على تنوعها تتلاقى في تأثيرها الدينامي. مثلاً الهزيمة العسكرية تأخذ معنى المساس بالكبرياء القومي، والاعتداء على المعتقد السياسي، كما تأخذ

---

(1) الاحيائي Biologique.

(2) علاقة أثرية Relation archaique.

(3) نزوة الحياة Pulsion de vie.

(4) عقدة الخصاء Complex de castration.

معنى فقدان الكرامة والاعتبار الذاتي على المستوى الذاتي، وتعني في النهاية جرحاً نرجسياً يأخذ طابع الخصاء على المستوى اللاواعي. والمال، بما له من قوة تأثير اجتماعية، يتخذ دلالة القوة القضيبية والامتلاء على المستوى اللاواعي. امتلاء الجيب بالنقود، يثير مشاعر الكبرياء الطفلي النابع من امتلاك الثدي المعطاء...

الحياة اللاواعية للإنسان المتخلف ما زالت، في بنيتها ودينامياتها، غياهب مجهولة في غالبيتها العظمى لم تتناولها الدراسات، وهناك ضرورة لبحث خصائصها النوعية. ما سنقوله هنا لا يتجاوز الملاحظات الأولية التي لا تدعي القطع واليقين، ولا الشمول.. إنه يلمس الملامح الأكثر بروزاً وقابلية للنفاذ. فقط التفجرات الانفعالية التي يمر بها المجتمع في المراحل الحرجة من تاريخه، تجعل البنية اللاواعية المميزة له تطفو على السطح، مما يسمح بدراستها من خلال الالتماس[1] والتحليل العياديين بشكل حي، وإلا فلا بد من القيام بدراسات واسعة تتوسل التقنيات الإسقاطية للحصول على معطيات قابلة للتحليل، واستخلاص استنتاجات لها بعض النصيب من الواقع.

ثانياً: الدينامية اللاواعية للإنسان المقهور

اتضح لنا في الفصل الثاني أن هناك محورين أساسيين تدور حولهما الحياة النفسية للإنسان المقهور، هما علاقة التسلط ـ الرضوخ من ناحية، واعتباط الطبيعة من ناحية ثانية. ويلازمهما معاً في تفاعلهما، الانعدام الأساسي للشعور بالأمن، وسيطرة حالة من العجز أمام الطبيعة وأمام المتسلط، وما يرتبط بهما من عقد نقص وعار.

تشكل هذه الوضعية مدخلنا إلى سبر أغوار الحياة اللاواعية انبنائياً ودينامياً. من الناحية الانبنائية يقابل علاقة التسلط ـ الرضوخ نموذج الوضعية السادومازوشية في الوجود والتموضع. أما دينامياً فترتبط هذه الوضعية بتفجر قلق الخصاء. كما أن اعتباط الطبيعة والناس يتقابل انبنائياً مع العلاقات الأولية بالصور الوالدية السيئة (الأم السيئة والأب القاسي). وأما دينامياً فتفجر هذه الوضعية قلق الهجر[2]. ويندفع الإنسان المقهور إزاء ذلك كله، للنكوص نحو مواقع طفلية في غاية البدائية، تدور حول الوضعيات السوداوية والعظامية والنفاجية. ونظراً لعدم قدرته على احتمال هذه الوضعيات لما تحمله من خطر الانفجار الداخلي، فإنه لا بد أن يتسلح بمواقع دفاعية متعددة، سنخصص لها القسم الثاني من هذا البحث.

---

(1) الالتماس Approche.

(2) قلق الهجر Angossie d'abandon.

1 ـ علاقة التسلط والقهر، السادومازوشية، وقلق الخصاء

نظام التسلط والقهر، يأخذ على المستوى اللاواعي شكل العلاقة السادومازوشية. هناك من ناحية طرف قاس، ظالم، مستبد، ينزل الأذى والعذاب بضحيته، لا يستطيع أن يحس بالوجود إلا من خلال تبخيسها، وتسبب الآلام لها، لا يحس بالقوة إلا من خلال التحقق من ضعف الضحية الذي كان هو سببه. هذا الطرف المتسلط لا يستقر له توازن إلا حين يدفع بذلك المقهور إلى موقع الرضوخ العاجز المستسلم، إلى الموقع المازوشي. جوهر السادية ولبها هما علاقة سطوة، لا يستطيع المتسلط السادي أن يكون إلا من خلال التعزيز الدائم لسطوته. وهذه لا تتعزز إلا بمقدار إضعاف الطرف الآخر في العلاقة، تحطيمه والاستحواذ الكلي عليه. وتصل غايتها عندما يعترف هذا الطرف المازوشي بسطوة السادي، ويقر بعجزه إزاءه. الرباط الإنساني يأخذ في هذه الحالة منحى سيادة الأنوية بدل توازن التعاطف والاعتراف المتبادل.

السادية في الأصل عدوان قبل أن تكون جنساً. والمازوشية معاناة مادية وجسدية ومعنوية قبل أن تكون تلذذاً جنسياً بالألم، كما كان يشيع من آراء. وأهم من المازوشية المادية، المازوشية المعنوية، أي وضعية الرضوخ والاستسلام للمهانة والتسليم بالضعف الذاتي وبسطوة السادي. ويرتبط السادي والمازوشي معاً في علاقة موقعية، تحدد لكل منهما مكانته. وتستمد كل من السادية والمازوشية زخمهما الحيويين من نزوة الموت، بما تتخذه من أشكال العنف والعدوان، فمصدرهما النزوي واحد دائماً. العنف والعدوانية يتوجهان إلى الخارج، منزلين الأذى بالضحية عند السادي، بينما يرتدان إلى الذات التي ترضخ للأذى، إذا لم تستنزله، عند المازوشي. وكل من هاتين الوضعيتين دفاع ضد الأخرى. فالسادي يعنف ويقسو هرباً من مازوشيته الداخلية، من مشاعر الذنب التي تقضّ أعماق وجوده. وكلما زادت قسوته دلّ ذلك على شدة ذعره من أن ترتد عدوانيته إلى ذاته فتدمرها. السادي يتنكر لمازوشيته من خلال إلحاق الأذى بضحيته التي تجسد ما يخشاه من نفسه، وما يتنكر له من خلال هذا التجسيد بالتحديد. أما المازوشي فهو يرضخ ويستنزل الأذى بنفسه دفاعاً ضد قلق ساديته التي يخشى توجهها إلى الخارج، وإفلاتها من سيطرته بشكل يدمر الآخر وبالتالي يدمر الذات معه. المازوشي هو إنسان يعجز عن تحمل نتائج ساديته. ومن هنا تبدو له الأخطار الخارجية مضخمة، وتبدو له سطوة التسلط دون حدود، ولا وهن يمكن التصدي لها من خلاله. ويتناسب عجزه ومهانته بمقدار تضخم هذه الأخطار. المازوشي يمكن أن ينقلب عدوانياً، والراضخ يمكن أن يتحول إلى متمرد، يحطم سطوة المتسلط حين يتجرأ على تحمّل تبعات عدوانيته.

ويتضمن هذا الأمر، تحديداً، قبول الأخطار التي تتضمنها ممارسة العدوانية الموجهة إلى الخارج (الانتقام الممكن الذي يستجيب به المتسلط)، والتي تبلغ ذروتها في خطر الموت. حين الظفر على الخوف من الموت، يتحول الإنسان المقهور إلى ثائر، كما رأينا في الفصل الثاني، ولا يتم ذلك بالطبع إلا بعد فترة اختمار يتم خلالها تحول داخلي في دينامية العدوانية واتجاهها. وهكذا فالمازوشية، رضوخ الإنسان المقهور، ليست صفة ثابتة ودائمة، إنما حالة قابلة للتحول تاريخياً.

تأخذ الوضعية السادومازوشية في لاوعي الإنسان دلالة الخصاء، وتفجر قلق الخصاء. الخصاء في الأصل هو السمة المميزة لجنسية الطفل، بالمقارنة بجنسية الأب الذي يمتلك الأم، ويفرض قانون التحريم على العلاقة بينها وبين الطفل، مما يؤدي إلى تحويل جنسيته نحو الخارج، نحو امرأة بديلة. هذا يشكل الأساس النفسي العلائقي لنشأة الثقافة.

قانون الأب الذي يفرض الخصاء (المنع) هو الذي يدفع بالطفل إلى النمو، إلى أن يصبح مثل أبيه في قوّته، وأن يتمكن من الحصول على امرأة له. ولكن الأمر لا يسير دائماً نحو هذه النهاية الطبيعية التي تمر من خلال التماهي[1] بالأب وبرموزه في المجتمع (المعلم، والرئيس، والقائد، الخ..). ينطلق التماهي من الحب والإعجاب بالأب، ولكنه يتضمن بالضرورة شحنة عدوانية تتمثل في الرغبة بتحديه وتجاوزه، الرغبة في القضاء عليه. فإذا كانت العدوانية شديدة، وكان الحب شديداً في آن معاً تجاه الأب، عجز الطفل عن المرور بعملية التماهي هذه بشكل إيجابي، وظل مثبتاً في مأزقه الموقعي. وبالتالي يستقر في حالة الخصاء، حالة هيمنة قانون الأب، دون التمثل به واجتياف[2] هذا القانون. وهنا ترتد العدوانية إلى الذات على شكل مشاعر إثم مفرطة من خلال تكوين «أنا أعلى»[3] قاس وصارم. وبمقدار اشتداد مشاعر الذنب تتعزز ميول عقاب الذات وتحطيمها، وتبرز بالتالي المازوشية المعنوية. الأب الذي لم يستطع الطفل اجتياف صورته، يستقطب كل العدوانية الذاتية لهذا الطفل، مما يجعله يبدو قاسياً مهدداً، معاقباً، لا يقاوم ولا يجابه. ومن هنا بروز عقدة النقص والعجز والعار التي تعكس وضعية الخصاء، وتستقي منها شحنتها الانفعالية. في الخصاء تسيطر إذاً صورة الأب القاسي العنيف المعاقب. وهي الصورة ذاتها التي تسقط على السلطة القامعة.

وضعية الإنسان المقهور تفجر إذاً قلق الخصاء، الذي يتضمن الشعور بالتهديد الدائم،

---

(1) التماهي Identification.
(2) اجتياف Introjection.
(3) أنا أعلى Surmoi.

قد يأتيه في أي لحظة من الخارج (من المتسلط، وكل أدوات السلطة) من ناحية، ويتضمن مشاعر العجز وعدم الاكتمال، تميز وجوده الذي يعاش تحت شعار المهانة من ناحية أخرى. فهو لا يمكن أن يقارن ذاته بالمتسلط، لا يمكن أن يساويه أو يوازيه أو يجابهه. كما أنه يشعر بالدونية وانعدام الكفاءة الاجتماعية، لا يمكن أن يرتقي، لن يستطيع أن يتعلم، إنه ليس في مستوى التكنولوجيا، إلخ...

قلق الخصاء يزعزع كيان الإنسان المقهور ويخل بتوازنه، فهو يولِّد الآلام المعنوية التي لا تحتمل والتي تمس صورة الذات وقيمتها، وتصيب الاعتبار الذاتي في الصميم. ولذلك فإنه يميل إلى فقدان الالتزام تجاه هذه الذات التي لا تحظى بالاعتبار من خلال الغرق في الرضوخ والتبعية والاستسلام، التي تأخذ جميعاً معنى عقاب هذه الذات المبخسة وتحطيمها. ولكن الحل السلبي هذا لا يحقق التوازن الداخلي، ولا يمكن أن يستمر. فلا بد إذاً من حلول إيجابية تحمل قيمة تعويضية.

الحلول التعويضية كثيرة ومتنوعة وتصب جميعاً في قناة الشعور بشيء من الاعتبار الذاتي. وسيكون لنا وقفة طويلة عند أهمها، في القسم الثاني من هذا البحث.

الاحتماء بالزعيم المنقذ، التعلق بالأبطال، كاللجوء إلى الأولياء، تحمل جميعاً الدلالة ذاتها من الناحية اللاواعية. إنها عملية إيجاد نوع من التوازن مع صورة الأب القاسي المسيطر المهدد، من خلال خلق صورة الأب العطوف الحامي والمنقذ الذي يتعلق به. صورة الأب الإيجابية هذه تحد من قلق الخصاء، وحالة التهديد الدائم التي تصاحبه. إنها تجعل الوجود متوازناً بعض الشيء في المرحلة التي تسبق الثورة، والتي تعني النهوض بأعباء الرجولة وتحمل مسؤولياتها، وتعني بالتالي توكيد الذات المستقلة والمماثلة للآخر، أي ديمقراطية العلاقة من خلال المساواة. ومن هنا نفهم مدى تعلق الإنسان المقهور بأبطال التاريخ الشعبي، ومدى اهتمامه بسيرهم، التي تدور دائماً حول إنقاذ الضعيف وحمايته وإنصاف المظلوم. ومن هنا نفهم مدى الاتكالية التي تظهرها الجماهير المقهورة في تعلقها الانقيادي بالزعيم المنقذ.

أما الإفراط في الذكورة فإنها تأخذ غالب الأحيان أشكالاً استعراضية متعددة. وبمقدار توكيد هذه الذكورة في مظاهرها الخارجية، من خلال كل أنواع المبالغة بالقوة الجنسية القضيبية والأهمية القصوى التي تعطى لهذه القوة، بمقدار ما يكمن في اللاوعي مشاعر نقص وعجز. يعبّر مصطفى صفوان عن ذلك تعبيراً رائعاً بقوله «القوى التي يؤكد بها الشخص ذكورته، أو أنوثته، متناسبة مع توكيد ضدها في اللاوعي (انعدام الذكورة، أو انعدام الأنوثة)»[1]. وأبرز أشكال توكيد الذكورة هو القيمة المفرطة التي تعطى للرجل، والرجولة

(1) M. Safouan, Etudes sur L'oedipe. Paris, 1974, P. 118.

التي يقابلها تبخيس مواز في شدته للأنوثة: التحقير من خلال اتهام الرجل بأنه امرأة. والحاجة إلى تضخيم رجولته بشكل وهمي في معظم الأحيان حفاظاً على المظاهر.

والواقع أن الاحتماء بالأولياء، والتعلق بالأبطال والاتكال على الزعيم المنقذ، تتلاقى مع الميل إلى الإفراط في توكيد الذكورة. فالبطل والزعيم هما دوماً المثال الكامل للرجولة جنسياً وعضلياً وشجاعة. والتعلق بهما والإفراط في قيمة رجولتهما بشكل خرافي كما يشيع في السير الشعبية، والنظرة إلى الزعيم، هي من النوع التعويضي المحض. من خلال التماهي بالبطل والزعيم يعوض الإنسان المقهور بعض نقصه ويعالج خصاءه ويخفف من قلقه.

2 ـ اعتباط الطبيعة، صورة الأم السيئة، وقلق الهجر[1]

الطبيعة، الأرض، الوطن، هي جميعاً الأم. فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللاواعي بين الطبيعة، النمط الحسي من الوجود، اللاعقلانية، والصور الأمومية[2][3]. الغذاء، الدفء، الانسجام مع الطبيعة، الأرض الخيرة، كلها تعبير عن الأم الطيبة التي تعطي الحب والدفء مع الحليب منذ فجر الحياة. عندما تعطي الطبيعة فإنها تدخل السرور على الإنسان ليس فقط من الناحية المادية والاقتصادية فحسب، بل أيضاً من خلال إثارة تجربة الحب الأولى في العلاقة مع الأم، تجربة الوفاق مع الحياة التي تمد بمشاعر الأمن، بمشاعر السكينة الداخلية. وما رومانسية بعض الأدباء والشعراء وتغنّيهم بالطبيعة سوى أحلام عودة إلى تجربة الاندماج الطفلي مع الأم الحنون المعطاء.

على العكس، تمثل الطبيعة القاسية، التي تحمل خطر الهلاك، وخطر الكوارث المختلفة (حريق، فيضان، جفاف، أوبئة، عواصف. . .) صورة الأم القاسية، الغاضبة والنابذة، التي تمنع حبها وتحرم حنانها، وترفض إعطاء الحليب الذي يملأ الجوف ويدخل إلى الطفل السكينة في آن معاً. عدم القدرة على السيطرة على الطبيعة يجعلها تبدو اعتباطية في نظر الإنسان المتخلف، وهو يثير في لاوعيه أكثر المخاوف طفلية وبدائية، الخوف من هجر الأم له، الخوف من الوحدة والخواء[4] الداخلي. قلق الهجر يثير أقصى درجات العدوانية الأثرية التي تتوجه إلى الأم النابذة في حركة انتقامية تدميرية. ولكن هذه العدوانية غير محتملة وهي لذلك تتحول إلى الخارج، فتسقط على صورة الأم التي تأخذ عندها طابعاً قاسياً مفرطاً في عنفه. إن أقصى تهديد يمكن أن يعيشه الإنسان على المستوى اللاواعي، هو خطر مجابهة هذه الأم

---

(1) قلق الهجر Angoisse d'abandon.

(2) الصور الأمومية Images maternelles.

(3) G. Mendel: La revolte père. Paris, Payot, 1968, P. 378.

(4) خواء Vide.

القاسية المنتقمة. ولأن العدوانية البدائية للطفل لا تعرف الحدود نظراً لانعدام ضوابط العقل والمنطق والواقع، فإن صورة الأم في قسوتها في هذه الحالة لا تعرف الحدود. إنها تثير قلق الفناء ليس إلا، وهكذا يتفجر الذعر الوجودي.

الحياة القاسية، كالطبيعة الغاضبة، ليست مصدر معاناة لأسباب اقتصادية معيشية محضة، بل كذلك لما تفجره من عدوانية طفلية كامنة في أعماق اللاوعي، ترتد على الذات على شكل تهديد خارجي. الإنسان المقهور الذي يرضخ لاعتباط الطبيعة معرض بالتالي لتحرك هذه الانفعالات الأثرية في نفسه. وهو تحرك يفقده كل شعور بالأمن ويضعه أمام خطر الفناء. وينعكس هذا القلق خصوصاً في موضوع الهجر والفراق الشائع في الأغاني الشعبية، في قسوة الحبيب وتجاهله للإنسان المحب الذي يجتر آلامه، ويعاني من خوائه الداخلي. إن هذه السوداوية الشائعة في أغاني الجماهير المقهورة، لا تعبّر عن الحرمان الجنسي الفعلي فقط، بل هي وسيلة للتعبير عن الحرمان الوجودي. قسوة الحبيب وتجاهله ليسا سوى الرمز لقسوة الحياة ووطأتها. وهذه بدورها تعود فتتصل بموضوع الحب من خلال إثارة قلق الهجر الطفلي. وحدة المحب وعذابه يعكسان عجز الإنسان المقهور إزاء الطبيعة والحياة واعتباطها، ويثيران أشد حالات انعدام الشعور بالأمن، الخوف من الهلاك الذي تتضمنه صورة الأم القاسية. وهكذا يتصل العاطفي بالاقتصادي، ويتصل الاقتصادي بالطفلي اللاواعي، في وحدة جدلية.

ويتأزم الأمر نظراً لتحالف قسوة الطبيعة مع استبداد المتسلط واقعياً. هذا التحالف يثير تحالفاً مقابلاً له في اللاوعي: تحالف الأم النابذة مع الأب القاسي ضد الطفل العاجز. فقلق الخصاء الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة، يستمد جذوره وأصوله من قلق الهجر، كلاهما يعزز الآخر ويغذيه. هذا التعزيز يزيد من وطأة عجز الإنسان المقهور عن المجابهة (مجابهة المتسلط، والسيطرة على الطبيعة) ويفجر أقصى حالات العدوانية الأثرية التي لا يمكن احتمالها، لأنها تحمل خطر تفجير الذات. ولكن إسقاطها على الخارج كوسيلة للخلاص من وطأتها، لا يحل المشكلة لأنه يؤدي إلى اصطباغه بصبغة اضطهادية مهددة، يعيش الإنسان المقهور عندها في عالم عدائي يحمل له خطر الهلاك في كل لحظة.

وهو في البداية لا يجد من وسيلة سوى الرضوخ إزاء هذا الوجود. وهو في رضوخه يجتاف العدوانية الخارجية كقدر محتوم مع نكوص إلى المرحلة الفمية[1]، مرحلة التعامل مع الوجود من خلال الفم. ولذلك يصطبغ الوجود بصبغة فمية سيئة، نجد تعبيراً عنها في النعوت ذات الطابع الفمي (مر الحياة وحلوها، مر العذاب، غصة الحياة، أمر لا يبتلع، أكل

(1) المرحلة الفمية Stade oral.

الضربة أو الخسارة، إلخ. . .) كلها تعبير عن اجتياف (الإدخال في الجوف) السوء الحياتي، على غرار اجتياف الحرمان وخشونة المعاملة أثناء الطفولة، من أم قاسية نابذة.

ولكن الرضوخ واجتياف السوء لا يشكلان حلاً مقبولاً يحمل التوازن الضروري إلى الوجود. لا بد من حلول أخرى أهمها العلاقة الدمجية[1] مع الأم، وخلق صورة الأب الحامي. وكلاهما يؤمنان مقداراً مقبولاً من الحماية ومشاعر الأمن.

العلاقة الدمجية مع الأم، تأخذ شكل الذوبان في الأسرة والعشيرة، كما تأخذ شكل إعلاء شأن الأمومة: طيبتها وحنانها، وترحيبها، وعطائها وتضحيتها، الأم كملاذ أخير لا يخيب رجاء الإنسان المعذب. أما صورة الأب الحامي، فلقد أتينا على ذكرها في الفقرة السابقة. إنه الأب الذي يشكل النقيض التعويضي لصورة الأب المهدد القاسي (رمز السلطة القامعة)، كما إنه الأب الرحوم ذو الجبروت الذي يسيطر على الطبيعة، ويحمي من غوائلها وتهديدها. تلك هي صورة البطل في القصص الشعبي، وهي نفسها صورة الزعيم المنقذ.

وهكذا فمأساة الإنسان المقهور لا تقتصر على بعدها الاجتماعي الاقتصادي السياسي فقط. إنها تفجر مأساة ثانية أكثر بدائية، هي القلق الطفلي اللاواعي: انعدام مشاعر القدرة والإحساس بالأمن، قلق الخصاء وقلق الهجر. كل من المأساتين تعزز الأخرى، مما يؤدي إلى تضخم معاناته. ويتفاقم هذا التضخم نظراً لإفلات الأمر من سيطرته في الحالتين. ليس المصير المادي هو الذي يفلت من يده فحسب، بل تفجير القلق النابع من اللاوعي خصوصاً، باعتبار أن الخاصية الأساسية لما هو لاواع، الإفلات من سيطرة الوعي والإرادة. ذلك ما يخلق اختلالاً في التوازن الوجودي، يجعل الحياة صعبة الاحتمال، ويدفع به إلى توسل العديد من وسائل الحماية التي تذهب في كل اتجاه. هذه الوسائل تشكل القسم الثاني من بحثنا.

---

(1) علاقة دمجية Relation fusionnelle.

القسم الثاني

الأساليب الدفاعية

تمهيد

وضعية الإنسان المتخلف بما تتصف به من قهر ورضوخ مأزقية، تخلّ بالتوازن الوجودي، وتجعل الحياة غير ممكنة دون حلول. إنها تولّد توتراً نفسياً كبيراً يتجاوز طاقته على الاحتمال. وهي بالتالي لا توفر الحد الأدنى من الانسجام والتوازن اللذين لا بد منهما كي يستمر في مسيرة الحياة.

كما أن هذه الوضعية بما تتضمنه من اعتباط وقهر تمس القيمة الحميمة للإنسان المتخلف، قيمته في نظر نفسه وفي نظر الآخرين. ولا يمكن للمرء أن يعيش دون اعتبار ذاتي، دون شيء من الاعتداد بالذات، هويتها وانتماءاتها والتزاماتها. إنها تسد السبيل أمام ذلك الشعور بالارتياح الأساسي الذي يرافق تحقيق الذات وتوكيدها، لأنها لا تتيح المجال أمام ذلك التحقيق وهذا التوكيد.

ينتج عن اختلال التوازن الوجودي وانعدام تحقيق الذات، حالة مفرطة من التوتر والقلق وانعدام الاعتبار الذاتي. وتبرز الحاجة ماسة إلى حلول لمجابهة هذه الوضعية المأزقية، حلول تعيد بعض التوازن وتؤمن بعض الكبرياء وتجعل الوجود محتملاً ومبرراً.

يمكن أن نقسم هذه الحلول إلى فئتين أساسيتين: الفئة الأولى والأكثر فعالية هي محاولات تغيير الوضعية المأزقية من خلال قلب المعادلة المفروضة على الإنسان المقهور. أي محاولات تغيير الأوضاع الخارجية بشكل يتلاءم مع الحاجات الحيوية والأهداف الوجودية وتحقيق الذات. إن هذه الحلول هي الأضمن على المدى البعيد، وهي وحدها التي تكفل إعادة الاعتبار إلى إنسانية الإنسان المقهور. ولكنها ليست ممكنة دوماً، منذ بداية علاقة القهر والرضوخ. ولذلك تسبقها من حيث التسلسل التاريخي فئة الحلول الدفاعية. وهي على عكس

السابقة، لا تحاول التغيير ولا تقوى عليه، بل تهدف إلى التأقلم والتلاؤم مع الوضعية الراهنة بشكل يخفف من وطأتها، ويكفل شيئاً من الانسجام الوجودي، كما يكفل نوعاً من تحقيق الذات الظاهري. ولكن هذه الحلول الدفاعية، بما تتصف به من سلبية وفتور أساساً، لا تلبي الحاجات الحيوية على المدى الطويل. ولهذا فهي ملغومة من الداخل، من خلال قصورها عن التغيير. ولا بد أن يعود التوتر إلى الارتفاع، والتوازن إلى الاختلال بعد فترة تطول أو تقصر، مما يدفع الإنسان المقهور في النهاية إلى الحلول التغييرية.

إنما العلاقة بين هاتين الفئتين من الحلول ليست قطعية (من نوع إما أو) ولا هي متتالية تاريخياً. يغلب على وضعية الإنسان المقهور تواجد الحلول من الفئتين، وتداخلها باستمرار في كل مرحلة من مراحل التاريخ. الحلول الدفاعية تتضمن دوماً بذور المقاومة والتغيير. ولكن هذه البذور قد يطول بها العهد قبل أن تنبت، ويطول بها العهد أكثر فأكثر قبل أن تعطي ثمارها، مما يبقي الإنسان المقهور في حالة تقاوم التغيير. كما إن الحلول التغييرية ليست صافية مطلقاً، إنها تتفاوت من حيث فعاليتها بدرجات كبيرة، نظراً لاستمرار تأثير الحلول الدفاعية بشكل يعوق مسيرة التغيير. ولا بد من لجم فعالية هذه الحلول الدفاعية والوعي بها وبتغلغلها في الممارسة والنظرة إلى الوجود، حتى يصل التغيير حد الفعالية المعقولة.

إن العديد من ممارسات وتوجهات الإنسان المتخلف ونظرته إلى ذاته وإلى وجوده، والتي قد تبدو ظاهرياً عناصر لا رابط بينها، هي في الحقيقة نماذج من الدفاعات والحلول التي يجابه بها وضعيته المأزقية. هي تلتصق بكيانه إلى درجة تأخذ معها طابع أسلوب الوجود المتميز باستقرار نسبي. وبمقدار استقراره يشكل عقبة في وجه التغيير الاجتماعي.

ولا يمكن لبحث تمهيدي كهذا أن يحيط بها جميعاً، نظراً لتعددها وتنوع مظاهرها. لا بد له أن يقتصر على الخوض في أبرز أشكالها، ولذلك نكتفي بالحديث عن أربعة أساليب أساسية تنتظم في أزواج متناقضة في اتجاهها متكاملة جدلياً في تضادها. وهي تأخذ بالتالي شكل تحرك يتصف بالتجاذب في اتجاهه. هذا التجاذب يميز سلوك الإنسان المقهور ونمط وجوده على الدوام.

التحرك الأول يسير على محور التقرب من المتسلط والتماهي به من ناحية، والابتعاد عنه والذوبان في الجماعة من ناحية ثانية. وبمقدار ما يتقرب الإنسان المقهور من المتسلط، يتنكر لجماعته الأصلية. وعلى العكس، بمقدار ما يتنكر للمتسلط ويبتعد عنه، يندمج في جماعته الأصلية، التي تشاركه قدره ووضعيته لدرجة الذوبان في الانتماء إليها.

التحرك الثاني يسير على محور القتال والعنف ومجابهة المتسلط من ناحية، والهروب المستسلم في الحلول الفاترة السحرية والاتكالية والخرافية من ناحية ثانية. وهنا أيضاً يسود

التذبذب في التوجه نحو أحد المتناقضين. بمقدار ما تنشط عمليات التصدي، تخفّ حدة الحلول الاستسلامية. وبمقدار ما يسد السبيل أمام المجابهة (مجابهة المتسلط) تطغى حلول الاستسلام للخرافة والاتكال والتمني السحري. إلا أن كلا الأمرين يتداخلان ويتلازمان فترة طويلة من الزمن.

في كلا التحركين يبدو الإنسان المقهور متجاذباً دوماً بين الإقدام والاستسلام، بين التماهي بالمتسلط والانكفاء على الذات. ذلك هو الطابع المميز لوجوده عموماً. وما عدا حالات الاستسلام الرضوخي أو التمرد الثائر الذي يحطم كل شيء، تظل الحركة جزئية والحلول نسبية. هذه الجزئية وتلك النسبية هما اللتان تعطيان الانطباع بسكونية وضعية الإنسان المتخلف، وجمودها. إلا أن التماهي بالمتسلط والحلول الاستسلامية هي التي تشيع عادة في مرحلة الرضوخ. بينما تشيع في مرحلة المقاومة والتمرد حلول العنف والقتال من ناحية، والانكفاء على الجماعة والاعتزاز المفرط بها من ناحية ثانية.

هذه الحلول الأربعة بما تتصف به من تذبذب وتجاذب في الحركة، لا تغطي تماماً الأساليب الدفاعية الهامة التي يتوسلها الإنسان المقهور. إنها على تناقضها تجد توليفها في الموقف من المرأة. المرأة هي محط كل تناقضات وتجاذبات الإنسان المقهور في العالم المتخلف. وتحليل وضعيتها ومكانتها يكشف أكثر من أي شيء آخر خصائص الوجود المتخلف ومأزقيته. فعليها تصب كل التبخيسات وكل المبالغات في القيمة. وتجاهها تبرز كل التجاذبات بأفصح صورها. وضعية المرأة في مجتمع ما تلخص الصراعات الأساسية والمآزق الأساسية لهذا المجتمع. ولذلك فسنتوج هذا القسم بفصل عن المرأة في العالم المتخلف، بعد الفصول الأربعة التي سيخصص كل منها لواحد من الحلول الأربعة التي أتينا على ذكرها.

الفصل الخامس

الانكفاء على الذات

الحركة الأولى التي يحاول الإنسان المقهور من خلالها تجنب ما تفرضه عليه الطبيعة من بلاء اعتباطي، ويفرضه عليه المتسلط من قهر متعنت، تأخذ اتجاه الانكفاء على الذات. وهي كأوالية دفاعية تسير في اتجاه التقوقع والانسحاب بدل مجابهة التحديات الراهنة والمستقبلية. وتشيع هذه الأوالية كثيراً في ردود فعل الإنسان تجاه مختلف حالات الفشل، الذي يصحبه إحساس داخلي بالعجز وقلة الحيلة. وتلاحظ عند الأطفال والكبار على حد سواء (الفشل في منافسة أخ أصغر أو أكبر، الفشل في الحصول على مكانة مرموقة في الصف، الفشل في انتزاع إعجاب الوالدين أو المعلم. الفشل في العلاقات العاطفية أو في المشاريع المهنية عند الكبار، الخ...). في كل هذه الحالات يدير الإنسان ظهره للعالم، يتعلم أن يقمع رغبته حتى لا يشعر بآلام الإحباط، يقطع الصلة بموضوعات هذه الرغبة كي لا تثير في نفسه قلق الخواء، وما يجره من إحساس بانعدام القيمة. الطفل الذي عجز عن منافسة أخيه، يدير ظهره لعلاقة معه وينسحب من المعركة منطوياً على نفسه، التلميذ الذي عجز عن إثبات ذاته في الصف ينزوي متبلداً في ركنه، العاشق الفاشل يقمع جذوة الحب في نفسه، ويبخس المحبوب الذي يشكل مرآة لفشله، كي يصل إلى تبخيس قيمة الحب ذاته، والفاشل في الحصول على الجاه أو الثروة يتبنى فلسفة في الوجود عدمية أو زاهدة. يتعلم الواحد من هؤلاء أن يحد طموحاته، بأن يضع لنفسه أهدافاً قريبة المنال، أو هو في الحالات القصوى يجعل من انعدام الأهداف معياراً حياتياً.

يحد الإنسان المقهور من طموحاته إذاً، وذلك بأن يتقبل مصيره، أو يحاول إيهام ذاته بتقبل هذا المصير. ويغرق في بؤسه الذي يتخذ عندها طابع القدر والنصيب، (كتب عليه الشقاء) اللذين ليس إلى تغييرهما من سبيل. وهو بالتالي يحد من مجالات نشاطه إلى أبعد مدى ممكن. أو يترك نفسه للظروف تسير حياته في كل اتجاه، ودون اتجاه، لا يدري كيف سيكون

غده، ولا أين ستستقر به الأمور، واقفاً مما يلم به موقف المتفرج.

إلا أن هذه الحالة تمثل رد الفعل الأقصى، إنها تشكل آخر مراحل الفشل والقهر، ولا يصل إليها إلاّ القلة القليلة من الناس. أما غالبيتهم فتدافع عن نفسها إزاء تحديات الطبيعة والمتسلط التي لا قبل لها بمجابهتها، من خلال الانكفاء على الذات. وهو يضم حركتين متممتين لبعضهما البعض.

في الحركة الأولى يدير الإنسان المقهور ظهره للمتسلط. يبتعد عنه ويقطع الصلة به. يغذي مشاعر عداء باطنية تجاهه تعزز ميله إلى تجنبه وتجنب رموزه وأدواته. وتتضخم عنده مشاعر الفرقة والاختلاف اللذين يغذيهما الخوف بالإضافة إلى العدوانية الباطنية. علاقة الخوف والعدوان، لا تبعده عن المتسلط فحسب، بل عن كل ما يمثله من نمط حياة وقيم وأدوات (الشرطة، المحاكم، والقضاء، الإدارة، إلخ...). العلاقة هي من نوع الشك والحذر والحيطة من الأذى الذي قد يلحقه به المتسلط وأدواته. إنه يتقي الشر بابتعاده عن الاحتكاك به، لأنه يعيش العلاقة معه كتهديد دائم له ولذويه. والواقع أن هذه العلاقة تحمل قدراً متفاوتاً من التهديد والإرغام والاعتداء المادي والمعنوي. وهكذا يتجنب الإنسان المقهور كل ما يمكن أن يعرضه للخطر. ومن هنا الابتهال في أن لا يتعرض للتجارب، أن لا يقع في يد الحاكم والحكومة وأدواتهما. وهو كي لا يتعرض للأذى، لا يتجنب العلاقة المباشرة فحسب، بل يتهرب من المشاركة في كل ما هو عام. إنه يقف موقف المتفرج العاجز أو الشامت، لا يستجيب لنداء ولا ينخرط في نشاط ولا يساعد فيما قد يرتد على المجموع بشيء من الخير. قد يكون في ذلك تفسير للسلبية والفتور اللذين يميزان جماهير العالم الثالث المقهورة، حتى حين يأتي من يحاول تحريكها والعمل لمصلحتها. فلقد تأصل الشك والحذر والخوف من التعرض للأذى عندها نتيجة لتجاربها المؤلمة مع المتسلط، كما تأصلت عندها روح الهزيمة إزاء قوى لا قبل لها بها.

ولا يقتصر الأمر على التجنب والحذر، بل يتعداهما كي يأخذ شكل الرفض النشط لقيمه ورموزه وأدواته وأسلوب حياته. رفض يقوم على أساس من الاختلاف الجذري بين عالمين متعارضين ومتناقضين، ويشكل الحركة الثانية التي تتمم الأولى. ويصل هذا الرفض حتى تتعزز قدرته الدفاعية إلى حد التمسك الشديد بالجماعة وتراثها خصوصاً في مجابهة المتسلط الخارجي (المستعمر). وبذلك تتدعم التقاليد وتقوى شوكة دعوة العودة إلى الماضي العريق.

يضاف إلى هذه الدعوة ميل للذوبان في الجماعة المرجعية، لدرجة تزول معها الفردية بشكل شبه كامل. ويجد الإنسان المقهور في هذا الذوبان حماية له، وتأميناً ضد أخطار الطبيعة

وأذى المتسلط. كما يجد فيه ضمانة للغد وللذرية من خلال نظام خاص من المشاركة والتعاضد.

أما وسيلة الحماية الثالثة التي تشيع في موقع الانكفاء على الذات، فهي السلوك الاتكالي تجاه الولي (الملاذ) أو الزعيم المنقذ، في حالة من التبعية الطفلية لرموز قوة حامية تذود عنه الغوائل من كل نوع. من خلال هذه الوسائل (التمسك بالتقليد والماضي المجيد، الذوبان في الجماعة، وعلاقة الاتكال) يتمكن الإنسان المقهور، خلال مرحلة الرضوخ، من إدخال شيء من التوازن إلى وجوده، بإبعاد شبح القلق الذي يلفه والاحتماء من التهديدات المتنوعة التي تزرع مسيرة حياته. ولا بد لنا، بالتالي، من وقفة عند كل منها.

أولاً: التمسك بالتقليد والرجوع إلى الماضي المجيد (السلفية)

الإنسان المتخلف كالمجتمع المتخلف سلفي أساساً. يتوجه نحو الماضي ويتمسك بالتقاليد والأعراف بدل التصدي للحاضر والتطلع إلى المستقبل. وتزداد السلفية شدة وبروزاً بمقدار تخلف المجتمع، وبشكل يتناسب طردياً مع درجة القهر التي تمارس على الإنسان فيه. وتترسخ السلفية من الناحية الذاتية بمقدار الشعور بالعجز عن مجابهة تحديات الطبيعة والمتسلطين، على اختلاف فئاتهم ومراتبهم. وهكذا فإذا كان بعض علماء الاجتماع، يعتبرونها من الخصائص الأساسية للتخلف الاجتماعي، وإذا ذهب بعضهم الآخر إلى حد القول بأنّ التخلف هو أساساً تحكم السلفية في حركة المجتمع، فإنها تجد لها تعزيزاً وتوكيداً لدى الإنسان المقهور الذي يتمسك بها. فهي من هذه الناحية ليست فقط خاصة انبنائية اجتماعية، بل في الوقت نفسه أوالية دفاعية نفسية. ففي حين تشكل اجتماعياً، موجهاً للسلوك، وقانوناً يضبطه، نرى الإنسان المقهور، من الناحية النفسية، يتخذها معياراً لحياته ونظرته إلى الوجود. وهكذا يتلاقى ويتضافر الاجتماعي والذاتي على الدوام.

تشيع السلفية بشقيها (الرضوخ للتقاليد والأعراف، والاحتماء بالماضي وأمجاده)، من الناحية النفسية، بمقدار درجة القهر التي تمارس على إنسان العالم المتخلف، وبمقدار إحساسه بالعجز والضعف والغلبة على أمره إزاء غوائل الطبيعة وعنت المتسلطين. وهي لذلك أوالية دفاعية إزاء تحديات لا قبل له بها، تشل مبادراته في الحاضر وتسد أمامه آفاق الخلاص المستقبلي. هذه الوظيفة الدفاعية قد لا تبدو على السطح بشكل واضح في فترات السكون الاجتماعي، وبالتالي قد يبدو من المستغرب لأول وهلة القول بوظيفة كهذه. ولكن عندما يتعرّض إنسان العالم الثالث لغزو متسلط خارجي يرمي بكل ثقله للسيطرة عليه، وعندما يعيش هذا الغزو كقوة جارفة لا قبل له بمجابهتها وإيقاف اجتياحها لأرضه وكيانه وتراثه ورزقه، تبرز السلفية بوضوح كوسيلة حماية من خلال الانكفاء على الذات، والرجوع إلى

الماضي التليد. الأمثلة على ذلك كثيرة وفصيحة، بعضها قديم العهد والآخر حديثه، في المجتمع العربي، أحدثها عهداً مقاومة موجة الاستعمار الحديث الإنجليزي والفرنسي في مختلف الأقطار العربية، خصوصاً المغرب العربي الذي تعرّض لمحاولات استلاب حضاري ضارية ومنظمة. فالمغربي والجزائري، كالمصري والسوري، جميعاً استعانوا واحتموا بالتراث والعودة إلى الماضي، والتمسك بالتقاليد لدرء تهديد الغزو الخارجي للهوية القومية.

وتدل التجربة على أن ما يبدو واضحاً في أوقات الأزمات أو الفترات العصيبة من تاريخ مجتمع ما، يعمل بشكل خفي في فترات الهدوء، وله وظائف متقاربة في الحالتين، على أن الاحتماء بأمجاد الماضي يظل أوضح في تفصحاته ووظيفته الدفاعية من التمسك بالتقاليد. ولكن النظرة المتفحصة تبين العناصر المشتركة بينهما كليهما.

ويشجع المتسلط الداخلي السلفية بشقيها تشجيعاً مستمراً لانتشارها وتعزيزاً لمكانتها. لأنها تكرس امتيازاته وتعطيها صبغة الأمر الطبيعي، والقانون الطبيعي الذي يحكم الحياة وبالتالي لا يجوز المساس به من ناحية (التمسك بالتقاليد)، وهي تصرف الإنسان المقهور عن النهوض بواجب التغيير وتقديم التضحيات التي يستلزمها من ناحية ثانية (الاحتماء بأمجاد الماضي). وهكذا فالسلفية كدفاع وجودي، إذا كانت تخدم غرض الاحتفاظ ببعض التوازن النفسي الضروري لاستمرار الحياة، تتعارض في النهاية مع مصالح الإنسان المقهور على المدى الطويل، بمقدار حؤولها دون التغيير، تماماً كما تتعارض الدفاعات النفسية في المرض النفسي مع مصالح الشخصية لأنها تحول دون نموها وانطلاقها، من خلال ما تفرضه عليها من جمود وتصلب.

1 ـ التمسك بالتقليد

المجتمع المتخلف، مجتمع تقليدي جامد، متوجه نحو الماضي، يضع العرف كقاعدة للسلوك وكمعيار للنظرة إلى الأمور. والإنسان المتخلف كائن تتحكم به التقاليد وتقيد كل حركة أو انطلاقة نحو المستقبل لديه. فعنصر القهر واضح تماماً في المجتمع التقليدي الذي يمتلك أبناءه ويلغي مبادراتهم. إنه يقولبهم في صيغ جامدة وثابتة.

درجة التساهل تجاه السلوك الذي يخرج عن الخطوط المرسومة لكل إنسان، تبعاً للدور الذي أعطي له، ولدلالة هذا الدور ووظيفته الاجتماعية ومكانته، ضئيلة تكاد تتلاشى. ولذلك فإن حالة التوتر الداخلي، شائعة عند الفئات المغبونة في البنية الاجتماعية التي يتحكم فيها التقليد. هذه الفئة لا تملك إلا الرضوخ خارجياً، رغم ما يعتمل في ذاتيتها من صراع ورغبة في التمرد وكسر القيود. الخوف شديد من هذا التمرد الذي تقابله بتشدد مطلق،

الجماعة التي تشكل تهديداً دائماً لأفرادها بالنبذ أو التشهير أو التصفية إذا حاولوا المساس بالعرف السائد.

ويتوسل المجتمع، وخصوصاً الفئة ذات الامتياز فيه، وسائل عديدة لتعزيز التقاليد وفرض الجمود على حركة الفرد وبنية الجماعة. معظم هذه الوسائل ذات طابع قمعي أساساً. يضاف إليها تفسير للكون من خلال التقاليد والبنى العلائقية والمرتبية الاجتماعية السائدة، حتى ليبدو الأمر وكأنه الطبيعة الوحيدة للحياة، وأن كل مساس به هو مساس بقوانين الحياة التي لا يجوز أن تمس. فرضوخ المرأة واستعبادها ليسا استغلالاً لكائن مقهور، بل هما طبيعة المرأة ذاتها، أو هكذا يصور، وبالتالي فهو أمر طبيعي عليها أن تتقبله كخاصية أساسية من خصائص كيانها البيولوجي. واستغلال الأبناء كأدوات (للقوة، أو الجاه، أو الثروة، أو توكيد ذكورة الأب وأمومة الأم، أو إقامة التحالفات من خلال المصاهرة) هو جزء من العلاقة الطبيعية البيولوجية بين الآباء والأبناء. استغلال الآباء لأبنائهم والتحكم بمصائر بناتهم والإتجار بهن حق مقدس لا يجوز أن يمس. غنى المتسلط وفقر الكادح، عبارة عن قسمة طبيعية للأرزاق والمقامات، لا يجوز المساس بها وليس من سبيل سوى تقبلها والدفاع عنها.

ويتوسل المتسلطون الدين، من أجل ترسيخ العرف الشائع الذي يخدم مصالحهم قبل كل شيء. ويعززون سطوة التقاليد من خلال آيات وأحاديث لا مجال للشك فيها، وإلا تعرّض إيمان الإنسان المغبون للخطر وأمله الوحيد في عزاء دنيا الآخرة للتلاشي. ولكن اللافت للنظر هو أن المجتمع التقليدي، والذين يمسكون السلطة فيه ويتمتعون بكل الامتيازات، لا يبرزون من الدين سوى الجوانب التي تؤكد سلطتهم، وتعزز العرف الشائع والنظام المرتبي. فقط تلك الجوانب التي تؤكد على القناعة بالأمر الواقع وتقبله تبرز وتتكرر على مسامع المغبونين. أما الجوانب الثورية في الدين، أما جوانب التحرر والإبداع والتغيير، والعدل والعدالة والتصدي والشجاعة والجهاد في سبيل الحق وفي سبيل كرامة الإنسان، فيسدل عليها ستار كثيف من التعتيم. وهكذا يصبح كل ما هو عصري يساعد الإنسان على تحرير ذاته وامتلاك زمام مصيره بدعة، وكل توكيد على الحق والعدالة والكرامة وممارستها زندقة. ويتحول الدين إلى سلاح مسلط على المغبونين. وهذا أفعل سلاح لدفعهم إلى الاستسلام والإذعان لأنه يهدد أملهم الأخير في الخلاص والعزاء في ثواب الآخرة. خلاص وثواب يجعلان وحدهما حياة القهر ممكنة.

المجتمع التقليدي، بما يشيع فيه من عرف وما تتحكم في أفراده من عادات، وما يفرضه على عملية التفاعل الاجتماعي والتحرك السلوكي من جمود، يخدم إذا مصالح فئة ضئيلة هي التي تحظى بمعظم الامتيازات، وتستفيد من الحفاظ على الوضع القائم، ذلك أمر لا يحتاج إلى جهد كبير للتدليل عليه والبرهنة على صوابيته. فالشواهد اليومية في العالم

المتخلف أكثر من أن تحصى، أبرزها ما يشيع في المجتمع القبلي والعشائري. فهنا نجد تلازماً بين أقصى انتشار للتقاليد وأشد سطوة لها وأكبر درجات القهر الاجتماعي، وأوضح مظاهر الرضوخ عند الغالبية المغبونة، يقابلها جميعاً أبرز حالات التسلط عند القلة التي تتحكم بالقبيلة أو العشيرة وأكثرها حصولاً على الامتيازات.

كيف يمكن إذاً والحالة هذه أن يشكل التمسك بالتقليد أوالية دفاعية ضد القهر الذي يفرضه المجتمع التقليدي؟ قد يبدو في هذه المقولة شيء من التناقض المنطقي. إلا أن هذا التناقض يظل سطحياً فقط. فمن الناحية العلمية لا بد من توازن في أي قانون يفرض على جماعة بين عنصر الضغط والقهر من ناحية، وعنصر تحقيق الحاجات بشكل ما، من ناحية ثانية. إن التقاليد والأعراف لو كانت قهرية محضة لما استقرت واستمرت، لأنها تتضمن في هذه الحالة التوازن الضروري بين عنصر الضبط، وعنصر تحقيق الحاجات، الذي لا إمكانية للاستمرار دونه. ما يشكل عنصر قهر لا بد أن يتضمن نقيضه المتمم له، وهو الدفاع ضد هذا القهر. دفاع ليس بالضرورة معاق (ينمي الشخصية) بل قد يكون مرضياً لأنه يؤمن توازناً جامداً.

الأوجه الدفاعية للتمسك بالتقاليد عديدة ومتنوعة. أبرزها التحصن بتلك التقاليد لمجابهة غزو متسلط خارجي. هذا المتسلط يشكل تهديداً كيانياً لمن يغزوهم في هويتهم القومية وتراثهم وانتماءاتهم ونظرتهم إلى الوجود، إنه يحمل خطر الاندثار وفقدان الاعتبار الذاتي. فإذا عزّت المقاومة المسلحة وانتفت إمكانية المجابهة المباشرة، لا يظل أمام الشعب المقهور سوى الاحتماء بالتراث والتمسك بالتقاليد، ضد الغزو الفكري والنفسي، ضد الغزو الحضاري. ويشتد التمسك بهذه التقاليد بمقدار وطأة الاستعمار الحضاري، ويستمر طالما عزّت المقاومة المسلحة، وطالت فترة الاستعداد للتحرير. وتخفّ حدة التمسك بالتقاليد، ويزداد الانفتاح على عوامل التغيير والتحديث بمقدار الاطمئنان إلى القوة الذاتية، وبمقدار الشعور بالحماية وانخفاض حدة التهديد الخارجي. وقد يكون في تمسك التجمعات السكانية الريفية بالتقاليد، والتشدد فيها دفاعاً عن كيانها ضد تسلط السلطة المركزية التي يسيطر عليها المستعمر، أو تسيطر عليها، على الأقل، عناصر غريبة وبعيدة في انتماءاتها وتوجهاتها عن تلك التجمعات الريفية. فهذه التجمعات تنكفئ على ذاتها وتغلق حدودها مع السلطة المركزية إلى أبعد الحدود الممكنة، مؤكدة على الافتراق الكلي الذي يؤمن لها شيئاً من الحماية ضد خطر الذوبان. العلاقة عدائية وحذرة بين القرية المغلقة على ذاتها، والسلطة التي لا يصدر عنها سوى التهديد أو الاستغلال. القرية هنا تلعب دور الإنسان المقهور إزاء المتسلط.

أما على المستوى الفردي، فالوظائف الدفاعية للتمسك بالتقاليد متعددة. فهي أولاً تؤمن نوعاً من الاستقرار الحياتي، وباعتبارها كذلك، تعطي الإنسان شيئاً من الطمأنينة

للوضع الراهن ذي الأبعاد المعروفة والتحديات المألوفة التي يمكن التكيف بحسبها، كما أنها تؤمن الحماية الذاتية. وهي تبعد عن الإنسان المقهور خطر مجابهة قلق المجهول، وقلق التغيير. فمن تمسك بالتقاليد لا ضير عليه ولا خطر يتهدده في الظروف العادية، هكذا يبدو الأمر على المستوى المعاش. كما أن المتسلط الذي يعزز وطأة التقاليد يؤمن للإنسان المقهور الحد الأدنى من الحماية عادة نظراً لحاجته إليه كأداة لخدمة أغراضه، وكعنصر لاستغلاله، ويبدو الأمر وكأنه جزء من طبيعة الحياة (الحماية مقابل الرضوخ والتمسك بالتقاليد والاعتراف بسلطة المتسلط وامتيازاته).

والتمسك بالتقاليد يشكل أوالية دفاعية ضد قلق مجابهة المسؤولية الذاتية. فهي (التقاليد) بما يسبغ عليها من صفات القانون الطبيعي، تتضمن تبريراً للعجز الذاتي عند الإنسان المقهور. فإذا كان راضخاً أو فاشلاً أو بائساً، وإذا كان عاجزاً عن تحمّل تبعة مصيره والنهوض للتحديات التي تطرحها عليه علاقة القهر وضرورة التحرر منها، فليس الذنب ذنبه، بل هو نظام الحياة الذي قسم له دوره وحدد له مكانته. التمسك بالتقاليد، يحمي الإنسان المقهور من مشاعر الخزي الذاتي، المرتبط بالمهانة التي تتصف بها مكانته الاجتماعية. التمسك بالتقاليد يحمي الإنسان المقهور من مجابهة ذاته، تلك المجابهة التي تقلقه كثيراً، من خلال أوالية الهروب نحو الخارج، الذوبان التقليدي والشائع، والانضواء تحت قانون العرف.

وتصل الوظيفة الدفاعية للتمسك بالتقاليد أوج فعاليتها بما تتضمنه من استلاب عقائدي يتعرض له الإنسان المقهور. فالتمسك بالتقاليد واحترام الأعراف ومراعاة العادات، يعاش كمصدر للاعتبار الذاتي، نظراً لما يتضمنه من قبول اجتماعي. إن الإنسان المقهور الذي لا شرف له يتخذ من تمثل التقاليد والأعراف مصدراً للشرف والاعتبار، يتخذ من قدرته على مراعاة المعايير السائدة مصدراً للكبرياء والرضا عن الذات. ويتناسب هذا الأمر عادة مع مقدار العجز الداخلي عن التصدي والمجابهة، ومقدار الخوف من التمرد والتغيير. ولذلك فليس من المستغرب أن تكون المرأة، وهي أكثر العناصر غبناً وقهراً في المجتمع المتخلف، أفصح معبّر عن التقليد، وأشد العناصر تمسكاً بالأعراف، وأكثرها إصراراً على ربط الشرف الذاتي بمعايير الشرف التقليدي، وتحقيق الذات من خلال التقيد المتشدد والمتزمت بالنماذج التي تفرضها الأعراف لدورها وهويتها ووظيفتها. وأكثر ما تتشدد فيه المرأة الأم هو فرض هذه المعايير وتلك النماذج على ابنتها، من خلال الحرب المزمنة والمنظمة التي تشنها على أي مظهر من مظاهر التمرد عند ابنتها. والمرأة الأم هي بذلك الناطقة الأكثر أمانة بصوت سيدها، والأداء الأكثر فعالية للحفاظ على امتيازاته. وهكذا يطمئن الإنسان المقهور إلى ذاته وإلى وضعه بالقدر الذي يتماهى به بالتقاليد ويتمكن من النجاح في تجسيد ما يخطه له من نماذج حياتية في سلوكه اليومي.

ويشكل التمسك بالتقاليد أوالية دفاعية، بالقدر الذي يتيح تصريف العدوانية المتراكمة نتيجة للقهر المفروض على الإنسان المقهور. إن أكثر العناصر استلاباً وقهراً في المجتمع المتخلف، هي أشدها عدوانية وعنفاً على من حاول التمرد على التقاليد، وتحدي المعايير وخرقها. فهناك في المجتمع المتخلف تعبئة نفسية ضد كل من يخرج على التقليد، إنها الفضيحة تلاحقه، وهو يستباح في سمعته ورزقه وحياته. ويأخذ العدوان عليه طابع التشفي والبطش والتشهير، يتحالف الكل للنيل منه. وفي كل ذلك تصريف واضح لما تراكم عند كل فرد من أفراد الجماعة، خصوصاً المقهورين منهم، من حقد وعدوانية، نابعين من الإحباط والمهانة اللذين يتضمنهما الغبن المفروض عليهم. في هذا الحقد المتشفي الذي يصب على العنصر الخارج على العرف (خصوصاً إذا كان امرأة) إحساس بشيء من الاعتبار الذاتي من خلال توكيد الانتماء للجماعة والتمسك بمعاييرها. وفيه بالإضافة إلى ذلك نوع من الشعور بالكبرياء والتعالي، من خلال صب العار على الضحية التي لحقت بها فضيحة المساس بشرف التمسك بالمعايير والأعراف. وفيه أيضاً إسقاط لمشاعر الذنب الذاتية التي لا بد أن تصاحب الإحساس بالفشل والمهانة عند الإنسان المقهور، والتي تظل مكبوتة عادة، على العنصر المتمرد: هو المذنب وهو الذي يستحق العقاب. وعند هذه النقطة لا يعرف التشفي حدوداً، وهو متناسب عادة مع درجة القهر الذي يرزح تحتها الإنسان. والحقيقة أن هذا التشفي يتضمن في بعض أوجهه دفاعاً ضد الإغراء بالتمرد على غرار العنصر المارق، الذي تجرأ على خرق مقدسات الجماعة. فهذا التمرد الكامن موجود دائماً عند الإنسان المقهور، ولكنه يقمع في الحالات العادية خوفاً من الأخطار التي يتضمنها على شكل ردة فعل اجتماعية قمعية. وبمقدار ما يزداد الإغراء بالتمرد ويشتد الخوف من الإقدام عليه، تستشري عند الإنسان المقهور ردود فعل التشفي، في حالة من الهروب من مجابهة الذات من خلال الذوبان في الجماعة، والتعصب لمعاييرها وتقاليدها.

كل ذلك يجعل الإنسان المقهور يتمسك بالتقاليد بشكل متزمت، يتخذ أحياناً طابعاً قهرياً مرضياً. وهو في ذلك يقف ضد الحقيقة في تغيير علاقة القهر وتطوير بنى المجتمع وما يعتورها من جمود. وهو بالتالي يتحول، من خلال تمسكه الدفاعي هذا بالتقاليد، إلى أداة تخدم مصلحة المتسلط. وبذلك يكون في تزمته وردود فعله العدوانية قد اقترب من حافة الفاشية عدوة المقهورين، خصوصاً أنها تستخدمهم كأدوات أساسية لتفشيها، ووقوداً لتأجج نارها.

2 ـ الرجوع إلى الماضي المجيد

النكوص إلى الماضي والاحتماء بأمجاده وأيامه السعيدة، أوالية شائعة في حالات الفشل. فالطفل الذي يعاني من آلام الحاضر نتيجة أحداث غيرت مكانته وقيمته في نظر

نفسه، يعود إلى الماضي الطفلي، أيام كان صغيراً يحظى بالحب والحنان والرعاية والرضى. وهو يعود إلى ذلك من خلال النكوص السلوكي إلى عادات سابقة (مص الأصابع، البوال، لعب دور الطفل المحتاج إلى العناية). والشيخ الهرم الذي لم يعد حاضراً ولم يبق له أمل في الغد، يهرب من واقعه المؤلم في الماضي، حيث يستعيد ذكريات الشباب وأمجاده. والفشل على كل صعيد حياتي بشكل يمس القيمة الذاتية والاعتبار الذاتي يدفع بصاحبه أحياناً، إذا أوصدت أمامه أبواب المستقبل، إلى الاحتماء بماضيه، وخصوصاً بتلك الفترة الأكثر إشراقاً فيه. وكلهم يجد في تلك العودة تعزية وملاذاً. وكلهم يبعد عن نفسه تهديد انعدام القيمة بالاحتماء بالقيمة التي كان يتمتع بها ماضياً. وكلهم يستبدل الصورة البائسة من الوجود الراهن، بأكثر الصور مجداً وإشراقاً في الماضي، وذلك في الهروب الخيالي الذي لا يغيّر من الواقع المادي شيئاً، ولكنه على الأقل يغيّر الدلالة الذاتية، ويغيّر الواقع النفسي. ويزداد التمسك بالماضي عادة والنكوص إليه بمقدار شدة الآلام المعنوية الحاضرة من ناحية، وإغراءات الماضي السعيد من ناحية ثانية.

في هذا النكوص تحدث عملية تزيين الماضي، من خلال طمس عثراته من جانب، والمبالغة في تضخيم حسناته من جانب آخر. وهكذا يتحول الماضي إلى عالم من السعادة والهناء، أو المجد والاعتبار. يلغى الزمن من خلال اختزال الديمومة إلى بعدها الماضي فقط، الحياة هي الماضي وحده ولا شيء غيره. أما الحاضر فهو القدر الخائن الذي يجب ألا يقف الإنسان عنده، وأما المستقبل فلا يدخل في الحسبان. ولكن اختزال قيمة الإنسان والزمان إلى ما كان، إذا لم تكن عملية مرضية صريحة (الثبات على الماضي بمثابة إدارة الظهر للوجود)، لا بد أن تتضمن في ثناياها أملاً ما في القفز عن آلام الحاضر، ووصل المستقبل بأمجاد الماضي، أو استعادة هذه الأمجاد في مستقبل قريب أو بعيد. بذلك وحده يحتفظ الإنسان بقدرته على مجابهة الحاضر الذي يشكل تحديات لا قبل له بها، يستمر في العيش بحد أدنى من التوازن. في الحالات الناجحة، تكون العودة إلى الماضي وسيلة لاستنهاض الهمة، واستعادة شيء من الثقة بالنفس من خلال احتذاء مثال أمجاد الأسلاف، أو رفع الروح المعنوية بتذكر الإنجازات الذاتية. في هذه الحالة الأخيرة، يتمكن الإنسان من تحمّل مرارة الفشل وفقدان الاعتبار الذاتي، من خلال تحجيم أزمات الحاضر، فهي مجرد كبوة وليست معياراً تقاس من خلاله الحياة جميعها. وبالتالي فالحاضر عابر، وكل ما هو عابر محتمل نفسياً مهما كانت شدته.

تلك هي حال الإنسان المقهور. فإزاء عظم قوى القهر والتسلط من ناحية واعتباط الطبيعة من ناحية ثانية، وإزاء العجز عن المجابهة وانعدام القدرة على التغيير، يتعرض توازنه النفسي لهزات شديدة، واعتباره الذاتي للانهيار. ويبدو الحاضر مؤلماً يحمل المرارة، والبؤس يجد صداه واضحاً في الأغاني ذات الطابع السوداوي التي تشيع في مجتمعات القهر عن غدر

الزمان، ومرارة الليالي والأيام. ويتنكر الإنسان المقهور لهذا الحاضر الذي يشكل مرآة تعكس له مأساته، أو هو يجتر هذا البؤس. ولكن الغالب هو التذبذب ما بين التنكر والاجترار. وهو يدافع عن نفسه إزاء كل ذلك بالهروب في الماضي المجيد ذاتياً وقومياً، فالماضي حصن من لا حاضر له، ولا مستقبل له.

يهرب الإنسان المقهور في أمجاد الماضي، ويتيه نشوان في مظاهر عظمة تاريخه وتراثه. وهو يختار من هذا الماضي الذي يشكل الخير كله، على عكس الحاضر الذي يشكل الشر كله، مقياساً للحياة: تلك كانت أيام، تلك كانت الحياة. وفي هذه الرجعة إلى الماضي يتماهى الإنسان المقهور خصوصاً بالبطولات العسكرية، بخوارق الفروسية، وبكل مظاهر الأبهة في قصور الخلفاء والأمراء. ويحدث تضخيم مبالغ فيه، أو هو دون حدود، لتلك البطولات والأمجاد، بقدر بؤس الحاضر. ولذلك فالغالب أن تصبغ على أمجاد الماضي صبغة تخريفية[1] نفاجية[2]، تلاحظ تحديداً في تصوير الفرسان الأبطال. فهؤلاء في القصص الشعبي أناس متفوقون ذوو جبروت لا يحد، وقدرات خارقة لا يصمد أمامها شيء، ولا تقف دون تحقيق مآربها عقبة. والواقع أن كل الرغبات الدفينة في القوة المطلقة، التي تشكل الضد الكامل للعجز الواقعي، تسقط على هؤلاء الأبطال. ويحدث نوع مما يسمّى بالتماهي الإسقاطي[3] (تمثل صورة البطل ليس كما هو حقيقة، بل كما نرغبه أن يكون كاملاً فائقاً ذا جبروت) في علاقة الإنسان المقهور بأبطال القصص الشعبي.

البطل في القصص الشعبي أسطوري. فهو من الناحية الجسدية القوة المطلقة التي تأتي بالخوارق وتجابه كل التحديات. وهو في السلاح قمة الخبرة والفروسية. يصوّر على درجة كبيرة من الضخامة، فرسه نادرة وسلاحه لا يتمكن سواه من حمله والقتال به، وشجاعته تصمد أمام كل امتحان، وهو يخرج دائماً منتصراً من أقسى امتحان. ويتحلى بطل القصص الشعبي بكل الفضائل النفسية والخلقية، ويتمتع بكل قيم الرجولة والشهامة والكرم. وهو إلى ذلك البطل القوي العادل الذي يتصدى لكل معتد، وكل ظالم، وكل عدو داخلي أو أجنبي، مدافعاً عن جماعته وأهله المعرّضين من دونه لأشد الأخطار الحياتية. إنه البطل المنقذ، مبعوث العناية الآلهية كي يرفع التهديد عن الإنسان الضعيف، إنه رمز العدل والأمن الوجودي.

استعراض حياة هذا البطل الأسطوري، كما يرويها رواة القصص الشعبي، هي دائماً سلسلة من الأزمات، وحلقات متصلة من الخطوب. لا يخرج من أزمة حتى يقع في التي تليها، ولا ينتصر على خطب حتى يقع في مأساة جديدة. حياته ملحمة دائمة من الثبات أمام

---

(1) تخريف Fabulation.

(2) نفاج Mégalomanie.

(3) التماهي الإسقاطي Identification projective.

أقسى اختبارات الحياة، والخروج منتصراً منها. وهي إلى ذلك حلقة متصلة من التفاني من أجل الآخرين.

بطل القصص الشعبي بكل أسطوريته، هو مجرد إسقاط لأمل الإنسان المقهور في الخلاص، لرغبته الدفينة في امتلاك القدرة على مجابهة قدره. حياته مجرد مرآة للاختبارات المتلاحقة التي يتعرض لها الإنسان المقهور ويعجز عن اجتيازها، بينما ينجح البطل في ذلك. من هنا ندرك سبب إقبال الجماهير على حلقات رواية هذه القصص، وندرك سبب الاندماج في الاستماع إلى الراوي. إنها لحظة عزاء وسلوى عن آلام الواقع الراهن. إنها لحظة عز وكبرياء وأمل، وشعور بالاعتبار الذاتي من خلال التماهي ببطولات الفارس صانع الخوارق. ويزداد انتشار حلقات القصص الشعبي بمقدار الغبن المفروض على الإنسان، ومقدار خلو الحاضر من الأمجاد. قصص البطولات الشعبية من الناحية النفسية، عرض لمأساة الجماهير، من ناحية، وأملها في الخلاص، في تغيّر المصير من ضعف إلى قوة، ومن مهانة إلى عزّ، من ناحية ثانية.

بالطبع يشجع المتسلط كثيراً انتشار هذه الحلقات، ففيها هروب من الواقع وعيش في الخيال يبعد الإنسان المقهور عن الوعي بما يلحق به من غبن، وما يجب عليه من النهوض إلى المجابهة من أجل التغيير. وذلك يحفظ للمتسلط امتيازاته، ويبقى الإنسان المقهور على غبنه. والمتسلط يشجع هذه الحلقات، لما تساعد عليه من تصريف للتوتر الوجودي وتصريف للعدوانية التي تهدد بالانفجار ضده، من خلال الغرق في عالم خرافي يحمل إرضاءات وهمية للإنسان المقهور.

بالإضافة إلى التماهي بأبطال القصص الشعبي، يلوذ الإنسان المقهور بتراثه وأمجاد هذا التراث. ويتمسك به بشكل جامد، حتى لا يعود يرى من مجال لخلاص من مأساة الحاضر، إلا بالعودة إلى التراث والسير الجامد على غراره دون مراعاة لحركة التاريخ. ويزداد التعنت في هذا المجال بمقدار نفور الإنسان المقهور من واقعه الراهن، لدرجة يتعرض معها لخطر خسارة الحاضر دون ربح الماضي. بينما يفترض أن تكون الرجعة إلى التراث مصدر إلهام لمجابهة تحديات العصر، ومصدر استنهاض للهمم للخروج من خدرها. وهنا أيضاً يلعب المتسلط وحلفاؤه دور المشجع على التمسك الجامد بأمجاد الماضي، بشكل لا يتيح مطلقاً التكيف المرن مع مهمات وتحديات الحاضر، ومتطلبات المستقبل، دافعين الفئات المغبونة إلى الجمود في مواقعها.

ثانياً: الذوبان في الجماعة والعلاقات الدمجية

التعاطف والتعاضد بين أعضاء الجماعة، من الأواليات الدفاعية الفعالة ضد الأخطار الخارجية وأخطار الطبيعة. يستعيض الإنسان المقهور عن عجزه الفردي بالاحتماء بالجماعة.

وبقدر تفاقم الخطر الخارجي، وبقدر تعاظم الإحساس بالتهديد للذات والمصير، يميل الإنسان إلى الذوبان في الجماعة. ذلك أحد قوانين الطبيعة، كلما ازداد الشعور بالقوة عند الكائن الحي، نراه يميل إلى الفردية والاستقلال. وعلى العكس نجد الكائنات المهددة بيولوجياً تميل إلى التجمع بمقدار التهديد الذي تتعرض له من آفات الطبيعة، أو من الكائنات العدوة. تعوّض كثرة العدد عن ضعف الفرد. الأمثلة على هذه الظاهرة في العالم الحيواني أكثر من أن تحصى، وأوضح من أن تحتاج إلى برهان.

على المستوى الإنساني نجد نماذج مختلفة لهذه الظاهرة، أشهرها الجماعات المغلقة والأسر الكبيرة التملكية. ومن الأمثال الرمزية في هذا الصدد، التفاعل والتواصل الفمي. وقفة قصيرة عند كل منها توضح بيسر هذه الأواليات الدفاعية. ولا بد قبل هذا من التذكير بأننا نعالج ونحلل ظواهر اجتماعية أساساً، لها وظيفة نفسية دون أن تكون وليدة الحاجة إلى تلبية هذه الوظيفة. فالعلاقات الدمجية على مستوى الجماعة (الجماعات المغلقة)، والأسر العريضة التملكية، وكذلك التفاعل والتواصل الفمي، هي جميعاً نتاج البنية الاجتماعية، بما تتصف به من خصائص تاريخية تطورية، ونظم إنتاج وتوزيع وخدمات وعلاقات. إنه لا يخطر ببالنا مطلقاً أن نردّ الظواهر والأنظمة والمؤسسات الاجتماعية في نشأتها وديناميتها، إلى مجرد تعبيرات نفسية، فهذه لا تشكل سوى جوانب منها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تستوعبها. وهي تخضع في الأساس إلى منهجية التفسير الاجتماعي. ولكنها ليست مطلقاً اجتماعية محضة، لأنه ليس هناك، في رأينا، ظاهرة اجتماعية محضة، كما لا يوجد بالمقابل ظاهرة نفسية صافية. الإمبريالية الاجتماعية، كمثيلتها النفسية، في منهجية البحث الإنساني، قد ولى عهدها، وأفل نجمها. وما ننظر فيه هنا إذاً ليس تفسير هذه الظواهر، وهو اجتماعي أساساً، بل الوظائف النفسية لها. وهي هامة بدورها نظراً لما تلبيه من حاجات تنبع من الشرط الوجودي للإنسان الذي تحدده بنية المجتمع. هذه البنية بما لها من مؤسسات ونظم وما تتصف به من شبكة علاقات، تولّد حاجات نفسية معينة من ناحية، وتؤمّن لها بعض سُبل الإشباع بما تتضمنه من حلول، من ناحية ثانية.

1 ـ الذوبان في الجماعة

الجماعات المغلقة من الظواهر التي حللها جيداً علم النفس الاجتماعي. إنها وليدة الإحساس بالتهديد الخارجي، أكان مصدره بشرياً أم طبيعياً. ينقسم العالم في هذه الحالة إلى عالمين متناقضين تماماً: الخارج والداخل. أما الخارج فهو العدو ومصدر الخطر والشر، العلاقة معه عدائية اضطهادية، والموقف منه إما انسحابي تجنبي أو تهجمي تدميري. أما الداخل فهو الخير كله، وهو مصدر الأمن والشعور بالانتماء، مصدر الهوية الذاتية، وهو بالتالي المرجع

والملاذ. ويحدث في هذه الحالة نوع من الانشطار العاطفي، بشكل يجعل المواقف قطعية. كل الشر والخطر والسوء، كل العقبات والموانع الذاتية والموضوعية، كل العدوانية الذاتية المقموعة والمتراكمة، تسقط على الخارج، مما يؤدي إلى تبخيسه تماماً. وهكذا يتحول الخارج إلى مجرد أسطورة مخيفة يجب الحذر منها. وليس من موقف تجاهها إلا العنف والتدمير. وأما العواطف الإيجابية فتتوجه إلى الداخل، إلى النموذج الذي يجب أن يحتذى. كل واحد منهم يتحول إلى مرآة تعكس للآخرين ذواتهم الإيجابية. ويحدث هنا إفراط في إعطاء القيمة للجماعة الداخلية على حساب الإفراط في تبخيس الجماعات الخارجية. وتشتد الأواصر ضمن الجماعة المغلقة بقدر حاجتها لتجنب قلق الانفصال. إنها تشتد بقدر الحاجة لإنكار الصراعات والتناقضات الداخلية، وما يرافقها بالضرورة من مشاعر عدوانية. ويذهب الدفاع ضد هذه التناقضات حد الذوبان الكلي في الجماعة، لدرجة يفقد معها الفرد استقلاليته وهويته الذاتية، ولا يعود له من هوية سوى الهوية الجماعية. وتغلق الحدود النفسية بين الجماعة وغيرها من الجماعات. يقتصر التفاعل والتواصل على الحد الأدنى الضروري، أو يتوقف عند حدود الاضطهاد المتبادل. وبالطبع، بمقدار انغلاق الجماعة، ترتفع درجة النرجسية ضمنها وبين أفرادها، نظراً لأن كلاً منهم يكون مرآة ذات الآخر. وبارتفاع النرجسية تتضخم قيمة الجماعة، حتى تصبح القيمة المطلقة أو الوحيدة، وتتضخم معها وبالدرجة نفسها قيمة الفرد. ويأخذ الأمر على هذا المستوى نوعاً من الشعور بالامتلاء والاعتزاز بالانتماء، وحالة من الإحساس بالمتعة. وترتفع درجة الذوبان في الجماعة عادة على المستوى الفردي، بما يتناسب مع مستوى الإحساس بالضعف والعجز وانعدام القيمة. أكثر الأفراد ذوباناً في الجماعة وتعصباً لها، هم في معظم الأحوال، أشدهم عجزاً عن الاستقلال والوصول إلى مكانة فردية، وإلى قيمة ذاتية تنبع من شخصيتهم. العلاقة الدمجية، أو الذوبانية داخل الجماعة المغلقة تتصف بالاتكال الشديد على رموز القوة في هذه الجماعة، وعلى عناصر السلطة المادية والنفسية فيها. هذه العناصر تضخم بدورها بشكل لاواقعي بمقدار الحاجة إلى الإحساس بالأمن والمحبة. كما أن هذه العلاقة نكوصية أساسياً، بمعنى أن الفرد من هؤلاء يبحث، بشكل لاواع عن العودة إلى العلاقات الدمجية بالأم، مصدر الحب والدفء والحنان والغذاء، ومصدر السلوى، وعامل إبعاد المنغصات الحياتية. الجماعة المغلقة، ذات الدلالة الإيجابية ومرجع تعريف الذات وتوكيدها، هي الأم بعينها، الأم المعطاء التي يجب أن تستقطب كل الولاء. ومن هنا التعصب المفرط لتقاليد الجماعة ومعاييرها، وردود الفعل العنيفة ضد كل من يحاول خرقها من الداخل، أو الاعتداء عليها من الخارج، كما أوضحنا في الفقرات السابقة.

هذه الظاهرة تشيع كثيراً في المجتمعات المتخلفة، حيث نجد أينما حللنا جماعات متفاوتة في كبرها مغلقة على ذاتها، تشد أفرادها إليها بقوة لا تقاوم، وتقوم بينها وبين

الجماعات المجاورة علاقات صراع وعداء وحذر واضطهاد. كل التناقضات الداخلية توجه إلى الجماعات الأخرى التي تستباح عادة إذا سنحت الفرصة في أملاكها وأموالها وأرواحها. ومن الواضح أن هذه العلاقات العدائية الاضطهادية بين الجماعات تشتد وتقوى بقدر تعرّضها جميعاً لقوى متسلطة تبسط سلطانها على الجميع، ولا قبل لأي منها بمقاومتها. كما أن التعاضد والتعاطف بين أعضاء الجماعة الواحدة يزداد بمقدار رضوخها لمتسلط خارجي لا قبل لها به. وهنا أيضاً تبرز ظاهرة الانشطار العاطفي: المتسلط هو رمز الخطر والبطش والسوء، والموقف منه هو التجنب والحذر والابتعاد عنه ما أمكن. أما الجماعة الداخلية فهي رمز الحب والحماية والأمن، والشعور بالهوية الذاتية، والموقف منها هو الاندماج فيها ما أمكن. على أن هذا الانشطار العاطفي ليس دائماً. إذ يكفي أن تتاح الفرصة لعضو ما في الجماعة كي يتقرب فعلياً، أو مظهرياً من المتسلط، حتى يدير ظهره لجماعته ويتنكر لها. تلك هي ظاهرة التماهي بالمتسلط التي تؤكد وجود تناقضات داخلية كامنة ضمن الجماعة الذوبانية التي تنشأ كرد فعل على الأخطار الخارجية. والواقع أن الأمر في مساره الخارجي يتذبذب ما بين خشية المتسلط وتجنبه، مما يقود إلى الاحتماء الدمجي في الجماعة، وبين الحرب عليه ومقاومته في مرحلة متقدمة من تطور المجتمع نحو التحرر الاجتماعي. وبين هاتين المرحلتين تتوجه العدوانية إلى الجماعات المجاورة.

2 ـ الأسرة العشائرية

الجماعة المغلقة هي في الأصل عشيرة، أو ذات طابع عشائري. وهذه تتكون من أسرة عريضة، تتماسك فروعها بشكل وثيق. بينما تضعف الروابط بين تلك الفروع في المجتمعات الصناعية المتقدمة، كي تختزل الأسرة في خلية صغيرة هي الوالدان والأبناء ذوو العدد المحدود.

الأسرة العريضة، أصل العشيرة المعروفة جيداً في علم الاجتماع، هي مؤسسة اجتماعية في المقام الأول: تنشأ وتستمر نتيجة لعوامل اقتصادية ـ اجتماعية، ولنظام الملكية والسلطة.

ما يهمنا في هذا المقام هو الحديث عن الوظيفة النفسية التي تملأها الأسرة العريضة، أو الأسرة العشيرة تحديداً، معتبرين البعد الاجتماعي أمراً مسلماً به. تحتل هذه الأسرة في العالم المتخلف مكانة مرموقة، وتعتبر من المقدسات التي لا يجوز أن تمس، وتحاط لذلك بمجموعة من القيم والمثل العليا التي تحصنها، لدرجة تكاد تصور على أنها طبيعة الأمور ومظهر من مظاهر قوانين الحياة. ولا شك في أن كبر الأسرة يساعد على ازدياد نفوذها الاقتصادي والسلطوي، كما أنه يحفظ لها امتيازاتها. ولذلك يحرص القائمون على أمرها، الممسكون

بزمام السلطة فيها، على عدم إفلات أي فرد منها. صبيانها أدوات لمزيد من القوة الاقتصادية، ومزيد من بسط النفوذ. وبناتها أدوات للمصاهرة وإقامة التحالفات مع الخارج، مما يزيد الثروة أو الجاه أو السلطة، أو أدوات الإنجاب، مما يزيد العدد وبالتالي يساعد على انتشار سطوتها من ناحية ثانية.

من الناحية العلائقية النفسية، الأسرة العريضة تملكية أساساً. وأهم العلاقات ضمنها من نوع الحب التملكي. الأب يمتلك الأم والأولاد، يحميهم ويؤمّن حاجاتهم، ولكنه يقرر مصيرهم وتوجهاتهم الحياتية (في الإعداد للمستقبل والزواج وغيره)، تبعاً لمصلحته ومصلحة الأسرة. والأم تحب أبناءها وترعاهم بشكل تملكي. فهي تتفانى في خدمتهم والسهر عليهم، تقدم نفسها وعطاءها لهم دون تحفظ، شريطة أن تحتفظ بسيطرة خفية عليهم، سيطرة الحب. إنها تقيدهم بواجب الوفاء وعرفان الجميل لذلك الكائن الذي نذر نفسه وبذلها من أجلهم. ومن خصائص الحب التملكي التساهل بكل شيء ما عدا الرغبة في الاستقلال والتوجه نحو التفرد. تلك هي الخطيئة التي لا تساهل فيها، لا من قبل الأم، ولا من قبل الأسرة عموماً، إنها العقوق والخيانة. وتستجيب الأسرة عادة بردود فعل مفرطة في تطرفها لمحاولات الاستقلال هذه، تتخذ مظاهر متنوعة وأساليب متعددة، وتدور كلها حول الترغيب والتهديد والابتزاز: الترغيب بمحاسن البقاء الذوباني في الأسرة وما في ذلك من امتيازات وضمانات (مادية ومعنوية)، والتهديد بالنبذ والحرمان والعقاب والتنكر، وحتى التصفية الجسدية (في حالات البنات اللواتي يتجرأن على تحدي رغبة الأسرة)، وأما الابتزاز فهو ما تمارسه الأم عادة من إثارة لمشاعر الذنب عند الأبناء الذين أنكروا الجميل وتنكروا للتضحيات وخرقوا حقوق الأمومة. سطوة الأسرة العريضة وتملكها لأبنائها كبيران فهم لا ينشأون لأنفسهم، بل لأسرهم. كل إنجاز حققه أحدهم، كل تقدم مهني أو علمي أو مالي لا يعود أثره عليه فقط، بل هو في المقام الأول وسيلة لزيادة جاه الأسرة وبسط نفوذها. وتشكل الأسرة العريضة بذلك أكبر العقبات إزاء التطوير الاجتماعي. فهي تنازع المجتمع على ملكية أبنائها، وتحدد هويتهم أسرياً، بدل أن تحدد هويتهم مواطنياً، بل إن المواطنية ذاتها تتحدد في هذه الحالة أسرياً. الانتماء إلى الأسرة بهذا الشكل الذوباني يمنع الانتماء إلى المؤسسات الاجتماعية العامة، ويمنع بروز المصلحة العامة وغلبتها لصالح سيادة مصلحة الأسرة العشيرة. وهذه تسير مع المصلحة العامة طالما خدمت نفوذها وقوتها، وتقوم ضدها عندما تهدد مصلحتها الخاصة أو امتيازاتها. إن التغيير الاجتماعي لا يمكن أن يتم من خلال الأسرة العشيرة، إنه يتم تحديداً على حسابها، من خلال تغليب الهوية المواطنية على ما عداها. الأسرة الكبيرة لا تعترف بقيم المساواة والمشاركة والعدالة الاجتماعية والتحرير الذي لا بد منه، كي يكون فعلياً، أن يكون شاملاً لجميع المواطنين على مختلف فئاتهم وانتماءاتهم، وهي لذلك عقبة فعلية

أمام التنمية. الأسرة الكبيرة تقود رأساً إلى بروز الإقطاعية في المجتمع الزراعي والقبلي، والرأسمالية البورجوازية في المجتمع الحضري، والطائفية في الحالتين، نظراً لحاجتها إلى العصبية الدينية، إذا استحالت العصبية القبلية، كوسيلة لتماسكها من خلال مناصبة الخارج العداء والحذر، وهي لذلك عقبة أمام التغيير في اتجاه تحرير الإنسان.

ولا تقاوم الأسرة الكبيرة الميول الاستقلالية فقط، بل هي تقاوم الفردية ضمنها. ليس هناك قطاع خاص في الأسرة ـ العشيرة. كل شيء عام ومشاع. الإنسان نفسه ملكية عامة ضمن هذه المؤسسة. كل ميل إلى الفردية، إلى الذاتية، والعالم الحميم، يفسر كتهديد لتماسك الأسرة وكخروج عن سطوتها. فهي تبسط نفوذها على الأجساد والعقول والعواطف، وهي تتحكم بالعلاقات. وفي ذلك كله استلاب للشخصية، وصد لأصالتها. وتشتط الأسرة ـ العشيرة في فرض العمومية والمشاع في كل كبيرة وصغيرة، لا شيء يجب أن يفلت منها، أو يمارس بمعزل عنها. تلك هي مأساة العلاقة التملكية كعلاقة استلابية. وهي تضم في أحشائها نواة نقيضها الذي لا بد أن يبرز يوماً، من خلال تفجر ما تتضمنه من إحباطات لتوكيد الذات، وتراكم للعدوانية المقموعة، وتوق إلى الحرية المستلبة.

هذه الأسرة رغم ما تشكله من عقبات أمام التغيير، ورغم ما تضمه أحشاؤها من تناقضات قابلة للانفجار، تلعب على المستوى الفردي وظائف نفسية هامة. فهي تساعد العناصر الضعيفة، والأكثر عجزاً عن التصدي للأخطار الخارجية (الطبيعية والإنسانية)، والأكثر فشلاً في تحقيق أصالة ذاتية من خلال الإنجازات، على مجابهة واقعها، والتعويض عن مشاعر انعدام الأمن من ناحية، والهوان الذاتي من ناحية ثانية.

فهي أولاً تقدم هوية أسرية لمن لا هوية مهنية أو علمية أو فردية له. من ليس لديه سبب ومصدر للاعتزاز الذاتي، يعتز باسم أسرته. ومن عجز عن الحصول على مكانة مرموقة من خلال الانتماء إلى المؤسسات الاجتماعية يفخر بمكانة ما في أسرته وضمن عشيرته. من لم يتمكن من النجاح الحياتي كمصدر اعتزاز شخصي، يعتز بحسبه ونسبه، ولو كانت الأسباب الواقعية لهذا الاعتزاز وهمية. فعالية ما يحدث نوع من التباهي بأمجاد الحسب والنسب عند المغبونين من خلال التماهي بالمتسلطين واعتزازهم بانتماءاتهم. أكثر الناس تعلقاً باسم الأسرة هو إما فرد متسلط يحظى بأكبر الامتيازات من خلالها، أو فرد مغبون مقهور ليس لديه سوى وهم الاسم.

والأسرة ثانياً هي الملجأ والملاذ، وهي الضمانة ضد الأخطار الخارجية. إنها تأمين للإنسان المهدد في صحته وسمعته ورزقه وغده، من خلال نظام التعاضد والتعاون الداخلي الذي يشيع فيها. فالإنسان المعدم يمكنه إذا حلت به طارئة ما، أن يلجأ إلى أسرته ويحصل

على المساعدات ممن يملكون تقديمها، بدل أن يحظى بالتأمينات والضمانات الاجتماعية التي يستحقها كل مواطن في المجتمعات المتقدمة. كل فرد من أفراد الأسرة ـ العشيرة يستطيع أن يستعين بقوّتها عندما يتهدده خطر خارجي. فالأسرة ـ العشيرة لا بد أن تهبّ لنجدته وتنتصر له إذا أرادت أن تحتفظ بسيطرتها عليه. وهو لا يستطيع في غياب الحماية الاجتماعية، الاستغناء عن أسرته وإلا تعرّض للهلاك.

والأسرة ضمانة من كوارث الطبيعة وحماية من أخطار العدوان الخارجي من خلال كثرة العدد. ولذلك يحتل التكاثر والتناسل أهمية مفرطة في العالم المتخلف. إنه نوع من الدفاع البيولوجي (كثرة الأولاد) ضد غوائل الطبيعة، وما قد يخبئه المستقبل. الأولاد حماية من الأعداء (سياج الأسرة في كثرة عدد شبابها) والأولاد ضمانة ضد الشيخوخة والعوز. والأولاد عزة ومنعة من خلال تعزيز مشاعر الخلود النفسي من خلال الذرية. وفي ذلك كله تعويض عن مشاعر الضعف، وعن عقدة الخصاء التي تستحكم بلاوعي الإنسان المقهور. كثرة الأولاد، خصوصاً الذكور، تلعب وظائف نفسية تعويضية في العالم المتخلف، يصعب الاستغناء عنها، إذا لم يؤمّن إنسان ذلك العالم على مصيره وكرامته، على صحته ورزقه. ولذلك فإن خطط تحديد النسل تجابه بمقاومة صريحة وضمنية شديدة تبطل مفعولها إلى حد كبير. فهذه الوظائف النفس اجتماعية لكثرة الصبيان، تتحول إلى قيمة وجودية فاعلة بحد ذاتها، وتصبح غاية حياتيه ومظهراً من مظاهر الشعور بالاعتزاز، ثم أن كثرة الولد تحتل على المستوى اللاواعي دلالة القوة القضيبية (قوة الذكورة) عند الرجال، وقوة الخلق والامتلاء الداخلي عند النساء. وهذه الدلالات من أكبر عوامل التعويض عن المهانة الوجودية، التي يرزح تحتها الإنسان المقهور: الاعتزاز بالقدرة على الإنجاب عوضاً عن القدرة على الإنجاز.

والانتماء الأسري الذوباني وسيلة فعالة من وسائل تصريف العدوانية المتراكمة والنابعة من الإحباطات الوجودية، من خلال ذلك المدد العاطفي الدافق الذي يوازن العدوانية التي تهدد بالارتداد إلى الذات وتدميرها، كما تهدد بتفجير مشاعر الذنب المرتبطة بالعجز عن تحقيق الذات من ناحية، ومن خلال تحويل هذه العدوانية بإسقاطها على الأسر ـ العشائر العدوة، والحرب ضدها من ناحية ثانية.

إن الوظائف النفسية للأسرة ـ العشيرة، مضافة إلى ضغوطها التملكية على أفرادها، تشكل عقبات جدية في وجه التغيير الاجتماعي. ولا بد من أخذها بعين الاعتبار حين وضع خطط التنمية، وإلا تعرضت هذه الأخيرة لعملية استيعاب من خلال تحويلها إلى أدوات لخدمة مصالح الأسرة النافذة. وما أكثر عمليات الاستيعاب هذه في بلدان العالم الثالث.

3 ـ النشاط الفمي

الدلالات الاجتماعية والنفسية للطعام معروفة، حددها علماء الدراسات الإنسانية. فالطعام والدعوة إليه والمشاركة فيه، كالهدايا وتبادلها، وسيلة للتواصل والتفاعل بين الناس. المشاركة فيه إلغاء للعدوانية وإبعاد لخطر التهديد الذي قد يأتينا من الآخر، كذلك حال الدعوة إليه. وهو يشكل لغة دون لفظية غنية جداً في قدرتها على إثارة التفاعل بين الناس. أما من الناحية النفسية فالطعام من أكثر النشاطات ارتباطاً بالحب، نظراً لارتباط النشاط الفمي أثناء الرضاعة بالعلاقة الوثيقة مع الأم. الحب والحليب يمتزجان ويتبادلان الدلالة.

إلا أن الطعام يأخذ في البلدان النامية قيمة مبالغاً فيها، بالنسبة لبقية أشكال النشاط الإنساني. ويحتل الكرم مكانة مرموقة لا نجد لها نظيراً في البلدان الصناعية. ويعود هذا التضخم إلى أسباب عدة تدخل في إطارها العام ضمن نطاق العلاقات الدمجية. ولكن يجب ألا ننسى قبل ذلك الإشارة إلى ظاهرة الجوع وسوء التغذية المزمنين في البلدان النامية، مما يجعل المواد الغذائية نادرة والحصول عليها، خصوصاً الطعام الدسم، صعب المنال. هذه الظاهرة وحدها كفيلة بتفسير المبالغة في أهمية الطعام. ولكننا نجد هذه الأهمية بالتساوي لدى المعوزين والمحظوظين الذين لا يشكون جوعاً ولا نقصاً في التغذية. يحتل الطعام عند هؤلاء قيمة الدلالة على الوجاهة الاجتماعية والبحبوحة اللتين فيهما ينعمون. إنهم بحاجة إلى استعراض خيرات موائدهم الغنية بصنوف الطعام، ليدللوا على إفلاتهم من العوز والخواء وقلق الجوع. إن أثرياء العالم المتخلف بمقدار ما يسرفون في الطعام واستعراض الموائد، يدفعون عن أنفسهم قلق العوز، قلق القلة الذي يشتركون في المعاناة منه مع الفقراء، ولكنه عند المترفين قلق كامن بينما هو ظاهر صريح عند المعوزين. يظهر الخوف واضحاً من الجوع خلال الأزمات حين يقبل الناس، على اختلاف مستوياتهم، على التخزين بشكل مفرط لا تبرره الظروف الموضوعية مطلقاً. وكأن كلاً منهم في إسرافه في استهلاك المواد الغذائية وفي تخزينها يود أن يدفع عن نفسه شح الفقر.

أما على المستوى اللاواعي، فتأخذ هذه الظروف طابع الدفاع ضد قلق بدائي جداً يعاني منه إنسان العالم الثالث عموماً، وهو قلق الهجر وقلق الخواء. فشبح العوز المادي يفجر عقدة الهجر التي تحدثنا عنها في فصل سابق. كذلك فإن تراكم العدوانية الناتجة عن الإحباطات المزمنة تفجر نفس العقدة، وتدفع بالمرء إلى الإفراط في الطعام الذي يأخذ دلالة امتلاء الجوف بالحب. هذا الامتلاء هو وحده الكفيل بمقاومة العدوانية المتراكمة والمقموعة وإدخال شيء من التوازن إلى الحياة النفسية. فالشره، كما هو معروف عند الأطفال، هو دفاع باجتياف الطعام ـ الحب، ضد قلق الخواء وما يصحبه من تأزم العدوانية التي تهدد بالارتداد على الذات وتدميرها، أو بالتوجه إلى الخارج وتدميره. وهنا تتلاقى الدلالة النفسية اللاواعية مع الدلالة

الاجتماعية للطعام، كوسيلة لإقامة الصلات وإطلاق التفاعل المتعاطف وإبعاد العدوان والاضطهاد.

والطعام وسيلة ممتازة لتدعيم العلاقات التملكية داخل الأسرة. فالأم، أداة الحب التملكي، وأفصح معبّر عنه، تمتلك الزوج والأبناء من خلال امتلاك قنواتهم الهضمية، من خلال حشو معدهم. فالطعام، تقديمه كتناوله، هو على قدر المحبة. والانخراط المستسلم في العملية هو استسلام للعلاقة الدمجية في الأسرة. ولذلك نجد المرأة الأم في العالم الثالث تتخذ من الطعام (طهوه وتقديمه) وسيلة فضلى لتوكيد ذاتها وبسط سيطرتها العاطفية على الأبناء. إنها تغزوهم من خلال أجوافهم. وليس هذا بمستغرب إذا عرفنا أن الأم هي أداة الدمج الأولى في المجتمع المتخلف. إنه يكاد لا يترك لها دوراً آخر على مثل أهمية دور حشو الأجواف والسيطرة عليها. ولهذا فرفض تناول ما أعدته من طعام، رفض تقبل مظاهر كرمها، الفمي، هو مصدر إحباط لا يحد بالنسبة إليها، إنه رفض للقيمة المطلقة (الحب) في نظرها. وليس أدل عليه من ثورة هذه الفئة من الأمهات على النظام الغذائي (الرجيم) تلك البدعة التي يقتبسها الأبناء من الأجانب، فهي تحاول جهدها لتبطل هذا النظام وتفسده، إذ إنه في نظرها القيمة المضادة لقيمة الحب الفمي الأساسية، التي تملك القدرة على منحها والتصرف بها.

والطعام تعويض رئيسي، ويكاد يكون مع الشراب، بين الفئات التي تتعاطاه، التعويض الوحيد عن الإحباطات المتنوعة التي يعاني منها إنسان المجتمع المتخلف. أولها الإحباط العاطفي والجنسي، والعلاقة التعويضية هنا ليست بحاجة إلى تدليل. ويليها إحباط التعبير عن الذات نظراً لتفشي نظام القهر والتسلط الذي يكبح الحريات ويخنق التعبير اللفظي والحركي والسلوكي. ثم هناك الإحباط الوجودي العام الذي يعاني منه إنسان العالم النامي (انعدام الامتداد الوجودي، انحسار الاهتمامات، انحسار إمكانات تنمية الشخصية وإثراء الحياة). هذه الإحباطات جميعاً تؤدي به إلى النكوص، إلى نشاط فمي ذي طابع طفلي أساساً. والنكوص إلى المستوى الفمي يرتبط مباشرة ويقود رأساً إلى استمرار الوضعية الاتكالية على الأسرة، ثم الرؤساء وكل من يملكون زمام السلطة المادية والمعنوية. وهكذا يحاصر إنسان العالم النامي من كل جانب (بالترغيب والحب التملكي، كما بالتهديد والقهر) كي يظل أداة في يد المتسلط وممثليه الذين ينتشرون في كل المؤسسات الاجتماعية، عوضاً عن أن يرتقي إلى الاستقلالية والأصالة الذاتية، التي وحدها تضمن المشاركة الجماعية الفعالة.

ثالثاً: الوضعية الاتكالية

الإنسان المقهور الذي لم يتمكن من التصدي لقدره ومجابهة تحدياته، يلوذ بقوى تحميه ويجد نفسه في وضعية تبعية على مختلف الأصعدة. تكلمنا إلى الآن عن بعض أوجهها، خاصة

التمسك بالتقاليد والرجوع إلى الماضي والتماهي بأبطال القصص الشعبي، الذوبان في الجماعة، وفي الأسرة العشيرة. كل هذه الانتماءات ترسخ نمطه النكوصي الطفلي في مجابهة واقعه، من خلال الاتكال المتزايد على القوى الخارجية التي تعوض له، واقعياً أو خيالياً، بعض ضعفه. هذه القوى تأخذ من الناحية النفسية باستمرار صورة ودلالة الأب الرحوم الحامي الذي يتمتع بالقوة والجبروت والقدرة على كل شيء. وتمتزج هذه الصورة أيضاً بصورة الأم الحنون المعطاء عاطفياً. تتكون من كلتا الصورتين صورة مزيج، هي صورة البطل أو الولي الملاذ. علاقة الإنسان المقهور بها هي تكرار لعلاقة الطفل في سنواته الأولى بوالديه مجتمعين في صفاتهما الإيجابية. وموقفه منها هو تكرار لموقف الطفل الإيجابي (الإعجاب والتماهي والاحتماء) من والديه مع ما يتضمنه هذا الموقف من ميول سلبية بالضرورة (الرغبة في سرقة قوة الوالدين واحتلال محلهما، العدوانية الكامنة من مقارنة ضعف الطفل بقوة الوالدين، مع ما تشيره هذه العدوانية من مشاعر ذنب). هذه الميول السلبية تظل كامنة عادة عند الطفل، وهي كذلك عند الإنسان المقهور. كلاهما يدفع خطرها عنه حين تهدده بالبروز إلى حيز الوعي، بمزيد من الشعور الضمني بالذنب، ومزيد من التبعية والاتكالية النكوصية المستسلمة.

أبطال الإنسان المقهور عديدون، يشكلون سلسلة متصلة الحلقات تذهب من الأسطورة إلى الواقع. وكلهم يتصفون على الدوام بالخصائص نفسها: الجبروت والقدرة على تغيير الواقع المؤلم أو المأزقي بخير منه يكون لصالح الإنسان المقهور، الرحمة والحدب، العطاء دون حدود، إمكان التقرب منه والتودد إليه، الشعور بروابط عاطفية وثيقة تربط الإنسان به، إحلاله في دور الحامي والمدافع عن المقهورين، إعلاء شأنه وتنزيهه عن كل أوجه القصور والعجز التي يشكو منها الإنسان المقهور، إحلاله في مرتبة المثل الأعلى له، وخصوصاً الوضعية الطفلية الاتكالية تجاهه وتسليمه مقاليد أمره ومهمة تدبير مصيره.

أول هؤلاء الأبطال هو بطل القصص الشعبي، يليه الأولياء وذوو الكرامات، ويتخذ تعبيره المحسوس الواقعي في صورة الزعيم المنقذ. علاقة الإنسان المقهور بالزعيم المنقذ سحرية وهوامية[1] على حد سواء.

فهي سحرية لأنه يمثل الأمل في الخلاص السحري من وضعية مأزقية يشعر أن لا خلاص منها بجهده الشخصي. إنه يأمل أن يستيقظ يوماً ما فإذا بالأمور قد انقلبت بصورة مفاجئة، وإذا ببطل الخلاص قد برز إلى الوجود، وإذا بالواقع قد تحول. ذلك هو الأمل الذي تعلقه شعوب العالم الثالث على الانقلابات العسكرية. الزعيم المنقذ يظهر كأمل أخير حين

---

(1) هوامي Fantasmatique.

تسد جميع أبواب الأمل، وتتضخم مشاعر العجز. بالطبع إن خطورة هذه الوضعية لا تحتاج إلى تدليل. فمن المستحيل عملياً على أي كائن أن يحقق هذه الآمال السحرية في الخلاص الآني، وفي تحوّل المصير من النقيض إلى النقيض. لا بد بعد فورة النشوة بقرب الخلاص، من بروز خيبة الأمل حين يتحقق الإنسان المقهور أنه كان يتعلق بسراب. وهو عندها معرض لليأس يتسرب إلى نفسه، للكفر بكل شيء، وللانكفاء على الذات أو الهروب. مشكلة هذه الوضعية هي أن الإنسان المقهور يراهن على خلاصه على يد الزعيم المنقذ دون أن يعطي لنفسه دوراً في السعي لهذا الخلاص، سوى دور التابع المعجب المؤيد دون تحفظ، والمنتظر للمعجزة. وهو يشتط في ذلك حتى يصل به الأمر إلى ازدراء إمكانات العطاء عند الجماهير، تلك هي المشكلة الحقيقية. يزول الإعجاب بعد فترة تطول أو تقصر، حاملة له خلالها خيبة الأمل، كي يحل محله الكفر بهذا الزعيم. ويسبق الشك الكفر بطبيعة الحال، ويحل العدوان محل التعلق والتبعية. ولا يرى الإنسان المقهور بديلاً للخلاص السحري، لأنه فقد الثقة بإمكاناته وإمكانات أمثاله منذ زمن بعيد. فهو بحاجة أبداً إلى من يدير له أموره نيابة عنه. وحتى حين تتاح الفرصة لهذه الإمكانات أن تتفجر فإنها تأخذ في البداية طابع القدرة السحرية على التغيير، كما يلاحظ في المراحل الأولية للكفاح المسلح، حين يعتقد الإنسان المقهور أن السلاح كفيل بحل مشكلاته، وأنه وحده دون سواه الطريق إلى الخلاص. ولكن يأتي يوم يتضح فيه أن السلاح وحده لا يكفي.

والعلاقة مع الزعيم المنقذ هوامية، لأنها ليست علاقة مع إنسان فعلي له قدراته وطاقاته وحدوده وعيوبه. إنها من نوع التماهي الإسقاطي، بمعنى أن الإنسان المقهور يسبغ على شخص الزعيم كل تصوراته الطفلية بالقوة والقدرة وكل مثله العليا، ويجعل منه باختصار الصورة النقيض تماماً لصورته عن نفسه والتي يجهد في الهروب منها لأنها نموذج النقص والمهانة. إن الإنسان المقهور لا يعيش في علاقته بالزعيم، علاقة فعلية بين إنسان وآخر (على اختلاف المقامات) بل بين إنسان وتصور خرافي يسقط على الزعيم. وهذا ما يحمل الزعيم أعباء لا قبل لأحد من بني البشر بها. يتصور الإنسان المقهور علاقته مع الزعيم المنقذ بشكل تملكي، فهو تابع ولكنه يحس في قرارة نفسه أن هذا الزعيم مجرد أداة لتحقيق آماله. ويحس أن علاقته معه لا يمكن أن يعتريها الوهن، وأن ما وضعه فيها من رجاء لا يمكن أن يخيب. ويحس أن عليه أن يقعد كالطفل منتظراً الهناء والأمن والخير الوفير يأتيه هيناً على يدي الزعيم المنقذ، كما كان يأتيه طفلاً من أمه. فالزعيم المنقذ هو الأب الحامي والأم المرضعة على السواء، وهو بالتالي رمز الكمال الذي يحاول التماهي به كأسلوب لحل مأزقه بشكل سحري.

صورة الزعيم المنقذ الذي يشكل المثل الأعلى، ضرورة حيوية للجماعة، أي جماعة. فهو عنصر تماسك بين أفرادها. فمن خلال التماهي بالزعيم، يتم التماهي بين أعضاء

الجماعة، وبالتالي تتوثق العرى بينهم وينشأ الشعور بالانتماء قوياً. وصورة الزعيم القدوة ضرورة حيوية للجماعة، كي يفجر طاقاتها ويحرك إمكاناتها على الفعل والخلق، ويقود مسيرتها معطياً إياها المثل وموضحاً الطريق. هذا الزعيم هو عنصر حاسم لدفع الجماعة إلى النهوض بأعباء التغيير، شريطة أن يلعب دور القائد المحرك والموجه، وشريطة أن يكيف دوره باستمرار تبعاً لمسيرة الجماعة، والمراحل التطورية التي قطعتها وما تطرحه هذه المراحل من مهمات جديدة وتحديات جديدة، وما تتطلبه من أدوار قيادية جديدة.

الخطر الذي يقع فيه العالم المتخلف، والذي نجد عليه أمثلة عديدة مليئة بالمآسي، هو تحول الزعيم المنقذ من قائد يحرك الجماهير، إلى بطل أسطوري ينخرط في وهم التغيير الفردي، ويدفع أتباعه إلى مواقع الإعجاب والتفرج والتأييد الطفلي الامعي. الخطر هو في انتشار صورة البطل الأسطوري، الذي يكرر صور أبطال القصص الشعبي (فارس يحارب جيشاً، والقبيلة تتفرج منتظرة عودة فارسها مظفراً). هذه الوضعية مأزقية بالضرورة لكل من الزعيم والجماعة على حد سواء. فالزعيم لا بد أن يفشل، ويتكرر فشله ويتراكم عجزه مفجراً التناقضات بينه وبين جمهوره. فإذا أصر على بقائه في سدة الزعامة وأصر على نهجه رغم فشله، فإنه سيتحول إلى متسلط، ولا بد له من اتخاذ القمع وسيلة للاحتفاظ بمركزه. ويكون بذلك قد عاد بالأمور إلى حالتها الأولى: مجتمع التخلف الذي يحكمه القهر والتسلط.

أما الجماعة فبعد الشك ستكفر وتستقر في خيبة أملها. وقد تكرر خطأها في أمل سحري بخلاص جديد، إلا إذا قيض لها أن تعي دورها كعامل التغيير الأساسي: الخلاص من خلال الجهد الذاتي.

الفصل السادس

التماهي بالمتسلط

التماهي بالمتسلط يشكل أحد المظاهر البارزة في سعي الإنسان المقهور لحل مأزقه الوجودي والتخفف من انعدام الشعور بالأمن، والتبخيس الذاتي الذي يلحق به من جراء وضعية الرضوخ. إنه كحل عبارة عن هروب من الذات وتنكر لها، وهروب من الجماعة وتنكر للانتماء إليها، من خلال التشبه بالمتسلط وتمثل عدوانيته وطغيانه ونمط حياته وقيمه المعيشية. إنه استلاب الإنسان المقهور الذي يهرب من عالمه كي يذوب في عالم المتسلط ونظامه آملاً في الخلاص.

تشيع هذه الظاهرة بكثرة في البلدان النامية، متخذة العديد من الأوجه والأشكال، وشاملة قطاعات واسعة من الظواهر المعيشية والتوجيهات الوجودية، كي تصل في بعض الأحيان حد الاستلاب الكلي، حد التنكر التام للوضعية الذاتية والذوبان في عالم المتسلط. والتماهي بالمعتدي هو من أقوى عوامل مقاومة التغيير، وعرقلة التحرر الوطني والاجتماعي، خصوصاً عندما يتخذ شكل التماهي بقيم المتسلط وتبني مثله العليا. وهو كذلك لأنه ينمي عند الإنسان المقهور وهم التحرر من خلال التنكر للمشكلة الذاتية والجماعية، ومن خلال التمسك بمظاهر خادعة يعتقد فيها اقتراباً من نماذج الوجاهة السائدة.

تطغى ظاهرة التماهي بالمعتدي خصوصاً في مرحلة الرضوخ للمتسلط المحلي والأجنبي، حين يحس الإنسان المقهور بوطأة وضعه وعجزه عن تغيير علاقة القهر. ولكنها تتغلغل في مختلف مظاهر الحياة والسلوك بشكل لا واع، مما يجعلها تفلت من محاولات التغيير. وهي تشكل على ذلك الوجه المضاد لعملية مقاومة المتسلط من خلال الانكفاء على الذات، والاحتماء بالجماعة، بمعاييرها وتراثها. ومن الضروري قبل الخوض في تفاصيل هذه العملية التوقف لحظة لتحديد أمرين اثنين هما في أساس التسمية التي أطلقناها: التماهي، والتماهي بالمعتدي.

التماهي، ويسمى أيضاً التوحد والتعيين، هو أكثر من مجرد التشبه بالآخر أو محاكاته. فهاتان العمليتان تظلان واعيتين، من يتشبه بالغير أو يحاكه يحاول الاقتراب من نمط سلوكه أو مظهره دون أن يفقد إحساسه بالاختلاف عنه، إحساسه بالغيرة. أما التماهي، أو التعيين، فهو عملية لا واعية تتم خارج إطار الانتباه والإرادة في معظم الأحيان، وتتلخص بتمثل وجود الآخر حتى يصبح الشخص هو الآخر أو يعيش ذاته كذلك. إنه هو عينه، أو هو هو، ومن هنا يتخذ لنفسه نفس ماهية الشخص الآخر وهويته. والتماهي قد يكون كلياً أو جزئياً. أما الكلي فهو نادر الحدوث لأنه يقود إلى فقدان الذاتية تماماً، والاستلاب في ذاتية الآخر، ونكون ساعتئذ أمام حالة مرضية صريحة. أما الشائع فهو التماهي الجزئي، بناء الذات على نسق وجه من أوجه وجود الآخر الذي نتماهى به. فقد نتماهى بأسلوب شخص آخر نتمنى أن نكون مثله أو نحل محله، أو بمثله العليا، أو بإيماءاته وتعابيره، أو بأدواته. والتماهي هو في أصل المشاركة الوجدانية بين الناس، ومن أهم أسس الانتماء إلى الجماعة والتشابه بين أعضائها. ومن أبرز الأمثلة على التماهي كمشاركة وجدانية، التشابه الكبير، الذي يصل حداً مذهلاً بعض الأحيان، بين زوجين تقدمت بهما السن، وعاشا علاقة تفاهم وانسجام عاطفي. فمن يراهما لأول وهلة يخيل إليه أن كلاً منهما نسخة طبق الأصل عن الآخر. المظهر العام والتعابير والاتجاهات الجسدية والحركات موحدة. وما ذاك إلا نتيجة عملية تماهٍ متبادل وطويل الأمد، حدث خلالها تمثل متبادل لخصائص كل منهما. ومن أكثر أشكال التماهي شيوعاً عند الطلاب تمثل تعابير وإيماءات الأستاذ حين يستقطب إعجابهم ويشكل مثلاً أعلى لهم.

التماهي من العمليات النفسية الأساسية في بناء الهوية الذاتية. فكل إنسان يجد أصالته في النهاية، من ضمن سلسلة كبيرة من التماهيات بأشخاص يكونون مثلاً أعلى له، في كل ميدان، وقطاع من قطاعات الحياة، وما الأصالة الذاتية إلا انتظام هذه التماهيات في نسق فريد تبعاً لدينامية الشخصية وتاريخها وإمكاناتها.

من الناحية النفسية اللاواعية لا يحدث التماهي بشكل فاتر، من خلال تمثل خصائص الآخر كما هي موضوعياً، بل هو عملية نشطة جداً تمر بسلسلة من تفاعل أواليتي الاجتياف والإسقاط اللتين تتبادلان التأثير. فما يتمثل من خصائص الآخر يمر بمصفاة الذاتية ويصطبغ بلونها، تبعاً للدينامية اللاواعية للشخصية. أكثر من ذلك، نحن نجتاف في النهاية الصورة (أو التصور) أو الدلالة التي أسقطناها على الآخر. التلميذ الذي يعجب بهذه أو تلك من خصائص أو توجيهات أستاذه، لا يتمثلها (يجتافها) كما هي، بل يتمثلها انطلاقاً من إسقاط التقدير المفرط على شخص هذا الأستاذ انطلاقاً من رفعه إلى مرتبة المثل الأعلى الذاتي الذي يحاول التقرب منه. ما نتمثله من الآخر هو إذن نتاج عملية تفاعل دائم بين ما هو واقعي وما

نسقطه على واقعه الموضوعي من تصور ذاتي، ولذلك يمكننا القول إن كل تماه هو في النهاية إسقاطي. وما يسقط أساساً، هو عنصر المبالغة التي نسبغها على خصائصه سواء منها الحسنة أو السيئة، الإيجابية أو السلبية. وسنرى الأهمية الكبرى لهذه المسألة حين التحدث عن التماهي بالمتسلط حيث تحدث في أغلب الأحيان مبالغة في تقدير صفاته التي نعجب بها أو نخشاها، مما يجعل الإنسان المقهور يبالغ في إعجابه كما يبالغ في خشيته.

أما التماهي بالمعتدي[1]، فهو أوالية[2] استخلصتها آنا فرويد (ابنة فرويد) من خلال عملها العلاجي مع الأطفال الذين يعانون من اضطرابات نفسية. ولقد عرضتها بالتفصيل في مؤلفها المشهور عن الأنا وأواليات الدفاع[3] «1936». ويشكل التماهي بالمعتدي في رأيها إحدى أقوى وسائل النضال ضد الموضوعات الخارجية المولدة للقلق (المرجع المذكور، ص 97). فالشخص الذي يواجه بخطر خارجي (متمثل نموذجياً بنقد أو تهديد صادر عن سلطة) يتماهى بالمعتدي، بمن يمثل أو يجسد هذه السلطة مصدر الخطر، إما بأن يأخذ لحسابه العدوان كما هو، أو بالمحاكاة الفيزيقية أو المعنوية لشخص المعتدي، أو بتبني بعض رموز القوة التي تدل عليه. إلا أن هذه الأوالية تشيع كثيراً عند الأطفال كوسيلة للتغلب على خوفهم من الأخطار الخارجية. فالطفل الذي يخاف الأشباح في الظلام، قد يتغلب على خوفه من خلال لعب دور الشبح الذي يخيف طفلاً آخر يسقط عليه دور الضحية التي تخاف. كذلك الطفل الذي يخشى اللص، أو الذئب فإنه يتغلب على خوفه بتمثيل خطر اللص القاتل أو عدوان الذئب المفترس، الذي يبرز مخالبه ويكشر عن أنيابه.

من خلال لعب دور المعتدي، أو تمثيل عدوانه أو استعارة صفاته يتحول الطفل من كائن مهدد إلى كائن مخيف ومهدِّد (المرجع نفسه، ص 100) وفي ذلك مرور من الدور الفاتر العاجز إلى الدور الفعال، بغية الوصول إلى استيعاب أحداث مؤلمة أو صدمية. في كل حالات التماهي بالمعتدي يحدث قلب في الأدوار، تتحول الضحية إلى معتد من خلال نقل دور الضحية أو وضعيتها إلى شخص آخر يفرض عليه الدور المزعج، ويصبح موضوعاً للتشفي من ناحية، وللتنكر من المخاوف الذاتية من ناحية ثانية. أنا لا أخاف، أنا أخيف، هو يخاف، أنا أخيفه. هذه الوضعية الذاتية تؤدي إلى التخلص من كل المخاوف ومشاعر الضعف الداخلية أو كل مشاعر الذنب الذاتية، فليس أكثر قسوة من المعلم الظالم إلا التلميذ الذي يوكل إليه هذا المعلم حفظ النظام في الصف. وليس أكثر شططاً من الأم المتشددة إلا

---

(1) التماهي بالمعتدي Identification à l'agresseur.

(2) أوالية Mécanisme.

(3) Anna Freud. Le moi et les mécanismes de défense, P.U.F. 4ème éd, Paris, 1967.

الطفل الذي يعاني مشاعر الذنب ويصبها على أخ أصغر، بينما يلعب هو دور الأم التي تحاسب وتعاقب. وسنرى كيف أن أزلام المتسلط وأدواته، هم في أغلب الأحيان أشد قسوة وتطرفاً في تعاملهم مع الإنسان الضحية الذي فرض عليه دور المقهور.

يتخذ التماهي بالمعتدي، تبعاً لآنا فرويد، أشكالاً ثلاثة أساسية: التماهي بحركات المعتدي «تمثيل دور الغول أو الذئب من تكشير ومخالب ومظاهر تبث الرعب في نفس الضحية» التماهي بعدوان المعتدي (الإفراط في تبني القسوة والإرهاب لحسابه الذاتي وفرضهما بكثير من الشطط على العناصر الأضعف)، والتماهي بأدوات المعتدي (سكين اللص، أو سلاحه الناري، مخالب وأنياب الذئب). وقد تجتمع هذه الأوجه الثلاثة في أوالية التماهي بالمعتدي، أو هي تظل جزئية، ولكن الأغلب أن يضع المتماهي ذاته في جلد من تماهى به بشكل إجمالي من ناحية التجربة النفسية.

التماهي بالمتسلط

تساعدنا أوالية التماهي بالمعتدي، كما أوجزناها، مساعدة جلى من الناحية المنهجية، في إلقاء الضوء على الكثير من الظواهر الحياتية التي تلاحظ في البلدان النامية، وتحديداً عند الفئات المقهورة، والتي قد تثير العجب أحياناً، نظراً لتعارضها مع علاقة الصراع التي تميز منطقياً علاقة الإنسان المقهور بالمتسلط. التماهي هو كما قدمنا من أكثر الظواهر شيوعاً في البلدان النامية. وهو يكاد لا يترك أي فئة سكانية، أو أي وجه من أوجه الحياة إلا وتغلغل فيها. وهناك سلسلة متصلة الحلقات من التماهي بالمتسلط في هذه البلدان. تبدأ من أعلى الهرم، بتماهي المتسلط المحلي بسيده وحليفه الأجنبي الذي يتقدم عليه تكنولوجياً وحياتياً، وتنتهي بتماهي أكثر الناس ضعفاً وهواناً بمن يفوقهم في المرتبة مباشرة. إلا أن النموذج السائد هو التماهي بأعلى المتسلطين مقاماً ونفوذاً محلياً وخارجياً. فهؤلاء هم الذين يحددون القيم والتوجيهات الحياتية الأساسية لكل من يأتي بعدهم في سلم التراتبية[1].

يتخذ التماهي بالمتسلط مظاهر مغايرة نسبياً عن التماهي بالمعتدي، كما عرضته آنا فرويد، ولو أن الدينامية النفسية واحدة في الحالتين. هذه الدينامية تقوم على خلفية من الإعجاب الصريح أو الضمني بالمتسلط، كذلك بالمعتدي، سواء في تبني بطشه وتهديده، أو في تمثل أسلوبه الحياتي وقيمه. هناك رغبة دفينة في احتلال مقام مماثل لمقامه إن لم تكن الرغبة في الحلول محله بشكل جذري، باعتبار مقامه يشكل الحالة الحياتية المثلى.

ويمكن أن نستعرض ظاهرة التماهي بالمتسلط من خلال أشكال ثلاثة رئيسية: التماهي

(1) التراتبية Hierarchie.

بأحكام المتسلط، التماهي بعدوانه، والتماهي بأسلوبه الحياتي ومثله العليا وقيمه. من الواضح أن الشكلين الأولين يقومان على خشية المتسلط ورهبة جانبه، وبالتالي يهدفان إلى درء خطره أو التنكر لما يثيره هذا الخطر من قلق ذاتي. أما الشكل الأخير فيقوم على الإعجاب والرغبة في التقرب من نمطه الوجودي، مع ما يتضمنه ذلك من تنكر للجماعة الأصلية، قيمها ومعاييرها.

1 ـ التماهي بأحكام المتسلط

يقوم الإنسان المقهور، في عملية التماهي بأحكام المتسلط، باجتياف عدوانيته وتوجيهها إلى الذات على شكل مشاعر ذنب ودونية وتبخيس للقيمة الذاتية. إنه ينخرط في عملية حط من قيمته، وقيمة الجماعة الأصلية التي ينتمي إليها. وبقدر ما يذهب بعيداً في هذا الاتجاه، فإنه يعلي من شأن المتسلط ويبالغ في اعتباره وفي تثمين كل ما يمتّ إليه بصلة.

تشيع أوالية التماهي بأحكام المتسلط خلال مرحلة الرضوخ وتجعل التسلط ممكناً بل يكاد يبدو طبيعياً. تبدو الهوة ساحقة بين المتسلط والإنسان المقهور. وبالتالي فمن حق الأول أن يسود نظراً لتفوقه. يعاني الإنسان في هذه الحالة من مأزم وجودي حاد يتخذ شكل رفض الذات وعدم الاعتراف بها، بل إدانتها على فشلها. وينطلق المرء في مجموعة أحكام سلبية، تجعله لا يرى خيراً أو عزة في ذاته. إنها مصدر التقصير، ومجمع العيب وموضع الهوان. وصب الحقد على الذات لعجزها وفشلها في التصدي للمتسلط أو مجابهة قانون الطبيعة. يتغذى من مشاعر ذنب شديدة ترافقها بالضرورة ميول لتدمير الذات، ويسير الأمر تدريجياً في اتجاه الانفصام بين الذات الحقيقية وبين السلطة الداخلية (الأنا الأعلى) التي تتشدد في الحساب. يتماهى المرء كلياً مع هذه السلطة الداخلية ضد ذاته حتى يصل حد التنكر والرفض الكلي لها. هذه الازدواجية الداخلية تجعله يشتط في أحكامه وفي تبخيسه لذاته. وبالطبع لا بد لهذا التنكر وتلك الازدواجية من أن يعمما على الموقف من الجماعة. إنه لا يحترم أمثاله ولا يعتز بالروابط بينه وبينهم، ويكاد يخجل من الاعتراف بالانتماء إليهم. وانطلاقاً من هذه الوضعية، ينخرط في حرب عشواء على الجماعة مكدساً الأدلة من ظواهر الحياة اليومية على ضعفها وعجزها وسوئها. إنها الجماعة المستكينة التي لا يرجى منها خير، والتي ستظل أبداً غارقة في المهانة والجهل والانحطاط. وبذلك يكون قد ابتدأ تدريجياً في السير على طريق التماهي بعدوان المتسلط، وتهيأ للعب دوره تجاه الأشخاص الأضعف حين تسنح الفرصة.

تبلغ العلاقة مع المتسلط في هذه الحالة أشد درجات السادومازوشية: قبول التسلط والرضوخ له، في جو من الإفراط في رهبة جانب المتسلط والإعجاب به في آن معاً. وينتج الإفراط هذا عن ظاهرة انشطار القيمة الإنسانية. توجه كل القيم الإيجابية (القوة والمنعة

والتفوق) إلى المتسلط، وكل القيم السلبية إلى الإنسان المقهور، ويبدو أن لا أمل في الخلاص من هذا المأزق الوجودي إلا بالاقتراب ما أمكن من المتسلط، والتنكر الشامل للذات ولانتماءاتها التاريخية والاجتماعية. حتى هذا الأمل يبدو صعب المنال في البداية، مما يولّد حالة من الرضوخ السوداوي لقدر مكتوب، وحظ مقسوم، ومصير محتوم.

يستغل المتسلط هذه الظاهرة ويعمل على تغذيتها وترسيخها بكل السبل الممكنة. فهو يؤكد على ضعف وجهل وتأخر ومهانة الإنسان المقهور، ويغرس هذه الصورة في نفسه غرساً من خلال عملية تبخيس دائبة تحاصر ذلك الإنسان من كل الجوانب. تحط من قدره وتسفل كل ما يمتّ إليه بصلة تراثه، عاداته، قيمه، إمكاناته، سادّة أمامه كل آفاق التغيير والارتقاء بوجوده. وقد يصل الأمر حد التدمير المنظم لذات الإنسان المقهور ولتراثه، لحشره في الطريق المسدود الذي لا خروج منه إلا بالرضوخ، أو الاستلاب من خلال الذوبان في عالم المتسلط. وبقدر ما يحط من قدر هذا الإنسان المقهور، يحاول المتسلط تضخيم أهميته الذاتية وتفخيم عالمه وانتماءاته وأدواته. إنه ينخرط في عملية استعراض لقدراته على كل صعيد (قوته، إمكاناته، بطشه، تقنياته)، بشكل يبهر الإنسان المقهور، ويدخل اليأس في نفسه من أماكن التصدي والتساوي.

وعندما تترسخ هذه العملية وتتسع الهوة بين المتسلط وضحيته، يتحول هذا الأخير إلى حليف غير مباشر للأول، في حرب التبخيس هذه التي يقع ضحية لها. وعند هذا الحد ينقاد هذا الإنسان المقهور إلى عملية استلابه: يتنكر لذاته ويحارب مصالحه. وبقدر تزايد تلك الحرب، يربط نفسه بقيود تأسره في فلك المتسلط.

تشكل هذه الوضعية نوعاً من الجمود والتخدر الذاتي يشل كل إمكانية للمبادرة والتصدي. الآلام المعنوية التي ترافق انعدام القيمة تصل حداً لا يطاق. الاستكانة لا تشكل حلاً ملائماً لأنها لا تؤمِّن الحد الأدنى من التوازن الوجودي الذي لا يمكن للحياة أن تستمر دونه. ولهذا فستظهر عاجلاً أم آجلاً محاولات هروب إلى الأمام، إنكاراً للمأزق من خلال نفي الذات وقلب الأدوار. ويتحول الإنسان المقهور من ضحية إلى معتد على أمثاله الأضعف قدرة، والأقل حظوة لدى المتسلط، يتحول بالتالي إلى أداة بطش في يده، في حالة من وهم القيمة والاعتبار الذاتيين من خلال التقرب (الاستزلام) منه. ذلك هو التماهي بعدوان المتسلط.

2 ـ التماهي بعدوان المتسلط

يتخلص الإنسان المقهور من مأزقه من خلال قلب الأدوار. يلعب دور القوي المعتدي ويسقط كل ضعفه وعجزه على الضحايا الأضعف منه. الآخر الشبيه به هو المذنب، وهو

المقصر، وهو بالتالي يستحق الإدانة والتحطيم. من خلال التماهي بالمعتدي يستعيد الإنسان المقهور بعض اعتباره الذاتي، أو على وجه الدقة يصل إلى شيء من وهم الاعتبار الذاتي. كما أنه يتمكن من خلال هذه الأوالية من تصريف عدوانيته المتراكمة والتي كانت تتوجه إلى ذاته، فتنخر كيانه وتحطم وجوده. هذا التصريف للعدوانية بصبها على الخارج من خلال مختلف التبريرات التي تجعل العنف ممكناً تجاه الضحية، يفتح السبيل أمام عودة مشاعر الوفاق مع الذات، شرط التوازن الوجودي. وتشتد الحاجة إلى الضحايا بمقدار ازدياد العدوانية وتوجهها نحو الخارج، ومقدار النقص في الوفاق مع الذات.

والتماهي بعدوان المتسلط يحمل في ثناياه وهم الخلاص الذاتي، من خلال فض الالتزام بالجماعة والتنكر للانتماءات السابقة. فهو يدفن الصورة المحقرة عن الذات من خلال دفن الماضي من ناحية، وسحب الاعتراف بارتباطاتها الإنسانية من ناحية ثانية. ومن خصائص هذه العملية، الميل إلى التطرف والشطط، فبمقدار ما يبرز الماضي إلى الوجود يندفع الإنسان المقهور في حركة هروب من الذات وارتماء في أحضان المتسلط.

مظاهر التماهي بعدوان المتسلط متعددة ومجالاته متنوعة، نجدها لدى من سنحت له الظروف كي يمارس سلطة على أناس دونه أو أضعف منه. كما نجدها عند من يلتمس حظوة من خلال التقرب من المتسلط. وهي في أبسط مظاهرها تبدأ بذلك التعالي الذي يظهره الفقير تجاه الأفقر منه، والبائس تجاه من هو أشد بؤساً منه. في ذلك التعالي يحاول أن ينكر مهانته الذاتية بصبها على الآخر. ومن مظاهرها أيضاً كل التصرفات الاستعراضية للقوة، أو لرموز القوة أو حتى لوهم القوة، سواء من خلال حمل السلاح واستعراضه دونما حاجة فعلية إليه، أو من خلال استعراض العضلات. وقد لا تتجاوز حد المباهاة والتعالي من خلال التخريف والادعاءات المتفاوتة بقوة أو منعة. في كل هذه الحالات ينخرط الإنسان المقهور في حرب ضد خطر الإحساس بضعفه الذاتي والموقعي، وفي محاولات دائبة لطمس هذا الضعف. إلا أن هذه المحاولات ليست خطيرة عموماً في نتائجها وآثارها. هناك حالات يبرز فيها التماهي بعدوان المتسلط صارخاً مكوناً نوعاً من الآفة الاجتماعية والمأساة العلائقية. سنتحدث عن ثلاث منها.

الحالة الأولى ذات الانتشار المحدود نراها في ظاهرة تسلط بعض (القبضايات) على الأفراد والمؤسسات لفرض الخوّة من خلال الابتزاز والتهديد، الواحد من هؤلاء يغطي ضعفه وهوانه الاجتماعي من خلال لبس جلد التمساح والاحتماء وراء مظاهر القوة العضلية والمسلحة، يتخذها لنفسه ويهدد بها من حوله. إنه يتنكر للتعاطف مع أفراد طبقته، يجمد عواطفه، يعطل إحساسه بمعاناة الكادح وتعب الفقير فارضاً عليهم ضريبة متفاوتة في قدرها، بينما كان يجب أن يوظف قوّته للذود عنهم ودرء قسوة المتسلط عليهم. إنه في

الحقيقة يتبنى قسوة المتسلط لحسابه فارضاً إياها على الأضعف منه. كما أنه يتبنى أسلوب حياة المتسلط في العيش الطفيلي على حساب الناس الكادحين. يزدري العمل، ويزدري العناء الحياتي الذي يضعه أمام مهانته الوجودية وانسحاقه العلائقي. ويتخذ من التسلط المتطفل مجالاً للشعور بالعزة وباختلاف المصير. كل خوّة تفرض، وكل ابتزاز متطفل يجد باستمرار نموذجاً له في تصرفات المتسلط الذي يعيش من جهد الآخرين، إنه تماه بعدوان المتسلط ومحاكاة لأسلوبه في الحياة. وقد يعمم هذا النموذج متخذاً درجات متفاوتة من التسلط التطفلي على جهد الأضعف، كل من أنس في نفسه شيئاً من قوة يتسلط على من هو أضعف منه، وهكذا. كل يتسلط ويستغل تبعاً لحجمه. وكل يزدري الأضعف منه ويرهب جانب من يفوقه قوة. ويمتزج الإعجاب الدفين بالرهبة الظاهرة. وتمتزج الرغبة في الارتفاع إلى مستوى أعلى من القوة والتسلط بمحاولة تجنب الوقوع موقع الضحية.

وقد تمارس الخوّة وأسلوب العيش التطفلي ضد رموز السلطة السائدة أو بعض أفرادها. ذلك لا يغير من واقع الحال شيئاً من حيث تفسير الظاهرة وديناميتها، الاختلاف هو في الشكل الخارجي فقط. هناك دوماً نموذج يحاكيه الواحد من هؤلاء، ونجده خفياً أو صريحاً في ممارسة ما للفئة التي تمتلك النفوذ الفعلي وتمسك بالسلطة في المجتمع.

وقد يرى البعض في هؤلاء مجرد جانحين أو مجرمين يشكلون آفة اجتماعية يجب أن تجتث، ذلك صحيح من الناحية الظاهرية. ولكن يبقى أن الإجرام في أوقات السلم، كذلك خلال الأزمات التي تعصف بمجتمع ما، هو دائماً تعبير مباشر أو غير مباشر عما يعتمل في بنية ذلك المجتمع من تسلط وإرهاب يتجسدان عنفاً وبطشاً على مستوى العلاقات الإنسانية. الإجرام تعبير عن الاضطراب في العلاقة الإنسانية الذي تعاني منه بنية المجتمع.

أما الحالة الثانية للتماهي بعدوان المتسلط فهي أكثر انتشاراً وشيوعاً، نجدها خصوصاً في الأجهزة التي تشكل أدوات السلطة، سواء في الإدارة، أو في أجهزة الشرطة والأمن. إن العلاقة بين المواطن وبين من يعملون في هذه الأجهزة على اختلاف رتبهم ومكاتبهم تشكو في البلد المتخلف من ظاهرة التماهي بعدوان المتسلط.

فعلى مستوى الإدارة، نجد الموظف يتعالى على من هم دونه ويشتط في معاملتهم، كما يتعالى على الجمهور ويقابله بالصد أحياناً والنبذ الصريح أحياناً أخرى. وهو إن قام بما يفترض أن يقدمه من خدمات يعتبر ذلك منة من جانبه تجاه صاحب الحاجة، وليس واجباً تمليه عليه وظيفته. إنه يكاد لا يعترف إلا في حالات نادرة، بحق صاحب الحاجة من المواطنين في أن تلبى حاجته. وهو في ذلك يكرر موقف رئيسه منه، وهذا الأخير يكرر موقف المسؤولين الأعلى منه. ويتخذ الأمر في النهاية طابع سلسلة علاقة استعلائية استعبادية، وليس شكل العلاقة المرتبية الرسمية التي تفرض واجبات وتضمن حقوقاً لكل

طرف وعلى كل مستوى. إن التماهي بعدوان المتسلط بالنموذج الذي يفرضه في التعامل مع الآخرين لا يعترف لا بواجبات ولا بحقوق، سوى حق المتسلط، وواجب إذعان التابعين والمرؤوسين له.

أما على مستوى ممارسة السلطة (الشرطة والأمن وخلافهما) فيتخذ التماهي بالمعتدي أفصح صوره. هناك سلسلة متصلة الحلقات من تراتب الرضوخ والتسلط، ومن مظاهر البطش، تمارس على العناصر الأضعف. أزلام الإقطاعي أشد قسوة وأكثر بطشاً منه تجاه الفئة التي ينتمون إليها في الأصل والتي تنكروا لها كل التنكر بعد أن حظوا بالتقرب منه، وسنحت لهم الفرصة كي يلعبوا دور أدواته القامعة. الخفير يتعالى ويشتط على الفلاح البائس بينما يرضخ للعمدة أو المختار، وهذا الأخير يشتط في معاملة الخفير بينما يستكين تجاه المأمور وهكذا. ليس أشد قسوة وبطشاً في التعامل مع المواطن المستضعف، الذي لا يجد له حماية في انتماء إلى زعيم أو ذي نفوذ، من الشرطي الذي كان مستضعفاً ومقهوراً قبل دخوله سلك الشرطة. إنه يتحول من إنسان مهدد إلى مستبد يتشفى ممن ما زالوا مستضعفين. يصب عليهم كل عنته وحقده المتراكم، في حالة من التنكر التام لانتمائه الأصلي وشرطه الإنساني السابق. وهو يشتط في استعراض بعض مظاهر ورموز القوة والسلطة في وضعه الجديد.

إن العنف والقسوة اللذين تمارسهما أدوات السلطة حين ملاحقة بعض المخالفين في أمور صغيرة أو كبيرة، ناهيك عن إهانة كرامة المواطن والنيل منه، وناهيك عن التلذذ في عمليات التعذيب والإيذاء الجسدي أثناء التحقيق، أمور لا تمتّ بصلة إلى ما تفترضه القوانين من علاقات وأساليب تعامل. إن في ذلك تشفياً واضحاً، وإن فيه تفريغاً للعدوانية المتراكمة، نتيجة القهر المزمن الذي تعرّض له هؤلاء قبل أن يحتلوا مناصبهم كأدوات للسلطة. إن التلذذ في مهانة الإنسان المستضعف والبطش به تحت ستار ممارسة وظيفة الحفاظ على الأمن، يشير إلى المرض العلائقي الذي ينخر بنية العالم المتخلف. إنه التماهي بعدوان المتسلط كأسلوب وحيد في الخلاص السحري من المهانة الذاتية، التي تنخر حياته الحميمة لطول ما تعرّض له من قهر. إنه يفرض القهر ويمارس المهانة على الآخرين بنفس القدر الذي عانى منهما سابقاً، وما زال يعاني منهما حالياً في علاقته برؤسائه. وهو عوضاً عن توسل وظيفته أو ما أنيط إليه من سلطة لإحقاق الحق وإزالة الحيف الذي لحق به ويلحق بأمثاله من المقهورين، نجده يسعى إلى الخلاص الفردي، من خلال وهم التغيير المصيري ومن خلال التنكر لماضيه والتنكر لأمثاله، وذلك بإسقاط كل مهانته عليهم. وهو يشتط بقدر فشل هذا الحل الوهمي كي يصل إلى شيء من اليقين باستعادة اعتباره. إن أداة السلطة في المجتمع المتخلف تمارس البطش، من خلال التماهي بالمتسلط، بقدر ما تعرضت وتتعرض له من قهر. وهي في هذه الممارسة تعبير فصيح عما يعتمل في بنية ذلك المجتمع من قهر وعسف.

هناك حالة ثالثة من التماهي بالمتسلط، نجدها في الممارسات السياسية والمسلحة التي تفتقر إلى هدى تنظيم وتأطير ثوريين حقيقيين.

ما حدث على الساحة اللبنانية يعطينا نماذج واضحة عن تلك الممارسات. المقاتل الذي يحمل السلاح نجده في بعض تصرفاته لا يقف موقفاً نضالياً، بل هو يتصرف تبعاً لنموذج المتسلط الذي عانى منه سابقاً. بدل أن يعامل الجماهير برقة وروح أخوية، نراه يتعالى عليها معطياً لنفسه مكانة مفضلة ومقدماً ذاته على الآخرين. لقد تحول من خلال حمل السلاح من إنسان مقهور إلى آخر متفوق. يلعب دور المتسلط الصغير أو الكبير. كما أن الكثير من العلاقات المرتبية بينه وبين رؤسائه ومرؤوسيه تأخذ شكل العلاقة بين المتسلط والتابع، تعالٍ من ناحية ورضوخ من ناحية ثانية. وأما التصرفات الاستعراضية فهي في هذا المجال أكثر من أن تعد. نجد الواحد من هؤلاء يتباهى مختالاً باستعراض قوّته المستجدة متمسكاً بالمظاهر بشكل يتنافى مع الروح النضالية الحقة التي تتصف بالكثير من التواضع تجاه الجماهير.

إن المسلح غير المؤطر بشكل كافٍ، لا يجد أمامه من نموذج سلوكي سوى نموذج المتسلط وتجاوزاته العديدة. وعوضاً عن حل مأزقه الوجودي واستعادة اعتباره من خلال روح الإخاء مع المواطنين، نجده يكرر علاقات التبعية نفسها والتزلف والاستزلام تجاه الرؤساء، وروح التعالي والشطط والعنف من جانبه. في ذلك نوع من القلب السحري للأدوار والتغيير السحري للمصير. فيه حاجة مزمنة للخلاص الفجائي من خلال القوة وممارستها عوضاً عن الضعف السابق ومهانته. إن شيوع التماهي بالمتسلط سلوكياً ونفسياً عند المقاتلين والمسلحين، يحمل أشد الأخطار على عملية التغيير والتحرير. فبدلاً من تقويض العلاقات السابقة (علاقة السيد والتابع، علاقة المتسلط والراضخ) وإحلال الإخاء محلها، نلاحظ بروزاً لسادة جدد، ومتسلطين جدد، يشتطون بقدر حاجتهم للتعويض عن دونيتهم المزمنة. وتستمر بذلك البنية العلائقية نفسها مع تغير في الأبطال دون تغير الأدوار. وإذا بالممارسة المسلحة تتعرض للتزييف والتحوير والوقوع فيما قامت أصلاً لتغييره. تلكم، في نظرنا، من أكبر الأخطار التي يتعرض لها النضال، وتبعده عن أهدافه. فالتماهي بعدوان المتسلط، يقوم به من يملكون القوة والسلاح، لن يؤدي إلى تغيير بنية العلاقات الاجتماعية، بل قد يرسخها من خلال حلول سادة جدد مكان السادة القدماء.

3 ـ التماهي بقيم المتسلط وأسلوبه الحياتي

يصل الأسلوب في هذه الحالة أخطر درجاته، لأنه يتم بدون عنف ظاهر، بل على العكس، من خلال رغبة الإنسان المقهور في الذوبان في عالم المتسلط، بالتقرب من أسلوبه الحياتي وتبني قيمه ومثله العليا. وهو يرى في ذاك التقرب وهذا التبني حلاً لمأزقه الوجودي

وارتقاء لكيانه إلى مرتبة ترضيه وتبث في نفسه الكبرياء. وهو يبذل طواعية كل جهد ممكن في هذا السبيل متنكراً لمصالحه الحقيقية، التي تكمن في التغيير الجذري للعلاقة والبنية الاجتماعية التي تستند إليها. وتخلق هذه العملية حالة عنيدة من مقاومة التغيير، إذ لا يعود الإنسان المقهور يرى أمامه من مثال حياتي ومن معيار لتحقيق الذات سوى أسلوب حياة الإنسان المتسلط وقيمه ومثله العليا. حتى أنه لا يكاد يقتنع في دخيلة نفسه بشعارات المساواة والمشاركة والعدالة والديمقراطية والإخاء التي ينادي بها ويقاتل من أجلها. نرى دليلاً على ذلك في رغبة الإنسان المقهور الذي تحول إلى مقاتل في أن يحيا حياة الإنسان المتسلط من حيث الترف ومظاهر الوجاهة ووسائل الرفاه والظهور، إنه منجذب نحو تلك القيم والمظاهر بقوة يصعب على الإنسان العادي مقاومتها.

والواقع أن الإنسان المقهور، في هذا النوع من التماهي، هو ضحية عملية غسل دماغ مزمنة يقوم بها المتسلط. فهذا الأخير سواء كان محلياً أم أجنبياً يشن حرباً نفسية منظمة لتحطيم القيم الاجتماعية والحضارية للفئة المقهورة، تؤدي إلى تبخيس وازدراء كل ما يمتّ إلى عالمها بصلة. كما تزين لها قيم المتسلط، أسلوب حياته، أدواته، تقنياته كطريقة وحيدة ذات اعتبار في الحياة، وفي تحقيق الذات. هذه الحملة المنظمة تحاصر الإنسان المقهور من كل جانب، في وسائل الإعلام، في الدعاية (كل الدعاية الحديثة تقوم على الإغراء بتقليد وجاهة الأجنبي أو ذوي الحظوة والنفوذ) وفي التعليم المدرسي. في هذه الحالة الأخيرة يفرض على التلميذ من أبناء الفئة المقهورة سلسلة من القيم الحياتية في المدرسة، تنسف وتبخس قيمه الأصلية وتستلبه من خلال الذوبان في نظام الفئة المتسلطة. صورة التلميذ المثالي هي صورة الطفل البورجوازي. محتويات المناهج مأخوذة أصلاً من عالم وحياة الطبقة ذات النفوذ. اللغة التي تدرس بها المواد ليست لغته الأم، بل إن الوجاهة الأساسية للمدرسة هي بمقدار ما تعلّم اللغة الأجنبية. إتقان اللغة الأجنبية على حساب الحفاظ على الهوية الحضارية هي وسيلة للعيش بالطبع، ولكنها فوق ذلك دليل على الوجاهة، وبرهان على الخلاص من وضعية القهر.

نتيجة لهذه الحملة المنظمة والمستمرة، التي تأخذ بعقل الإنسان المقهور وفؤاده كل مأخذ، وتحاصره من كل اتجاه، يتحول تدريجياً تاركاً أصالته وغافلاً عن نوعية التغيير الفعلي الذي يحفظ له مصالحه ومستقبله. وهكذا يصبح إنساناً مزيفاً، أسير المظاهر، باحثاً عن أقنعة الوجاهة من كل نوع يجده في تقليد الأسلوب الحياتي للمتسلط ومثله العليا. وهكذا تصبح الضحية الحليف الأكثر قرباً وتعلقاً بالجزار.

يبيّن (فانون) هذه الظاهرة وأسبابها بوضوح ما بعده وضوح، في كتابه «جلد أسود وأقنعة بيضاء» حين يتحدث عن الأسباب التي تدفع الزنوج إلى كراهية ذواتهم السوداء،

وبالتالي محاولاتهم المحمومة لتغيير الذات الزنجية أو رفضها كلية من خلال سعيهم الدائب كي يصبحوا بيضاً أو قريبين من البيض. فلقد نجح الأوروبي الأبيض، في رأي (فانون)، في أن يغسل مخ هؤلاء الزنوج، . ولقد عمّق فيهم الإحساس بأن السواد شر كله وقبح كله، وأن السواد نقص وغباء، وأن السواد علامة تأخر في التطور البيولوجي لبني الإنسان. لكل هذه الأسباب، يقول (فانون)، يكره الزنجي سواده ويحس بالخجل والعار تجاهه. إنه يحاول الهروب من واقعه الأسود بأساليب متنوعة واتجاهات متعددة: التقرب من الرجل الأبيض، تقليده في ملبسه ومأكله وعادات حياته، محاولة الزواج من بيضاء أو سمراء، أو امرأة قليلة السواد، الاستعلاء على الآخرين الأكثر سواداً منه، صبغ الشعر وكيه للقضاء على تجعده، وكل ما من شأنه أن يدعه يهرب من واقعه المرفوض. ولكن، يقول (فانون)، كل ذلك ليس سوى أقنعة لا تخدع أحداً سوى لابسها.

الإنسان المقهور، من هذه الناحية، كائن مزيف فقد هويته وأضاع أصالته ووجد نفسه عارياً أمام غربته عن نفسه. وهو يحاول بشتى الأساليب، ومن خلال مختلف الأقنعة أن يجد هوية بديلة، وأن يحصل على وهم الوجاهة. التزييف الوجودي وما يقابله من أقنعة يمس كل شيء في حياته، والنماذج عليه لا حصر لها. وسنكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها.

نمط حياة المتسلط، ثقافته، موسيقاه، لغته، وسائل لهوه وترفه، أدواته وآلاته، زيه وملابسه، كلها مجال للمحاكاة، وكلها تشكل المثل الأعلى في الوجاهة، يحاول الإنسان المقهور أن يصل إليها، من خلال الاقتراب من هذا المثل الأعلى. وهو في ذلك يدعي ويبالغ ويزين المظاهر التي يتمسك بها ويضلل الآخرين عن حقيقته، إنه يتمتع بوجاهة وعز وحظوة وإمكانات لا يتمتع بها المقهورون الأقل حظاً. كل قيم الاستهلاك والاستعراض تدخل في هذا النطاق. كل حالات الإعجاب بما هو أجنبي وخارجي تدخل في الإطار نفسه. وهكذا يقع الإنسان المتخلف ضحية عقدة الاستعراض. وهو إن لم يحصل على كل الوجاهة، نراه يجهد للوصول إلى بعض رموزها على الأقل، مما يشكل جزر وجاهة في حياة من البؤس. وهو بالطبع لا يؤخذ بقيم الخلق والابتكار والجهد طويل النفس فيما يحاكيه، بل في النتائج والآثار والمظاهر. وهو في عجلة من أمره، يود أن يصل من خلال القفز إلى الجانب الآخر من الحاجز كي يصنَّف مع الوجهاء.

ذلك، ما أطلق عليه علماء الاجتماع الذين درسوا البلدان المتخلفة اسم أثر الاستعراض. فهذا العالم أو الفئة المحظية فيه، تبدد الثروة القومية في شراء سلع الوجاهة وتكديسها: السيارات الفخمة، الفاخر من الرياش والأثاث واللباس، تكديس المتاع الذي لا يتلاءم مع نمط الحياة الأصلي، والذي قد لا يتلاءم حتى مع الظروف المناخية، تبديد الأموال بشكل استعراضي في الولائم والحفلات والسهرات. إن العالم المتخلف مصاب بعقدة الوجاهة

والمظهر. يتحول كلّ كائن فيه إلى مخلوق يخفي ذاته من أجل التستر على خوائها الداخلي بكل ما يمكن أن يبهر الآخرين ويثير غيرتهم. وتلعب المرأة في ذلك العالم، وفي الفئة الميسورة منه على الأقل، دور عارضة الوجاهة (على غرار عارضة الأزياء)، من خلال إقبالها على ابتياع كل رموزها ووسائلها تتحول إلى مجرد أداة توكيد المظاهر الخادعة التي تخفي هزالاً وجودياً مخيفاً. هذا الهزال يقضّ مضجع الإنسان المتخلف ويدفع به دفعاً إلى مزيد من الإقبال على المظاهر التي تتستر عليه وتخفيه. وهكذا يتحول الإنسان المقهور الذي تماهى بأسلوب حياة المتسلط إلى هارب دائم من ذاته، يحل مشكلته من خلال التنكر لها، بدل أن يتصدى للعلة ويقلب المعادلة ويغيّر معايير الحياة. وعندما تصبح وجاهة المظهر هي المقياس، تنتفي الكوابح الخلقية وتصبح كل وسيلة تعجل بالوصول مشروعة ومبررة. ومن هنا يقع الإنسان المتخلف في الزيف الخلقي، وينخرط في عملية الاحتيال والكذب والتضليل، وكلها على النقيض الكامل للتحرير من خلال التغيير الوجودي والإثراء الحياتي الداخلي، وإعادة الاعتبار إلى الإنسان الفعلي. تلكم هي حقيقة مظاهر التطور السطحي التي تلاحظ في عواصم البلدان المتخلفة، تلك العواصم التي تنمو بسرعة كبرى من الناحية الاستهلاكية الاستعراضية، على حساب الناحية الإنتاجية التطويرية. عواصم العالم المتخلف ليست بدورها سوى جزر وجاهة في محيط من البؤس.

يقود التماهي بأسلوب المتسلط الحياتي، وكذلك السعي اللاهث وراء رموز الوجاهة المرتبطة بهذا الأسلوب، إلى ترسيخ تمثّل واعتناق قيم المتسلط الحياتية ونظرته إلى الوجود ومثله العليا. وهنا يكون الاستلاب قد بلغ ذروته، فالإنسان المتخلف لا يعود يرى تصوراً آخر للوجود وغايته، والحياة وأهدافها، مما يعزز إلى حد بعيد سطوة المتسلط وهمينته على شؤون المجتمع. فهو القدوة والمثال، وهو المالك لإمكانات الوصول، وهو من يتيح الفرص للآخرين، مما يربطهم فيه بشكل لا انفكاك لهم منه.

وهكذا نجد الإنسان المتخلف المقهور يؤمن أشد الإيمان بما يتناقض مع مصلحته وحاجته إلى الانطلاق، يؤمن بالتربية والحظوظ الدنيوية وتفاوتها. فالناس درجات ومقامات وليس لمغبون أن يعترض على ما يلحق به من حيف، أو يتطاول كي يأمل في مساواة مع الفئة المحظوظة. عليه أن يتقبل وضعية الاستغلال الذي يلحق به، وأن يعترف بسيادة المتسلط. ليس له أن يطالب بمساواة، بل كل ما يمكن أن يطمح إليه هو الأمل في فضل يتفضل به عليه ذوو الحظوظ. كل ذلك يعطي المتسلط مشروعية تصل حد التقديس، يحرص عليها هذا الأخير ويعززها بجميع الوسائل.

كما أن الإنسان المقهور لا يرى أمامه من قيم توجه جهده وحياته والغاية منهما، ولا يتصوّر نموذجاً لتحقيق ذاته، إلاّ بالتحول من خلال الحظ من وضعية المستغل إلى وضعية

المحظوظ. فالفلاح ليس أمامه من نموذج ولا يدغدغ أحلامه من أمل، سوى أن يصبح يوماً مالكاً صغيراً أو كبيراً، إقطاعياً محدود النفوذ أو عريضه. الخلاص بالنسبة إليه هو في التحول من وضعية الراضخ إلى وضعية المتسلط. أما الخلاص الجماعي من خلال تغيير البنية وقلب موازين العلاقات ضمنها فهو لا يقتنع به مطلقاً في قرارة نفسه، وإن صرح به، وادعاه بلسانه.

أما في المدينة فإن تطلعات الفئات الشعبية هي في أن يتعلم أبناؤها ويحصلوا على وظائف على غرار الطبقة ذات الحظوة، هي في أن يتخلص ابن الكادح من شقاء الكدح وظروف العمل السيئة، هي في الوصول إلى النجاح الفردي، أي الخلاص الفردي. يدفع الواحد من هؤلاء بأبنائه أو بعضهم إلى العلم كي يصبحوا موظفين أو من ذوي المهن الحرة ذات الوجاهة العالية: ولكن الشروط المعيشية والشروط المدرسية لا تتيح لأبناء الفئات الشعبية الوصول إلى غايتهم. إنهم يوضعون في ظروف يغبنون فيها قطعاً من حيث عدم تلاؤم المناهج المدرسية مع نمط وجودهم، وكذلك من خلال مجازر التصفية المتلاحقة التي يتعرضون لها. وهكذا تقطع السبل بينهم وبين الوصول إلى غايتهم (النجاح الفردي ووجاهة العلم والوظيفة) في منتصف الطريق. ويتحولون إلى كائنات هامشية لم تعد تستطيع التكيف مع الحياة الكادحة، ولا هي وصلت إلى الوظيفة المبتغاة. وتكون النتيجة مزيداً من الرضوخ لشروط المتسلط الذي يرمي إليهم بالفتات، ويرتهنهم من خلال التهديد الدائم بالاستغناء عنهم، مما يحوّلهم إلى أدوات مطيعة تنفذ أغراضه وغاياته وتعزز مواقعه. ذلك هو حال صغار الموظفين ومعلمي المدارس الابتدائية الرسمية في العالم المتخلف. أما القلة القليلة التي تفلت من التصفية فإنها لا بدّ ستقع في القيود المتنوعة التي يفرضها المتسلط على ممارسة المهنة الحرة. وهي إن قبلت هذه القيود أو تمكنت من تجاوزها، تتمسك بوضعها الجديد الذي يحمل دلالة الخلاص من البؤس، وتحرص عليه أيما حرص بعد كل ما عانت من مشقة كي تصل إليه. وهي تزهو فرحة بما حققت من نجاح فردي وما حظيت به من وجاهة تسدل ستار النسيان على انتماءات الماضي. ولذلك فليس من غير الشائع أن تجد معظمها يشتط ويتهافت على الثروة ولا يتورع عن الاستغلال تماماً كالمتسلط، ثم يزهو مختالاً بما حقق من وجاهة مادية، وما امتلك من متاع، يتخذها دليلاً على إفلاته من وضعية انعدام الاعتبار.

أقصى حالات التماهي بالمتسلط تأخذ شكل الاستلاب العقائدي. ونقصد بذلك تمثّل واعتناق قيم النظام والانضباط والامتثال، والقانون، وطاعة الرؤساء والكبار. وهي قيم تخدم بما لا شك فيه مصلحة ذلك المتسلط لأنها تعزز مواقفه وتصون مكتسباته. ولذلك فهو لا يدّخر وسعاً في تدعيم هذه القيم وغرسها بالترغيب والترهيب على حد سواء. إنه يوحّد بينها وبين الأخلاق ويماهيها بحسن السيرة والسلوك. وتلعب المدرسة هنا دوراً حاسماً في

غرس تلك القيم. ويلعب المعلم المقهور دور قناة البث التي توصلها إلى نفوس الطلاب وترسخها في ضمائرهم. فنموذج التلميذ المثالي هو ذاك الراضخ الممتثل المجتهد المستمع المطيع المتلقي. هو باختصار الإنسان المنقاد طفلاً كي يعدّ ليكون أداة في المستقبل، لقاء شيء من النجاح الفردي، وبعض مظاهر الوجاهة المادية.

أما قيم الشجاعة والجرأة الأدبية والمجابهة والثقة بالنفس والتعاون الجماعي، والخلاص الجماعي، وأما قيم التمرد والتصدي والثورة، فهي آفات يجب أن تحارب. ومن خلال عملية تشريط مستمرة، يتماهى الإنسان المقهور بالقيم الأولى، ويتجنب الثانية، مع أن مصلحته هي، على العكس تماماً. تكمن في الخلاص الجماعي من خلال المجابهة. إن التماهي بقيم الامتثال يشكّل عقبة كأداء في وجه التغيير الاجتماعي الحقيقي، وبالتالي في وجه الخلاص من التخلف.

التماهي بالمتسلط بمختلف أشكاله التي استعرضناها وعلى مختلف درجات شدته ورسوخه، يحمل بعض الحل لمأزق الإنسان المقهور، ويزين له الخلاص من خلال بعض الاعتبار المبني على مظاهر خارجية، وبالتالي فهو وهم خلاص يتمسك به ويحرص عليه بقدر خوفه من ضياعه وفقدانه.

يخلق التماهي بالمعتدي ايديولوجية مضادة للتغيير الاجتماعي الجذري. تلكم هي إحدى أبرز مشكلات البلدان النامية وأكثرها خطورة. فالعديد منها تمكن من اجتياز مرحلة التحرر الوطني، ولكن معظمها يتخبط أمام مهمات التغيير الاجتماعي الفعلي ويعاني من الفشل الذريع فيه، مما يجعلنا نتابع الآن مشهداً بائساً على امتداد العالم الثالث. فقد اتضح أن القدرة على التحرر الوطني، لا تتضمن بالضرورة ولا تقود حتماً إلى عملية التغيير الاجتماعي المبتغاة. وليس هناك من مجال للدهشة بهذا الخصوص، فالسبب، أو أحد الأسباب الأساسية في نظرنا، إذا ما وضعنا مصالح الفئة الحاكمة الجديدة جانباً، يكمن في تغلغل التماهي بالمتسلط بمختلف صوره ودرجاته، في نفوس معظم القادة، وغالبية المسؤولين، والقطاع الأوسع من الجمهور.

الفصل السابع

السيطرة الخرافية على المصير

لا يستطيع الإنسان أن يتحمل وضعية القهر والعجز ببساطة، أو أن يتقبلها بواقعيتها المادية الخام. لا بد له في كل الحالات من الوصول إلى حلّ ما يستوعب مأساته، ويقيّض له شيئاً من السيطرة عليها، وإلاّ أصبحت الحياة مستحيلة. فإذا لم تتيسر له الحلول الناجعة التي تمكنه من التحكم الفعلي بالواقع على مستوى ما، لجأ إلى الحلول الخرافية والسحرية، إذا عزّت السيطرة المادية على المصير، حاول المرء توسل الأوهام يعلل بها النفس ويجمّل بها الواقع، ويستعين بتصوراتها على تحمل أعبائه. بذلك يصل إلى شيء من التوازن الوجودي الضروري لاستمراره. لا يتقبل الإنسان الكارثة أو الهزيمة، أو الخطوب أو الفشل كأمر واقع، ولا يستطيع الاعتراف بمسؤوليته المباشرة في ما حلّ به. إنه إما أن يهرب من الواقع أو يلقي اللوم على الآخرين، أو يستجيب بالعدوان، أو يوهم نفسه بأن الأمر عابر.

السيطرة الخرافية على الواقع، والتحكم السحري بالمصير، هما آخر ما يتوسلهما عندما يعجز عن التصدي والمجابهة، قبل أن ينهار ويستكين. وتشكّل هذه السيطرة بالتالي أحد خطوط الدفاع الأخيرة له. ويتناسب انتشار الخرافة والتفكير السحري في وسط ما مع شدة القهر والحرمان، وتضخم الإحساس بالعجز، وقلّة الحيلة، وانعدام الوسيلة. كلما طال عهده بالاعتباط، ينصب عليه من الطبيعة والناس، وضاقت أمامه فرص الخلاص، اندفع إلى التماس النتائج من غير أسبابها، واستبدال السببية المادية بالسببية الغيبية. ذلك هو كنه السيطرة الخرافية على المصير. تزدهر هذه السيطرة الخرافية بمختلف أشكالها، التي سنعرض لها في هذا الفصل، في عصور الانحطاط وما يصاحبها من تفشي الجهل والعوز وطمس إرادة القتال من أجل الحياة، وصد الفكر النقدي والتحليل العلمي للظواهر، واستفحال التسلط. وهكذا تنتشر ممارسات سحرية خرافية، وشعوذات تتلاعب بأمل الإنسان في

الخلاص أو تحرك خوفه من الحاضر وقلقه على المستقبل. بقدر ما تدخل الاطمئنان الوهمي إلى نفس الإنسان المقهور، فإنها تستخدم كأداة للارتزاق من قبل المشعوذين الذين يدّعون العلم بها، والقدرة على تغيير أحوال الإنسان، ومساعدته على التحكم بمصيره، من خلالها.

تتحول هذه الممارسات إلى تجارة رائجة تنتشر في أوساط البسطاء من الناس، تسلبهم القليل الذي يمكن أن يملكوه، على أمل الخلاص مما يحلّ بهم من أرزاء الحياة. ويحيط المشعوذون أنفسهم عادة ببعض المظاهر الغريبة في الملبس والمسلك والحديث، ويضعون ضحيتهم أثناء ممارسة هذه الوسائل في جو غريب فيه الإعجاب الكثير والرهبة الكبيرة، يحرك الأمل ويثير الخوف. يتوسلون مواد وأدوات وطقوساً وأدعية وظيفتها الأساسية أن تبهر صاحب الحاجة، وتشل مقاومته، وتعطل تفكيره، وتدفع به إلى الإستسلام لممارساتهم وطلباتهم الكثيرة والمعجزة. إنها تخلق لديه حالة من التبعية النكوصية عليهم وعلى قدراتهم، التي تضخم من خلال ما أحيطت به من غريب اللفظ والطقس.

يتحالف المشعوذون مع التجار وأصحاب السلطان على الإنسان المقهور، لتحقيق مآربهم المشتركة لقاء ما يعللون به نفسه من أوهام الخلاص ودرء الشر أو الخطر وتغير المصير. ويشجع الحُكام في المجتمعات المتخلفة هذه الممارسات بوسائل مختلفة، أبرزها رعاية المقامات وذوي الكرامات، ورعاية الطرق التي تتلبس لباساً دينياً حتى يعم الجهل، وتتأصل الاستكانة، وتشيع الخرافة بشكل يطمس الواقع كلياً ويصرف الناس عن التصدي الفعّال والموضوعي له. وهو ما يحفظ لهؤلاء الحُكام مكانتهم ويحوّل الأنظار عنهم كمسؤولين أساسيين عما يصيب المجتمع من تخلف وانحطاط، أو ما يلمّ به من كوارث وأزمات.

من خلال هذا التحالف وذاك التشجيع، تتأصل السيطرة الخرافية على المصير في نفسية الإنسان المتخلف، كي تبلغ مرتبة الإيمان الذي لا يتزعزع، والعقيدة التي لا تمس. ويساعد على هذا الأمر ما تحاط به هذه الممارسات على اختلافها من طابع ديني يجعلها تدخل في فئة المقدس الذي يجب الإيمان به دون مناقشة، والذي يتحوّل التساؤل حوله إلى تشكيك بالإيمان ومساس بالمقدسات. هناك دائماً، كما سنرى طوال هذا الفصل، محاولة لإلباس الممارسات السحرية والمعتقدات الخرافية لباساً دينياً يجعلها تصل مباشرة إلى قلب الإنسان المقهور ويربطها بإيمانه الديني، مما يزيد من سطوتها عليه، ويدفعه إلى التمسك بها. وتصل الخرافة إلى مرتبة تعطيل الفكر النقدي والتحليل الموضوعي للواقع واصطناع السببية المادية في التصدي له، مشكِّلة عقبة فعلية أمام التغيير وعاملاً قوياً في استفحال التخلف.

تقوم أساليب السيطرة الخرافية على المصير على أسس نفسية نكوصية. يتقهقر الإنسان المتخلف الذي يؤمن بها من العقلانية التي يجب أن تميّز حياة الراشدين، إلى مرحلة التفكير

الطفلي الذي يخلط الواقع بالخيال، والحقائق بالرغبات، والصعاب المادية بالمخاوف الذاتية. تطغى عليه الذاتية الطفلية ويقع في شرك التفكير الجبروتي. إنه يسقط على ممارسي الشعوذة، وعلى وسائل التصدي السحري للواقع، القدرة المطلقة التي كان يعتقد أنها تميّز والديه اللذين يبدوان له، قادرين على كل شيء، مالكين لزمام كل أمر. ويقيم مع عوامل السيطرة الخرافية ورموزها نفس علاقة الاتكال الطفلي التي كانت له مع والديه، والتي تستبدل فيما بعد بعلاقة الاتكال الديني. في كل هذه الحالات، هناك احتماء برموز القوة التي تسيطر على القدر من الأخطار العديدة التي تتهدد الوجود (وجود الطفل، كوجود الإنسان المتخلف). يشكّل هذا الاحتماء الضمانة الوحيدة له نظراً لعجزه وقلّة حيلته، مما يعطل الاعتماد على القوى الذاتية، وينفي المسؤولية الشخصية في تحمل أعباء المصير. وبمقدار هذا الانتفاء وذاك التعطيل، لا بد لاتكاليته من التفاقم، مما يدفع به إلى مزيد من توسل الممارسات الخرافية.

الجبروت المسقط على رموز القوة، يقابله جبروت آخر، هو الذي يميّز الرغبات والأفكار والهوامات عند الطفل. فهو يعيش رغباته كواقع، ويعتقد أن لها ولأفكاره قوة الفعل المنجز. ذلك هو السند النفسي الطفلي لسيطرة الخرافة على الإنسان المتخلف، الذي يجعله يعتقد بقوة وفعالية أدعيته لاسترضاء الأولياء، ولعناته يصبها على الأعداء، وتضحياته لإشباع طلبات الوسطاء. وهو نفسه السند الذي يجعل للسحر عليه تأثيراً، وللتطير إليه سبيلاً، ولقراءة الطالع (على اختلاف أساليبه)، طريقة لاستشفاف المستقبل والاحتياط له. والجبروت الطفلي سواء منه الذي يسقط على الخارج، أو يميّز الأفكار والرغبات الذاتية، لا يعرف حدود المنطق والزمان والمكان. وهذا ما يعطي الممارسات الخرافية طابع القوة المطلقة، ويعزز من سطوتها طالما تستمد طاقتها النفسية من تلك المنابع الطفلية.

تأخذ السيطرة الخرافية على المصير، على اختلاف أساليبها، طابعاً ثنائياً في محتواها. فهي تتلخص على الدوام بأزواج من الأضداد: استجلاب الحظ، وتجنب النحس، الحصول على الخير وإبعاد الشر، الأمل المتفائل بالمستقبل والخوف المتشائم منه، إثارة الحب لدى الآخر والحرب ضد عدوانيته، وهكذا. كل ممارسة خرافية تهدف إلى تحقيق الأمرين معاً بشكل ما. وهي في جميع الحالات تدور حول القضايا الوجدانية الأساسية التي تميّز وجود الإنسان المتخلف. هناك رابطة وظيفية دينامية تجمع مختلف هذه الممارسات في بنية متماسكة مكونة من أقطاب تتمم بعضها بعضاً. ونستطيع أن نميّز من بينها ثلاث فئات رئيسية: فئة أولى تهدف إلى السيطرة على الحاضر، وفئة ثانية تهدف إلى السيطرة على المستقبل، وثالثة مشتركة بينهما. وكل فئة تضم ممارسات متعددة تأتلف في ثنائيات متضادة ومتكاملة جدلياً، ولها رموزها وطقوسها.

أولاً: السيطرة على الحاضر

يتوسل الإنسان المقهور أساليب عدة للسيطرة الخرافية على حاضره، وإدخال شيء من الطمأنينة إلى نفسه، والتوازن إلى حياته. إنه يتعلق ببعض رموز الخير، ويتقرب منها بطرق محددة، ويخشى بعض رموز الشر والتهديد الوجودي، ويلتمس سبيله إلى تجنب أذاها بممارسات محددة أيضاً. أما رموز الخير فهي الأولياء وكراماتهم وأضرحتهم، وأما رموز الشر فهي الجن والعفاريت والشيطان. وأما التقرب من الأولى فيتم من خلال الأدعية والنذور والقرابين. وأما تجنب الثانية فيتحقق من خلال السحر والكتابة والتعاويذ والرقى.

نحن هنا أمام ظاهرة انشطار نفسي للوجود إلى نقيضين مطلقين هما الخير والشر. فيركّز الخير كله والرجاء كله والبحث عن الملاذ في الأولياء. يسقط عليهم الصور المثالية الطيبة التي تكمن في لاوعيه. فالولي، بمقامه وكراماته، ليس سوى إسقاط للصور المثالية للأم الحنون المعطاء، والأب الحامي الرحيم، الصور التي تغرس جذورها في أعماق لاوعي طفولتنا، وتشكّل نموذج كل خير ومحبة وأمل ورجاء وملجأ وملاذ، فيما بعد، كي تمكننا من مجابهة صروف الدهر وخطوب الحياة. كما أنه يركّز الشر كله والسوء كله والتهديد الأساسي لوجوده، في الجن والعفاريت والشيطان. يسقط عليهم بدورهم كل العدوانية المتراكمة في نفسه، نتيجة الإحباط والعجز، التي تتخذ طابعاً اضطهادياً (مهدداً لكيانه ونموذجاً لمصدر الشر على حياته). كل أحاسيس السوء والأذى تسقط على هذه الكائنات الخفية التي تتربص به شراً ولا تنفك تنال منه إن غفل عنها. هذه الكائنات تمثّل الصور السيئة التي تكونت لدينا عن الوالدين في الطفولة أيضاً، والتي تستقطب كل إحباطات الطفولة ومخاوفها ومشاعر الحقد والأسى والاضطهاد واليأس وخوف الفناء، وهي تمثّل فيما بعد النموذج الأولي للسوء والأذى والتهديد. ومن خصائص هذه الصور أن تقمع حتى تكتب في اللاوعي، كي تمارس هناك تأثيرها المدمر على التوازن النفسي. وهي لذلك لا بد حين تتفاقم شدتها من أن تصرف نحو الخارج شأنها شأن النزوة العدوانيّة التي تستمد طاقتها منها. بهذا التصريف الذي يتوسل معظم الأحيان الإسقاط على الطبيعة القاسية وظواهرها، أو الدهر ونوائبه، أو الناس وكيدهم، يتخفف الإنسان من تأثيرها الداخلي المدمر، ويحتفظ لنفسه ببعض التوازن.

وهكذا يضع الإنسان المقهور أمله في الصور الخيرة ورموزها الخرافية. كما يسقط مخاوفه وعجزه ومشاعر ذنبه الناتجة عن فشله الوجودي على أعداء خرافيين بدورهم. ومن خلال تجنب هؤلاء، والتقرب من أولئك تتم له السيطرة الخرافية على حاضره، ويشعر بشيء من التحكم بالقوى التي تحرك مصيره.

يضاف إلى رموز الشر الماورائية (جن وعفاريت) تفشي ظاهرة الحسد والعلاقات

الاضطهادية بين الإنسان المقهور والآخرين. هناك خوف دائم من الأذى، يلحق به إذا أصابه غنم، أو رزق قسطاً من نعمة أو خير. إنه يخفيه ويتستر عليه خشية عيون الحاسدين التي تهدد ما كسب ويتوسل لدرء هذا الحسد وسائل متنوعة تبطل مفعول النظرة الحسود (الحقود في الحقيقة). هنا أيضاً يسقط ما يلمّ به من شرور تذهب بنعمته، على النوايا العدوانية للعين الحاسدة، وسائل دفاعية تتخذ طابعاً خرافياً اضطهادياً معظم الأحيان.

نقف الآن قليلاً عند كل هذه الظواهر والرموز كي نتناولها بالعرض والتحليل.

1 ـ الأولياء ومقاماتهم وكراماتهم

تنتشر ظاهرة التعلق بالأولياء واللجوء إليهم لاستجلاب الخير ودرء الشر، بكثرة في القطاعات المقهورة من السكان. وتتفشى خصوصاً، حيث يعم الجهل والعجز وقلّة الحيلة، وحيث يتعرض الإنسان لأقصى درجات الاعتباط من الطبيعة، يأتيه كتهديد لقوته وصحته وولده، ومن الإنسان يصيبه كقمع وتسلط واستغلال. الإنسان المقهور بحاجة إلى ولي لشدة شعوره بعجزه وقصور إمكاناته على التصدي والمجابهة والتأثير. ويحتاج إلى حمايته نظراً لشدة إحساسه بالعزلة والوحدة في مجابهة مصيره المحفوف بالمخاطر حين تلمّ به النوائب أو يصاب في نفسه أو ذويه أو أمنه أو قوته. فالولي ملاذ ومحام يتقرب إليه ويتخذه حليفاً ونصيراً، كي يتوسط له لدى العناية الإلهية. الولي هو ولي اللّه، ومن خلال التقرب منه تتحقق الحاجات وتعم الرحمة الإلهية. وتسقط على الولي قدرات خارقة لها علامات، هي الكرامات التي تميّزه عن سائر البشر.

تعترف الجماهير إجمالاً بحدوث ظواهر خارقة على أيدي هؤلاء الأولياء تدلّ على ما يتمتعون به من امتياز عن سائر الناس، ومن قوة فائقة نظراً لقربهم من الإله. فالأنبياء تقع على أيديهم المعجزات، أما الأولياء فتظهر على أيديهم كرامات وخوارق هي في المرتبة الثانية بعد المعجزات. والكرامات قد تكون إجابة دعوة (تحقيق أمنية أو رجاء) أو إظهاراً للطعام في أوان فاقة، وتفجر ماء في زمن عطش، أو تخليصاً من عدو. وكلها بالطبع تدل على قوة، هي على النقيض تماماً من عجز الإنسان المقهور وقصوره، وكلها تدل على ارتفاع مكانة وحظوة، هي أيضاً على النقيض تماماً من ضعة الإنسان المقهور ومهانته.

ينقل الدكتوران بدران والخماش[1] عن التاج السبكي في طبقاته الكبرى أن أهم الكرامات أربع وعشرون:

«إحياء الموتى، كلام الموتى، انغلاق البحر والمشي على الماء، إنزواء الأرض، كلام

(1) د. إبراهيم بدران ود. سلوى الخماش، دراسات في العقلية العربية، بيروت، دار الحقيقة، 1974، صفحة 135.

الجمادات والحيوانات، إبراء العلل، طاعة الحيوانات، طي الزمان ونشر الزمان، استجابة الدعاء، إمساك اللسان، جذب بعض القلوب، الإخبار ببعض المغيبات والكشف، الصبر على عدم الطعام والشراب، القدرة على تناول الكثير من الغذاء، الحفظ عن أكل الحرام، رؤية المكان البعيد من وراء الحجب، (بحيث يموت المشاهد من الرؤية)، كفاية اللّه لهم الشر، التصور بأطوار مختلفة، إطلاع اللّه إياهم على ذخائر الأرض، عدم تأثير المسمومات».

من الواضح أن هذه الكرامات تشكّل النقيض تماماً لوضعية الإنسان المهان واقعياً. وهي تجسد أماني الجماهير المغلوبة على أمرها في أمل الخلاص من خلال وجود نموذج الجبروت الطفلي هذا، ومن خلال إمكانية التقرب من الولي صاحب الكرامات الخوارق، الذي يفلت من قيود الواقع والزمان والمكان، بواسطة الأدعية، والنذور والقرابين. تلك أوالية ضرورية للتوازن النفسي لهذه الجماهير العطشى إلى إرضاء حاجاتها لمصير مغاير لمصيرها، العطشى لمظاهر الجبروت (القدرة على تحقيق الأماني). فقط من خلال أمل كهذا تظل حياة القهر ذات الآفاق المسدودة والتهديد الدائم ممكنة.

تحدث الكرامات إجمالاً لأناس اصطفتهم العناية الإلهية دون أن يكون لهم في ذلك فضل أو إرادة (دون جهد أو تدريب وإعداد وإرادة كفاح). فقد يكون صاحب الكرامة ذكياً أو غبياً عالماً أو جاهلاً. وتلمح في ذلك الاعتباط الذي يميّز وجود الإنسان المقهور، الخاضع لقدرية ليس له فيها أية مسؤولية. ذلك ما يدفع به إلى القبول بقدره من ناحية، ويجنبه مشاعر الذنب النابعة من فشله من ناحية ثانية، ويدغدغ في نفسه أمله الطفلي بتغيّر ماورائي يصيب مصيره، فيحوله من حال إلى حال من ناحية ثالثة. إذ قد يجد نفسه يوماً صاحب كرامة دون أن يدري أو يقصد، ويكون له الخلاص والرفعة بعد بؤس وضعه. حينما يستفحل عجز الإنسان وقصوره، وحده الخلاص الخرافي يظل ممكناً كأمل يبقي له على رمق من الحياة.

تنتشر أضرحة الأولياء ومقاماتهم في كل أرجاء المجتمع المتخلف، ولا تكاد تخلو منه قرية، أو حي في المدن الكبرى. وتشكّل هذه الأضرحة نواة التجمعات السكانية، تقوم حولها أماكن العبادة ثم تحيط بها المساكن والمنازل والفنادق، وتنتشر الأسواق التجارية. فهي إذاً محج وملجأ وأماكن للتبرك واستجلاب الخير، كما أنها أماكن للحماية من غوائل الطبيعة والناس. من جاور ضريح الولي فهو في مأمن، ولا بدّ أن يناله قسط من بركته. تتجمع الجماهير المقهورة سكانياً حول أضرحة الأولياء ومقاماتهم، كما يتجمع أعضاء حزب معين حول شخص الزعيم طلباً للهداية والحماية، وتقرباً من مصدر الخير.

وهناك، كما يقول الدكتوران بدران والخماش[1]، أسطورة تخصص الأولياء في قضاء

---

(1) المصدر نفسه.

الحاجات. فهناك من يشفي من الصداع، وآخر من العقم، وثالث من الحسد، ورابع برد الكيد، وخامس يمد بأسباب القوة على الحبيب الهاجر، وسادس ينصر على الغريم، وغيره يرد الغائب وهكذا. . . ويبرز في التجمعات السكانية المتخلفة عدد من مقامات هؤلاء الأولياء يغطي كل الحاجات التي تعجز الجماهير عن تحقيقها بجهدها، والتي قصر الحاكم في القيام بواجب تلبيتها.

ويقوم على هذه المقامات خدام، وعلماء (يدعون أنفسهم علماء) يسهرون عليها، ويلعبون دور الوساطة بين صاحب الحاجة وبين الولي، ويقودون خطاه في التقرّب منه والدخول عليه، من خلال مجموعة من الطقوس والأدعية والابتهالات. وهم ينسجون الأساطير حول الخوارق والكرامات التي يأتيها هذا الولي، ويروّجون لزيارته وتقديم النذور إلى مقامه، مستفيدين من ذلك أكبر فائدة مادية ممكنة، ومستغلين صاحب الحاجة المتشبث بآمال الخلاص بعد أن حلّت به كارثة لا يستطيع لها دفعاً ولم يجد له فيها عوناً، أبشع استغلال. وأبرز تدليل على ذلك، وجود مقامات أولياء يدّعي خدامها تخصصها بحل مشكلات النساء على اختلافها (زواج، إنجاب، مساعدة على ضرة، ردّ الحبيب أو الزوج إلى المنزل، إبعاد خطر الطلاق، إلخ. . .). بالطبع تشكّل المرأة ضحية مختارة لاستغلال هؤلاء الخدام نظراً لتفاقم حاجاتها، وقصر حيلتها، ووطأة القيود التي ترزح تحتها في المجتمع المتخلف، نظراً لجهلها وسيطرة الخرافة على عقلها بعد أن وقعت ضحية نظام اجتماعي فرض عليها أقصى درجات الغبن. وهكذا الحال عموماً، فيأس الإنسان المقهور من إنصاف الحاكم وعون القوي هو الذي يلجئه إلى مقامات الأولياء، يتلمس بركتها وعونها. «والبركة تعني بالضرورة الشعور بالعجز، والشعور بأهمية البركة يعني التقليل من دور الإنسان في الخلق والإبداع والتغلب والتفوق» (المصدر نفسه، صحفة 160).

بالإضافة إلى النذور والقرابين، تحتل الأدعية والابتهالات مكانة خاصة في التقرّب من الأولياء، والتماس قضاء الحاجات على أيديهم وببركتهم. وتتنوع الأدعية لتشمل مختلف الأغراض وتصلح لقضاء الحاجات المتنوعة للفئات المغبونة. «فهناك أدعيات للشفاء من المرض، وأخرى لتفريج الغم، وثالثة لإزالة الكرب، ورابعة لتوسيع الرزق، وخامسة لتوكيد المحبة، وسادسة للخلافات الزوجية، وهكذا. .» (المصدر نفسه، صحفة 201). بالطبع يعمل شيوخ الطرق وخدام المقامات على تعقيد الأدعية وإدخال التكلف والتحذلق اللغوي عليها، وإسباغ طابع الغرابة التي توهم الإنسان المغبون الجاهل بعلم وفير يقوم وراءها، وسر دفين يكمن فيها، ويجعلها مفتاحاً للوصول إلى بركة الولي. من خلال ترك هذا الأثر الباهر في نفوس الجماهير وإشعارها بالعجز أمام قوة علم شيوخ الطرق، يرسّخ هؤلاء مكانتهم كوسطاء لدى الأولياء واسترضائهم، ويدفعون الجماهير إلى الاستسلام لهم والرضوخ لاستغلالهم.

والأدعية في أساسها، تقوم على أمل سحري في الخلاص، من خلال الاعتقاد بجبروت الأفكار والكلمات وما تتضمنه من رغبات. وبمقدار انتشارها ينتشر العجز عن التصدي للواقع بالموضوعية والعقلانية المطلوبين. ويمكن اعتبارها كمرآة تعكس أعماق المجتمع من حيث شعور أفراده المقهورين بالضياع، والوحدة، وبحثهم عن معجزة للخلاص. ولذلك فإنها تحتل مكانة هامة جداً في سلوك المرأة في العالم المتخلف، في تعاملها مع مأساتها، لأنها الأكثر غبناً وعجزاً وقهراً في المجتمع. ولأنه من ناحية ثانية لم يترك لها من مجال للتأثير في الواقع، سوى مجال التعلق الخرافي بجبروت الأفكار، من خلال أدعية الرجاء والتمني، وأدعية اللعنة والسخط سواء بسواء.

إن الأدعية تشيع نفسياً نوعاً من الاطمئنان إلى القدر والمصير وتبث هدوءاً في وجود الإنسان المتأزم، من خلال القناعة بأن هناك جهة ما ستتولى حلّ الأزمة وتخليصه منها. ثم هي تمتص، إذا كانت مطولة، جزءاً من القلق والتوتر النفسي. وقد تتحول إلى طقس هجاسي[1] مكتسبة كل خصائصه ووظائفه (التكرار والإعادة، واتباع نمط محدد وتسلسل دقيق، واحتواؤها على موضوعات ضد خوافية[2]، وأخرى تجنبية).

من خلال هذه الصورة الخيرة للأولياء وكراماتهم وبركتهم والأدعية وغيرها من وسائل التقرب منهم، يملأ الإنسان المقهور خواء عالمه العاجز المحدد، بأمل القدرة على التصدي لواقعه والتحكم بمصيره، بمقدار ما يتخذ من هذه الرموز حلفاء له. جبروت الرجاء يحل محل قوة الفعل التغييري، روحية الاستجداء والاحتماء، تحل محل المطالبة بالحق والتصدي لانتزاعه.

2 ـ الجن والعفاريت والشيطان

كلها كائنات خفية، لعبت دوراً بارزاً في السيطرة على خيال الجماهير المقهورة، وتعليلها للأحداث التي تفلت من سيطرتها والتي يستعصي عليها تفسيرها. كما أنها قد استخدمت، وما زالت، بكثرة لتبرير ما يود الإنسان التستر عليه من فضيحة، أو عيب، أو تقصير بزعم الوقوع تحت تأثير الجن، مما يساعده على الحفاظ على سمعته.

هذه الكائنات الخفية تُسقط عليها صور إنسانية، وتقوم مجموعة من الخرافات حول علاقاتها ببني الإنسان. فهي تسكن الأرض السفلى نهاراً لتخرج منها ليلاً، فتعيث فساداً وغواية. وقد تصاحب بعض الناس أو تقوم بينه وبينها علاقات عاطفية، وعلاقات حب

(1) طقس هجاسي Rite obsessionel.

(2) ضد خوافي Contrephobique.

تصل أحياناً حد الزواج أو الإرغام عليه: زواج أنسي من جنية أغرمت به، وأرغمته على اللحاق بها إلى الأرض السفلى، أو هي تأتي لتزوره ليلاً منافسة بذلك زوجته، وموقعة بينه وبينها الخلاف الذي يصل حدّ الطلاق. وكذلك زواج أنسية من أحد رجال الجان. ويتم الأمر في الحالتين على شكل غواية وإرغام. ويثير دوماً مصاعب ومصائب حياتية لمن ابتلى به من بني الإنسان، ولذلك فهي تثير الخوف دوماً، كما تثير الشك والحذر.

كما قد تقوم بينها وبين بعض بني الإنسان علاقات تحالف ضد أعداء معينين. وهي إلى ذلك تقيم في مناطق لا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها، لأنها تظهر على صاحب المحاولة ليلاً فتثير الذعر في نفسه أو تؤذيه إذا حاول الاعتداء على مقرها. ويشيع الكثير من حالات الهلوسة الهذيانية (البصرية السمعية) حول رؤية الجان واللقاء بهم وسماعهم في أفراحهم وأحزانهم. وما كل ذلك سوى إسقاط لمكنونات النفس اللاواعية وتجسيد لها على شكل كائنات خفية. إنها إسقاط لرغباته الدفينة، والتي تعرضت لقمع اجتماعي شديد (رغبة في الطلاق مثلاً والزواج من قرين يتمشى مع الشخص المرغوب فيه جنسياً، تسقط على الجنية مصدر الغواية التي لا تقاوم). أو هي إسقاط لمخاوف تعتمل في لاوعي المرء، يخشى بروزها إلى حيز الوعي أيما خشية، نظراً لما تتضمنه من تهديد لمكانته أو سمعته أو توازنه، فلا يجد أفضل من تجسيدها من خلال كائن خفي تعترف به الجماعة. ومن الخصائص الهامة لهذا التجسيد تبرئة النفس من كل لوم اجتماعي أو ذاتي على ما رغبت فيه أو خشيته، فالمرء في هذه الحالة مجرد ضحية، ولا يملك من أمره شيئاً. تلكم هي خاصية من خصائص إسقاط الأزمات والصراعات النفسية في العالم المتخلف الذي يمارس أقصى درجات القهر ويفرض أقصى حالات الجهل على بنيه. فكل رغبة أو خوف يقمعان بشدة لما يتضمنانه من إدانة، فلا يبقى أمام المرء سوى مجال التعبير من خلال التجسيد الخرافي.

وأبرز مثل على حالة التجسيد الذي ينفي المسؤولية الذاتية، كما يحفظ السمعة، حالة التلبُّس أو الخبطة التي تفسر من خلالها بعض الاضطرابات النفسية ذات الطابع الهستيري أو الصرعي. إنها أكثر التفسيرات شيوعاً في البيئات المتخلفة. فهي تعلل وتوضح ما تعجز عنه هذه البيئات من تأويل نفساني اجتماعي علمي للاضطرابات النفسية والسلوكية، وهي تبرز التحلل السلوكي الذي يبديه المريض. تحلّلٌ هو في حقيقته انفجار لنزوات مكبوتة وإفلاتها من سيطرة الإرادة، وتحكمها في السلوك لتحقيق رغبات مورست عليها أشد درجات القمع. وهي أخيراً تغطي مسؤولية الأسرة والجماعة في مرض الفرد وتتستر عليه. فما أسهل القول إن فلاناً مخبوط أو ممسوس، أو متلبس، كوسيلة للتستر على مسؤولية الجماعة. يحدثنا «طه حسين» في كتابه «شجرة البؤس» بوضوح عن هذه الحالة. الزوجة القبيحة التي أرغم زوجها على الاقتران بها، نتيجة لرغبة الوالدين وبأمر من شيخ القرية، وبشكل اعتباطي لم يراع رغبة

الزوج ولا رأيه. فكان أن دبت الكراهية في نفسه تجاه زوجته المفرطة القبح، بعد أن كُبتت سنين طوالاً إرضاء للوالدين وللشيخ. وكان أن هجرها بصراحة وأخذ يسيء إليها في كبريائها الذاتية في أمر لا تستطيع له تغييراً. ولم تلبث هذه الزوجة الضحية أن أصيبت بأعراض هستيرية اهتياجية سوداوية نتيجة لما تعرضت له من مهانة وهجر، وما صب عليها من حقد دون أن تملك القدرة على الردّ أو الحق في الدفاع عن نفسها (المرأة الأداة المسيَّرة). وسرعان ما وجد الزوج والأسرة التي تآمرت عليه وعلى زوجته، حين فرضت عليها هذا القران، تفسيراً ولا أسهل لهذه النوبة من خلال التلبس بالجن. وصورت أنها ضحية إحدى النساء اللواتي يقمن صلات مع الجن، حين روت هذه الأخيرة حكايات مرعبة عن التلبس. هذا التفسير يفضحه المؤلف في الصفحات التالية حين يبيّن أنه ليس سوى تستر على مسؤولية الأسرة تجاه المريضة. وأن مرض هذه الأخيرة ليس سوى نتيجة لما تعرضت له من استغلال وتحكم بمصيرها، دون أن تملك حق الاختيار في البداية، ثم ما تعرضت له على يد الأسرة من نبذ وتحقير فيما بعد، دون أن تتمكن من رد الأذى عنها، لأن المطلوب منها هو أن تذعن مستسلمة لإرادة تلك الأسرة.

كم من حالات مرضية، وكم من صراعات زوجية، وكم من أزمات بين الأبناء والآباء في العالم المتخلف، الذي يقمع كل حرية تعبير وكل إرادة اختيار عند أفراده، تفسَّر من خلال هذا التبرير السهل، وتلقي مسؤوليته على الجن والعفاريت، بشكل يحفظ النظام القائم ويمنع كل تساؤل حوله وكل تشكيك فيه.. وبدل أن ينظر القائمون على أمر المريض، الذي هو في الحقيقة ضحية اضطراباتهم ومآزقهم العلائقية، والمعبِّر عن رغباتهم المريضة، في الأسباب الحقيقية للمرض، والتي لا بد أن تضعهم أمام مسؤولياتهم الفعلية، نراهم يذهبون للبحث عن العلّة في جان أو عفريت قد تلبَّسه، إثر حادثة يخلقونها أو يتخيلونها.

ثم هناك مشكلة تحكُّم الجن والعفاريت في مسائل الزواج والخطبة والعلاقات الجنسية. كل الأزمات الزوجية والجنسية تلصق بهذه الكائنات الخفية، بدل أن توضع في إطارها الحقيقي، وترد إلى سببها الفعلي الاجتماعي الأسري النفسي. فالعزلة، والفصل بين الجنسين وسوء الاختيار الزوجي نتيجة للعلاقات التي يفرضها الأهل، وروابط المصاهرة التي تقام لخدمة مصالحهم ويستخدم فيها الأبناء كمجرد أدوات لخدمة هذه المصالح، والأمراض الجنسية النفسية الناتجة عن القمع الجنسي والإحباط العاطفي المزمن، والتربية المتسلطة، هي وحدها المسؤولة عن الأزمات الزوجية. ولكن طرح المسألة بهذا الشكل، يهدد امتيازات الأسرة المتسلطة والقائمين على رأسها، ويهدد النظام السائد في الجماعة، الذي لا يخدم في النهاية سوى هذه الامتيازات. ليس هناك إذاً أكثر تضليلاً وخداعاً من إلقاء المسؤولية على الكائنات الخفية، ثم البحث عن ذلك الحلّ من خلال مختلف ضروب الشعوذة.

ومن الطبيعي أن يستفحل الاعتقاد بالخرافات حول الجن والعفاريت بين النساء، نظراً لوضعية القهر المفرط التي تفرض عليهن في المجتمع النامي. ومن الطبيعي أن تلجأ النساء إلى مختلف أساليب الشعوذة لحلّ أزماتهم الزوجية والعاطفيّة والجنسية، طالما سدت أمامهن كل سبل التأثير الفعلي في الواقع المفروض عليهن، وطالما استلبت منهن إرادة التحكم بالمصير.

وهكذا تسقط على هذه الكائنات الخفية، قدرات كبيرة على تحقيق ما يعجز المرء عن تحقيقه بجهده، كما تسقط عليها كل المصائب والشرور والأخطار. ويتخذ الإنسان المقهور في الحالتين، وسائل معينة لدرء شرورها من ناحية، واسترضائها وجلبها إلى صفِّه، حليفة له في معركته مع أعدائه، وخادمة لمصالحه من ناحية ثانية. ويبرز المشعوذون الذين يتاجرون بمآسي الإنسان المقهور، كوسطاء بينه وبين هذه القوى. ويحيط هؤلاء أنفسهم بجو غريب، ويتلون أحاديث وأدعية مبهمة يزعمون أنها لغة التخاطب مع الجان. ويمزجون هذه اللغة ببعض التسابيح الدينية زيادة في التضليل وإدخال الاقتناع في نفس ضحيتهم، بأنهم يمارسون طقوساً دينية، مما يلعب على وتر إيمانه، ويدفع به إلى التسليم لهم ولمطالبهم الابتزازية التي لا تنتهي، وترهقه من أمره عسراً، بزعم إرضاء هذا أو ذاك من ملوك الجن أو ملكاته، وهو كائن كثير الطلبات عادة، لا يرضى قبل استنزاف الضحية..

بالإضافة إلى الوسائل المكلفة جداً في التقرب من هذه الكائنات الخفية بواسطة المشعوذين بغية تسخيرها لخدمة بعض المآرب، هناك طقوس وممارسات لدرء شرها. يتوسلون إلى ذلك: الرقى والتعاويذ والأحجية ذات الزعم الديني لأنها تطرد وتبعد الأرواح الشريرة وتكف أذاها. ولكن يبقى أن أشهر هذه الممارسات هو الزار.

الزار هو حفل استخراج العفاريت والأرواح الشريرة واستئصالها من الجسد الذي حلّت فيه، كي يشفى من المرض الناتج عن حلولها هذا. وكما يشفي الطبيب أمراض الجسد، فإن المشعوذ هو طبيب النفوس المريضة التي أصابها مس من عفريت أو جان. وكما يستدعي طب الجسد مهارة في معرفة المرض، أسبابه وعلاجه، كذلك يستدعي المس والتلبس مهارة المشعوذ في التعامل مع الأرواح الشريرة وطرق طردها.

وتأخذ حفلة الزار شكل طقوس لها أصولها ومستلزماتها وشيوخها أو شيخاتها. ويدّعي هؤلاء القدرة على التواصل مع هذه الأرواح، من خلال تحالف مزعوم مع أمرائها وملوكها، التي تستطيع أن تأمر أتباعها، كي تكف شرها عن المريض أو تغادر جسده. ولكن الثمن مرتفع طبعاً تحت ستار طلبات كثيرة غريبة.

من الناحية النفسية العلمية، جوهر حفلة الزار هو عملية تفريج[1] هستيري للكبت

(1) تفريج Catharsis.

الجنسي والعدواني المتراكم، والذي ينخر جسد المريض. ويصبح هذا التفريج ممكناً من خلال جو الحفلة الأخّاذ، الذي يعطل الضوابط الخلقية ويصد مشاعر الإثم المسؤولة عن كبت الرغبات والنزوات (يعطل الأنا الأعلى). ويحلّ شيخ الزار بسلطته محل الأنا الأعلى للمريض من خلال عملية سيطرة نفسية عليه، يتوسل إليها الطبول والبخور والإيحاء بالرقص الهستيري. هذا الجو الغريب يؤدي إلى نوع من التحلل المؤقت من التزمت النفسي، تطفو خلاله المكبوتات على السطح وتثار الهوامات اللاواعية، من خلال البخور والطبول وبعض الأدوات ذات الرمزية القضيبية والذوبان الغلمي في شخصية شيخ الزار، أو شيخته. وعندما تنصرف المكبوتات على هذا الشكل، وتشبع الرغبات الجنسية بشكل خيالي من خلال الرضوخ لسلطة شيخ الزار، يخف ضغط اللاواعي ويشعر المريض بالارتياح لما يلازمه من حلّ للتأزم الكامن في أعماق النفس. على أن حفلة الزار تتضمن إلى ذلك تمرداً خيالياً ومؤقتاً على السلطة الاجتماعية والأسرية القامعة، والتي كانت في أصل العلة. فتحل سلطة شيخ الزار محل سلطة المجتمع، من خلال التحالف مع الصور الأولية الطفلية للوالدين في حالة رضوخ غلمي له. على أن الأمر في كل الحالات وليد القمع الجنسي والحيوي يسوقه النظام الاجتماعي. وهو من خلال التصرف المحدد خلال حفلة الزار، يحتفظ لهذا النظام بسطوته على الأفراد، ويبعد عنه الشبهات وضروب الشك، التي تؤلف مدخلاً إلى التغيير الاجتماعي. وهكذا فالسيطرة الخرافية على المعاناة، تحتفظ في النهاية للنظام الاجتماعي الذي ولّدها كل هيمنته وتبقي على رضوخ الأفراد المقهورين لهذه الهيمنة.

أما الشيطان فهو أفصح مثال على إسقاط المعاناة الذاتية، والتنصل من المسؤولية المصيرية، خصوصاً بما يكتسبه هذا الرمز من تعزيز ديني يجعله بمنأى عن الشك. ولهذا فهو كرمز يصلح تماماً لإسقاط المساوئ الذاتية وأوجه القصور الشخصية، وتبرير انعدام تحمل المسؤولية. والواقع أن الدارس النفسي لا يستطيع أن يتمالك نفسه من التشابه الكبير، بين خصائص الشيطان كرمز للشر، وبين خصائص اللاوعي الإنساني وما يقبع فيه من رغبات ونزوات ذات طبيعة عدوانية أو جنسية وهي لا أخلاقية في الحالتين.

إن الشيطان هو رمز الشر والغواية والتمرد على الأوامر الإلهية. وهو لذلك مغضوب عليه محكوم بالطرد من الجنة. ولكنه لقاء هذا الطرد سيظل أبدياً وسيشكل مصدر إغراء وغواية دائمين للإنسان. وهو إلى ذلك مصدر إغراء بالتمرد والثورة على القيود الدينية والخلقية. لكل من هذه الخصائص ما يقابلها في اللاوعي الإنساني. المكبوت (النزوات المرفوضة لتعارضها مع المعايير) هو باستمرار مصدر الشر والتهديد بالغواية. تحرك المكبوت يثير الأنا الأعلى (الضمير الخلقي) الذي ينزل أشد العقاب بالإنسان إذا استسلم للغواية (لإغراء إشباع النزوات المكبوتة). ولذلك يطرد المكبوت من الوعي، من الرغبة غير المقبولة

إلى حيز الكبت ولكنه لا يقضي عليها، بل تظل أبداً متحركة دينامية، تتربص ساعة غفلة من المرء ورقابته الخلقية كي تبرز، تماماً كالشيطان الذي ينسل إلى الإنسان في ساعة غفلة فيجعله يستسلم لما لا يرضاه من انجراف في ممارسات السوء. وكما أن إبليس لا ينام، ومكره وحيلته لا حد لهما، وتلبيسه (الصور التي يظهر بها ذات أشكال لا حصر لها) وطريقة استخفائه وتنكره تسمح له أن يفلت دوماً من التنبه له، وبالتالي فلا يأمن شره إلاّ الصفوة من ذوي الحظوة بالرعاية الإلهية، كذلك هو اللاوعي تماماً. الدوافع المكبوتة تأخذ ألف وجه وشكل، إنها تكمن للمرء في الأمور التي هي آخر ما يخطر بباله أن يتوقعها، وهي تظهر في الحلم أو اليقظة، أو الاضطراب السلوكي أو العرض المرضي، أو الصراع العلائقي محققة مآربها. والمكبوت هو من حيث تعريفه عدو الإنسان من الناحية الخلقية الواعية. ووطأته شديدة على النفس تتطلب كفاحاً دائماً ومضنياً بعض الأحيان. ولذلك فإن إسقاطها على الشيطان، من أنجع الحيل للتخفف من وطأتها وضغطها من ناحية، والتخلص من وزرها (وما تثيره من شعور بالإثم) من ناحية ثانية.

وليس الشيطان مجرد رمز للغواية اللاواعية، بل يلعب الدور نفسه بالنسبة للوضعية الاجتماعية للإنسان. كل إغراء بالتمرد على المعايير القمعية يلصق بغواية الشيطان وتغريره بالإنسان. كل تقصير في النهوض لواجبات المصير الذاتي يلصق بتزيين شيطاني. كل عدوان على الآخرين أو نيل منهم يحمل وزره للشيطان وإفساده الأمر بين الناس. وبهذه الصورة، تتحول الحياة بما فيها من أحداث إلى سلسلة مأساوية يقوم الشيطان بإخراجها، ويكون الإنسان مجرد ممثل فيها، دون أن يعرف، تحديداً، طبيعة الدور الذي يقوم به. وهكذا فإن «الشيطان لم يقتصر دوره في الواقع على الغواية في المسائل الدينية، بل إنه يتغلغل في أعماق نسيج الذات العربية، بحيث يعزى إليه كل ما لا يرضى عنه الإنسان أو المجتمع، وبهذا أصبح الشيطان ستاراً تختفي وراءه كل العلل والأسباب، ومشجباً تعلق عليه التبريرات والمعاذير، وأصبح مستودعاً للأخطاء والهفوات، كبيرها وصغيرها، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الأمة. وهذا ما ساعد على إضعاف آلية التحليل في العقلية العربية، وتنمية التعليل الغيبي الساذج، وسهولة مغالطة الواقع بالتغاضي عن حقائقه المادية وإرجاع كل شيء إلى الشيطان» (د. بدران والخماش، المرجع نفسه، صفحة 77 ـ 78). يلاحظ هذان المؤلفان، بصدد الشيطان، كيف أن السلطة في البلاد النامية تشجع إجمالاً التفسيرات الخرافية لظواهر الحياة، وتساعد على انتشار الأفكار والمعتقدات حول الشيطان، لتمنع بذلك كل تحليل نقدي للأمور، مما يساعدها على تجنب الانتقاد والمآخذ واستمرار نفوذها واستغلالها. كم هي كبيرة الخدمات التي يقدمها رمز الشيطان لكل من السلطة المستغلة، والإنسان المقهور والمغبون، في العالم النامي.

3 ـ العلاقات العدائية، الحسد والسحر

نلمس هنا شكلاً آخر من أشكال التأويل الخرافي لأحداث الحياة ونوائبها، يعتمد على تفجر العلاقات الاضطهادية، التي تتغذى من العدوانية الكامنة عند الإنسان المقهور. تلك العدوانية عندما تتراكم تصرف إلى الخارج بإسقاطها على الغير، الذي تتهمه بأنه سبب المصيبة. وعندما يحدد مصدر العلة ووسيلتها، يمكن السيطرة على الشر والاحتياط من الأذى الآتي من الخارج بوسائل دفاعية ملائمة تبطل تأثيره، وتكف فعاليته. تلك هي علاقة الحسد والسلاح الذي تحارب به من تعاويذ وكتابات سحرية.

يجد المحسود في الحسد تفسيراً لظواهر فجائية من نوع النكبات تلمّ به أو بذويه أو ممتلكاته. وتصيب بالضرر، أو تذهب بما يكون قد حظي به من خير أو جاه أو امتياز على الآخرين. وهو تفسير ينال الرضى عند المحسود إذ يسمح لعدوانيته أن تتفجر بدون رادع، متخذة طابع الدفاع عن النفس من شر الحاسد الذي حسد. والتفسير بالحسد يرضي المحسود لأنه يشعره بالامتياز عن الآخرين (إذا كان محسوداً فلا بدّ أن يكون ذلك لتفوّق أو فضل من جاه أو ولد) وبالتالي تشعره وهمياً بارتفاع مكانته، بينما تسقط المهانة الذاتية على الحاسد. وقد نكاد نقول إن المحسود بحاجة إلى حاسد حتى يشعر بالامتياز من جانب، ويتهرّب من عدوانيته الداخلية بصبها عليها (هو صاحب النيات العدوانية لا أنا)، ويمارسها بعد أن اتخذت شكلاً مشروعاً. في الحسد إذاً، إسقاط للشر الذاتي والنوايا العدوانية على الحاسد. إنه إسقاط لرغبة الإنسان المحروم في امتلاك دور المحظوظ. الحسد هو إسقاط الرغبة الذاتية الدفينة في سلب الآخر مما يتمتع به من حظ. وبالطبع المحظوظ الأكبر هو المتسلط المستغل. ولكن الإنسان المقهور يخشى الوعي برغباته هذه، فيتماهى بالمتسلط عندما يصيب حظاً ما ويسقط ميوله الدفينة على الحاسد الذي لم يحالفه الحظ. ويقوم الحسد أساساً على عقدة النقص والخواء الداخلي ومشاعر المهانة المرتبطة بها ومحاولات التنكر لها.

والعين هي الأداة الأساسية للحسد (ضربة العين، الإصابة بالعين) وما يقابلها من استباق شرها وعدوانيتها في كلمة «يخزي العين» أمام كل حظ أو جاه أو وفرة في الرزق والصحة والجمال. العين الشريرة تدمر ما تحسده كي تمتلكه، في حالة من النظار التملكي[1] (الامتلاك من خلال النظرة الراغبة للحاسد). ومن هنا الاعتقاد بخطورة نظرة الحاسد وقوّتها التدميرية الرهيبة، إذ تكفي نظرة واحدة ملؤها الرغبة في الامتلاك كي تحل المصيبة بالموضوع المحسود. ولذلك يخفي هذا الأخير ما يخشى عليه من العين (إخفاء الصبي المولود حديثاً موفور الصحة والجمال، إخفاء المتاع والأثاث، التكتم على الثروة، إفساد جمال وميزة الأشياء

(1) نظار تملكي Voyeurisme Possessif.

حتى لا يتمناها الحساد).

وقد يكون من الضروري الإشارة إلى الدور الأساسي للعين في مجتمع القهر والحاجة، فالإنسان المحروم والمقهور، والذي لا يستطيع التمرد على حرمانه ولا التعبير عن حقده ورغبته، يدفع إلى موقع الاكتفاء بالمشاركة الحاسدة المشتهية والمتمنية من خلال النظر. ويتحول التفرج إلى عملية نشطة، إلى امتلاك هوامي لما لا يمكن امتلاكه، أو إلى حرمان الآخر من حظه بالقضاء عليه: العين الحاسدة الحاقدة التي تتمنى إبادة ما يشعرها بغبنها وحرمانها وتدميره. قد يكون في ذلك بعض التفسير لظاهرة الحشرية عند الجماهير المقهورة التي تراقب كل شيء، لدرجة قد يتحول معها الواحد من هؤلاء، إلى مجرد عيون تلاحظ وتراقب وتتابع وآذان تتقصى ولسان ينال بالنميمة والشتيمة. تلكم هي وضعية الإنسان الذي قيده القهر، وحال بينه وبين السعي لنيل قسطه من الخيرات وبقية مظاهر الرخاء والرفاه.

اتخاذ الحسد كتفسير لما قد يحل بالمرء من غرم أو خسارة أو نكبة، في ماله وعياله أو مكانته، يجعل إمكانية الدفاع ضده ميسورة ووسائلها متوفرة ومعروفة. إنها الرقى والتعاويذ والسحر.

أما التعاويذ فشائعة الانتشار منها: حدوة الفرس، حذاء طفل صغير، فرسة النبي، خمسة وخميسة (رسم أصابع اليد مفتوحة)، حلى ذات نقوش دينية «ما شاء اللّه» الشبَّة والخرزة الزرقاء، رسم العين مصابة بسهم. وقد تتخذ شكل كتابات تدرأ شر الحسد مثل: عين الحساد تبلى بالعمى، الحسود لا يسود، من راقب الناس مات هماً، عاشق النبي يصلي عليه (استباق الحسد وتحويله إلى غبطة وتمني دوام الحظ للآخر).

أما الرقى فمتعددة بدورها، وتختلف نصوصها وطقوسها باختلاف البيئات. مثلاً يشيع في مصر بين الأوساط الشعبية ردّ مرض الطفل إلى تأثير الحسد. ولذلك تقام طقوس سحرية لإبطاله تتلى خلالها التعويذة التالية: «امباس امباس، لحطك يا عين في قمقم نحاس. رقيتك واسترقيتك من عيون الناس. قابلها سيدنا سليمان في وسع الجبال قال لها (رايحة فين يا عين؟) قالت له: رايحة للي حبا ودبا، إلي عرف الأم من الأب، أديه بريشة بين كتافيه، أخلى أمه وأبوه يبكو عليه» قال لها: «خزيتي لحطك يا عين في قمقم نحاس وأسبك عليك بالزئبق والرصاص» (ذكرها نجيب يوسف بدوي، مجلة علم النفس، مجلد 6، عدد 1، يونيو/ سبتمبر 1950، صفحة 104). أثناء تلاوة هذه التعويذة يحرق البخور، وتلقى قطعة من الشبَّة في النار، وتقص قطعة صغيرة من الورق على شكل دمية، تغرز في مكان العيون بدبوس (إخزاء العين واقتلاعها) ويكرر من يتلو التعويذة القول: «رقيتك من عين فلان. . رقيتك من عين فلانة» ويسرد اسم كل من يتطرق إليه الشك في أن يكون من ذوي العيون الصفراء، ثم

تحرق الدمية الورقية في النار (إبادة الحاسد سحرياً) ثم تخرج من النار قطعة الشبَّة المنتفخة (التي تمثّل الحاسد بدورها) فيطأها الطفل المريض بقدمه اليسرى (التغلب على الحاسد وسحقه)، ثم توضع قطعة الشبَّة مع مليم (تحقير) في قطعة من القماش ويلقى بها في مفترق الطرق (طقس سحري يهدف إلى إبعاد الحاسد وتعمية سبيله إلى الطفل، إذ إنه لا بدّ أن يتيه على مفترق الطرق مما ينقذ الطفل). (المرجع نفسه، الصفحة نفسها).

أما السحر فمكانته خاصة بين وسائل الحرب ضد الشرور التي تأتي الإنسان من الخارج تاريخياً وعالمياً. ويستخدم السحر لردّ الأذى، أو إنزال الأذى بالآخر، وكذلك لأغراض المساعدة على نيل المراد، إذا غمر بالوسائل العادية المتوفرة للإنسان المقهور المعروف أصلاً بقلة حيلته وقصر باعه. فهو يشكّل قوة مساعدة تعوض النقص في القوة الذاتية (كتابة السحر مثلاً لفتاة أو فتى بغية ترويضهما وإيقاعهما تحت سيطرة الحبيب المهجور العاجز). فالسحر يقوم إذاً على مبدأ الجبروت الذي يحطم قيود القهر والعجز. وهو في جوهره تجاوز الحدود البشرية، وحتى تجاوز قوانين الطبيعة، إذ إن من خصائصه عدم التقيد بحدود الزمان والمكان، وإمكانية التأثير عن بعد. ولذلك فقد قيل في تعريفه إنه: (التماس الإنسان للنتائج من غير أسبابها).

ولقد أوضح مالينوفسكي[1] وظيفة الجبروت (وتعويض النقص) في السحر بجلاء حين قال: إنه (السحر) لا يوجد أينما كان العمل مأموناً ومضموناً، ويمكن التحكم فيه والحصول على النتائج المرجوة منه بالخبرة والمعرفة والمهارة. . بينما يتم الالتجاء إلى السحر عن غرض، ويفصح عن حاجة. . إنه ردّ فعل لشعور الإنسان بقصوره وقلّة حيلته في عالم لا يستطيع التحكم بظواهره. فالسحر يوجد في إحدى حالتين: في حالة الجهل بالنتائج، وفي حالة الجهل بالأسباب.

للسحر إذاً وظيفة نفسية هي استجلاب الحظ والنجاح، أو إبعاد الخطر والشر، وله وظيفة معرفية، وهي سد الثغرات في المعرفة السببية لظواهر الطبيعة وما غمض منها، والعلاقات بين الناس وما يعتورها من إشكال. السحر هو تحقيق للرغبات عزيزة المنال، ودرء للمخاوف مصدر التهديد لأمن الإنسان، أو تسلح بالقوة المطلقة لسد الثغرات في قصور الحيلة.

يميّز (فريزر) عالم الأجناس الكبير، في كتابه المشهور «الغصن الذهبي» (ذكره نجيب يوسف بدوي، المرجع نفسه، صفحة 101) بين نوعين من السحر يُرجع كليهما إلى تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار: هناك السحر بالاقتران، والسحر بالتقليد. أما السحر بالاقتران

(1) Malinowski, Myth in Primitive Psychology. London, Kegan Paul, 1926, P. 110.

فيتلخص بالحصول على أثر من الشخص المطلوب سحره (قطعة من ملابسه أو خصلة من شعره، أو أظافره، إلخ. .) والتصرف به أو إتلافه انطلاقاً من مبدأ ترابط الجزء بالكل، ما يحيق بالجزء لا بدّ أن يحلّ بالكل. إحراق خصلة الشعر ستؤدي إلى موت صاحبها وهكذا. وأما السحر بالتقليد فيعتمد مبدأ ترابط الأفكار بالتشابه: الحصول على نتيجة ما من خلال تمثيلها أو تقليدها. مثلاً صنع دمية من شمع أو غيره ترمز إلى الشخص المسحور، ما يصيب الدمية (قطع الرأس، أو فقء العين، إلخ. .) سيحل بالشخص الحقيقي الذي تمثّله. وفي الحياة العادية، يجمع النوعان معاً ويضاف إليهما الكتابة (جبروت الأفكار)، والتعاويذ كما رأيناه في الفقرة السابقة.

نزوة السيطرة هي إذاً المصدر النفسي لقوة السحر. ولذلك فإن عنصر القوة والبراعة هام فيه. فهناك قوة الساحر المضخمة بشكل مفرط، التي تبهر طالب السحر وتحوز إعجابه، وتمكنها من السيطرة على الشخص المسحور الضعيف الذي لا قبل له بمقاومة تأثير السحر والساحر. فالعلاقة بين الساحر والمسحور وطالب السحر هي دائماً علاقة قوة خارقة، يقابلها رضوخ قلق عند المسحور، وإعجاب مفرط وأمل كبير عند طالب السحر. ولذلك فحفلة السحر هي دائماً ذات طابع استعراضي تستند إلى الخوارق. وهذه القوة ضرورية لتعويض الضعف والمهانة وقلّة الحيلة عند طالب السحر، إذ من خلال طلب السحر يتماهى بالقوة الاستثنائية ويتخذها حليفة له، ما يعطيه الوهم بالسيطرة الخرافية على مصيره. ولكن، هنا أيضاً، يهرب الإنسان المقهور من مسؤولية النهوض لمجابهة واقعه والعمل على تغييره. فبمقدار ما ينشد الحل في الممارسة الخرافية، يعزز استمرار النظام القائم الذي هو في أساس مأساته الحياتية.

ثانياً ــ السيطرة على المستقبل

لا يفوق معاناة الحاضر عند الإنسان المقهور سوى قلق المستقبل. فمبقدار عجزه عن مجابهة حاضره، يفلت منه مصيره. الاعتباط الذي يتحكم بواقعه لا يسد آفاق المستقبل فحسب، بل إنه يضرب حولها طوقاً من الغموض والإبهام. وهذا ما يجعل أمله مجرّد تمنٍّ لا ثقة له بتحقيقه، ولا قدرة له على تنفيذه. وضعية من هذا النوع تفجر القلق المصيري بالطبع. ويتضخم هذا القلق حتى ليكاد يقترب من القلق المرضي. يعيش الإنسان المقهور في حالة انعدام للطمأنينة على صحته ورزقه وذويه ومكانته. وضعية من هذا النوع غير ممكنة الاحتمال على المدى الطويل لما تحدثه من اختلال في التوازن الوجودي.

لا بدّ إذاً من وسائل للسيطرة على المصير والاحتياط للمستقبل. وهي وسائل خرافية بالضرورة، طالما أن الضمانات مفقودة والتخطيط منعدم والتوقعات المبنية على الجهد العام

والذاتي لا أثر لها في العالم المتخلف. وبمقدار ما يفلت مصيره من يده، فإنه يتلمس طريقه إلى المستقبل واستشفافه من خلال إسقاط المخاوف والرغبات جميعاً على العالم الخارجي. يبحث عن دلالات ومؤشرات تنبئه عما يخفي له القدر، دون أن يحس بإرادة ذاتية في تحديد ما سيكون.

فنتيجة لطول عهود القهر الذي رزح تحته، وما يصاحبه من حرمان وإحباط، تعلّم إنسان العالم المتخلف أن لا حول له ولا قوة فيما سيؤول إليه وضعه. فهو جبري مستسلم كما سنرى في فقرات تالية. وإذا لم يكن التدخل الفعّال من أجل التغيير والإمساك بزمام الأمور متوفراً، أو حتى متصوراً، فهو لا يقف وقفة المتفرج الفاتر كلياً. إنه يحاول أن يستشف ما سيحدث له وأن يحتاط قدر ما يمكن الاحتياط لما سيلم به.

وسائله إلى هذه الحيطة وذلك الاستشفاف متنوعة. يلاحظ بعض المؤشرات ويرقب بعض العلاقات التي تنبئ بخير ممكن أو شر محتمل سيأتيه، ذلك هو التطير. تلح عليه بعض أحلامه فيحاول فك ألغازها، ويجد فيها رموزاً لما قد يخبئه له المستقبل. يتمكن من ذلك بمفرده، من خلال الدلالات الرمزية الشائعة كحالة في تفسير علامات التطير، أو يبحث عمن يفسر له ما استعصى عليه استجلاؤه من هذه الأحلام. وهنا يكون قد انتقل إلى موقف نشط، وتوسل تقنيات محددة للاستشفاف والتوقع. أو هو لا ينتظر العلامات تحمل إليه نذائر وبشائر عما سيكون، بل يبحث جاداً لإلقاء الأضواء على المستقبل من خلال تقنيات قراءة الطالع والعرافة. ولكن الأكيد في كل الحالات، في انتظار المؤشرات، كالحال في استخدام التقنيات، أن المصير يبدو مخططاً ومرسوماً مسبقاً، ولا ردّ له. الموقف الوحيد هو الاستعداد لتلقّيه، والاحتياط لما يحمله بقدر الإمكان.

جميع تقنيات استشفاف المستقبل، كسابقتها من وسائل السيطرة على الحاضر، تسبغ من أجل زيادة المصداقية بصبغة دينية، باعتبار أن الدين هو اليقين الأساسي في عالمه. فمن خلال هذه الصبغة يرفع من درجة يقينه بتلك التقنيات، مما يزيد من طمأنينته، ويدخل السكينة إلى نفسه الحائرة القلقة الموزعة بين آمال غير أكيدة، ومخاوف عديدة.

1 ـ التطير

«أينما وجدت عناصر المصادفة والحظ كان احتمال القابلية للتطير كبيراً. ولذلك يأتي في مقدمة المتطيرين: المقامرون، والصيادون والمحاربون»[1]. ونضيف إليهم المقهورين الذين على مقدراتهم لا يسيطرون. في هذه الحالات يحس الإنسان بأنه معرض لاحتمالات

(1) نجيب يوسف بدوي، سيكولوجية التطير، «مجلة علم النفس»، مجلد 5، عدد 1 يونيو/سبتمبر 1949، القاهرة، صفحة 5.

متناقضة، الحظ والخير، أو النحس والشر، الأمن والمنعة، أو الخطر والنائبة. يأمل في الحصول على الأولى ويخشى وقوع الثانية، ويعيش في كلا الحالتين بين خفقة الرجاء وقلق الخطر. وحتى لا يستمر هكذا منتظراً الخطب كي يقع أو السعد كي يطلع، فإنه يحاول استباق الأمور والاحتياط لها ما أمكن.

ويتلمس طريقه إلى ذلك الاستباق في علامات ومؤشرات خارجية. هذه المؤشرات رموز تأخذ شكل النذائر (في حالة توقع الخطر) أو البشائر (في حالة توقع السعد). والإنسان المتطير هو إذاً ذاك الذي يتخذ من الأحداث الخارجية علامات يضفي عليها معنى ومغزى. وواضح هنا أن أوالية الإسقاط نشطة جداً، وتؤدي إلى إسباغ طابع ذاتي أساساً (مخاوف وآمال) على علامات تعطى دلالة الرموز الأكيدة، لأمور ستحدث في مستقبل قريب أو بعيد. فالإنسان لا يستطيع احتمال الغموض، لهذا فهو يسقط جبروته الفكري على ظواهر الواقع الموضوعي، في الوقت نفسه الذي ينفي فيه مسؤوليته عما سيحدث.

هذه البشائر والنذائر، والثانية أشهر من الأولى، لدرجة أنها أسبغت طابعها على ظاهرة التطير، إما إنها خارجية، أو ذاتية حسية.

من علامات الفأل الحسن الخارجية مثلاً: حدوة الحصان، فرسة النبي، حذاء طفل صغير، خمسة وخميسة (رسم أصابع اليد مفتوحة)، السلحفاة، الحمام، السنونو. أما علامات الفأل الرديء: البومة، الرقم 13، المرآة المكسورة، الغراب. ومن العلامات الحسية: رف العين (وهنا يعتبر رف العين اليسرى دليل شؤم والعين اليمنى دليل خير) طنين الأذن، أكال باطن الكف. واضح هنا أن العلاقة بين العلامة وما تدل عليه عينية محسوسة: توقع مشاهدة أمر سيئ (بالعين اليسرى) أو أمر طيب بالعين اليمنى، ورف العين هو للتأكد مما نشاهد (على غرار لم أصدق عيني، هل أنا في حلم أم يقظة)، طنين الأذن تعبير حسي عن توقع سماع أخبار ما، أو على العكس إسقاط هذه الرغبة على الآخرين حين الاعتقاد بأن هناك من يتحدث عن الشخص (أي أنه مهم بالنسبة للآخرين الذين يسألون عنه في غيابه). أما أكال باطن الكف، فيشير إلى الإحساس المادي عندما يقع في أيدينا شيء أو نضع فيها شيئاً (أكال باطن الكف يشير عند العامة إلى توقع قبض النقود). أما العلامات السلوكية فمنها مثلاً: كنس المنزل ليلاً، صب الماء الساخن على الأرض، فتح مظلة داخل المنزل، تحريك المقص مفتوحاً في الهواء دون أن يقطع شيئاً، المرور من أسفل السلم الخشبي الموسد إلى الحائط، وكذلك زجر الطائر.

والرمزية هي نواة الدلالة في هذه العلامات. بعضها واضح وحسي، والآخر يحتاج إلى تفسير. وكما أن البشائر والنذائر قد تختلف في تعددها حضارياً، كذلك فإنها قد تختلف في دلالتها.

ويشترك التطير مع السحر في إسقاط النوازع الذاتية على الظواهر الخارجية، كما يشتركان في القوة المطلقة للفكر، وما وراءه من مخاوف ورغبات (مبدأ الجبروت). وهما يشتركان في المقام الثالث في الوظيفة الدفاعية. وهنا يشكّل التطير الوجه السلبي للسحر. فبينما هذا الأخير يقدم على ممارسات للحصول على نتائج مستحبة أو درء أخطار معينة، نجد الأول يتلمس علامات معينة، أو يمتنع عن أعمال محددة درءاً لأخطارها.

وإذا كانت نزوة السيطرة تشكّل القوة المحركة للسحر، فإن تجنب الأذى، أو الاطمئنان إلى المصير، يشكل أقوى دوافع التطير، وكلاهما وسائل خرافية للسيطرة على المصير. والتطير كالخواف، هو في النهاية إسقاط للقلق الداخلي على الخارج، واستقصاء علامات خارجية أو حسية، أو تجنب ممارسات محددة للدفاع ضد تفصحات هذا القلق.

2 ـ تأويل الأحلام

يحتل تأويل الأحلام مكانة فريدة بين أساليب السيطرة الخرافية على المصير في العالم المتخلف. فالأحلام تتصف، من وجهة النظر الشعبية، بأنها نابعة من الذات من ناحية، ولكنها تعبّر عن الواقع الخارجي وما قد يخبئه لهذه الذات من ناحية ثانية. فهي تقيم الصلة الوثيقة بين الذاتي والخارجي، وتشير إلى مقدار تلون الواقع بالذاتية ومقدار رضوخ الذاتية للقوى الخارجية في آن معاً. ومن خصائص الأحلام أيضاً أنها تجمع بين العلامات النذر أو البشائر وبين النوايا الداخلية. كما أن تأويلها يحتل مكانة مرموقة بين وسائل استشفاف المستقبل، فينظر إليها عادة بجدية أكبر من الموقف من تقنيات العرّافة وقراءة الطالع التي يشوبها الكثير من الشعوذة. فلقد كان تأويل الأحلام دوماً من عمل حكماء القوم (الذين يجمعون الدين وحكمة المعرفة) الملحقين بقصور الأمراء أو المراكز الدينية. والواقع أن تأويل الأحلام يسبغ عليه الكثير من الاحترام، وتعبّر القدرة عليه نوعاً من الكشف الذي لا يتيسر إلاّ للخاصة. مثلاً نجد في مقدمة كتاب ابن سيرين الشهير لتفسير الأحلام ما يأتي حول شروط المعبّر وصفاته (الذي يتولى تأويل الأحلام) «أعلم وفقني اللّه وإياك إلى طاعته، أن الرؤيا لما كانت جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، لزم أن يكون المعبّر: عالماً بكتاب اللّه، حافظاً لحديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم، خبيراً بلسان العرب واشتقاق الألفاظ، عارفاً بهيئات الناس، ضابطاً لأصول التمييز، عفيف النفس، طاهر الأخلاق، صادق اللسان، ليوفقه اللّه لما فيه الصواب ويهديه لمعرفة أولي الألباب»[1]. المعبّر إذاً عالم دين، وعالم نفسي وفيلسوف وعالم بتراث الشعوب وفقيه لغوي وعالم أخلاق، وعلى درجة عالية من سمو

---

(1) كتاب تفسير الأحلام، لابن سيرين «منشورات مكتبة الطلاب»، بيروت، صفحة 5.

النفس. ذلك ما يعطي تأويل الأحلام طابعاً رصيناً، ويزيد بالتالي من مصداقيته. وقد يكون من الطريف أن نذكر بالمقابل أن تفسير الأحلام من وجهة نظر التحليل النفسي الحديث، يحتاج بدوره إلى تخصص عال في علوم النفس وتمرس كبير في فهم الشخصية الإنسانية، لا يتيسر إلاّ بعد سنوات طوال من الدراسة الجامعية العليا، وبعد تدريب عيادي شاق وطويل النفس. قد يشير ذلك إلى ما تمتعت به الأحلام على الدوام من مكانة خاصة في الكشف عن أحوال الإنسان. لذلك فليس من الغريب أن يقرر فرويد أن الحلم هو الطريق الملكية إلى اللاوعي.

فإذا قرأنا قواعد التأويل تبعاً لابن سيرين نجد أنها لا بدّ أن تزيد من رصانة هذا العمل في نظر الجمهور. «فإن الرؤيا تعبِّر باختلاف الأزمنة والأوقات، فتارة تعبر من كتاب اللّه تعالى، وتارة تعبر من حديث الرسول عليه السَّلام. وتارة تعبر عن المثل السائر، وربما صرفت عن الرأي إلى نظيره أو سميِّه. وقد تؤول الرؤيا من لفظ الاسم مرة، ومرة من ضده، ومرة من اشتقاقه، ومرة بالزيادة، ومرة بالنقصان» (المرجع نفسه، صفحة 6). ولذلك فإن قناعة الجمهور بدلالة الرؤيا وقدرتها التنبؤية لا يكاد يخالطها شك. وقد يكون من الطريف أن نذكر مرة ثانية، أن التحليل النفسي الحديث الذي يعطي التفسير العلمي للحلم، لا يعترض مطلقاً على قواعد التفسير كما أوردها لنا ابن سيرين، بل هو يتفق منهجياً مع معظمها، خصوصاً ما اتخذ منها طابعاً لغوياً.

الاختلاف بين التأويل الشعبي والتفسير النفسي الحديث جوهري رغم ذلك. فإذا كانت الأحلام تنبئ عما سيصيب الإنسان من الخارج، في التأويل الشعبي، فإنها في التحليل النفسي تشير قطعاً إلى ما يعتمل في النفس من رغبات ومخاوف، فالتفسير داخلي، ذاتي تماماً، إنه ينبئ عما يعتمل في أعماق اللاوعي وما يحاول أن يشق طريقه إلى الوعي والسلوك. التأويل الشعبي يميل إلى اعتبار الحلم دلالة تنبئ عما يخبئه المستقبل. فإذا حلم بأمر ما، فإن هذا الأمر سيقع مستقبلاً. ولذلك تحمل الأحلام طابع البشير بفرج مقبل أو النذير بخطب وشر آتيين. أما في التأويل النفسي فإنه لا يحدث للمرء أمر ما لأنه رآه في الحلم، فالحلم من حيث تعريفه العلمي هو دوماً تحقيق رغبة، أو ممهد لتحقيق رغبة مهما كان مضمونه،ساراً أو مؤلماً، مخيفاً أو محايداً، سواء كان واضحاً جلياً، أو مختلطاً مشوشاً. الحلم هو لغة اللاوعي الذي يعبِّر عن مكنوناته بواسطتها خلال النوم.

وإذا صادف أن تحقق ما يراه الإنسان في الحلم، وهو ما يعتبر دعامة التأويل الشعبي، فقد يكون ذلك راجعاً لأحد سببين. أولهما وأهمهما أن الحلم ينذر عن قرب بروز دافع أو ميل مكبوت إلى حيز الوعي وسيطرته على السلوك. وهكذا يندفع الإنسان، ودون أن يدري، إلى تحقيق الأمنية الدفينة في نفسه والتي ظهرت بوادرها الأولى في الحلم. وقد يكون الحلم

استباق تحقيق رغبة أو استعجال حصول أمر آت. وأما السبب الثاني والأقل أهمية فهو الترابط الشرطي بين الحلم والواقع. فالإنسان يميل إلى ربط ما يحدث له في الواقع بما يكون قد رآه من أحلام تحمل نفس الدلالة برابطة السببية، معتبراً أن الحلم هو سبب الحدث الواقعي. والحقيقة أن الأمر لا يعدو كونه مجرد ترابط شرطي.

على كل حال، فالحلم يحتل مكانة مرموقة بين أساليب السيطرة الخرافية على المصير، ويعتبر من الناحية الشعبية بشير فأل حسن أو نذير شؤم ونوائب. استعراض تأويل مختلف أنواع الأحلام، يظهر أنه يدور دوماً حول مجموعة من الأزواج المتناقضة التي تمس كلها المصير المهدد للإنسان المقهور، تنذره بكارثة، أو تبشره بفرج قريب. نجد مثلاً الأزواج الآتية: فأل حسن يقابله هم وغم، رضى وتوفيق يقابله إثم وندامة، ارتفاع في المكانة الدينية أو الدنيوية يقابله غضب وسخط وتسفيل أو انخفاض في المكانة، حظ مادي في زواج أو ولد أو مال، يقابله نحس أو خسارة أو موت أو هجر أو طلاق. الظفر على الأعداء بمختلف صورهم ورموزهم يقابله الغلبة على أمر وتسلط الأعداء عليه، عجز مفرط يقابله اشتداد البأس وزيادة القوة. فالتأويل الشعبي يدور حول النوايا الداخلية ذات الطبيعة الخلقية وما يقابلها من جزاء (ثواب أو عقاب) أو حول تقلبات الظروف وما يخبئه القدر من مكانة (عالية أو مهيضة) أو علاقات الحالم والآخرين (تعاطف أو صراع وعداء).

يبقى أن التطير والتفاؤل هما العاملان المشتركان بين أغلب التفسيرات الشعبية للأحلام. أحلام ميمونة وأخرى مشؤومة، أحلام تحمل البشرى بالسعد، وأخرى تحمل الهم وتدفع إلى توجس الشر. ويشيع كثيراً على المستوى الشعبي، أن تدور الأحلام وتؤول حول الضيق والفرج. يستخرج لنا «نجيب يوسف بدوي»[1]، بهذا الصدد، الجدول التالي، من كتاب تفسير الأحلام الذي أتينا على ذكره، وهو يضم مجموعة من الأمثلة على أحلام الفرج وأخرى على أمثلة الضيق.

أمثلة على أحلام الفرج: البكاء في الحلم (فرج)، الغم (دال على السرور)، الطيران (حظ سعيد ورفعة)، صعود الجبل (نيل رئاسة وشرف عظيم)، فتح القفل (فرج)، الثياب الجدد (صلاح الحال وتغير المصير)، السمك المشوي (رزق واسع)، الشهد والعسل (رزق كثير)، الملح (يدل على المال)، البساط الواسع (سعة الرزق).

أمثلة على أحلام الضيق: الضحك في الحلم (بكاء وحزن)، الفرج في الحلم (غم)، الحلم بالكعك (ضيق)، السقوط في الحلم (تغيّر الأمر وتعذر المراد)، النار المشتعلة (مصيبة أو

(1) نجيب يوسف بدوي، الفرج والضيق في أحلام المصريين، مجلة «علم النفس»، مجلد 8، عدد 3، فبراير/ شباط 1953، القاهرة، ص 341.

قحط أو حرب)، الحفاء (عوز وفاقة)، أكل التين (ندامة وهمّ وغم)، سقوط السن (وفاة قريب)، صغر البساط ورقته (رقة الحال وضيق المعاش).

هذه التفسيرات لا تمكّن الإنسان من السيطرة على مصيره أو القدرة على تغييره. إنها تنطلق من منطلق جبري، حيث تتحكم القدرية بالمصير ولذلك فوظيفتها الأولية لا تتعدى الاستعداد لحظ أو خير يأتيه، أو الاحتياط لشر أو مصيبة تحلّ به، دون أن يملك درهماً. ولكن التأويل قد يكتسب قوة دافعة في نهاية الأمر. فالحلم الذي يحمل الفأل الحسن يستثير الهمة، ويرفع المعنويات مما قد يؤدي إلى بذل الجهد للوصول إلى تلك النتيجة الحسنة. أما الحلم الذي يحمل نذيراً بشؤم فقد يثبط العزيمة ويحط من المعنويات، ويثير مشاعر الإثم اللاواعية، ولهذا يندفع الإنسان دون أن يدري إلى الوقوع فيما يخشاه. كل هذا بتأثير الإيحاء الذي إذا وصل درجة الفعالية، يعزز بدوره التأويل، ويدعم القناعة بالحلم كوسيلة للتنبؤ بالمستقبل. وهذا ما قد يلتقي في النهاية مع التفسير العلمي، فأحلام الضيق دوافعها المخاوف التي تصاحب الميول اللاواعية لعقاب الذات وإنزال الأذى بها أو الحط من مكانتها، أما أحلام الفرج فدوافعها الرغبات الإيجابية لتوكيد الذات والسعي لإثبات مكانتها.

3 ـ قراءة الطالع والعرافة

قراءة الطالع وكشف البخت والتنجيم، وسائل يتوسلها الإنسان المقهور لتلافي عجزه وإدخال الطمأنينة إلى نفسه. وهي تنطلق إذاً في تأثيرها من الحاجة إلى مجابهة قلق المجهول وما يتضمنه من تهديد مصيري. ويتلازم هذا الأمر مع استفحال القصور عن التحكم بالمصير.

تقنيات قراءة الطالع متعددة، وهي أقرب إلى الشعوذة، أهمها ضرب الودع، الكتابة بالرمل، فتح المندل، قراءة الكف، قراءة الأبراج والأفلاك والنجوم، قراءة فنجان القهوة، قراءة ورق اللعب. ومن الواضح أنها تتراوح بين تقنيات يمارسها محترفون متخصصون وأخرى يقوم بها بعض العامة من الناس في وضعية هي بين الجد والتسلية في المجالس الاجتماعية.

أما المحترفون من هؤلاء فهم يخلطون بين العلم، والروحانيات والشعوذة. يصحبون ممارساتهم بتلاوات هي مزيج من الألفاظ المبهمة، التي لا معنى لغوياً لها، والتي تدل في زعمهم على لغة التخاطب مع الجن والأرواح، ومن التسابيح الدينية والصلوات النبوية. والقصد من ذلك بالطبع اللعب على الإيمان الديني لطالب الحاجة، وإثارة دهشته لتمكنهم من التلفظ بمستغلق الألفاظ الغيبية في مخاطبتهم للأرواح. وهم إلى ذلك يحيطون أنفسهم بهالة هي مزيج من العلم الروحاني (المزعوم) والدين لغطية شعوذتهم، في ملبسهم ومسلكهم والطقوس التي يقومون بها والأدوات التي تستخدم خلالها. وفي الفترة الأخيرة، تطورت

أساليب هؤلاء وبدأوا يعلنون عن أنفسهم في الصحف. فنقرأ مثلاً: «العالم الروحاني الكبير، الشيخ أبو خليل. عالم في ضرب المندل وفكّ السحر والربطة وكشف الأسرار، وجلب الغائب، والطب الروحاني وغيره... العنوان...»، أو «عطاء من الله: (مفهوم الكرامات) عالمة في ضرب الرمل وفكّ السحر والربطة، تجلب لك الغائب، وتتنبأ لك عن الحاضر والمستقبل. العنوان...، تلفون.. أم عصام». يتضح من إعلانات كهذه مفهوم الكرامات، وربط الشعوذة بالعلم والدين تحت ستار الروحانيات. كما يتضح تعدد التخصصات في تقنيات قراءة الطالع في الوقت نفسه. ولكن كل هذه الأساليب تدور حول أمر واحد، هو إدخال الوهم عند صاحب الحاجة، القلق على ذاته وذويه أو حاضره ومستقبله أو الذي ألمت به المصائب والنوائب، بالقدرة على تخليصه من قلقه وهمومه وتوضيح المستقبل له، ومساعدته في السيطرة على قدره، وبالتالي إدخال الطمأنينة في نفسه.

وتدل ملاحظة سلوك الواحد من هؤلاء أثناء ممارسته لهذه الأساليب الخرافية، أنه يلعب دوماً على مسألة القلق والطمأنة. فهو يثير مخاوف صاحب الحاجة ويؤكد على قلقه ويضخم الأخطار التي مرّ بها أو التي تنتظره، كي يعود فيطمئنه على إمكانية الخلاص، واقتراب الفرج بعد الشدّة، وتحسن الحال بعد عسر، والظفر على الظروف وعلى الأعداء بعد طول قهر[1].

ثالثاً: القدرية

يأخذ الغربيون على الإنسان العربي خصوصاً، والشرقي عموماً، قدريته واستسلامه للظروف، دون أن يحاول التأثير فيها. كما يلومونه على تخاذله وسلبيته اللذين يعتبرونهما عيباً خلقياً حضارياً. ولم يتنبه هؤلاء إلى أن هذا الإنسان لم يتراجع إلى هذه المواقع القدرية الاستسلامية، إلاّ بعد عصور طويلة من القهر الداخلي والخارجي، وبعد استفحال الحرمان واتصال المآسي. فالقدرية هنا هي محاولة الدفاع الأخيرة التي توسلها هذا الإنسان كي يتمكن من الاستمرار في الحياة.

عندما يستفحل القهر، ويستشري الحرمان والجهل، ويفلت المصير كلياً من السيطرة الذاتية، كي يرتهن بقوى خارجية، يستجيب الإنسان بالقدرية. القدرية هي قانون الاعتباط،

---

(1) القارئ الذي يود الإطلاع على نماذج من هذه الدراسات التي تختلط فيها التلاوات الدينية، بالألفاظ المبهمة، وتأخذ الشعوذة طابع الاستعراض المسرحي ذات المقدمات والمستلزمات والخاتمة السعيدة دوماً، يستطيع مراجعة كتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين فهو يضم في آخره فصولاً عن ضرب المندل، يبدو فيها بوضوح كل ما أشرنا إليه.

اعتباط الطبيعة التي تقسو أو تعطي دون أن يدري الإنسان متى وكيف ولماذا، واعتباط المتسلط الذي يحيط بوجود الإنسان المقهور. تبرر هذا الاعتباط، تعطيه تفسيراً ما، يدفع المرء إلى قبوله كأمر واقع، كمظهر من مظاهر قانون الكون والأشياء. والقدرية كدفاع تبرز حين يصل عجز الإنسان مداه، وتنعدم قدرته على توجيه الأحداث والتأثير في الظروف. وهي تضمن محاولة ذاتية للسيطرة على المصير من خلال القول إن هذه هي طبيعة الأمور. والقدرية قانون ينظم الاعتباط، من خلال ربطه بحكمة خفية تريد للإنسان أن يشقى، وأن يعاني أو أن يرزأ بماله وذويه وصحته ومكانته. هذه الحكمة تتجاوز فهمه وتفوق استيعابه، ولا بدّ له من تقبلها كجزء من طبيعته كإنسان. وهنا تربط القدرية بالإيمان، مما يدخل بعض العزاء إلى النفس، والطمأنينة إلى أن القدر إن قسا مرة، فلا بدّ أن يأتي بعد ذلك فرج، فالقوى التي تبتلي الإنسان، لا بدّ أنها تهدف إلى غاية ما هي في مصلحته في النهاية، وذلك كيف تمتحنه في إيمانه. هذه القناعة ترد عنه قلق المجهول وقلق الاندثار، وما يستتبعهما من ذعر وجودي.

ثم إن القدرية بهذا المعنى تحمل العزاء إلى الإنسان لأن الامتحان الحياتي كتكفير عن آثام ارتكبها، لا بدّ أن يتبعه الغفران على شكل فرج. وعندما تصبح النوائب مستحقة وعادلة لما ارتكبه الإنسان من أخطاء، يزول الاعتباط من الوجود الذي ينتظم في نظام مفهوم يسير تبعاً لقوانين تسيِّرها إرادة عليا. وهي إرادة يمكن في النهاية التقرّب منها والتودد إليها، وبالتالي يمكن السيطرة على المصير من خلالها. ويسير الأمر خطوات أبعد من ذلك حين تتحول القدرية إلى نوع من الواجب، ضرورة قبول الإرزاء كامتحان للإيمان، وبالتالي لا يجوز التمرد عليه أو رفضه، كل ما يسمح للإنسان به هو الدعاء بأن يلطف القضاء «اللّهُمّ لا نسألك ردّ القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه» دعاء يتكرر في قصة شجرة البؤس لطه حسين، على لسان أبطالها الذين ينظرون إلى ما يحلّ بهم من نوائب من زاوية الابتلاء الحياتي الذي يحتم عليهم إيمانهم قبوله عن رضى. الطمأنينة التي تصاحب هذا القبول تنبع في الحقيقة، بالإضافة إلى سلاح الإيمان، من التحلل من المسؤولية الذاتية، وبالتالي تجنب مشاعر الذنب المتفاقم التي تصاحب بالضرورة الفشل الحياتي. فعلى المستوى اللاواعي، كل مصيبة تحلّ بالمرء تعاش كعقاب على ذنب اقترف، أو خطيئة ارتكبت. اللاوعي يضع الإنسان أمام مسؤوليته باستمرار، وهو يثقل كاهله بهذه المسؤولية دون رحمة أو مهادنة. وتلك وضعية يصعب على الإنسان احتمالها لأنها تخل بتوازنه النفسي إخلالاً عنيفاً. فما يكون منه إلاّ أن يتهرب من مجابهتها بذاته وتحمّل مسؤوليتها بإسقاط الأمر على إرادة عليا، أو قوة خفية، أو وضعه على حساب قوانين الحياة.

القدرية إذاً، تجنب المرء الصراع العنيف الذي لا بدّ أن يعصف بنفسه، إذا ما وضع

أمام مصيره، دون أن يتمكن من السيطرة عليه بطريقة ما. ومن ذلك تحمل المغبونين بالصبر عن عقيدة فيها تحبيذ للقناعة والرضى بالمكتوب والمقدّر، والقسمة والنصيب، عقيدة تدعو إلى القبول بالأمر الواقع على أنه طبيعة الأمور.

ويستعين الإنسان المقهور على كل ذلك بالأمثال الشعبية، التي تأخذ معنى الحكمة الحياتية، أو معنى القانون الذي ينظم الوجود والذي يقرر لكل امرئ فيه مكانته ودوره. معظم الأمثال الشعبية تلعب في الحقيقة دور فلسفة الحياة، تنظيرها وتفسير ظواهرها وتبرير مجريات الأمور فيها. ومن هنا كثرة شيوع هذه الأمثال وتكرارها في خطاب الإنسان الشعبي. هناك دائماً عدة أمثال تتخلله وتلعب دور المنظم للظواهر والأحداث، وبالتالي تبث في نفسه الطمأنينة وتمده بشعور ذاتي بالسيطرة على المصير. الأمثال والحكم التي يمكن اعتبارها نصوص قوانين القدرية، تلعب دوراً هاماً آخر هو تصريف التوتر النفسي النابع من تفاقم العدوانية المصاحبة للفشل لدرجة تهدد تكامل المرء، أو تهدد بالانفجار في ثورة هوجاء على الواقع لا تؤمَن عواقبها. مثلها في ذلك مثل الأغاني الشعبية التي تقوم بدور فلسفة الحياة وتصريف التوتر من خلال ما تمثّله من ملاحم وجودية. الأغنية الشعبية لها نفس الدور التفريجي للمسرح التراجيدي.

تلك كلها وسائل للسيطرة على المصير حين يتفاقم القهر، ويستفحل عجز الإنسان، وتنعدم قدرته على التأثير في الأحداث. إنها دفاعات تساعد المرء على تحمل مصيره بالحد الأدنى من الصراع النفسي. ولكنها تشكّل بالطبع عقبة جدية في وجه النهوض لتغيير المصير كحل وحيد فعّال في نهاية الأمر. إنها تدفع بالمرء إلى الاستسلام، والاستكانة للأمر الواقع، وبالتالي تعزز هذا الواقع وتحافظ على استمراريته. ومن هنا تشجيع الحُكام والمستفيدين منه على انتشار القدرية، فليس أفضل منها للحفاظ على امتيازاتهم.

الفصل الثامن

العنف

كل الآليات الدفاعية السابقة، لا تمكّن الإنسان المقهور من حلّ مأزقه الوجودي بشكل ملائم يرد إليه توازنه النفسي. فهي في معظمها لا تتصدى للواقع، بل تتراوح ما بين الهروب منه (الانكفاء على الذات)، والهروب فيه (التماهي بالمتسلط)، والعيش في وهم السيطرة عليه (السيطرة الخرافية على المصير). فإذا كانت تحمل حلولاً جزئية لذلك المأزق، فإنها لا تجنب المرء تراكم التوتر النفسي، وتفاقم الحقد الداخلي الذي يهدد بالانفجار أو الاندثار. لا بدّ إذاً من أوالية إضافية تفرغ هذا التوتر وتقضي على خطر الغليان الداخلي بتصريف الحقد. ذلك هو العنف والقتال. يتخذ كلاهما معنى التغيير الفعّال، وإن كان سحرياً معظم الأحيان، لمعطيات الواقع طالما أنه يتصدى له بأشكال مختلفة. العنف يبقى الوسيلة الأخيرة في يد الإنسان للإفلات من مأزقه ومن خطر الاندثار الداخلي الذي يتضمنه هذا المأزق. والعنف هو السلاح الأخير لإعادة شيء من الاعتبار المفقود إلى الذات من خلال التصدي مباشرة، أو مداورة للعوامل التي يعتبرها مسؤولة عن ذلك التبخيس الوجودي الذي حلّ به. العنف هو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين، حين يحس المرء بالعجز عن إيصال صوته بوسائل الحوار العادي، وحين تترسخ القناعة لديه بالفشل في إقناعهم بالاعتراف بكيانه وقيمته. والعنف هو الوسيلة الأكثر شيوعاً لتجنب العداونية التي تدين الذات الفاشلة بشدة، من خلال توجيه هذه العدوانية إلى الخارج بشكل مستمر، أو دوري، وكلما تجاوزت حدود الاحتمال الشخصي. وهكذا فالعنف قد يكون عشوائياً مدمراً يذهب في كل اتجاه، أو يكون بناء يوظف في أغراض تغيير الواقع، ولكنه موجود أبداً، ولو اتخذ ألف وجه ولون واتجاه، ما دام هناك مأزق وجودي يمس القيمة الذاتية، ووضعية مولّدة للتوتر الداخلي، وبدت إمكانات الخلاص محدودة وآفاقه مسدودة.

العدوانية هي آفة البشرية الكبرى، تحايلت للتستر عليها أو تبريرها أو تقنيتها باستمرار.

الشرائع والقوانين، فلسفات الحياة، مفاهيم الخير والشر هي بشكل أو بآخر في خدمة التعامل مع هذه القوة الفاعلة أبداً في الوجود الإنساني، القوة التي يخشى شرها على الذات دائماً وعلى الآخرين أحياناً. ولم تجد البشرية بعد سبيلها إلى وضع القواعد التي تسمح بمكاملتها نفسياً واجتماعياً لأغراض التقدم والخير المشترك. فإذا كان الحال كذلك، فما هو مبرر الحديث عن العنف في المجتمع المتخلف، وكأنه وقف عليه؟ ذلك أن ملاحظة الواقع تبيّن أنه إذا كانت العداونية ظاهرة عامة في مختلف المجتمعات، فإنها تجد في المجتمعات المتخلفة تعبيرها الأوضح والأكثر انتشاراً والأشد عنفاً. ولا بدّ أن يكون هذا كله على صلة ببنية تلك المجتمعات وما تتصف به من خصائص. وسنرى خلال هذا الفصل أن العنف والتخلف صنوان. العنف هو الوجه الآخر للإرهاب والقهر اللذين يفرضان على الإنسان في المجتمع المتخلف. ولا شك في أن بعض العلماء الغربيين الذين انزلقوا عن قصد أو غير قصد لخدمة أغراض استعمارية استغلالية، قد أبرزوا بشدة، الصفة الدموية للعدوانية في بعض المجتمعات المتخلفة التي احتكوا بها ولاحظوها. ولا شك في أنهم مالوا، انطلاقاً من تحيزات وأحكام مسبقة، إلى تعميم هذه الصفة على كل سكان تلك المجتمعات، حتى وصلوا حد الزعم باعتبارها خاصية أناسية[1]، عند الأقل شططاً بينهم، وخاصية إحيائية تطورية، عند الأشد شططاً في تحيزهم. وهم قد اكتفوا بهذا الشكل الصارخ للعدوانيّة مجسداً في بعض الأفعال تصدر عن بعض الأفراد، وغفلوا عن كل أشكالها الخفية وغير المباشرة، كما غفلوا عن ربطها ببنية المجتمع والشرط الوجودي للإنسان فيه. يبقى أن المجتمع المتخلف يضج بالعنف، يمارس على إنسانه ويصدر عنه في آن معاً في أكثر المظاهر سكوناً، ودعة، واستسلاماً.

الموضوع عريض متشعب الجوانب يتجاوز مجرد كونه وسيلة دفاعية، وإن كان العنف يتضمن دوماً وظيفة من هذا النوع. لا بدّ أولاً من استعراض أبرز مظاهر العدوانية في المجتمع المتخلف، وتبيان الأشكال النشطة والفاترة، الصريحة والضمنية التي تأخذها، مما يكوّن القسم الأول من هذا الفصل. نظريات العدوانية النفسية والنفس اجتماعية عديدة، والأضواء التي تلقيها على الظاهرة كثيرة ومختلفة ألوانها، ولكل منها إسهامها وقيمتها، كما أن لها حدودها. استعراض أهم هذه النظريات بشكل نقدي يساعد على استخلاص عناصر منهجية، تفيدنا في فهمنا لظاهرة العنف في المجتمع المتخلف، ذلك هو القسم الثاني. إلاّ أنها جميعاً، مأخوذة بشكل فردي، قاصرة عن الإحاطة بهذه الظاهرة بشكل مرضٍ. ولذلك فلا بدّ لنا، في خطوة ثالثة، من محاولة رسم خطوط أولية لتفسير نوعي، للعنف، خاص بالمجتمع

(1) أناسة، أناسي Anthropologique.

المتخلف ومنطلق من حالته الفريدة. وسيبدو لنا أن حالة المجتمع المتخلف من هذه الزاوية تشكّل نموذجاً خاصاً وفجاً للعنف، وما وراءه من قهر وإرهاب يمارسان بطرق مقنّعة، مبطنة ومجملة في المجتمعات المدعوة متقدمة.

أولاً: مظاهر العنف

العدوانية تنخر وجود الإنسان المقهور عموماً. وتنخره أكثر فأكثر في العالم المتخلف. وهي عبء وتهديد للتوازن النفسي، ودافع للإقدام على العديد من تصرفات تدمير الذات. كما أنها، في الوقت نفسه، دفاع وانتفاضة ضد التهديدات التي تأتيه من الخارج. وتتعدد أشكال العدوانية، ودرجات شدتها ووجهتها. الكثير منها مشترك بينه وبين الإنسان في وضعية مأزقية، بصرف النظر عن بنية المجتمع، وبعضها خاص ومميّز للإنسان المقهور تحديداً.

تأخذ عدوانية الإنسان المتخلف مظهراً فاتراً، أو نشطاً (وتسمى عندها عنفاً) وذلك تبعاً للظروف، التاريخية للمجتمع من ناحية، ولحالة كل فرد في لحظة ما من ناحية ثانية. في الحالة الأولى، تفعل العدوانيّة فعلها بشكل خفي، مقنّع بمظهر من السكون والسكينة والاستكانة الخادعة. أما في الحالة الثانية فهي تنفجر صريحة مذهلة في شدتها واجتياحها لكل القيود والحدود، مفاجئة حتى لأكثر الناس توقعاً لها. وقد تنفجر تحديداً عند العناصر التي لم تكن تلفت الانتباه، ولم يتوقع منها سوى الاستكانة والتخاذل. وبين هذين النقيضين هناك العديد من الاحتمالات التي تتفاوت شدة ووضوحاً. فهي قد تأخذ طابعاً رمزياً على شكل سلوك جانح، أو قد تتخذ طابع التوتر الوجودي العام، وتفشي العلاقات الاضطهادية. كل هذه الحالات مظاهر لحقيقة واحدة، كما أنها درجات متتابعة على سلم العنف، الذي يبدأ مقنّعاً فاتراً (وهو العنف المقموع) وينتهي صريحاً، ماراً بالعنف الرمزي والاضطهادي. وتتداخل هذه الحالات بالطبع، فالحدود بينها ليست فاصلة، والمراحل ليست مستقلة وقائمة بذاتها. ويغلب معظم الأحيان، أن نلاحظ تواتر وتواجد عدة مظاهر في آن معاً، تتجسد في سلوك جماعات أو أفراد يبدو أنهم طبعوا على نمط محدد منها، بينما الحقيقة إذا نظرنا إليها من المنظور الجماعي، أن هذه الاختلافات ليست سوى انعكاس لتيارات عامة فعالة ومتممة لبعضها بعضاً في تعارضها وتناقضها. فالذي يوجه عنفه إلى ذاته على شكل استكانة وتبخيس، ليس سوى تعبير عن تيار خفي في الجماعة، يتممه ذلك الذي يتمرد صراحة على كل حد أو قيد أو سلطة. كما أن العنف الرمزي (السلوك الجانح) ليس إلاّ تعبيراً انفجارياً عن ميول التمرد في الجماعة: التمرد على القوانين والاعتداء عليها (رمزياً اعتداء على السلطة التي وضعتها) وتعريض الذات لأخطار الملاحقة والعقاب. والعلاقات الاضطهادية ليست سوى تعبير عن انتشار العدوانية المتراكمة وبروزها بشكل نشط ولكن غير مباشر، قبل أن

تأخذ طابعها النشط المتوجه إلى عوامل القمع في المجتمع.

1 ـ العنف المقنّع

عندما لا يتمكّن الإنسان من تحمّل مسؤولية عدوانيته المتراكمة، يحلّ المأزق الناتج عنها، الذي يتهدد توازنه بالمداورة، تحت وطأة القمع المفروض عليه، والذي يخشى ردود فعله. يشيع العنف المقنّع إذاً مع ازدياد حدة القمع المفروض من الخارج من ناحية، وازدياد إحساس الإنسان بالعجز عن التصدي له من ناحية ثانية.

والعنف المقنّع قد يرتد على الذات متخذاً شكل السلوك الرضوخي، والميول التدميرية الذاتية، أو هو يتوجه إلى الخارج على شكل مقاومة سلبية.

1.1 ـ العدونية المرتدة إلى الذات

أما العدوانية المرتدة إلى الذات، فلقد عرضنا لها في عدة مواضع من هذا البحث خصوصاً في فصل الخصائص النفسية. هذه العدوانية لا تجد طريقها إلى الخارج إلاّ بشكل باهت وهزيل لا يساعد على تصريفها والتحرر من وطأتها داخلياً. ولذلك فهي ترتد إلى الذات، وتعنف بها وتقسو عليها وتنزل بها مختلف أشكال العنت وتسومها سوء العذاب. إنها وضعية الرضوخ في سيكولوجية الإنسان المقهور الذي يلوم نفسه، ويشتط في تبخيسها والحط من شأنها. إنه يحمّلها مسؤولية الفشل المصاحب لوضعية القهر، ويصل في ذلك حد التماهي بعدوان المتسلط الذي يغرس في ذهن الإنسان المقهور الدونية والتخلف والعجز والجهل. ويوهمه بأنه كائن منحط خلق هكذا وسيظل كذلك. ذلكم هو الكفر بالذات الذي يشيع في فترات الهزيمة والنكسات في المجتمع المتخلف: إننا لسنا جديرين بالحياة ولن يصدر عنا أي خير، لا نصلح لأي رفعة، ولا يحق لنا أن نحيط أنفسنا بأي اعتبار أو تقدير. وتصل الإدانة (النابعة من توجيه العدوانية إلى الذات المذنبة لتقصيرها وقصورها) حد النكاية بالنفس، وبالآخرين المشابهين لنا، من خلال إعلاء شأن المتسلط، أو القوة التي فشلنا في مجابهتها: هنيئاً له على وضعه، على انتصاره علينا، هو وحده يستحق التقدير والإعجاب، هو وحده الذي يستحق الحياة، أما نحن فعلينا أن نعترف برداءتنا وسوئنا وانحطاطنا، ولنتجرع كأس المذلة بصمت وحتى الثمالة.

تتضمن هذه الإدانة للذات دفاعاً عنها بشكل خفي. فالإدانة الذاتية تظل أخف وطأة من إدانة الآخرين. وفي إدانة الذات والحط من شأنها نوع من التكفير عن الخطيئة الوجودية تجاه المصير، تتضمن ولا شك، بشكل كامن، الأمل في الغفران. فمن يدين ذاته يأمل في الحفاظ عليها من إدانة أشد وطأة كما يأمل، في الوقت نفسه، في إثارة مشاعر صفح ضميره

الخلقي، وصفح الآخرين على حدّ سواء. وإدانة الذات بهذا الشكل وسيلة كارثية للسيطرة على الميول التدميرية المتصاعدة، التي تصاحب العدوانية المتراكمة والموجهة نحو الذات. من خلال هذه الإدانة (الجزئية والمرحلية دوماً) يفرغ العدوانية المتراكمة من التهديد بالاندثار الذي تتضمنه. فمن يجسد خطيئته في عقاب محدد ومحسوس، يأمن شر العقاب الجذري الغامض الذي يثير في لاوعيه عقدة الهجر والفناء. إذ إن الإنسان يخشى سوء العاقبة ما دامت لم تحدث بعد. أما وقد حدثت فإنه يطمئن إلى أنه لن يتعرض لما هو أسوأ منها. وإدانة الذات تشكّل في النهاية أسلوباً دفاعياً من خلال تجميد الأمور وانعدام الإحساس بها، وبالتالي السيطرة على القلق المحض المصاحب لها. ذلك هو لبّ السوداوية كوسيلة دفاعية، تجميد الكارثة وما يصاحبها من مشاعر الإثم من خلال اجترارها المستمر والغوص فيها كلياً. ولهذا السبب، تنتشر الميول السوداوية في العالم المتخلف خلال مرحلة الرضوخ. يجتر الإنسان المقهور مأساته في أغانيه، وقصصه الشعبية، ومناسباته الاجتماعية. وهو في هذا الاجترار يجابه هذه المأساة ويتحملها، ولكنه يتهرب منها ويتجرد عنها في آن معاً فلب الموقف في حالة العدوانية المرتدة إلى الذات، هو بروز نوع من الازدواجية أو الانشطار النفسي. هناك ذات مدانة محقرة ومعنفة دون هوادة، وذات أخرى تدينها، تحقرها وتشتط في سومها سوء العذاب. هذه الذات الأخرى ضمنية، بها يتماهى الإنسان المقهور، في حربه ضد ذاته المهانة التي يحاربها. إنه نوع من الاحتيال على واقع لا قبل للمرء بمجابهته، حتى يحتفظ بقيمة ضمنية لذاته الحميمة والحقيقية (في نظره). ليس هناك من مذنب، إلاّ وينبذ جزءاً من ذاته معتبراً إياه خارجاً عن أصالتها ومسقطاً عليه كل اللوم، وكل التبخيس، بغية الاحتفاظ بذاته الحقيقية (الخفية) دون مساس. بذلك فحسب يستطيع أن يعيش، وإلاّ فليس أمامه سوى الانتحار، إذا لم يحتم بالازدواجية. حتى الانتحار، يتضمن في النهاية نوعاً من الازدواجية: تدمير الذات بعد تحميلها كل الإثم، أملاً في خلاص وهمي، في تطهير ذاته الحقيقية مما ألم بها من سوء ومهانة. ولكن مأساة المنتحر تكمن بالتحديد في أن تدمير الذات المدانة وصورتها السيئة يتم من خلال الجسد (وعاء الذات الوحيد) وبالتالي القضاء الفعلي على الوجود. أما في وهم المنتحر، فالأمر لا يعدو القدرة على الإقدام على فعل خطير وجذري من أجل الخلاص.

ومن أشكال ارتداد العدوانية نحو الذات، كمَيل تدميري، المرض الجسمي. الإنسان المقهور والمقموع الذي لا يستطيع الاحتجاج والتمرد، أو حتى لا يستطيع الجهر بالشكوى، يعيش مأساته من خلال جسده: الجسد حامل الآثام والآلام والمآسي جميعاً. الكثير من مظاهر الشكوى الجسدية في مجتمع القهر تبدو، كما أثبتت الاستقصاءات العيادية الطبية، مجرد أقنعة تخفي الشكوى الوجودية التي لا يتاح لها التعبير المباشر. الإنسان المقهور يعبّر بلغة الجسد، ومن خلال المرض، عن معاناته التي لا يسمح له بالتعبير عنها، أو التي لا يستطيع مجابهتها

والاعتراف بها كواقع نفسي. إنه يهرب من الفشل والعجز والتقصير في المرض. تلك ظاهرة كثيرة التكرار، إذ يلاحظ ازدياد القابلية للمرض بعد الفشل، وفي فترات الهزيمة. واقعياً كل عقاب يلحق بالذات، أو بصورة أكثر دقة، يلحقه الإنسان بذاته، يتخذ من الجسد مطية منتقاة له، من خلال ما ينزله به من سوء. من خلال تجسيد المأساة وتحميل وزرها للجسم، يجنب الإنسان ذاته الحميمة الإدانة. إنه يسقط المشكلة على الخارج ويتنكر لها عندما يقدم مأساته تحت قناع الجسد المريض يعرضه أو يستعرضه. ولا نتحدث هنا عن مرض جسمي محدد الأسباب، بل عن تلك الحالات التي يلم فيها المرض بالجسم بشكل هائم وغامض. تعالج شكوى جسدية كي تبرز غيرها، وينتقل المريض من طبيب إلى آخر ومن تشخيص للعلة إلى تشخيص مضاد، وهكذا... المرض هنا وجودي، أو بلغة الطب نفسي جسمي[1].

تلك أوالية ناجحة تماماً من زاوية الاقتصاد النفسي. إذ يلاحظ أن المريض يقدم مرضه بشكل موضوعي صرف، ويتحدث عما أصاب جسده من علة أو علل، وكأن هذا الجسد كيان قائم بذاته خارج نفسيته، كأنه شيء موضوعي. ذلك ما يسمى باتخاذ المسافة ذاتياً عن المشكلة. ويقاوم الواحد من هؤلاء، مقاومة عنيفة، كل محاولة لتبيان العوالم والدوافع النفسية الفاعلة في مرضه، لأن هذا الطرح يورطه ويضعه أمام ذاته التي يهرب من مجابهتها. إنه يهرب باستمرار في العلة الجسمية من علل النفس وأزمات الوجود.

على أن نجاح هذه الأوالية يجد تعزيزاً له، فوق ذلك وقبله من خلال التهرب من المسؤولية، من ضرورة التصدي للمصير وأعبائه وتحدياته: أنا لست فاشلاً، بل مريض. الحق ليس عليّ، وإنما هو على مرضي الذي يقعدني. ويتوج الأمر كله بالميول النكوصية الاتكالية التي تصاحب هذه الحالة. يلقي الإنسان تبعات مصيره على سواه، متحللاً من واجباته ومتهرباً من صوت ضميره الذي يحاسبه على فشله حساباً عسيراً. فبدل أن يستحق الإدانة لتقصيره وقعوده عن المجابهة، يضع المريض نفسه موضع من يستحق العطف والتعاطف والرعاية.

لا شكّ أن صب العدوانية الداخلية على الجسد، على شكل مرض جسمي، يتناسب مع شدة القهر والقمع اللذين يتعرض لهما الإنسان. ولذلك نجد أن المرأة ميالة إلى صب عدوانيتها على جسدها، والاحتماء منها بالمرض، نظراً لما تتعرض له من قهر وغبن، وما يمنع عنها من إمكانات التعبير عن الذات والتمرد على ما يفرض عليها من حيف في المجتمع المتخلف. ولا شك في أنها من خلال مرضها، تتهم الآخرين وتبتزهم في الكثير من الأحيان، فارضة عليهم تعويضاً عما لحق بها من حيف، من خلال ما تستوجبه من عناية ورعاية خلال المرض.

---

(1) نفسدي Psychosomatique.

2.1 ـ العدوانية الموجهة إلى الخارج

مرحلة الرضوخ للمتسلط لا تخلو من مظاهر عنف موجهة إليه، وإلى رموزه خصوصاً، تأخذ شكل الحرب على نظامه وقيمه، وتحاول النيل منه بشكل خفي. أبرز هذه المظاهر الكسل. فالمتسلط المستغل يغرس في الإنسان المقهور قيم الجهد والإنتاج، يحاول قولبته حتى يصبح أداة منتجة تخدم أغراضه. ويصل في ذلك حداً يفلسف له معها العمل المضني كشقاء فرضه عليه القدر، عليه أن يتقبله.

هذه المحاولة يجابهها الإنسان المقهور من خلال الكسل، فهو يبذل الحد الأدنى من الجهد المنتج. يضيع الكثير من طاقته دون مردود. لا يلبث في عمل ما أياماً معدودات يجمع خلالها شيئاً من النقود، حتى يترك عمله ويعود إلى بطالته المتقطعة. ويظل هكذا مبدداً حياته بين بعض العمل والكثير من البطالة والكسل. كما أنه يغرق في حالة من الخمول والجمود، يفتقد المبادرة، ويفتقر إلى الإبداع.

هذه الظاهرة، لطالما أثارت حفيظة أرباب العمل في المجتمعات المتخلفة. فهؤلاء يشكون من سوء تقدير وتدبير الناس المقهورين. ويتهمونهم بالكسل والتقصير عن السعي والنهوض بأعباء مصيرهم. يأسفون بشيء من المرارة لتفنن هؤلاء العمال بتضييع فرص الكسب والارتقاء الاجتماعي التي يؤمنها لهم أرباب العمل. . وقد يتهمونهم بميول وراثية للكسل والخمول، ويحيطونهم بمجموعة من الأساطير التبخيسية (أبرز مثل على ذلك ما يشاهد من تفشي الكسل والبطالة بين الزنوج، واتهام صاحب رأس المال الأبيض إياهم بالخمول العرقي الوراثي، بشكل يبرر له موقفه الاستغلالي). على كل حال، يشعر رب العمل بدرجات متفاوتة من الإحباط تجاه عدم استمرار العامل في عمله. فهو يعرقل له مصالحه وينزل الخسارة به. وهو يثير لديه جرحاً نرجسياً، من خلال عدم تقدير قيمته في الجهد والإنتاج والكسب. يعيش رب العمل هذه الوضعية في دخيلة نفسه على حقيقتها، كعدوان عليه وانتقام منه ومن نظامه، ولو تنكر لذلك ظاهرياً من خلال سوق الاتهامات وصب الملامة على بذرة السوء والجهل عند العامل.

لا شك في أن للكسل في المجتمعات المتخلفة أسباباً أخرى هامة. منها سوء التغذية واعتلال الصحة الناتج عنه وانخفاض القدرة على الجهد الدائم. ولكن يفوقها أهمية، اليأس الذي يستحكم في الإنسان المقهور من انعدام إمكانية الارتقاء بوضعه، وتحسين مصيره من خلال جهده الخاص. فالواقع أن الفرص أمام هذا الارتقاء وذاك التحسين تكاد تكون معدومة بالنسبة للغالبية الساحقة من السكان. ويعادل هذا اليأس في الأهمية تبخيس قيمة العمل والجهد بشكل مريع في المجتمع المتخلف الذي تنتشر فيه الرشاوى وتشيع الأساليب الملتوية

في الإثراء، وتستحكم الحظوة التي تعطي الحظوظ جميعاً لقلة قليلة من الناس. وينتج عن هذه الظواهر جميعاً الاقتناع بأن طريق الثروة والارتقاء لا يمر بالجهد الفردي والكدح هزيل المردود، إنما يمر بالاستزلام والتقرب من ذوي الحظوة، وبالحظ الذي يأتي أو لا يأتي، دون أن يكون للإنسان دور حاسم فيه.

أمام اليأس من إمكانية الارتقاء من خلال الجهد المستمر، يتهرب الإنسان المقهور من مصيره القاتم، من خلال التماهي بوجاهة الطبقة ذات الامتياز التي تعيش عالة على تعب الفئات الكادحة. وبذلك يصبح الكسل، وازدراء العمل دليل وجاهة: أنا لا أعمل، فأنا لست بائساً كغيري من الكادحين. أنا أكسل، فأنا شبيه بذي الحظوة الذي يعيش حياة لهو واستهلاك وعبث. إن الميل إلى الكسل والخمول الذي يشيع في أوساط الفئات الأكثر بؤساً وتأخراً في المجتمع المتخلف، يشكّل عقبة كأداء أمام مشاريع التنمية والتطوير الذاتي. فالقناعة راسخة عند هذه الفئات، بأن لا جدوى من الجهد الذي لا يمكن أن يعود خيره عليها، كما علمتها تجاربها خلال تاريخها الطويل من الاستغلال.

بالإضافة إلى الكسل هناك عداونية أكثر صراحة من حيث توجهها ضد المتسلط، وهي ظاهرة تخريب الممتلكات العامة التي تلاحظ في ظروف الفوران في المجتمع. يقبل المواطنون (خصوصاً الشبان منهم) على تخريب وإتلاف التجهيزات العامة في الطرق (كسر إشارات الضوء، اقتلاع شجيرات الزينة، اقتلاع الحواجز على الأرصفة، إلخ..) مع أن الفائدة المباشرة منها تعود عليهم قبل غيرهم. إنهم في عملهم هذا يهاجمون رموز المتسلط، لإحساسهم بأن ما هو عام ليس ملكهم. والواقع أن الإنسان المقهور في المجتمع المتخلف يحس بالغربة في بلده، يحس بأنه لا يملك شيئاً، حتى المرافق العامة يحس أنها ملك للسلطة، وليست مسألة تسهيلات حياتية له هو. ذلك أن الهوة كبيرة جداً بينه وبينها وإن ما يستحقه من خدمات وتقديمات، تقدم له (إذا قدمت) كمنّة أو فضل، لا كواجب مستحق له. عندما يخرب المرافق العامة فهو، أولاً وقبل كل شيء، يعبّر عن عداونيته تجاه المتسلط. يبدو هذا الأمر جلياً حين يرزح المجتمع تحت وطأة تسلط أجنبي استعماري. ويقرب من ذلك الميل إلى إتلاف الملكية الخاصة بشكل خفي، كتعبير عن الحقد الذي يصاحب الإحباط. في هذا السلوك انتقام من ذوي الحظوة المقربين من المتسلط عموماً.

من أشكال العدوانية التي تشيع ضد المتسلط، وتتخذ شكل التعبير المقنّع، العدوان اللفظي بالنكات والتشنيعات على اختلافها. إنها ظاهرة يكاد لا يخلو منها مجتمع يعيش أهله في حالة رضوخ. التشنيع والنكتة تعبيران رمزيان عن العداونية التي تعتمل في نفس الإنسان المقهور، حين يستحيل التعبير المباشر. فيها نيل من المتسلط، حط من قيمته وتعال عليه. إنها نوع من قلب الأدوار الوهمي، حين ينعت هذا الأخير بمختلف الأوصاف التي تحط من

قدره، بينما يضحك المواطن المقهور ضحكة النصر. ولهذه الأساليب وظيفة من تفريجية واضحة، فهي تصرف الحقد والعدوانية المتراكمة وتمنع انفجارها نحو الخارج، وهي تخفف من إمكانية توجهها نحو الداخل على شكل إدانة للذات على فشلها. والمتسلط المتفهم لهذه الوظيفة يتساهل بشأنها لأنها ترد عنه في النهاية خطر العدوانية المباشرة. فكلما زاد التصريف اللفظي للعدوانية انحسر خطر تصريفها في سلوك حركي عنيف.

يدخل في الفئة نفسها، مختلف تصرفات الخداع والتضليل والاحتيال في التعامل مع المتسلط. إنها تصرفات تحظى بقيمة كبيرة في أوساط الفئات المقهورة، وتعطي دلالة البراعة والحذق (الحذاقة، الشطارة، الفهلوة، إلخ) كل أساليب النيل من المتسلط أو ذي الحظوة، كل وسائل خداع السلطات والاحتيال عليها تعاش كانتصار ضد القهر. وفيها أيضاً يحدث قلب الأدوار، فالمتسلط القوي يتحول إلى ساذج (مغفل)، بينما المقهور يتحول إلى مسيطر بشكل خفي. الخداع والاحتيال يعاشان ذاتياً كنيل من مكانة المتسلط ومن قيمته الإنسانية، وفيه بالتالي نوع من ردّ الاعتبار إلى إنسانية الإنسان المقهور.

على أن الإنسان يتعامل من خلال هذه الأساليب مع المتسلط باللغة نفسها التي يستخدمها هذا الأخير معه: الوعود الزائفة، والخداع وغيرها. العلاقة بينهما تخلو من الاعتبار الإنساني، من الاعتراف بكيان الآخر. الإنسان المقهور الذي تحول إلى أداة، أو شيء، الإنسان الذي مسخت إنسانيته، يستجيب بسلوك مضاد ومن النوع نفسه، ينفي الاعتراف بإنسانية المتسلط. العلاقة بينهما مأزقية حتماً تتضمن بالضرورة صراعاً، لا بد أن يبرز في لحظة أو أخرى، على شكل تمرد وتحد يقابلهما قمع وإرهاب.

2 ـ العنف الرمزي ـ السلوك الجانح

السلوك الجانح هو الذي يعتدي على القوانين في مجتمع ما، بصرف النظر عن محتوى الموانع التي تتضمنها هذه القوانين وموضوعاتها. ليس لب الانحراف إذن، الإقدام على هذا التصرف أو ذاك، بل خرق القوانين التي تمنع التصرف تجاه الأشخاص، أو الملكيات إلاّ بحدود وضمن قواعد معيّنة. بالطبع الاعتداء على القانون قد يكون عابراً، أو مصادفة، أو إرادياً، أو ظرفياً. الفاعل في هذه الحالة لا يسمى جانحاً بالمعنى الدقيق للكلمة، وطبقاً للمنظور العيادي. أما إذا أصبح خرق القانون هو الأسلوب الرئيسي للتوجه السلوكي في الحياة، أو كسب العيش، فإننا نكون عندها أمام حالة انحراف فعلي، وذلك بصرف النظر عن الخطورة المادية لذلك السلوك ومدى ضخامة نتائجه.

السلوك الجانح مادي دوماً، يتجسد في فعل محدد، ونتائج معينة. لذلك قد يبدو ضرباً من التناقض القول إن الانحراف هو عنف رمزي. ما نقصده بهذه التسمية، ليس مادية الفعل

التي لا شك فيها، ولكن دلالته التعبيرية. فالسلوك الجانح في مجتمع ما هو دوماً مؤشر، يتجسد في تصرف بعض الأشخاص الخارجين على القانون، للدلالة على ما يعتمل باطنياً في بنية ذلك المجتمع من اضطراب، وما يتراكم فيها من عدوانية كامنة، قابلة للانفجار في ظروف معينة. كلما زاد حجم التصرفات الجانحة كان احتمال انفجار العنف أكبر، لأن الأزمة الكامنة في بنية المجتمع أكثر مأزقية. ذلك هو ما يهمنا تحديداً في هذا المقام، دلالة السلوك الجانح الرمزية كمؤشر على مقدار العدوانيّة الكامنة في شبكة العلاقات الاجتماعية.

ليس فقط حجم الانحراف هو الذي يدلّ على مدى أزمة المجتمع، بل نوعه وشدته: جرائم ضد الملكية، أو جرائم ضد الأشخاص، وهذه الأخيرة قد تكون متفاوتة في عنفها ودمويتها. ومن الشائع الاعتقاد بعنف السلوك الجانح ودمويته وبدائيته في البلاد النامية. بينما تشيع في البلاد الصناعية جرائم الاحتيال والجرائم الموجهة ضد الملكية والمنفذة بشكل ذكي وخفي[1]. ولكن هذا الاعتقاد هو في نظرنا وليد الملاحظات السطحية، والتعميمات المتسرعة المبنية على أحكام مسبقة، تقول ببدائية السلوك الجانح عند أبناء المجتمعات المتخلفة. فإذا كان العنف واضحاً صريحاً في المجتمع المتخلف، وإذا كانت الأفعال الدموية أكثر تكراراً، فإن ذلك لا يمنع استفحال الانحراف غير العنيف. لن نتحدث هنا عن السلوك الدموي، بل نتركه للعنوان القادم في هذا الفصل. نركز الحديث حول الانحرافات الانتفاعية الموجهة ضد الملكية أساساً.

السرقة هي السلوك الجانح الأكثر شيوعاً في العالم المتخلف. وقد تأخذ شكلاً بدائياً مباشراً، كسرقة الأموال والمتاع والنشل، أو تأخذ شكل الاحتيال. ويلاحظ هنا تفشي ألعاب الغش والخداع الممنوعة قانوناً والمنتشرة رغم ذلك بكثرة. ترمز هذه الأفعال جميعاً إلى نمط الوجود السائد بين قطاع عريض من الجماهير المغبونة في العالم المتخلف. فمن الناحية المعيشية يطغى نموذج تدبير الحال. وهو، تحديداً، نشاط يتذبذب ما بين أوجه الكسب المشروعة وبين الأفعال التي تقع على حافة الانحراف، وتلك التي تخرق القانون بشكل مداور خفي، أو صريح ومباشر. الحدود بين هذه النشاطات ليست واضحة ولا هي قاطعة. ينتقل إنسان العالم المتخلّف من أحدهما إلى الآخر دون تغير في وضعيته أو نظرته إلى نفسه أو نظرة الآخرين إليه. ويحدث هذا نظراً لتفشي البطالة وانعدام الكفاءة المهنية، وانعدام الانغراس الاجتماعي في المدن الكبرى، ونظراً لتفشي الوسائل الطفيلية في العيش وهي مزيج من النشاط المشروع والمخالف للقانون. مفهوم الاعتداء على القانون في مجتمع القهر غير واضح تماماً. الضوابط

(1) انظر بهذا الصدد:
J. Pinatel et P. Bouzat, Traité de droit pénal et de criminologie, Tome III, Paris, Dalloz, 1963.

الخلقية الداخلية غير فعّالة دائماً. ليس هناك أخلاق بين الفئات المقهورة، بمعنى الالتزام العلائقي تجاه الآخر من خلال الاحترام المتبادل والمراعاة. هناك فقط خوف من السلطة وبطشها.

ولذلك تشيع تصرفات الاحتيال والغش والخداع والاستغلال بقدر ما تسمح به إمكانات التهرب من الملاحقة. ليس هناك مصلحة عامة، وتآزر اجتماعي، فكل يتدبر أمره كما يستطيع في غياب الانتماء، والالتزام. إحساس الإنسان في المجتمع المتخلف بأنه متروك ليواجه مصيره، دون حماية فعلية أو ضمانة أكيدة للحاضر والمستقبل، يجعله يجابه قلق الوحدة والتعرض للخطر بشكل عنيف، يؤدي إلى انهيار الانتماء الاجتماعي، وما يستتبعه من غياب ما هو عام ومشترك، ما هو لخير الجميع وخدمتهم. والواقع أن الأمر معكوس تماماً، فغياب المشترك الذي يخدم مصلحة الجميع ويؤمن حاجاتهم هو الذي يدفع إلى انهيار الالتزام، ومجابهة قلق الوحدة، والتعرض لخطر المجهول. ولهذا فلا بد لكل امرئ من تدبر أمره. كما يستطيع ومتى وأنى يستطيع. يبدو هذا الأمر جلياً حين تغيب السلطة أو يهزل وجودها. يتحول المجتمع عندها إلى ساحة قتال وصراع على النهب، ما أمكن وبأكبر كمية متاحة. الحقيقة أن بنية المجتمع المتخلف نفسها تقوم على النهب والاستغلال. ففي الحالات العادية نجد القلة المتسلطة هي التي تمارسه بشكل خفي، تبرز منه فقاعات تطفو على السطح من آن لآخر على شكل فضائح مالية. والحقيقة الثانية هي أن مفهوم القانون، الذي يضع الحدود للسلوك ويفرض مراعاة مصالح الآخرين، مبخس ومشوه في العالم المتخلف. القانون لا يفرض إلاّ على من لا يمتلك القوة للاعتداء عليه، أو السبل لذلك الاعتداء. ليس هناك احترام لقانون، وتقبل له، بل رضوخ، إرغام، القاعدة هي أن تخرق القانون إذا استطعت. وفي ذلك كله انهيار لاحترام العلاقات الإنسانية، لأن خرق القانون هو في النهاية اعتداء على الآخرين، وعلى علاقات المواطنية والانتماء الجماعي.

يأخذ هذا الواقع، شكلاً ضمنياً ومستتراً في حالات السكون والاستقرار الاجتماعي، تعبّر عنها فقط تلك الفئة المدعوة جانحة، والتي لم تتمكّن من الإفلات من الملاحقة. وقد يحدث في تاريخ المجتمع أن تهزل السلطة لسبب أو لآخر، وبالتالي تزول الملاحقة. في هذه الحالة نلاحظ تفجراً مذهلاً للعدوانية الكامنة، ولعمومية الاعتداء على القانون. ويأخذ الأمر شكل الاستباحة التي لا تعرف الحدود لممتلكات الآخرين وحياتهم على حد سواء، دون أدنى مراعاة لحقوق المواطنية، أو الجيرة، أو المشاركة في الانتماء. فإنسان العالم المتخلف، الذي عانى من استباحة مزمنة لحقوقه وكيانه، لا يجد أمامه من نموذج في مثل تلك الظروف، إلاّ الإقدام على استباحة حقوق الآخرين بقدر ما يستطيع. لا يجد عنفه وحقده لهما وازعين من الداخل، وهو في ذلك لا يفعل سوى الإقدام بشكل صريح، على المسلكية نفسها التي كانت

تمارسها القلة بشكل خفي. ويعتقد الإنسان المقهور الذي أتيحت له فرصة التزود ببعض أسباب القوة، وفي غياب السلطة، أن له الحق في التعويض عما أصابه من حيف مزمن. فهو يحقق ذاته من خلال الملكية المادية كمثل أعلى للقيمة الذاتية، وهو يتشفى من خلال استباحة من يمثلون الحظوة في نظره. وهو يتبع في كل ذلك نموذج من قاموا على أمره في اغتنام الفرص التي يتيحها المنصب، أو الظرف. من هنا نلمس إلى أي مدى تتهدد قيمة الإنسان في المجتمع المتخلف.

3 ـ التوتر الوجودي والعلاقات الاضطهادية

يعيش الإنسان المقهور في حالة من التوتر الوجودي العام. تراكم العدوانية المزمن يلوّن الحياة جميعها بصبغة متوترة. تميل العلاقات نتيجة لذلك، إلى أن تتخذ طابعاً اضطهادياً يجعل إمكانية تفجر العنف المتعصب كبيراً. ويقود هذا العنف إلى صراعات دموية جماعية تنفجر في لحظة ما من تاريخ المجتمع. هذا التوتر العام وما يصاحبه من علاقات اضطهادية، يشكّل حالة العنف الصريح الذي يتفشى في المجتمع المتخلف، على عكس الحالات السابقة التي يتخذ فيها العنف طابعاً مقنّعاً أو رمزياً.

1.3 ـ التوتر الوجودي العام

الإنسان المقهور في حالة تعبئة نفسية دائمة استعداداً للصراع. نلاحظ ذلك من حالة التوتر العام الذي يبدو جلياً على محياه وفي حركاته. فلأقل الأسباب نجد العدوانية اللفظية تنفجر في سيل من الشتائم والسباب. كما أن الخطاب اللفظي سرعان ما يتدهور إلى المهاترة والتحدي والوعيد. فالانفعالية العاطفية تطغى على الحوار والعلاقة. والعقلانية سرعان ما تطمس، مما يقود إلى انهيار التفكير المنطقي ويحجب وضوح الرؤية ويشل القدرة على تفهم الآخرين، أو على تقدير الواقع بالموضوعية الضرورية. تطغى الانفعالات دون حدود تقيدها، طامسة ملكة النقد. وهكذا لا يتمكن الإنسان المقهور من الاستمرار في جدل هادئ. زمن المنطق والعقلانية قصير جداً في تفاعله مع الآخرين. سرعان ما يحس بانعدام إمكانية التفاهم فتغشى بصيرته موجة من الانفعال. من الكلام يتدهور الحوار إلى السباب، ثم إلى التهديد، ثم يمر بسرعة إلى الاشتباك، أو يصل حافة الاشتباك الذي يلغي كل تمييز. وتأخذ الأمور شكلاً قطعياً (إما شر كلها، أو خير كلها). وأحياناً ينفذ التهديد، باستخدام العضلات أو السلاح، بسهولة مذهلة (في فورة غضب). ذلك أن هناك إحساساً دفيناً بانعدام فعالية اللغة اللفظية وأسلوب الإقناع، فيتحول الأمر بسرعة إلى الحسم السحري (العضلي أو الناري) من خلال الإخضاع.

ومما يزيد من تصعيد التوتر العام، أن كلاً من الطرفين معبأ تماماً. وهكذا يكفي أقل اصطدام أو صدام حتى ينفجر الموقف، بشكل يصعب ضبطه وتهدئته. إن الإثارة المتبادلة تؤدي إلى تفاقم مذهل في سرعته للعدوانية، وإلى تدهور مفاجئ للتفاعل. ليس هناك ما يلطف العلاقة الثنائية إلاّ تدخل طرف ثالث أو أطراف عدة يلعب كل منها دور الترضية لأحد الأطراف، واضعاً اللوم ضمنياً على الطرف الآخر. وبقدر سرعة تفجر العدوانية، يطول زمن تهدئتها، إذ إنها تستمر فترة طويلة بعد زوال الوضعية التي أطلقتها. كما أنها تميل إلى الانتشار وينطلق المرء عندها في سيل من الأحكام التعميمية والقاطعة لا تقتصر على طرف الصراع الآخر، بل تشمل انتماءاته جميعاً في عملية إدانة وتبخيس شاملين. وهنا تدخل إطار العلاقات الاضطهادية.

يبدو أن هذه العدوانية المتفجرة، تتلمس الفرص كي تطغى على الوجود والعلاقة. فهي غير متناسبة معظم الأحيان مع حجم وأبعاد الوضعية التي أثارتها. وكأن هذه ليست سوى الفتيل الذي أشعل برميل البارود، ويبدو الأمر بوضوح في أصغر الصراعات (تسمى عامياً خناقات). كلمة (خناقة) مثيرة في دلالتها الرمزية، فكأن الصراع لا يمكن أن يكون أقل من عملية خنق متبادل. والواقع أن العدوانية تتفجر لدرجة تبلغ حد الرغبة الهوامية في إبادة الخصم. يبدو أن هذه الإبادة وحدها تطفئ جذوة العدوان. وإذا كان القضاء على الخصم يتخذ طابعاً رمزياً (لأنه يكتفي معظم الأحيان بحركة سحرية لها دلالة هزيمته وإبادته) لحسن الحظ، فإنه لا يندر أن يتجسد واقعياً في فعل دموي كارثي، لا يقدّر الفاعل قطعاً أبعاده حق قدرها في لحظة الإقدام عليه. جنايات القتل الفجائي إثر خصام آني ليست نادرة في المجتمع المتخلف، خصوصاً عندما يصبح على عتبة انفجار عام للعنف الكامن في بنيته. هذه الجنايات التي تبدو مجانية وتثير صدمة بين المواطنين، تتراوح بين الذهول والذعر، هي في الحقيقة نذائر على ارتفاع درجة التوتر العام إلى حد خطير في المجتمع، ارتفاعاً بدأ يهدد باجتياح كل الحدود ويتجاوز كل المحرمات. ذلك ما شهده لبنان بالتحديد في العامين الأخيرين اللذين سبقا انفجار العنف الذي زلزل أركانه، وهدد بنيته بشكل جذري. فلقد كثرت خلال تلك الفترة حوادث القتل لأتفه الأسباب (أفضلية مرور، نزاع على الدور في انتظار الحصول على خدمة ما، تحرش مقصود أو غير مقصود، حوادث اصطدام سيارات، إلخ..)، حين تتكرر حوادث من هذا القبيل، فإن انفجار العنف لا بدّ آت في وقت قريب. يخلق جواً من انعدام الطمأنينة، والإحساس بالخطر يأتي من الخارج. ولا تندر في هذه الحالة التساؤلات: إلى أين نحن سائرون، يطلقها بعض من يحسون بالعاصفة آتية، وغيومها تتلبد في السماء. والواقع أن درجة الإحساس بالأمن قد انخفضت كثيراً في العاصمة بيروت قبل انفجار العنف العام، إذ بدأ الناس يحتاطون في خروجهم ليلاً، مفضلين البقاء بعيداً عن مواقع الصدام، وما قد

يجره من ردود فعل كارثية. هذا القلق زاد كثيراً من درجة الإحساس بالجو العدائي الاضطهادي الذي أخذ يميّز العلاقات. ومع تصعيد هذا الإحساس بالخطر زادت إجراءات الحماية، التي اتخذت في أحد مظاهرها (اقتناء السلاح وحمله بشكل دائم) طابع زيادة خطورة الوضعية بدل الحد منها.

إن التوتر الوجودي العام، وما يصاحبه من تفجر للعنف الدموي وغير الدموي، ليس وليد بدائية نفسية كما اعتقد بعض علماء الغرب الذين قالوا بعاطفية وانفعالية إنسان العالم المتخلف. إنه وليد وضعية مأزقية تشكّل إحدى خصائص بنية القهر التي يتميّز بها هذا العالم. الإنسان في المجتمع المتخلف عدواني، متوتر، يفتقر إلى العقلانية ويعجز عن الحوار المنطقي، لأنه يعيش في حالة مزمنة من الإحباط الاعتباطي، ومن الإهمال. إنه متروك لنفسه كي يتدبر أمره كما يستطيع. ليس هناك ما يضمن له حقه أسوة بغيره. عليه هو أن يحفظ هذا الحق كما تمكنه ظروفه (الاحتيال، التقرب من السلطان وذوي النفوذ، التودد، أو العنف والصراع من أجل الغلبة). عالم الإنسان المقهور هو أشبه ما يكون بغابة ذئاب، عليه أن يعبئ نفسه ويظل يقظاً طوال الوقت لمجابهة أخطارها. وعندما يحس كل واحد من المواطنين إحساساً من هذا القبيل، فإن علاقات التعاطف والتفاهم تنهار لا محالة، لتحل محلها علاقات اضطهادية. الآخر هو الخصم الذي يتهدد المصير الذاتي ويهدد بالاستيلاء على الحقوق الذاتية. إنه بالتالي العقبة الوجودية في وجه تأمين المصلحة الذاتية. ولذلك فلا بدّ من إعلان الحرب عليه، أو الاحتياط للحرب التي قد يعلنها علينا. يتحول الآخر إلى مصدر تهديد وخطر على الذات أو مصدر عرقلة لمصالحها، ومنذ تلك اللحظة يصبح كل عدوان عليه، كل تغليب مطلق للمصلحة الذاتية، دون مراعاة للآخر، النمط المشروع من الدفاع عن النفس. الاحتمال البديل هو الرضوخ والاستسلام، أو التجنب والانسحاب، وبالتالي فقدان فرصة الحصول على الحق الذاتي. من هنا تأخذ كل مظاهر القوة الجسدية والنارية أهميتها المفرطة. ومن هنا أيضاً تتضخم قيمة الذكورية والرجولة بعد اختزالها إلى بعدها العضلي والحركي، وتوكيد قدرتها على مجابهة الخطر المادي. وتحدث مبالغات كثيرة على هذا الصعيد، تأخذ طابعاً استعراضياً. استعراض القوة ضرورة دفاعية ووقائية في آن معاً، ولو لم تستند هذه القوة إلى أسس فعلية. المهم إيهام الآخر بها بغية ردعه.

2.3 ـ العلاقات الاضطهادية ـ التعصب والفاشية

إن الوضعية التي تتميّز بالتوتر الوجودي العام، وتتضمن أخطاراً تتهدد أمن المواطن، كما بيّنا في الفقرات السابقة، غير محتملة. فهي تهدد وحدة الجماعة بالتفكك، وتهدد إمكانية الاستمرار في الانتماء إليها، مما يفجر قلق الوحدة والهجرة في مجابهة الخطر. وبالتالي فإن

دينامية المجتمع لا بدّ من أن تتحرك كي تجد حلاً لهذه العدوانية المتراكمة بشكل يحفظ حداً أدنى من التماسك لبنيته.

الوسيلة الأكثر شيوعاً في العالم المتخلف، كما في غيره، هي توجيه العدوانية إلى جماعات خارجية، من خلال التعصب العرقي أو الطائفي وما يرافقه من ميول فاشية. الاحتمال الآخر، وهو الحل الأكثر فعالية وإيجابية، هو توظيف هذه الطاقات في عمل تغيير على مستوى المجتمع ككل بشكل يغير موازين القوى، ويقضي على أسباب العنف. إلاّ أن هذا الحل لا يتيسر دائماً في تاريخ الشعوب. أو هو يحتاج إلى فترة تحضير واختمار، وإلى نضوج ظروف موضوعية وذاتية محددة. وحتى تحين ساعة التغيير البناء، تتعزز الميول التعصبية والفاشية بمقدار تراكم العدوانية، وتراكم الغبن والإحباط، وانعدام مشاعر الأمن، وتفشي القلق.

نظرة إلى مختلف المجتمعات المتخلفة تبيّن بجلاء انقسامات داخلية، شبه أكيدة في كل منها. ينقسم السكان إلى جماعات وطوائف مختلفة الانتماءات العرقية أو القومية أو الدينية، متصارعة فيما بينها. وقد يكون هذا الصراع صريحاً متفجراً، أو يظل كامناً يعتمل في الخفاء وينخر بنية المجتمع مهدداً وحدته، ولكنه موجود أبداً. بالطبع يستغل المتسلط الخارجي الذي يريد إحكام سيطرته على المجتمع هذه التناقضات مفجراً إياها، أو مهدداً بهذا التفجير من أجل فرض رغباته التي تذهب عادة في اتجاه الاستغلال. وهو يغذي هذه النعرات ويذكي جذوتها، مما يجعل بلدان العالم المتخلف مهددة دوماً بانفجار العنف على شكل حرب أهلية (عرقية أو طائفية)، تطغى عليها إجمالاً المجازر الدموية التي لا تقف، في بعض الحالات، عند حد. وبالطبع أيضاً يتواطأ الزعماء المحليون مع المتسلط الخارجي لإحاكم سيطرتهم على الجماعة وربطها بهم، مما يمكنهم من الاحتفاظ بنفوذهم وامتيازاتهم، تحت وهم الدفاع عن وجود الجماعة ومصالحها الحيوية ضد التهديد الخارجي. ذلك أن بذور التعصب والفاشية، منبثة باستمرار في مجتمعات القهر، وهي تتغذى من الطاقة الهائلة التي تعتمل في أعماق الإنسان المقهور، متعطشة إلى القوة والسيطرة والانتقام.

فالجماهير المغبونة والمقهورة متعطشة بشكل مزمن للقوة في مختلف رموزها وعبر شكليها الأساسيين: البطش والغلبة من ناحية، والعظمة والتعالي من ناحية ثانية، وهي مستعدة للانقياد وراء زعيم عظامي[1] يقودها في هذا الاتجاه، يفجر ميولها للتشفي والعظمة، ويعبّر عنها. ذلك هو الزعيم الفاشي. إنها تنساق وراءه وتستسلم له بشكل رضوخي طفلي، تتعطل فيه إرادتها وقدرتها على الاختيار والنقد والتقدير، ولا يبقى سوى طاقة انفعالية متفجرة

(1) عظام (عظامي) (Paranoïa).

تفيض على كل شيء، وتكتسح أي صوت للعقل، أي نداء لليقظة. الجماعة المقهورة عاطفية انفعالية تعشق العنف والسطوة، وتعشق الرضوخ لرموزها وأبطالها، وتنحرق عطشاً للإثارة الانفعالية والتهييج الذي يلهب حماسها. في ذلك كله تغيير سحري للمصير من بؤس وركود وموات ومهانة، إلى نشوة وامتلاء وتضخم ذاتي وإحساس بالاعتبار الوجودي. من خلال التهييج والإثارة تحس الجماعة أن كل فرد فيها يعيش.

تتشبث الجماهير المقهورة بقيادة من هذا النوع تشعرها بالحياة، وتعوض لها نقصها، وتستبدل مشاعر العجز، بأحاسيس الجبروت والسيادة. وتتضخم أهمية هذه الجماعة على حساب الخارج تضخماً مفرطاً يجعلها تنغلق على ذاتها في حالة من النرجسية (لا ترى إلاّ نفسها، ولا تحس بقيمة خارج قيمتها، ولا تعرف بوجود سوى وجودها) الكلية. وبمقدار ما تغرق في انغلاقها، تسير نحو العزلة وتقطع علاقات التفاعل والمشاركة مع بقية الجماعات، كي تحل محلها علاقات عداء وحقد، واضطهاد متبادل.

من خلال انهيار علاقات التفاعل والمشاركة، والانغلاق على الذات تجد الجماهير المقهورة حلاً سحرياً لمأزقها من خلال أوالية الانشطار العاطفي والوجداني. العواطف المتجاذبة التي يمتزج فيها الحب والحق. التقرب والنفور، التعاون والصراع، تنشطر بشكل جذري إلى عواطف متناقضة (الحب القاطع، العدوانية الخالصة). أما الحب فيتوجه كله إلى الجماعة من خلال الالتفاف حول الزعيم والتعلق العاطفي به. هذا التعلق يؤدي إلى حالة ذوبان كلي في الجماعة وفقدان تام للفردية والأصالة الشخصية لأفرادها. كما يخلق حالة اعتماد مطلق على الجماعة، مصدر كل اعتبار وقيمة، ومصدر الاعتراف بالذات وتحقيقها. ينشأ نوع من اللحمة العاطفية والوجودية بين أعضاء الجماعة من خلال التعلق بالزعيم الذي يشكّل مثلها الأعلى: مصدر ونموذج القوة، والقدرة، روح الجماعة والمعبّر عن آمالها وشخصيتها ومخاوفها. وكذلك حامي الجماعة والمدافع عنها الحافظ لمصالحها.

هذا الانشطار في الجماعة يلغي كل تناقضاتها الداخلية ويجعلها مرجع كل فرد فيها، ومصدر كل توجه. وينشأ، محل الخوف والتهديد المتبادل، تعاطف وتعاضد واحتماء متبادل، كل فرد في الجماعة يصبح مرآة للآخر، والكل يرى نفسه في المرآة الكبرى وهي الزعيم. كل الصراعات تزول بشكل سحري، مما يشكّل وظيفة هامة جداً لهذه الميول التعصبية.

على النقيض من الحب والخير والقيمة المطلقة التي تكتسبها الجماعة، تبخس الجماعات الخارجية (المختلفة قومياً أو عرقياً أو طائفياً) من خلال إسقاط كل العدوانية عليها. وهكذا تصبح جماعة غريبة، مصدر كل سوء، صورة الشر بعينه، منبع كل تهديد للجماعة النرجسية. الجماعة الغريبة من خلال تجذير الاختلاف بينها وبين الجماعة الأولى المتعصبة، تصبح العقبة

الوجودية الأساسية التي تقف في سبيل وصول هذه الأخيرة إلى أهدافها في الرفعة والمنعة وتحقيق الذات. إنها تحمل كل الآثام والأوزار، في حالة من تفريغ كل المسؤولية الذاتية وكل السوء والشرور عليها.

عند هذا الحد تنهار علاقة التعاطف والمشاركة في المواطنية. وتفتح الطريق عريضة أمام صب كل العنف على الجماعة الغريبة دون قيد أو ضابط. تحدث استباحة لها، ولكيان أفرادها، الذين يتحولون إلى مجرد أساطير للسوء والشر يجب القضاء عليها بإبادتها دون هوادة. ويفتح باب المجازر الدموية على مصراعيه وبشكل مذهل. فالجماعة المتعصبة فيما تقدم عليه من مجازر لا ترتكب إثماً بحق أناس لهم كيانهم، بل إنها تقوم بواجب الدفاع المشروع عن النفس. وأكثر من هذا تقوم بواجب القضاء على الأوبئة التي تقف في سبيل تقدم البشرية. مجازر الدم والإبادة، تتحول إلى عمل نبيل في وهم وقناعات أعضاء الجماعة المتعصبة. فالأمر لا يعدو مجرد قضاء على رموز مجسدة في أناس من الجماعة الغريبة، التي تحاط بمجموعة من الأساطير، تنتزع منها إنسانيتها.

وهكذا ينفجر العنف مكتسحاً كل شيء، ويفرغ التوتر الداخلي الذي تحول إلى حقد خارجي، ويتحول المصير بشكل سحري من مهانة وخوف، إلى رفعة ومجد، في حالة من النشوة المريضة. وما يزيد خطورة هذا الأمر أن الجماعة الغريبة، ضحية التعصب، لا بدّ أن تثار فيها نوازع من النوع نفسه، وتتحرك دينامية مشابهة. فتنغلق على ذاتها وتتمحور حول زعيم يقود حربها، يعزز اللحمة بين أعضائها ويوجه عدوانيتها إلى الخارج. ويستخدم رد الفعل هذا كتبرير للجماعة المتعصبة كي تسير قدماً في عنفها. وتنشأ عن ذلك سلسلة متصاعدة من العنف الذي يقطع الجسور كلية بين الجماعتين. فيقوم جدار من الخوف والحذر المتبادل، الخوف من الانتقام، مما يزيد من تبعية الفرد لجماعته ويدفعه إلى مزيد من الغرق في أشد الانفعالات والمخاوف والرغبات البدائية: خوف مطلق، يقابله رغبة في الانتقام بدون حدود، ورغبة في السيطرة المطلقة التي تلغي الآخر تماماً.

تلك كارثة تتكرر من آن لآخر في هذا أو ذاك من المجتمعات المتخلفة، تاركة وراءها صورة سوداء عن العلاقات الإنسانية. خطر هذه الكارثة وارد طالما لم توجه طاقات الإنسان المقهور في اتجاه البناء والتغيير الذي يعود خيره عليه وعلى الجميع. الإنسان المقهور معرض للوقوع في التعصب والانجراف في موجات الفاشية، يشكّل وقودها الذي به تتأجج، مع أن مصلحته هي بالضبط في مقاومتها والتصدي لها. فالعنف الفاشي والمتعصب لا يحمل سوى وهم الخلاص، إنه حلّ سحري وانتحاري في آن معاً.

وإذا كان انفجار العنف على هذا الشكل أمراً محدود الانتشار بين المجتمعات المتخلفة،

فإنه يظل دوماً كخطر محتمل. وقبل هذا الانفجار يأخذ العنف الاضطهادي المتعصب أشكالاً ملطفة ومحددة في دمويتها، وقد يقتصر على التبخيس المعنوي، والعدوانية الرمزية أو اللفظية. طبعاً للمتسلط الداخلي وحليفه الأجنبي اليد الطولى في تفجير هذا العنف واستغلاله. وهو عندما يتأجج أو ينفجر، يشكّل عقبة أمام التوجه نحو التغيير البنّاء. العنف المتعصب لا يعرف سوى التدمير وسيلة إلى تحقيق الآمال والأهداف بشكل وهمي.

ثانياً: النظريات النفسانية في العداونية والعنف

العدوانية من مشكلات البشرية الدائمة. كل الأديان والفلسفات، كل المعايير والقوانين والقواعد السلوكية اهتمت بتنظيم العدوانية وطرق ضبطها أو تصريفها. وما زال الإنسان حائراً حتى الآن إزاء عدوانيته، كيف يسيطر عليها ويتصرف بها. لا هو ولا ما توسله من عقائد وفلسفات تمكنه حتى الآن من إيجاد سبيل ملائم لتوظيفها والسيطرة عليها. وقد كانت محاولات الحل عديدة ولكنها جزئية، تتذبذب ما بين إسقاطها على الخارج، على موضوعات خرافية كالجن والشياطين، أو على الآخرين، وبين ردها إلى الداخل (اتهام الذات)، واتهام الطبيعة البشرية الشريرة. البعض حاول السيطرة عليها بفلسفتها وعقلنتها، مما يفرغها من شحنتها النزوية. البعض الآخر يرى أنها شر يميّز الوجود الإنساني، لا خلاص منه. وعلى العكس من ذلك هناك من رأى فيها عنصراً ثانوياً معتبراً الخير كأساس.

يقول بوتول في مقدمته لكتاب «الإنسان الغاضب»[1]، من تأليف «فوستو أنطونيني»، إن إحدى الخصائص الرئيسية لكل حضارة هي الطريقة التي تفهم وتنظم بها العدوانية. هذا الفهم يغرس في نفوس جميع أفرادها منذ حداثة سنهم. كل تربية تتضمن توجيهاً للعدوانية. فهي تعلم متى وكيف يجب أن تكبح، أو بالعكس يسمح بها حتى تثار. ويتابع قائلاً: «الوظيفة الأساسية للدولة تتلخص بمنع أو تحديد العنف بالنسبة للأفراد، واحتكار استعماله لها فقط. الصلاحيات العليا للسيادة تتلخص في إدارة العدوانية الجماعية. محك الدولة ذات السيادة في قانوننا الدولي هو سلطة شن العنف المنظم، أي إعلان الحرب». جمال هذه الأفكار يكمن خصوصاً في مدى انطباقها على بلدان العالم المتخلف، حيث توجه العدوانية إلى الداخل على شكل قمع وإرهاب تمارسه السلطة، بينما هو يتوجه إلى الخارج في الدول الصناعية. سيكون لنا وقفة عند هذه الأفكار في القسم الثالث من هذا الفصل. ما نود قوله هنا، هو أن العدوانية مشكلة حقيقية من مشكلات البشرية الأساسية. نزيد فنقول لم تعجز القوانين

(1) Fausto Aatonini, L'homme furieux. Paris, Hachette, 1970, Introduction par Gaston Bouthoul, P. 9.

والقواعد وحدها عن حل هذه المشكلة، بل إن المذاهب الفلسفية والعلمية المختلفة قد عجزت حتى الآن عن وضع نظرية متكاملة تفسرها.

النظريات في هذا المضمار، وإذا اقتصرنا على الناحية النفسية، والنفس اجتماعية، عديدة جداً. كل منها ينطلق من منظور محدد، ويركّز على منطلقات معينة يعتبر فيها تفسيراً للعدوانية. كل منها يفيدنا في بعض النواحي، ولكن أياً منها لا يقدم تفسيراً شاملاً. إذا كان هذا شأن النظريات التي وضعت لتفسير العدوانية في المجتمعات الغربية. فإن العدوانية وما تتسم به من مظاهر عنف في البلدان النامية لا زالت بحاجة إلى صيغة تفسيرية. هذه الصيغة التي تراعي خصوصية التخلف الاجتماعي لا زالت مفقودة تماماً. لذلك سنحاول في هذا القسم أن نستعرض بإيجاز كبير بعض النظريات النفسية حول العدوانية، محاولين الاستفادة من بعض العناصر التفسيرية التي تقدمها، في محاولتنا لإلقاء الضوء على ظاهرة العنف في المجتمع المتخلف.

ولا بدّ قبل الخوض في هذه النظريات من إزالة الالتباس حول أسطورة العدوانية الهمجية، والعدوانية الحيوانية الشرسة التي يتمسك بها أفراد المجتمعات المتحضرة. فالعدوانية بلا حدود التي تملأ هوامات هؤلاء الناس عن دموية وشراسة الحيوان والبدائي ليست سوى أفكار منمطة[1]، ذات طابع تحيزي يهدف إلى إسقاط ما يخشاه هؤلاء في أنفسهم على كائنات غريبة أو أدنى منهم.

يخبرنا أوتو كلاينبرغ[2] عن البدائيين «بأن الحروب البدائية قليلة الخسائر في الأرواح عادة. . البدائي ليس وحشياً ولا همجياً بالدرجة التي تظهر في حروب المجتمعات الصناعية. في معظم الحالات تخضع حروب البدائيين لقواعد محددة في التعامل مع الأعداء، مثلاً: بعضهم (الاستراليون) يقدمون أسلحة للبيض غير المسلحين قبل الهجوم، وآخرون يرسلون قوارب مؤن غذائية للأعداء الجائعين كي تكون الحرب متكافئة، وهناك من روى أن بعض الهنود اقتسموا بارودهم مع أعدائهم. في كل تلك الحالات تتخذ طابع المباراة الرياضية. ومن ناحية أخرى. فإن الغارات المفاجئة دون إنذار، غير معروفة تقريباً في الحرب البدائية» (صفحة 93 ـ 94).

1 ـ وجهة نظر علم نفس الحيوان

أما في العالم الحيواني، فلقد أبدع العلامة «كونراد لورنز»[3] في دراسة العدوانية

(1) الأفكار المنمطة Stéreotypes.

(2) Otto Klinberg, Social Psychology. New York, N. Holt, 1954.

(3) Konard Lorenz, (L'histoire naturelle du mal), Paris, Flammarion.

وخصائصها مبيناً أن شراسة الحيوان المفترس ودمويته ليستا سوى أسطورة. العلاقات الدموية والعدوانية المفرطة لا تلاحظ إلاّ بين الحشرات: أما بين الحيوانات الفقرية فللعدوانية وظيفة محددة في الأمور الأربعة التالية، منفردة أو متداخلة فيما بينها:

- الدفاع عن المجال الحيوي، عن الطريدة أو منطقة الصيد.

- البحث عن الغذاء.

- المكانة المرتبية ضمن الجماعة، بغية تحقيق توازن وظيفي. وتقع على الأعلى مرتبة مهمات حماية الجماعة من الأعداء، وحراستها، وإرساء العدالة بين أعضائها.

- التزاوج، إذ تبرز أكثر أشكال القتال ضراوة بين أفراد الجنس نفسه، وتكتب الغلبة، للأقوى مما يؤدي إلى تطور الجنس. على العكس فالقتال بين الأجناس المختلفة لا يحدث إلاّ لأسباب دفاعية محضة أو للحصول على الطعام (ص 33).

ويستخلص «لورنز» من دراساته المستفيضة على سلوك الحيوانات في القتال عدة أمور هامة:

- هناك توازن بين سلاح الحيوان المفترس، ودفاعات الفريسة. فبمقدار ما يزداد الدفاع فعالية تشتد قوة السلاح والعكس صحيح (ص 34).

- يصل السلوك القتالي أقصى شدته في حالة الاستجابة الحرجة[1] إذ يبذل الحيوان أقصى إمكاناته في حالة من اليأس من النجاة بالهروب أو الإستسلام. كما تصل درجة قتالية الحيوان حدها الأقصى بمقدار اقترابه من مركز منطقته أو مجاله الحيوي.

- كل سلوك عدواني عند الحيوان، أو كل ميل عدواني يقابله ويضبطه ميل كابح[2] يمارس عمله من خلال سلوك طقسي[3] يقوم به الحيوان الأضعف (يأخذ طابع الرضوخ والاستسلام). تزداد قوة الكابح كلما قويت الميول العدوانية والسلاح العدواني. وتصل أقصى فعاليتها تجاه العناصر الأكثر ضعفاً. من خلال طقوس الرضوخ التي يقوم بها الأضعف تتحول عدوانية الأقوى إلى مسالمة. فأصل العلاقة الانتقائية في رأي «لورنز» هو ميل عدواني تحول إلى ضده من خلال الكبح.

- مأساة الإنسان بعدوانيته التي تتفجر عنفاً وشراسة وحقداً تعود، في رأي «لورنز» إلى فقدانه التكيف النزوي، أي فقدان الكوابح الغريزية لعدوانيته، التي حلّت محلها الكوابح الخلقية والحضارية. ولكن المشكلة أن هذه لم تصل بعد درجة الفعالية التي تحصنه ضد

---

(1) استجابة حرجة Réaction critique.

(2) كابح Inhibiteur.

(3) سلوك طقسي Conduite rituelle.

عدوانيته كما هو شأن الحيوان. وهكذا فنفس العوامل التي ارتقت بالإنسان فوق كل الكائنات الحية، وضعته في وضعية محفوفة بالخطر. فقدان التكيف النزوي مع المحيط حدث قبل بروز تكيّف حضاري مضمون.

ـ غربة وبُعد العدو موضوع الهجوم يسهلان كثيراً اطلاق العنان للسلوك العدواني، (ص 298). فكبر المسافة المكانية (ونضيف نحن العاطفية كما سنرى فيما بعد) التي أصبحت الأسلحة النارية فاعلة في مداها، جعلت الإنسان في منأى عن الوضعيات المثيرة التي كان يمكن في حالات أخرى أن تنشط صدوده ضد القتل (ص 257).

ـ العدوانية غريزة تلقائية. إنها ليست مجرد ردّ فعل على مثير خارجي محبط. فهي تتحرك تلقائياً. وإذا لم تجد لها فرصة للتفريغ، فإن عتبة إثارتها تهبط بشكل ملموس. إذا لم تجد العدوانية لها عدواً خارجياً تصرف من خلال التهجم عليه، فإنها ستتوجه إلى داخل الجماعة في تناحر شديد يقضي على حدتها متعللاً بأوهى أسباب الخلاف.

ـ على العكس من ذلك هناك الحماس المناضل(1). وهو نوع من العدوان المشترك يرتبط بالحاجة إلى الانتماء، ويستند إلى استجابة غريزية تنطلق في ظروف خاصة للدفاع عن الجماعة. ويظهر عند الحيوان والإنسان على حد سواء. ولكن بينما يتخذ في الحالة الأولى شكل الاستجابة المقننة غريزياً من حيث الموضوع والهدف، فإنه قابل للتعلق بموضوعات وأهداف متعددة عند الإنسان. وشروطه الأساسية هي: إحساس بتهديد فعلي للجماعة التي ننتمي إليها، وجود عدو خارجي محدد هو مصدر التهديد، صورة بطل أو زعيم تلتف حوله الجماعة، ازدياد عدد أفراد الجماعة التي تلتف حول هذا الزعيم. والحماس المناضل استجابة انفعالية لا تخضع لمنطق أو إقناع عقلاني. ويؤدي عندما ينطلق إلى التضحية بالذات أو إبادة العدو دون أي ضوابط أو حدود. من خلاله يفرغ، عند الإنسان، بامتياز العدوان المبرر.

ـ يضيف «أنطونيني» إلى ذلك كله، إن الحقد هو أهم ما يميّز عدوانية الإنسان عن عدوانية الحيوان. فليس هناك حقد عند الحيوانات. كما أن عدوانية الحيوانات لا تصل أبداً درجة الاستقلالية التي تلاحظ عند الإنسان. فالحقد هو عدوانية تسامت حتى تجاوزت البيولوجي كلياً، كي تصل مرتبة نفسية خالصة (أنطونيني، المرجع نفسه، صفحة 60). ويأتي الحقد إجمالاً من تراكم مزمن للعدوانية.

هذه الأفكار ذات فائدة كبرى لنا في محاولتنا رسم صورة عن العنف في المجتمع المتخلف. فهي تلغي الاسطورة عن عنف الحيوان، وتضعنا أمام مصيرنا بوضوح كأناس،

(1) الحماس المناضل Enthousiasme militant.

كما أنها تتضمن مبادئ أساسية في تفسير دينامية العدوانية الإنسانية: العدوان الموجه إلى خارج الجماعة أو إلى داخلها، ومسألة الغربة والبعد المكاني.

2 ـ وجهة نظر التحليل النفسي

هنالك عدة وجهات نظر حول العدوانية والعنف يقول بها المحللون النفسيون على اختلاف نزعاتهم، انطلاقاً من آراء «فرويد» وما حدث بصددها من انشقاقات. يقول فرويد بنزوتين أساسيتين توجهان المتعضي[1] وتمدانه بالطاقة الحيوية. نزوة الحياة (ويطلق عليها اسم إيروس) ونزوة الموت (ويطلق عليها اسم تاناتوس). توصل فرويد إلى القول بهما في نهاية بحثه العيادي والنظري. أما نزوة الحياة فهي منبع الطاقة الجنسية، المسؤولة عن كل رباط إيجابي مع الآخرين، عن كل علاقة عاطفية متعاطفة، هي المسؤولة عن التقارب والتوحيد والتجميع وتكوين وحدات حية أكبر فأكبر. على العكس منها، نزوة الموت التي تهدف إلى التدمير، إلى تفكيك الكائن الحي والعودة به إلى وضعية الجماد. وهي حين تتركز في المتعضي أو ترتد إليه تؤدي إلى تدميره وإفنائه، أما إذا توجهت إلى الخارج فإنها تأخذ كل أشكال العدوانية والتدمير والعنف والحقد. عندما تتوجه إلى الذات بشكل مخفف فإنها تأخذ طابع مشاعر الإثم وإدانة الذات والقسوة عليها والتشدد معها (فيما يسمى الأنا الأعلى القاسي). على العكس منها نزوة الحياة التي إذا ما تركّزت في الذات تشكّل أساس ومصدر كل اعتبار ذاتي، محبة الذات والحفاظ عليها، وقد تصل حدّ الأنوية المفرطة.

ومن رأي «فرويد» أن الليبيدو (وهو الطاقة الجنسية الممثلة لنزوة الحياة) في صراع مفتوح مع غريزة الموت في كل متعض. مهمة الليبيدو هي لجم نزوة الموت ومنعها من تدمير المتعضي، وذلك بتوجيه القسم الأكبر منها إلى الخارج. فالنزوتان متفاعلتان داخلياً وخارجياً، ولا توجدان إلاّ في حالات نادرة بشكل صاف. أمر آخر من الضروري الإشارة إليه، هو أن هاتين النزوتين لا تمارسان تأثيرهما كطاقتين حيويتين بشكل خام. إنهما تركزان منذ الطفولة الأولى في العلاقات مع الأم خصوصاً، ومع الوالدين عموماً. موقف الرضيع الانفعالي من أمه متجاذب يتضمّن أقصى درجات الحب مع أقصى حالات الغضب الحاقد عندما تحبط هذه الأم رغباته، وكذلك الحال تجاه الأب. هذا التركيز النزوي في العلاقات الأولى وما يتخذه من طابع متجاذب، يولّد ويكوّن التصورات الأولى عن الشخص الإنساني وعن العلاقة عموماً فيما يسمى بالصور الوالدية الأولية. هذه الصور بجانبها المحبوب، وبما تستقطبه من حقد، هي النموذج الأولي لكل علاقة تالية. كل علاقة لا بد متأثرة بتلك الصور الأولية التي قد

(1) متعضي Organisme.

يطغى عليها الطابع الإيجابي المحب، الرحوم، (الصور الجيدة الطيبة) أو الطابع القاسي المهدد، العنيف (الصور السيئة أو الشريرة). وهناك ميل عام لإنكار الصور السيئة، وما تستقطبه من عدوانية وما تشكله من تهديد لتكامل الذات، من خلال نفيها وإسقاطها على الخارج. يصاحبه ميل آخر لإعلان شأن الصور الطيبة (نموذج الحب والحماية) كدفاع إضافي ضد قلق العدوان.

تلك هي باختصار وضعية النزوات. ولقد حدث خلاف كبير بين المحللين النفسيين حول أولويتهما. فهناك من يتبع فرويد ويتمسك بتقسيمه حرفياً، قائلاً بأولوية نزوة الموت. أشهر من يمثّل هذا التيار ميلاني كلاين ومدرستها. وهناك من ينكر أولوية نزوة الموت، وينكر حتى وجود نزوة كهذه أصلاً، راداً الأمر إلى عوامل مختلفة أهمها إحباط الحب واعتبار الذات. أشهر هؤلاء رايش.

أما مدرسة كلاين فلها مكانتها الخاصة في شأن تحليل العدوانية، نظراً لإسهامها القيم في دراسة ديناميتها وتوظيفاتها المختلفة وتفاعلها مع نزوة الحب.

فإذا ظلت نزوة العدوان على حالتها، فإنها تهدد المتعضي بالتدمير من الداخل. وهذا ما يولّد فيه أشد حالات القلق الذي يأخذ شكل الخوف من الفناء، أو الإحساس بالاضطهاد. وكذلك نزوة الموت، باندماجها مع نزوة الحياة وتوجهها إلى الموضوع الأول لاهتمام الطفل وهو الأم، تخلق صراعات عنيفة داخل الطفل. فهو يخشى من ميوله التدميرية على ذاته، وعلى علاقته مع أمه، وعلى صورتها التي تكوّنت لديه. ولهذا فإنه يحتمي عادة بنزوة الحب من الخطر التدميري الذي تتضمنه نزوة الموت. ولكن هذا لا يكفي، بل ينشط الجهاز النفسي للطفل كي يتسلح بعدة أواليات دفاعية. من أهم هذه الدفاعات وأكثرها بدائية في رأي ميلاني كلاين ما يلي[1]: الانشطار[2]، المثلنة[3]، والإسقاط. أما الانشطار فيعني فصم الذات، وفصم النزوات، وفصم الموضوع. تقسم الذات إلى كيانين غريبين عن بعضهما البعض، الأول هو الطيبة كلها وهو المحبة الخالصة، والثاني هو السوء والشر والعدوانية خالصة أيضاً. أما فصم الموضوع فيتخذ أيضاً المظهر نفسه، فصل قاطع للجوانب السيئة الشريرة عن الجوانب الطيبة المحبة. وأما فصم النزوات، فهو فصل الحب عن الحقد. في هذا الفصم المثلث يحدث إعلاء لشأن الموضوع المحبوب ورفعه إلى مرتبة المثال الصافي (المثلنة). هذه المثلنة للموضوع المحبوب تؤدي إلى مثلنة مقابلة للذات، عنوان الطيبة والحب والجودة.

---

(1) Melanie Klein, Notes sur quelques Mécanismes schizoides in développement de la psychanalyse, Paris, P.U.F. 1972, P. 575.

(2) انشطار Clivage.

(3) مثلنة Idéalisation.

ولا تتم هذه المثلنة بالطبع إلاّ بإنكار كل عدوانية أو ميل تدميري عن الموضوع وعند الذات. فالعدوانية التي أنكرت، لا تظل عائمة هكذا، فهي تنفى من خلال إسقاطها، أي بنبذها إلى الخارج. في هذا الإسقاط تتركز في موضوع مكروه هو رمز الشر ورمز العدوان. فيما تسميه ميلاني كلاين بالتماهي الإسقاطي. أي أننا بعد أن نصب كل سوئنا وعدوانيتنا على شخص خارجي، يصبح رمز هذه العدوانية، وحاملها، لا ندرك منه إلاّ جانبه هذا. وبذلك نتهرب من عدوانيتنا وسوئنا، ونجنب من نحب شرهما، كما نجنب أنفسنا شر ما قد يتهددنا من عدوانيته.

«إن الإسقاط منتشر جداً في العلاقات بين الناس (خصوصاً المهنية والحزبية) فيما يتعلق بمصدر السوء والشر والعدوانية: الآخرون هم المخطئون»[1] في الإسقاط تحوّل النزوة العدوانية إلى الخارج، وفي مرحلة تالية نتخذ من هذا الخارج هدفاً لصب عدوانيتنا المتبقية. في اتهام الآخرين نجد راحة مزدوجة: تصريف العدوان بصبه عليهم (الانتقاد) وإثبات البراءة الذاتية (نفي تهمة العدوان عن الذات)، ذلك ما يحدث في التعصب الديني والطائفي والسياسي (المرجع نفسه، ص 54). ليست العدوانية وحدها التي تسقط على الخارج، بل أيضاً مشاعر الذنب (الآخر هو المذنب وهو الذي يستحق العقاب، ومن هنا تصبح العدوانية الذاتية مشروعة ومبررة، إنها إحقاق الحق من خلال قصاص الآخر) (ميلاني كلاين، المرجع السابق).

تذهب بولا هايمن[2] (من أتباع ميلاني كلاين المرموقين) المذهب نفسه حين تقول: «إنه في حالة القسوة العمياء يحدث نوع من الكارثة النزوية. فلسبب ما ينكسر الدمج بين النزوتين الأساسيتين، وتستيقظ نزوة الموت داخل الشخص إلى درجة قصوى، دون إمكان تلطيفها بتدخل نزوة الحياة. الدفاع الأكثر بدائية ضد نزوة الموت هو التحويل الفظ للخطر الداخلي إلى الخارج يصبه على ضحية ما». وتقول بهذا الصدد: «إنه بسبب ضرورة تحويل الحقد والتدمير، وفي المقام الأخير نزوة الموت، من الذات نحو الموضوعات، نحن بحاجة إلى موضوعات «سيئة» ونحن نخلقها إذا لم نجدها في متناولنا» (المرجع نفسه، ص 315).

لا تعتقد هذه الباحثة أن القاتل يعي التهديد الذي تشكله كارثته الداخلية... ولكن أفعاله لا يمكن فهمها إلاّ بافتراض أنه مأخوذ بحاجة ماسة لإيجاد ضحية ـ كبديل عن نفسه ـ هذا الافتراض وحده يمكنه تفسير الغياب الكلي للتعاطف مع عذاب الضحية، تلك الهمجية التي تمارس خلال فعل القتل والتلذذ بنزاع الموت الذي تمر به.

---

(1) M. Klein et Joan Riviere, L'amour et la heine, Paris, P.B. Payot, 1972, P. 51.

(2) Paula Heimann, Développements de la psychanalyse, Paris, P.U.F. 1972, P. 309.

مهما يكن من أمر نزوة العدوان هذه، أولية كانت أم ثانوية، فإن ما نستطيع الاستفادة منه بلا جدال، من وجهة نظر ميلاني كلاين وأتباعها، هو هذه الدينامية النفسية التي توضح الصراع العلائقي: التنكر للعدوانية الذاتية، ولمشاعر الإثم الذاتية، وإيجاد موضوع ضحية يجسدها ويعبِّر عنها في الخارج، والتهجم عليه لدرجة إبادته. وكذلك انشطار العواطف إلى الميول السيئة والحسنة، والإحساس بأننا ومن نحب، وكذلك من يحالفنا، مثال البراءة والارتقاء وإسقاط كل الشر والخطر والعدوان على الأعداء.

يبقى هذا الإسقاط للعدوانيّة ولمشاعر الإثم أوالية فاعلة في حياتنا اليومية وفي كل صراعاتنا العلائقية. ولذلك نجد الكثير من العلماء قد قالوا به. يقول (أنطونيني) بهذا الصدد «إن هناك في كل الحالات تقريباً جهداً لإزاحة العدوانية خارج الذات، بشكل يمكننا من نفيها، من عدم رؤيتها في ذاتنا، يمكننا من التعامي عنها، فاكتشاف الحقد الكامن فينا ظاهرة مولّدة للقلق. أما اكتشاف الشر ضد الآخرين فيمنعنا من رؤية الشر الذي فينا» (أنطونيني، المرجع السابق، صفحة 88).

هناك نفر يربطون بين الميول التدميرية وإحباط تحقيق الذات عموماً أو الإحباط الجنسي خصوصاً. هؤلاء ينكرون إجمالاً ربط العدوانية بنزوة الموت كنزوة أولية.

يقول يونج: «إن المرء يمكن أن يشعر بالذنب لا على أثر فعل ممنوع، ولكن أيضاً عندما لا يستطيع الوصول إلى تحقيق ذاته، إبراز فرديته الخاصة والعميقة. هذا الشعور بالذنب هو الذي يولِّد عدوانية غير محدودة» (ذكره أنطونيني في كتابه، صفحة 129).

ويذهب ماندل المذهب ذاته حين يقول «لا جدال في أنه يوجد عند الإنسان قوة استثنائيّة من النزوات العدوانية التي يمكن إرجاعها لما سميناه سابقاً الجرح النرجسي الأصلي (النابع من وضعية القصور والعجز والإحباط التي لا بد أن يعانيها الطفل بالمقارنة بقوة والديه وما يعتقد أنهما يتمتعان به من جبروت)، الذي يتغذى فيما بعد من مجموع إحباط وقيود وتبعية الطفولة. يجب أن تعتبر العدوانية في الواقع كجواب الأنا على معاناة النرجسية»[1].

أما رايش فهو يحتج على التشويش بين مصطلحات العدوانية، السادية، التدمير وغريزة الموت. ويقول إنه لم يجد مطلقاً في أبحاثه العيادية حول أصل الحقد، رغبة في الموت، أو غريزة موت كنزوة أولية. من رأيه أن للعدوانية ونزوة التدمير هدفاً دفاعياً هو الحفاظ على الحياة. التدمير في وضعيات الخطر ينبع من الرغبة في العيش والرغبة في تجنب ألم القلق[2]. الغريزة التدميرية تخدم هدف الرغبة في الحياة. فالتدمير والعدوان هما في خدمة إرادة الحياة.

---

(1) G. Mendel, La revolte contre le père. Paris, Payot, 1968, P. 43.

(2) W. Reiche, Fonction de l'orgasme. Paris. L'arche, 1955, P. 126.

كل حركة إيجابية في الحياة عدوانية: النشاط الجنسي، كالبحث عن الطعام، كالسادية، إلخ.. العدوانية هي اقتراب من الأهداف المرغوبة واستحواذ على الموضوعات المرغوبة. العدوانية ليست غريزة بالمعنى الدقيق، بل وسيلة لإرضاء أي غريزة، خصوصاً غريزة الجنس.

كل نوع من أنواع الفعل التدميري هو في حد ذاته ردّ فعل المتعضي على رفض إشباع حاجة حيوية، وتحديداً الحاجة الجنسية (المرجع نفسه، صفحة 127). فالقمع الجنسي كالكبت الجنسي، يترك العدوانية المصاحبة له حرة تنطلق عندها في سادية تبحث عن لذتها. فإن فقدان الهدف الحقيقي للحب يولّد السادية التي تنبع من انعدام إمكانية الإشباع الجنسي عن طريق الحب (المرجع نفسه، صفحة 127). ويقرر رايش بهذا الصدد أن التدميرية السادية العامة المميّزة لعصرنا الحالي هي نتيجة الصد الطاغي لحياة الحب الطبيعي. ولذلك فكلما زادت القدرة على الإشباع الجنسي قلّت السادية وبالعكس (المرجع نفسه، صفحة 128).

إن الإحباط الجنسي، أو إحباط تحقيق الذات بشكل أعم وما يرافقه من جرح نرجسي يوصلنا إلى ذكر نظرية (دولار)، عالم النفس الاجتماعي، في الإحباط والعدوانية.

تقوم هذه النظرية على المبادئ التالية:

كل توتر عدواني ينتج عن الإحباط. شدة العدوانية تتناسب مع شدة الإحباط من ناحية، وقوة الحاجة المحبطة من ناحية ثانية. تزداد العدوانية مع نمو عناصر الإحباط. صد العدوانية (إحباطها) يولّد عدوانية لاحقة، بينما يخفف تفريجها من شدتها بشكل مؤقت أو دائم. صد أفعال العدوانية الموجهة يشكّل إحباطاً جديداً ينتج عدوانية موجهة لمصدر الإحباط، ويزيد قوة الدفع نحو أشكال أخرى من العدوانية التي تنتشر عندها لتنبث في مختلف أشكال النشاط وأوضاع الوجود. تزداد العدوانية الموجهة نحو الذات، حيثما صعب توجيهها نحو الخارج، وحيث يستمر منع تصريفها الخارجي. (مستقاة من كتاب أنطونيني، الإنسان الغاضب، صفحة 196 ـ 197).

هذه الآراء جميعاً على ما فيها من تناقض نظري، تلتقي في نتائجها العامة، فيما يمكن أن نسميه نزوة السطوة أو السيطرة، في جبروت السيادة على الآخر. عند هذه النقطة لا بدّ من وقفة سريعة عند السادية.

السادية في أساسها حالة نفسية عامّة، وضعية علائقية مع الآخر تتخذ طابعاً مأسوياً، أكثر منها مسألة حصول على اللذة الجنسية من خلال إنزال الألم بالقرين. السادية الجنسية هي حالة نوعية خاصة من السادية العامة. بهذا المعنى تنطلق السادية مما يمكن تسميته بنزوة السطوة[1]. إنها سيطرة على الآخر وحطّ لشأنه من أجل إعلاء شأن الذات بواسطة العنف.

---

(1) نزوة السطوة Pulsion d'emprise.

يكمن جوهر السادية، في نظر أنطونيني، في البحث اليائس عن الأنا، في الحاجة إلى توكيد الذات، في دفع الآخر للاستجابة إلى حقيقتك الذاتية: هذا أنا، أنا هنا، يقول السادي، يجب أن تلاحظ وجودي، إذا لم تلاحظه بمحبتي فعليك أن تدركه من خلال ألمك، إني أنا من يجعلك تتألم. بألمك تعترف بوجودي الذي يصبح أكثر واقعية بمقدار ما تكبر معاناتك (المرجع نفسه، صفحة 91).

السادية النفسية تهدف إذاً إلى السيطرة على الآخرين وإذلالهم، تجميدهم، شلهم، إخافتهم، صدهم، وضعهم تحت رحمته، تحقيرهم، تحطيم انطلاقتهم، ومبادرتهم: «فالسادي يجمد الآخرين كي يتمكن من التحرك هو» (صفحة 107). يعتقد السادي أن أكبر إثارة ممكنة، الاعتراف الحقيقي بالذات، تحقيق الذات الأكثر عمقاً يحصل عليه من خلال التحقق من قدراته على إنزال العذاب والمعاناة في الآخر. إنها سيطرة تتميّز بجبروت القدرة على إعطاء الموت، تعاش كمجد ذاتي نرجسي. وهي تتضمن نوعاً من نشوة القوة بدلاً عن نشوة المتعة الجنسية. ما يود السادي الوصول إليه هو إذاً نشوة الجبروت من خلال مسح وجود الآخر. بذلك فحسب يطمئن إلى قوته غير الواثق منها، ويخفف من حدة قلقه.

الحاجة إلى الاطمئنان واضحة تماماً عند السادي، الذي يعمل في الآخرين ما يخشاه على وجه الدقة لذاته. إنها الطمأنة على القوة الذاتية، من خلال تدمير الآخرين وإبادتهم. بهذا وحده يتمكن من حسم مشاعر القلق من خلال هذا الفعل الكارثي المجسد في عنف بلا حدود. السادي إذاً يسقط كل ضعفه على الضحية التي يبيدها في حالة من إنكار هذا الضعف بعد تجسيده في الخارج. والهدف هو الوصول إلى شعور بدائي بالجبروت الذي يجعل التدمير ضرورة لا مناص منها.

بالإضافة إلى السادية الفردية هناك السادية المؤسسية. هناك مؤسسات تحكمها إيديولوجية سادية توجه تصرفات العاملين فيها وتفرض المازوشية والقهر على أفرادها: الجيش، التنظيمات البوليسية، السجون، الإصلاحيات، مستشفيات الأمراض العقلية، الامتحانات... وخصوصاً، في رأينا، السلطة في مختلف مظاهرها في المجتمع المتخلف، فالعلاقات ضمن مؤسسات هذا المجتمع يحكمها أساساً منطق ولغة الإدانة.

3 ـ وجهة نظر ظواهرية

احتلت المدرسة الظواهرية مكانة قيّمة في دراسة العنف في الفترة الأخيرة لأنها طرحت المسألة من منظور جديد ثري بمعطياته وآفاقه. تنطلق هذه المدرسة من دراسة التجربة الذاتية للإنسان في تفاعله العلائقي مع الآخرين. فالعنف، كغيره من أشكال السلوك، هو نتاج علائقي أو بكلمة أكثر دقة، نتاج مأزق علائقي. أما التدمير والقتل فهما كارثة علائقية

تصيب الذات في الوقت نفسه الذي تنصب فيه على الآخر وتبيده. العدوانية هي طريقة معينة للدخول في علاقة مع الآخر، يقول اينار[1]: توكيد الذات يتمّ في حالة من الجبروت السحري، من خلال إنكار الآخر بواسطة العنف. نرى من ذلك الانتقال المستمر من التحليل النفسي (من خلال الحديث عن السادية) إلى وجهة النظر الظواهرية التي أعطت العلاقة مكانتها الحقة في تحليل العنف. الفارق الأساسي بينهما هو أن الظواهرية تدرس العلاقة المعاشة الواقعية وما يصاحبها من تجربة وجدانية، بينما اهتم التحليل النفسي بالعلاقة الهوامية، أو العلاقة الإسقاطية. نقاط الالتقاء عديدة بين هذين التيارين، وقد تتضح لنا بجلاء بعد استعراض وجهة النظر الظواهرية.

حللت هذه المدرسة في دراستها لمسار العنف، أو تجسيده في فعل حركي كارثي، التحولات الذاتية التي تتم عند المعتدي، وكذلك التحولات التي تصيب علاقته بالآخر. وهي تحولات لا يمكن دونها الاعتداء على الآخر. فليس هناك مطلقاً عنف مجاني، اعتباطي، أو فجائي أو بدائي (نزق) كما قد يتصور البعض. العنف الذي نراه مجسداً في كارثة علائقية، هو وليد عملية تغيّر بطيء داخلياً وعلائقياً، يقضي على عواطف الحب والمشاركة ليفجر مكانها العنف حراً.

أولى خطوات السير نحو السلوك التدميري هو فكّ الارتباط العاطفي بالآخر. تنهار روابط الالفة، أو المحبة، أو الحماية، أو التعاطف، (على المستوى الفردي) كما تنهار روابط المواطنية أو المشاركة في المصير وكل ما عداها من الروابط التي تحمي حياة الآخر وتدفعنا إلى احترامها. تحلّ محل تلك الروابط مشاعر الغربة والعداء والاضطهاد، مما يؤدي إلى بروز الأنوية والتقوقع على الذات أو الجماعة المرجعية. والأنوية هي في الأساس العجز عن اعتبار مسألة ما، إلاّ من خلال وجهة النظر الذاتية. الوجه الآخر للأنوية هو فقدان الآخرين لاعتبارهم. تتركز كل العواطف الإيجابية في الذات بعد أن كانت موزعة بينها وبين الخارج، أو في الجماعة المرجعية، بعد أن كانت موزعة بينها وبين بقية الجماعات.

يرافق فكّ الارتباط العاطفي، سحب كل التوظيف العاطفي من الآخر، وإرجاعه إلى الذات فتتضخم أهميتها على حساب الخارج الذي تتبخس قيمته. يطغى البرود العاطفي إذاً لدرجة قد تصل حد انعدام الحساسية كلياً تجاه الضحية. هذا البرود هو الذي يجعل المعتدي يقدم أحياناً على فعل القتل أو الإبادة ببرود كلي، بلا مبالاة وكأنه يقدم على أمر تافه لا قيمة له.

فكّ الارتباط العلائقي وما يرافقه من برود عاطفي يخلق إذاً غربة كبيرة بين المعتدي

---

(1) A. Hesnad, psychologie du crime, Paris, Payot, 1963, P. 300.

وضحيته، يسلخ عنها مشاركتها له في الإنسانية. بعد قمع مشاعر الحب والمشاركة، تنفجر مشاعر الحقد الذي يفتح باب العنف على مصراعيه. وحتى يتجسد هذا العنف في فعل تدميري يمس الآخر، لا بدّ من عملية شرعنة[1]، تغطي المعتدي وتزيل عنه المسؤولية بوضعها على الضحية.

عملية الشرعنة هذه تتضمن تحولات في النظرة إلى الذات وإلى الآخر الذي يشكّل الضحية المقبلة. يعيش المعتدي المقبل وضعه تحت شعار الغبن المفروض[2] وذلك من خلال تضخم ما لحق به من ظلم أو وقع من حيف الضحية عليه. إنه بريء ومظلوم ولا مسؤولية له فيما حدث. ولا بدّ له أن يتحرك إذاً لإحقاق الحق، ورفع الضيم وإزالة الغبن. يتم هذا التحرك من خلال بروز الاتجاه الإنصافي[3]. إن واجبه أن يدافع عن نفسه التي امتهنت، وعن حقوقه التي اغتصبت. تتغذى مشاعر الغبن المفروض وما يرافقها من اتجاه إنصافي من الأنوية، وتغذيها بدورها مما يضخمها بشكل مفرط. هذا التضخم يبالغ في خطورة الغبن الذي وقع عليها، ويعظم من شأن الخسارة (الفعلية أو الوهمية) التي حلّت بها. نتيجة كل ذلك تصعيد الحقد على الآخر، والإحساس بضرورة التعويض على الذات والاهتمام بها.

يقابل هذه التطورات الذاتية تغيّر حثيث في إدراك الآخر، من خلال مجموعة من الأساطير التحقيرية. فالاتجاه الإنصافي لا يستمر إلاّ من خلال التحقير الثابت للضحية. يصف (اينار) بشكل رائع عملية التحقير هذه: «في الجريمة يتحول الآخر إلى أسطورة (أسطورة الخيانة، السوء، الحسد، الاضطهاد، انعدام القيمة. إلخ..). الشخص الحقيقي المقصود ينمحي تدريجياً في حالة من التعامي الموجّه والموافق عليه عن إنسانيته» (المرجع نفسه، صفحة 254).

يفقد الآخر حقيقته كشبيه إنساني (في عيني القاتل) متحولاً إلى أسطورة لا واعية (مفهوم التماهي الإسقاطي عند كلاين) تبرر بتصرفاتها أو خصائصها الاعتداء عليها، يتحول إلى أسطورة العقبة الوجودية، أو السوء، أو انعدام القيمة. هذه الأسطورة تؤدي إلى تغيير شخصية القاتل وتبرر له اتجاهه الإنصافي. وبمقدار ما تحقر الضحية وتتحول إلى أسطورة يزداد تسلط حق القاتل في القتل.

تصل عملية التحقير هذه حداً بعيداً فتحمل الضحية المقبلة كل الأوزار والصفات المحطّة، يعبّر عنها أولاً بالسباب والشتائم، ثم بالنعوت المتصاعدة في تبخيسها، وقد يعمم

---

(1) شرعنة: جعل الأمر مشرعاً، يقوم على حق المعتدي في ارتكابه Légitimation.

(2) الغبن المفروض Inustic subie.

(3) الاتجاه الإنصافي Attitude justicière.

الأمر من المستوى الفردي إلى مستوى كوني: الضحية كائن خطر على الجميع ويجب القضاء عليها. ولذلك «يبدو القتل عندها في نظر القاتل كشيء طبيعي تفرضه الظروف وله ما يبرره، دون أن يثير أي إحساس بالندم» (المرجع نفسه، صفحة 266).

في هذه الكارثة العلائقية، تتحول الضحية أسطورياً باختزال عادي في ذهن المعتدي لا إلى مستوى الشيء فحسب، ولكن إلى مستوى الشيء حامل اللعنة الذي يجب تحطيمه. الآخر المحقَّر، يحتل في ذهن المعتدي دلالة العقبة الوجودية التي تسرق له حقه في السعادة، حقه في الاستقلال، حقه في الحرية، إلخ.. ولذلك يصبح فعل القتل، لا فقط بريئاً من الإثم ومبرراً فحسب، بل مطلوباً كواجب نبيل هو الدفاع عن الذات وكرامتها وقدسيتها، أو الدفاع عن الجماعة وقيمها، أو حتى الدفاع عن الحضارة والإنسانية من العناصر المخربة الهدامة. وهكذا يبدو العنف التدميري كضرورة مبررة، لا بدّ منها لإعادة الأمور إلى نصابها، كواجب على المرء النهوض به، من أجل بدء وجود جديد لا تسممه ولا تعرقله الضحية ـ العقبة الوجودية.

هذه التحولات تلاحظ بوضوح كبير في تصرفات العنف والإبادة ذات الطابع السياسي. فحين يجسد عدة قواد نشيطين الشرعنة الجماعية لفعل القتل، تثار الجماعة وينتشر فيها التبرير الجماعي انطلاقاً من أفكار سياسية أو مواطنية. وقد يصل الأمر حد الوحشية الدموية، يساهم فيها أناس عديدون، معتقدين أنهم يقومون بواجب جماعي، أو بإحقاق العدالة واستعادة الاعتبار للجماعة. في هذه الحالة يحل محل الرباط الإنساني مع الآخر، رباط كارثي ينفجر في عدوانية صمّاء متخذاً طابع الخيار المأزقي (أنا أو هو، نحن أو هم). محل رباط المشاركة تحل علاقة السيطرة الجبروتية للذاتية المطلقة التي لا يمكن أن تتأكد إلاّ من خلال إبادة الآخر، أو على الأقل إنكاره بواسطة العنف (المرجع نفسه، صفحة 302). وهكذا ينفجر جبروت الفعل المسيطر في حالة من نشوة سيادة النرجسية، سيادة الأنا ممارسة على الآخر، من خلال الإبادة. وهكذا فالقتل ومختلف أشكال العنف الذي نلحقه بالآخرين هو انفجار للرباط الإنساني، كارثة تصفية لعلاقات المشاركة.

ثالثاً: محاولة لفهم العنف في المجتمع المتخلف

العنف هو آفة المجتمع المتخلف. وكما أن الحب قد يكون بدون حدود من خلال تدفق العواطف، كذلك فإن العدوانية قد تكون متفجرة في المجتمع المتخلف. العدوانية والعنف بمظاهرهما المختلفة ينخران بنية ذلك المجتمع رغم كل مظاهر السكون والدعة والمسالمة الظاهرية. العنف هو لحظة انفجار الحقيقة الكامنة في بنية التخلف، والأشكال الدموية والكاسحة التي يأخذها تؤكد هذه الحقيقة. وقبل أن ينفجر العنف فإنه يعاش كاملاً، نرى

البرهان عليه في التعطش المفرط إلى القوة بكل مظاهرها، إلى الجبروت والسيطرة بكل عنفوانهما، عند جماهير المجتمع المتخلف. إن للقوة سحراً لا يضاهيه أي سحر. والواقع إن العنف المدمر هو في نهاية كل تحليل فعل سحري، فعل قوة مطلقة تسيطر على الواقع وتقلب المصير رأساً على عقب. واقع المهانة والعجز والقهر، والمصير المجهول الحافل بكل احتمالات القلق وانعدام الشعور بالطمأنينة.

ولذلك فإن العنف في المجتمع المتخلف بحاجة إلى نظرية نوعية تنطلق من واقعه تحديداً، إذ إن النظريات التي أوردنا عناصر من بعضها لا تحيط به، ولا تستوعبه لحظة انفجاره، وإن كانت تسلط بعض الأضواء عليه. ليس من الممكن وضع نظرية كهذه إلاّ انطلاقاً من دراسات ميدانية عدة، تحتاج إلى وقت كبير وتضافر جهود عدد هام من الباحثين في العلوم الإنسانية. إن (فرانز فانون) من الرواد الذين حاولوا فهم هذا العنف وسلطوا أضواء قيِّمة عليه، خصوصاً العنف المرتد إلى الذات، والعنف الموجه إلى الآخر المثيل الذي هو في الواقع صورة للذات ومرآة تعكس مهانتها وعجزها.

أما نحن فنقترح تسليط ضوء آخر من خلال تحليل علاقة القهر التي تستحكم بالإنسان في المجتمع المتخلف، ومن خلال ما تتضمنه هذه العلاقة من تبخيس وهدر لإنسانيته. في رأينا أن العنف هو الوجه الآخر للقهر، وأن العدوانية المدمرة التي تتخذ طابعاً فاشياً، هي قرينة الإرهاب. العنف هو الوجه الآخر للقهر والإرهاب، أو على العكس، الإرهاب والقهر هما الوجه الخفي للعنف في العالم المتخلف. لا يوازي حدة العنف ولا يفوقه إلاّ شدّة القهر والإرهاب. فهما من العناصر الثابتة أبداً في بنية أي مجتمع متخلف. وكلما تصعَّد الإرهاب زاد احتمال انفجار العنف الكاسح. وهذا الاحتمال لا يقابل إلاّ بمزيد من القهر والقمع. ولا ينتج عن هذين سوى رضوخ مشدود، يتفجر عند أول بوادر تراخي السلطة. ولذلك قلنا: ليس هناك ضوابط خلقية عند الإنسان المتخلف. هنالك خوف من القمع الخارجي. وعندما يزول هذا الخوف، أو يتوارى شبح القمع ينفجر العدوان متخذاً شكل عنف مباشر مدمر، أو شكل السلب والاستباحة.

علاقة الإنسان مع السلطة في المجتمع المتخلف، وعلاقة هذه معه خاصة جداً. السلطة لا تعرف من الأساليب للتعامل سوى الإرهاب والقمع، سوى الإخضاع دون حدود، أو هي تنحو منحى التضليل. ردود فعل السلطة عنيفة ومباشرة، وتأخذ طابعاً مادياً. البنية الاجتماعية التي تنتج عن هذه الوضعية جامدة متصلبة، لا تتضمن أي صمامات أمان، أو أي تقنية للعدوانية التي لا بدّ أن تتراكم. ولذلك فإن هذه العدوانية لا بدّ منفجرة في الخارج أو الداخل تبعاً للظروف. إذ كلما زاد جمود البنى، نتيجة سيطرة سلطة فردية تحكمية تفرض

مرتبية قطعية، زادت العدوانية. ولكن العدوانية تعزز بدورها هذه البنى. الخوف من نتائج العدوانية يدفع المرء إلى البحث عن سلطة تمارس المزيد من القمع والإرهاب.

ليس هناك علاقة تكافؤ، أو حوار، بين السلطة والجماهير في المجتمع المتخلف. ليس هناك اعتراف متبادل، وسير متبادل للالتقاء عند نقطة تحفظ التوازن العلائقي في مناخ مرن ومتكيف. السلطة لا تريد مواطنين، بل أتباعاً، إنها تخشى المواطنية التي تعبّر عن ذاتها، تخشى المواطنية التي تنزلها من مكانتها الجبروتية إلى مستوى اللقاء الإنساني. فالسلطة قطعية تصاب بالذعر من اللقاء الإنساني مع المواطن، ذلك اللقاء الذي يتضمن اعترافاً متبادلاً، وتساؤلاً متبادلاً في الوقت نفسه. إذ إن السلطة في المجتمع المتخلف تخشى وضعها موضع التساؤل وهو شرط الاعتراف بشرعيتها.

وهكذا فإن علاقة القهر بما تتضمنه من قمع وإرهاب وتضليل، تخلِّف وضعية خاصة جداً مولِّدة للعنف بمختلف وجوهه. يمكن بحث هذه الوضعية من خلال حالة قطبي العلاقة: صورة الذات عند الإنسان المقهور، وصورة المتسلط التي تتكون لديه.

أما صورة الذات فتتلخص بشعور ممض ومثير للذعر بانعدام القيمة، بهدر الإنسانية، بإحساس بالاختناق نظراً لاستحالة التعبير عن الذات وتوكيدها من خلال صرخة احتجاج أو نداء. تثير هذه الصورة جرحاً نرجسياً جذرياً. كما أنها تفجر على صعيد آخر عقدة خصاء شديدة. إنها صورة الإنسان العاجز عن أن يكون في دخيلة نفسه، رغم ما يتوسله من أقنعة وأدوات تمويه، ويغطي بها عريه الوجودي. حتى الحرمان المادي، والغبن الاجتماعي يعاشان تحت شعار انعدام القيمة. الذعر وحده ينتج عن النظر في هذه الذات ومواجهتها، وإنه الشعور الشديد بالإثم. هذه الوضعية تفجر أكثر درجات العدوانية بدائية وتدميراً. تتوجه في البداية إلى الداخل لتزيد من الجرح النرجسي، ومن شدة قلق الخصاء، لما تحدثه من تبخيس وتأثيم ذاتي. ولكن وجهتها العادية هي الخارج. وهنا تتخذ شكل نزوة السطوة، شكل السيادة السادية بكل ما فيها من جبروت. ولا بدّ لنزوة السطوة هذه من جماعة، ينتمي هذا الكائن إليها كي يتمكن من التعبير عنها. جماعة يقودها زعيم اضطهادي. تلك هي الفاشية، تنصب تدميراً ومجازر على الآخرين الذين يتحولون إلى أسطورة محقَّرة، تحمل كل ما تتهرب منه الذات المطعونة في قيمتها وكبريائها. وتشتط نزوة السطوة بمقدار فداحة الجرح النرجسي، وطغيان قلق الخصاء، أي بمقدار إلحاح مشاعر الضعف والمهانة الذاتية.

ويتخذ العنف طابع التشفي الذي لا يعرف الارتواء، لأن الجرح النرجسي النابع من القهر غير قابل للاندمال. فإن علاقة الإرهاب تولِّد بشكل ملغز إفراطاً في الاستكانة تجاه المتسلط، وإفراطاً في جبروت القوة والسطوة تجاه الأضعف، أو تجاه من يسمح بتوجيه

العدوانية نحوه. والعنف هنا يتخذ دلالة التغيير السحري للمصير وللمعنى الذاتي، ومن هنا وظيفته الدفاعية.

ما عدا القمع الخارجي والخوف، تبقى عدوانية الإنسان المقهور دون توازن داخلي من قوة مضادة تكبح جماحها وتلطفها. ذلك أن نزوة الحياة (الجنس والحب) الكفيلة وحدها بالقيام بهذه المهمة، لا تفلت من القمع في المجتمع المتخلف. إذ إن كل قمع، لا بدّ له بغية إحكام سيطرته على الإنسان من فرض قيوده على حياته الجنسية. فالقمع الجنسي هو في النهاية تغلغل تحكم المتسلط بالإنسان، نفاذ إلى أعماقه، وضبطه من الداخل. ذلك أن التعبير الجنسي الإرادي هو عنوان الاستقلال، وبالتالي فالقضاء على هذا الاستغلال لا بدّ أن يمرّ بالقمع الجنسي. وهكذا يضاف إلى الغبن المادي والقهر العلائقي، إحباط جنسي يؤزم ويعمّق الجرح النرجسي، ويصعّد من حدة قلق الخصاء (انعدام الرجولة، انعدام حالة الرشد المستقل). إن قصة الجنس مع البنى الاجتماعية القمعية أفصح من أن تحتاج إلى من يرويها. ذلك أن الإرضاء الجنسي والعاطفي وحده، مع تحقيق الذات اجتماعياً، يفتح الطريق أمام مشاعر الود والتعاطف والعلاقات المرحبة بين الناس. فهو الكفيل بتصريف العدوانية وموازنتها (لا شيء يوازن العدوانية سوى الحب الفعلي). ذلك أنه يثير مشاعر الاعتبار الذاتي، مشاعر القيمة الذاتية. وذلك أنه يعوّض الجرح النرجسي الناتج عن الإحباط ويعوض مشاعر الخصاء، ويمد المرء بمشاعر الامتلاء الحميم والوفاق مع الوجود. إنه يعزز الصورة الإيجابية الطيبة عن الذات وعن العلاقات.

أما القمع الجنسي فيعطل تدخل نزوة الحياة لضبط نزوة الموت، وهكذا تنفجر العدوانية دون ضابط، ويتسرب الجنس من خلال هذه العدوانية بتصعيد خطورتها من خلال تحويلها إلى حقد. هذا الحقد هو المعول الذي يهدم كل علاقة إيجابية، هو النبع الذي يغذي تصرفات العنف المتشفي، كما يغذي الميول التعصبية.

وأما صورة المتسلط، فهي بدورها عامل تفجير العدوانية. إنها لا تمثل الأب الحامي العطوف، بل تثير صورة الأب المهدد القاسي. تعاش كسلطة مهددة لا يتمكن المرء من التماهي الإيجابي بها، الذي يتمّ عادة مع صورة الأب الطيبة، والذي يفتح السبيل أمام نشأة العلاقات الإنسانية الإيجابية. انعدام التماهي يجعلها تظل خارجية وتعاش بشكل اضطهادي، وهي في حقيقة أمرها كذلك، نظراً لما تتصف به من عدوانية وما تحمله من تهديد. وحده الرضوخ يظل ممكناً إزاءها بشكلها الخام، مع سيطرة مشاعر الذنب وما تفجره من مآزم داخلية. والاحتمال الآخر تجاهها هو التحالف ضدها: تحالف الأبناء ضد الأب الخاصي، ومحاولة التمرد عليه حين تسنح الفرصة. وأما الاحتمال الأخير فهو التماهي بها من خلال أوالية التماهي بالمعتدي، وذلك ينشئ أنا أعلى قاسياً واضطهادياً، ويفجر العدوانية التي تتوجه

نحو الخارج في أفعال سيطرة ونيل من الضعفاء واعتداء على كل ما يمكن الاعتداء عليه.

وطالما استحال التماهي مع صورة إيجابية متعاطفة وحامية للحاكم، فإن ذلك يزعزع روابط الانتماء إلى الجماعة والإخاء في المواطنية. فقدان روابط الانتماء الاجتماعي، يعود مباشرة إلى فقدان الالتزام تجاه الآخرين، وفقدان الاحترام لما هو عام ومشترك، مما يفتح السبيل أمام بروز الأنوية المفرطة. تنهار قيمة الآخر، في هذه الحالة، لأن العلاقة معه لا تؤمن للمرء قيمته الذاتية، لا تمده بالاعتراف بذاته من خلال اعتراف الآخرين به. وهكذا تسود الأنانية على حساب المصلحة العامة. تبرز هذه الأنانية التي لا تعرف حدوداً ولا ترعى للآخرين حرمة، حين تضعف السلطة القامعة أو تغيب عن المسرح لأمر ما. عندما يتحول المجتمع إلى غابة ذئاب. انعدام الشعور بالانتماء، مع ما يستتبعه من انعدام للشعور بالعدالة والعدل في نيل الحظوظ، يولد عند الإنسان قلق الوحدة، وقلق التهديد يأتيه من الآخرين، مما يفجر عدوانيته دون حدود. تتخذ العدوانية هنا تحديداً طابع تغليب المصلحة الذاتية بشكل مطلق، وقد تتخذ طابع السلب واستباحة الآخرين، في حالات خاصة.

بالإضافة إلى انهيار الانتماء الاجتماعي والمشاركة في المواطنية، تعطي صورة المتسلط نموذجاً سلبياً يشجع على فقدان الالتزام تجاه الآخرين. السلطة في المجتمع المتخلف فرصة من أجل التسلط والاستغلال. وهكذا فكل من تمكّن من شيء من قوة أو سيطرة، فإنه سيسلك النهج نفسه، لأن ذلك هو النموذج الشائع، ذلك هو القانون الفعلي الذي يحكم السلوك، وراء القانون الرسمي الذي يكاد يفرغ من كل معنى ومحتوى في المجتمع المتخلف. إذ ما معنى القانون سوى الالتزام تجاه الآخرين؟..

وهكذا، فإذا كان القهر من خلال الإرهاب والقمع هو الحقيقة التي تعشش في بنية المجتمع المتخلف تنخرها وتلغمها، فإن العنف على مختلف صوره لا بدّ أن يكون السلوك الأكثر شيوعاً حين تسنح الفرص. تلك هي كارثة الرباط الإنساني طالما لم تتغيّر العلاقة بأخرى أكثر مساواة تعيد الاعتبار إلى الحاكم والمحكوم.

الفصل التاسع

وضعية المرأة

المرأة هي أفصح الأمثلة على وضعية القهر بكل أوجهها وديناميـاتها ودفاعاتها في المجتمع المتخلف. في وضعيتها تتجمع كل تناقضات ذلك المجتمع، وفي سلوكها وتوجهها تظهر كل الأوليات التي عددنا. إنها أفصح معبّر عن العجز والقصور، وعقد النقص والعار، وأبلغ دليل على اضطراب الذهن المتخلّف من حيث طغيان العاطفية، وقصور التفكير الجدلي، واستحكام الخرافة. كل الأواليات الدفاعية التي سبق الحديث عنها تتجمع عندها، فهي رائدة الانكفاء على الذات والتمسك بالتقاليد، وضعيتها تمثّل أقصى درجات التماهي بالمتسلط من خلال ما تعانيه من استلاب، توجهها الوجودي تتحكم فيه وسائل السيطرة الخرافية على المصير.

إضافة إلى ذلك تتجمع في شخصية المرأة، أو بالأحرى في النظرة إليها، أقصى حالات التجاذب الوجداني. فهي أكثر العناصر الاجتماعية تعرضاً للتبخيس في قيمتها على جميع الصعد: الجنس، الجسد، الفكر، الإنتاج، المكانة. يقابل هذا التبخيس مثلنة مفرطة ندر أن وجدنا لها نظيراً عند الرجل، هذه المثلنة تبدو في إعلاء شأن الأمومة، في إغداق الصفات الإيجابية عليها (الطيبة، المحبة، ينبوع الحنان، رمز التضحية، إلخ..)، كما تبدو فيما ترفع إليه المرأة المشتهاة جنسياً من مكانة أسطورية عند الرجل المحروم. وهكذا تتفاوت مكانة المرأة في نظر الرجل ونظر المجتمع عموماً بين أقصى الارتفاع (الكائن الثمين مركز الشرف الذاتي، رمز الصفاء البشري الذي يبدو في الأمومة) وبين أقصى حالات التبخيس، المرأة العورة، المرأة رمز العيب والضعف، المرأة القاصر، الجاهلة، المرأة رمز الخصاء، المرأة الأداة التي يمتلكها الرجل مستخدماً إياها لمنافعه المتعددة.

ومن حالات التجاذب الوجداني الأخرى، تذبذب الموقف منها ما بين التبعية والطفلية. فهي تابع لا حرية له ولا إرادة ولا كيان، إنها ملكية الأسرة منذ أن تولد وحتى تموت (الأب

أولاً، ثم الأخ، وبعد ذلك الزوج) مكانتها في أن تكون ما أريد لها ليس إلا. وعلى العكس من ذلك نجد صورة المرأة المرجع (خصوصاً الأم) التي يقف منها الزوج والأبناء موقفاً طفلياً اتكالياً.

يتلاقى في هذه التجاذبات في الموقف من المرأة، الاضطراب الاجتماعي، والاضطراب النفسي. ليس هناك حال هي أكثر فصاحة في التعبير عن التفاعل واللقاء بين المستوى الاجتماعي والمستوى اللاواعي من الحياة، من حالة المرأة.

على المستوى الاجتماعي نلاحظ التذبذب الهائل في الموقف منها وإحاطتها بمجموعة كبيرة جداً من الأساطير التي تسلبها كيانها الإنساني بما فيه من أوجه قوة وضعف. وعلى المستوى اللاواعي تتحول المرأة الحقيقية «من لحم ودم وإحساس» إلى مجرد سند هوامي لكل العقد والمآزم والتصورات والمخاوف والرغبات والإحباطات المكبوتة. ليس أكثر مثلنة وتبخساً للمرأة على المستوى الاجتماعي، من مكانتها في لاوعي الرجل المقهور. إسقاط العيب والعار، والضعف عند الرجل على المرأة اجتماعياً، يقابله إسقاط نقص الخصاء وخجله على المستوى اللاواعي. المرأة أداة المجتمع، وخصوصاً المتسلط، هي في الوقت نفسه أداة الرغبات اللاواعية، في كلا الحالتين تحرم الاعتراف بوجودها ككائن قائم بذاته له غيريته وأصالته. القوانين العديدة المدنية والدينية، التي تقيد المرأة، في حريتها، وقدرتها على الاختيار، وفي حركة جسدها وإمكان التصرف به، تخدم في آن معاً أغراض السيطرة الاجتماعية عليها كأداة للإنجاب، والإمتاع، والإنتاج، وأغراض السيطرة الهوامية على كيانها الذي هو محط الرغبات اللاواعية وملتقى اضطرابها. في الحالتين تستخدم المرأة كوسيلة للتعويض عن المهانة التي يلقاها الرجل المقهور اجتماعياً، وللتعويض عن قصوره اللاواعي بإسقاطه على المرأة. في الحالتين تفرض على المرأة وضعية من القهر تقضي على إمكاناتها الذهنية والإبداعية والاستقلالية والمادية. ويكرس هذا القصور، كما تكرس صفات الأنوثة المبخسة، التي هي نتاج لوضعيتها السفلى في المجتمع، ومكانتها في لاوعي الرجل، كجزء من طبيعتها، أو تكرّس على أنها طبيعتها تحديداً. ويتوج الغبن اللاحق بها، من خلال إسباغ صفة الطبيعة والأنوثة على مختلف ألوان التبخيس التي مورست عليها، بشكوى الرجل من قصورها وجهلها، ونزوتها. فالرجل كتعبير عن نظام التسلط في المجتمع، يشكو في الحقيقة من ثمار ما صنعت يداه اجتماعياً، ومن آثار إسقاطاته اللاواعية في آن معاً. إنه يتنكر لعاره الاجتماعي الذي ألصقه بالمرأة ولخصائه اللاواعي الذي أسقطه عليها. بذلك التنكر يتحرر من مسؤوليته ويتجنب تفجر القلق الشديد الذي لا بد عاصف بكيانه، لو لم يتهرب من عاره بهذا الشكل. تلكم هي في نظرنا، أقصى حالات الغبن والاستغلال اللذين يصيبان المرأة، باعتبارها أكثر العناصر قهراً في المجتمع. حيثما وجد قهر واستغلال لا بدّ أن يصيب المرأة

منهما القسط الأوفر، وحيثما وجدت الحاجة إلى حشر كائن ما في وضعية المهانة، لا بدّ أن يقع الاختيار على المرأة. ولكن الواقع أن طبيعة المرأة لا علاقة لها بهذا القهر. فالفروق البيولوجية والتشريحية بين الرجل والمرأة لا تبرر مطلقاً ما فرض على كيانها من تبخيس، ولا تقدم أي سند طبيعي فعلي لما يلحق بها من غبن. الواقع البيولوجي يذهب في اتجاه معاكس تماماً، فالمرأة أكثر مناعة من الرجل، وانبناؤها البيولوجي الوراثي أكثر متانة. كذلك فإن الرصيد العصبي الدماغي الذي تولد فيه لا يقل بأي حال عن رصيد الرجل، والفرق هو في المكانة التي تعطى لكل منهما، وما فيها من فرص تنمي إمكانات الرجل، وتطمس إمكانات المرأة. حتى ما يقال من مازوشية بيولوجية نفسية عند المرأة، هو أسطورة في معظمه، نابع من الاشتراط[1] المستمر والمنظم الذي تخضع له منذ الميلاد. أبرز هذا الاشتراط هو القمع المنظم لعدوانية المرأة في تعبيراتها الحركية العضلية، وقمع تعبيرات الجسد عندها عموماً، مما يجعل الطاقة الحيوية ترتد إلى الداخل على شكل فوران انفعالي مفرط. جزء كبير مما يسمى مازوشية المرأة، ليس سوى ارتداد عدوانيتها المتفجرة نتيجة للإحباط المزمن، إلى ذاتها. أما الجزء الآخر من عدوانيتها فيتخذ سبيله إلى ممارسات الكيد والدس والحقد والحسد التي يشاع اجتماعياً اشتهارها بها.

أما العاطفية الزائدة، وسيطرة الانفعالات، واستفحال الخرافة عندها، فهو ليس سوى ثمرة ما فرض عليها من تجهيل، بسبب حرمانها من فرص تنمية طاقاتها الذهنية التي تسمح وحدها بسيطرة العقلانية والمنطق. فإن سجنها في حدود منزلها، مع ما يتضمنه من حرمان لفرص التعامل مع الواقع والتدريب على السيطرة الفعلية عليه، واستلابها إرادتها وقدرتها على الاختيار، هو الذي أدى إلى تفشي الخرافة في وجودها وممارساتها ونظرتها إلى العالم. وإن حرمانها حرية التعبير عن الذات، هو الذي يلجئها إلى الوسائل الملتوية. وإن وضعها في موضع المهددة الفاقدة للسيطرة على مصيرها، لا يترك لها مجالاً سوى الشعوذة والتطير، سوى جبروت الفكر السحري، والسيطرة الخرافية على المصير.

وهكذا فنحن لسنا مطلقاً بصدد كيان وخصائص بيولوجية، لسنا بصدد ما تشيع تسميته بطبيعة المرأة. إننا بصدد وضعية تفرض عليها، ومكانة تعطى لها. تناط بالمرأة وظائف اجتماعية علائقية ولاواعية محددة، تتلخص في ضرورة حصر المهانة، وإسقاط الاضطراب على كائن معين، كي يستقيم الأمر للآخرين (للرجل والمتسلط). ذلك هو لب وضعية القهر الذي تخضع له المرأة، أي تحويلها إلى أداة لخدمة أغراض المتسلط، وإلى محط لتناقضات المجتمع. ويتم ذلك من خلال سلسلة من الاستلابات والاختزالات تفرض على كيانها، تماماً

---

(1) الاشتراط، التشريط Conditionnement.

كما هو حال كل وضعية اعتداء على إنسان آخر. قبل الحديث عنها، لا بدّ من وقفة قصيرة عند الوظائف الاجتماعية التي يناط بالمرأة القيام بها في المجتمع المتخلف، والتي تشكّل ملامح وضعية القهر.

أولاً: ملامح وضعية القهر

يتناسب القهر الذي يفرض على المرأة مع درجة القهر الذي يخضع له الرجل في المجتمع. فالأمر ليس مطلقاً غبناً ورضوخاً يقابلهما مجرد سيادة وتسلط. كلما كان الرجل أكثر غبناً في مكانته الاجتماعية، مارس قهراً أكبر على المرأة. ويمكننا بهذا الصدد أن نميّز بين حالات عدة، نختار مستويات ثلاثة أساسية منها: وضعية المرأة في الطبقة الكادحة، وضعية المرأة في الطبقة المتوسطة والمثقفة، ووضعية المرأة في الفئة ذات الامتياز. تلاحظ هذه المستويات عموماً في الأوساط الحضرية. أما في الأوساط العشائرية المغلقة فوضع المرأة أفصح تعبير عن هذا الواقع، حيث يختصر كيانها كله في جسدها الذي حول إلى مجرد أداة إنجاب للأولاد، إلى مجرد رحم، قيمته في درجة خصوبته، وتحديداً في قدرته على إنجاب الصبيان، عندما يستنزف، تهمل المرأة، ويتحول الرجل السيد عنها إلى غيرها. والمرأة في هذا الوسط هي أداة للمصاهرة، إقامة الروابط بين العشائر من أجل زيادة قوّتها وسطوتها ومالها، أو ضمن العشيرة (تزويج الفتاة إلى ابن عمها) من أجل زيادة لحمة العشيرة والحفاظ على ثروتها. المرأة أداة التحالف والتلاحم، لا وجود لها خارج إطار هذا الدور. المرأة ذات الجسد، أداة الإنجاب والمصاهرة، تقتل في نفسها، ويندثر عقلها طي النسيان.. قيمتها كلها، شرفها كله يركّز في عفافها الجنسي، المتمثل سطحياً بغشاء البكارة. شرفها يتلخص في صفة تشريحية، كما تقول الدكتورة نوال سعداوي[1] قد يولد بها الإنسان أو لا يولد. إن ربط الفتاة بالبكارة، وربط شرف الرجل (الأب) بالأمر نفسه يشير إلى مدى الركاكة التي تميّز اعتباره الذاتي ومكانته بين الآخرين، ومدى عظم الأخطار التي تتهدد هذه المكانة. ذلك يجعلنا نفهم لماذا يقبل العشائري على الفعل الذي يسمى (جناية شرف) بكل هذا الهياج الانفعالي، وكل هذا الإصرار. فالإنسان العشائري هو ذلك الإنسان ذو القيمة المعرضة في صلبها. ورد الفعل، هو بمقدار التهديد الذي تتعرض له قيمته الجذرية. الإنسان العشائري يسقط كل عاره إذاً على المرأة، مما يتيح له الاحتفاظ بمظهر القوي، راسخ البنيان، أمام الآخرين، بعد تحميل الزوجة والبنت والأخت خصوصاً عبء تجسيد عاره. فظاظته الظاهرية تتناسب مع ركاكته الداخلية وتخفيها. يضاف إلى ذلك كله، أن جناية الشرف هي ببساطة فعل

(1) د. سعداوي، المرأة والجنس، القاهرة ـ بيروت، الناشرون العرب، 1971، ص 25.

استرداد وردع للمرأة التي حاولت أن تكون لذاتها، أو التي غرر بها، فعل إعادة لوضعيتها كأداة تمتلكها العشيرة، وتنتقل ملكيتها لقاء مصلحة، أو لقاء مقدار من النقود أو المتاع من الأب والأخ، والعم والخال إلى الزوج. . جناية الشرف بقدر مأسويتها، وبقدر كشفها للقهر الذي تتعرض له المرأة، تشير إلى ما يعتمل في بنية العشيرة من اختلال ومآزم، نابعة عن وصول القهر المفروض على الجميع إلى أقصى حدوده.

نعود إلى البيئة الحضرية في المجتمع المتخلف، فنحاول أن نقف قليلاً عند كل نموذج من النماذج الثلاثة التي اخترناها.

1 ـ المرأة في الوسط الكادح وما تحت الكادح

هناك تحديد وتوزيع للأدوار بين الرجل والمرأة في هذا الوسط، بشكل متكامل جدلياً من خلال تناقضه. كل من المرأة والرجل يتمم الآخر وظيفياً، مما يسمح بشيء من التوازن الحيوي في هذا الوسط. هذا التوزيع يتمحور أساساً حول الدفاع ضد وضعية القهر التي يرزح تحتها الإنسان الكادح، من خلال تعزيز وتضخيم مكانة الرجل، بعد أن تحمل المرأة كل المهانة وتتحول إلى المعبِّرة عن العجز والقصور.

نلاحظ في هذه الأوساط تعارضاً واضحاً ومتكاملاً لتصرفات وخصائص الذكورة والأنوثة. هناك مبالغة واضحة في قوة الرجل وذكوريته ومكانته. وهناك مبالغة في إسقاط القدرة على المجابهة والتصدي عنده. وهناك مبالغة في تقدير مدى تحمله وجلده وعدم شكواه. وهناك مبالغة في قدرته على كسب الرزق وتدبير أحوال الأسرة، (أسطورة الرجل الذي ينتزع اللقمة من فم السبع). وهناك مبالغة في عدوانيته، فورات غضبه، سلوكه الهجومي، من ناحية، وشجاعته وقدرته على التحمل من ناحية ثانية.

فالرجل باعتباره كاسب الرزق، والطرف الذي يجابه العالم الخارجي وتحدياته وتهديداته، لا بدّ له من أن يعبّأ، ويشحن بقوة لا يتمتع بها واقعياً معظم الأحيان. ولا بدّ من إنكار مظاهر الضعف والعجز وقلّة التدبير والخوف عنده، إذ بهذا الإنكار وحده تتمكّن الأسرة من الشعور بشيء من الاطمئنان إلى وجود سند قوي، فليس أكثر إثارة للقلق الوجودي من إحساس الأسرة، بضعف وهوان معيلها، وعنصر التصدي للعالم الخارجي فيها.

وحتى يتم شحن الرجل بالقوة أو وهمها وبالقدرة أو تخيلها، حتى يتم تحويله إلى أسطورة الكفاءة التي تصور عنده، لا بدّ من إسقاط الضعف والهوان، على المرأة. وهكذا تلعب هذه دور المعبّرة عن المأساة، الناطقة بالمعاناة. تلعب دور الكائن القاصر التابع الذي يحتاج إلى وصي. تلعب دور العاجزة التي ليس لديها من قدرة على السيطرة على المصير سوى

الوسيلة السحرية في الدعاء والتوسل، والرجاء والتمني من ناحية، والشتم وصب اللعنات من ناحية ثانية.

في مقابل عقلانية الرجل ومبادرته، يوكل إليها دور العاطفية، الانفعالية وفي مقابل الحياة الموجهة نحو الخارج، يوكل إليها دور الانزواء ضمن حدود منزلها، وانحسار وجودها ضمن حدود أسرتها. وفي مقابل قوة الرجل وذكورته وسيطرته، يوكل إليها تمثيل المازوشية والرضوخ والاستسلام للأقدار. وفي مقابل كبرياء الرجل وتضخم اعتداده بنفسه وعنفوانه، يوكل إليها دور التعبير عن العيب والعار والحاجة إلى السترة. وبمقدار تهديد مكانة الرجل في الخارج، تتعزز قوته داخل المنزل لأسباب تعويضية دفاعية، فهو السيد مسموع الكلمة، ذو السلطة التي لا تناقش وهي التابع، والخاضع، خادم السيد. وبمقدار نفي وإنكار المعاناة عند الرجل، تفجر المعاناة عند المرأة.

وهكذا يحدث انشطار في الأسرة من خلال توزيع الأدوار: يحتل الرجل مركز القوة والثقل، بمقدار ما تتحول المرأة إلى مركز الضعف والمهانة. فكل يلعب دوره المقرر له، وكأنه لم يخلق إلاّ له، أو كأن هذا الدور جزء من طبيعته. عندما تختل الأدوار يصاب توازن الأسرة في الصميم، وذلك عندما يعجز الرجل عن الحفاظ على مظاهر القوة المفترضة فيه، وتتحول المرأة إلى دور الرجل. تعيش الأوساط الكادحة والمقهورة هذه الوضعية كمصدر قلق كبير وصريح. والقاعدة هي أن يعوض الرجل كل قهره ومهانته من خلال لعب دور السيد الذي يخضع المرأة، يستعبدها ويستغلها، ويحولها إلى أداة له، تخدمه، تنجب له الذرية التي تعزز قوته الذكورية فتتحول إلى وعاء لمتعته بشكل أناني لا يراعي حاجاتها ورغباتها، تموت نفسياً كي يستمد هو من هذا الموت وهم الحياة، تسحق كي يستمد هو من هذا الانسحاق وهم تحقيق الذات، باختصار يستغلها كلياً وعلى جميع الصعد، كي يتهرب من هوان استغلال المتسلط له. المرأة في الأوساط ما تحت الكادحة تصل أقصى درجات القهر من خلال تنكر المجتمع والأسرة لوجودها. فهي تستقبل حين تولد بالتذمر والتبرم والضيق، إذا لم تستقبل بالرفض الصريح. وهي توضع كطفلة في مرتبة ثانوية أو هامشية بالنسبة للصبي الذي يعطى كل القيمة. وهي تتحول إلى خادمة للأخوة والأب، حين تستنزف طاقة الأم. وهي تستخدم كأداة لتمرس أخوتها ببسط النفوذ الرجولي من خلال الوصاية وبزعم الحماية الوهمية لها. وعليها تنصب كل الضغوط وتفرض كل القيود في طور البلوغ. وتتابع مسيرتها متوجهة نحو مصيرها كأداة للمصاهرة، يباع جسدها لقاء تغطية أعباء نفقاته ولقاء مبلغ من المال، من الزوج كي يتخذ منه أداة لمتعته، ووعاء لذريته، وجهازاً حركياً يقوم على خدمته. أما نفسها وكيانها فيفرض عليهما موت معنوي بطيء. غير أن استعباد المرأة لا يتخذ دوماً هذا الشكل الصارخ لحسن الحظ، ولكنه موجود أبداً، وهو يتخذ أشكالاً معنوية، إذا لم يظهر بطابعه

المادي. ولكن الشيء الأكيد، هو أن المرأة توضع دوماً في المكانة الأكثر إجحافاً وقهراً وتنكراً لكيانها. ذلك هو السبيل الوحيد أمام الرجل المقهور والمستغل كي يكون، طالما لم تتيسر إمكانات التغيير، والقضاء على القهر، من خلال عملية تحرير اجتماعي. فإن قهر المرأة على هذا المستوى هو دفاع الرجل ضد القهر الذي يصبه عليه المتسلط. ذلك أن كل قهر يصيب المرأة في علاقتها بالرجل يقابله قهر عند هذا الأخير يصيبه به المتسلط. نجد هذه الظاهرة منتشرة في جميع جوانب حياتهما، ويمكننا ذكر بعض الأمثلة عليها.

تُستغل المرأة إلى الحد الأقصى (طاعة، خضوع للزواج، تحديد للرغبات، والإرادة، أداة إنجاب وإنتاج) مما يستنزف طاقتها بسرعة مذهلة. تظهر عليها وهي ما زالت في شرخ الشباب أمراض القصور المتنوعة والاختلالات الوظيفية المتعددة. ويقابل ذلك عند الرجل استنزاف لقواه الجسدية النفسية، في عمل استغلالي لا يعطيه المردود المستحق. وكما تطلق المرأة أو تُهجر عندما تستنزف، كذلك هو حال الرجل حين يُطرد من عمله إذا أقعده المرض الناتج عن قلّة التغذية، وقلّة العناية الصحية، والإرهاق الجسدي.

إن عبودية المرأة التي تباع وتشترى بعقد زواج لقاء مبالغ يقبضها الأهل، تقابلها عبودية الفلاح الذي يُباع مع الإقطاعية من إقطاعي إلى آخر. وإن استغلال جهد المرأة وتبخيس مردوده، عدم تثمينه اقتصادياً كما يستحق، خصوصاً العمل المنزلي الذي يعتبر جهداً دون مقابل، يقابله استغلال جهد الكادح وتبخيسه، عدم إعطائه الأجر الذي استحقه. كذلك فإن طفيلية المرأة وتبعيتها تقابلهما طفيلية الإنسان ما تحت الكادح وهامشيته المهنية وتبعيته.

في العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، يقع الغرم على المرأة دائماً، المرأة هي المذنبة أبداً. مذنبة إن استسلمت للإغراء قبل الزواج، ومذنبة إن هي حرمت المتعة برفقة زوجها، نظراً لما تعرّض له جسدها من قمع، ومذنبة إن هي لم تنجب، ومذنبة إن لم تنجب الذكور. تتحمل المرأة الوزر كله، كما يتحمل الرجل الكادح الوزر كله في الحياة اليومية (هو الجاهل، الكسول، غير المنتج، غير المدبر، إلخ..) إفلات الرجل من المسؤولية والمحاسبة هو كإفلات المتسلط والمستغل والإقطاعي بالتمام. هكذا فإن علاقات الرجل الجنسية مع المرأة تسودها الأنانية الذاتية. إنه لا يفكر إلاّ بنفسه ومتعته. والمرأة ليست سوى أداة لهذه المتعة. تماماً كأي علاقة استغلال، الرجل الكادح فيها، مجرد أداة للغنى وزيادة الثروة. وكما يتخذ الرجل من نقص المرأة وضعفها وقلّة حيلتها مبرراً كي يستغلها، كذلك يفعل الإقطاعي بالفلاح البائس العاجز، الذي لا يصلح في زعمه إلاّ للعمل المضني.

وكما يُقيَّد جسد المرأة ويؤجر جنسياً واقتصادياً، من خلال القوانين المختلفة الدينية والمدنية التي تحاول تطويقه بقسوة، من أجل ترويضه وبالتالي تعويد حاملته على الرضوخ غير

المقيم على الصعيد الاقتصادي. وكما «تعتبر القوانين عملياً سلاحاً في يد الرجل في مواجهة جسم المرأة ـ الأم، الذي يخيف ويفترس جسم الرجل ـ الابن»[1] كذلك فإن هذه القوانين سلاح في يد المتسلط لاستغلال طاقة الرجل وتطويق جسده بقسوة، وسلاح في يده للجم كل التعبيرات التمردية التي تهدد المتسلط وتخيفه.

إن القوانين التي تفرض على المرأة، العفة وغيرها من القيم التي تقمع جسدها، نجد لها مطابقاً في القوانين التي يفرضها المتسلطون على المقهورين (الأغنياء على الفقراء، وأصحاب رؤوس الأموال على العمال)، من خلال غرس قيم الطاعة، والزهد في الحياة، والقناعة بضآلة الأجور، والوفاء لأولياء النعمة، وبذل الحياة في الدفاع عنهم بينما يستمتعون هم بقيم الجشع والنهب والربح المتزايد، والإفراط في كل المتع التي حرّموها على الطبقات الكادحة (د. نوال سعداوي، المرجع نفسه، صفحة 28).

أخيراً، المرأة التي تنبغ تسحب منها صفة الأنوثة: «التفوق والنبوغ في نظر المجتمع صفة الرجل فحسب، فإذا ما أثبتت إمرأة ما نبوغها بما لا يدع مجالاً للشك، اعترف المجتمع بنبوغها، وسحب منها شخصيتها كامرأة وضمها إلى جنس الرجال». (نوال سعداوي، المصدر نفسه)، فالمرأة القادرة يطلق عليها لقب رجل، أو (أخت الرجال). تماماً كما يضم الرجل المقهور إذا تمكّن من النبوغ والإفلات من القهر، إلى الطبقة ذات الامتياز، قاطعاً الصلة بينه وبين أصله الشعبي المتواضع.

إن الأمثلة غير هذه كثيرة، كل ما نود قوله هنا هو أن المرأة يفرض عليها دور مجسد للقهر والغبن، كيما يتمكن الرجل المغبون من الاحتفاظ بشيء من توازنه وكبريائه الظاهري. وما تعيشه المرأة ظاهراً صريحاً من قهر وغبن واستغلال، هو نفسه ما يعانيه الرجل الكادح بشكل ضمني.

2 ـ المرأة في الطبقة المتوسطة

بين أفراد هذه الفئة، تحديداً، تطرح مشكلة المرأة بكل حدتها، نظراً لما تتميّز به الطبقة المتوسطة عن غيرها من مرونة وتطوّر وسير في اتجاه التغيير. هذه الفئة هي التي تعي مشكلة المرأة، على عكس الفئتين الأخريين (الفئة الكادحة، والفئة ذات الامتياز) حيث تفرض على المرأة أدوار جامدة، ويوكل إليها وظائف ثابتة. فقد أتيح للمرأة في الفئة المتوسطة، أن تخرج من سجنها التقليدي، وأن تأخذ قسطاً متفاوتاً من العلم، وأن تبدأ حياة منتجة، وتشارك

---

(1) د. عباس مكي، الجسم، محرماته وتشريعاته وتعبيراته الانفجارية الرمزية، مجلة «دراسات نفسانية»، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، العدد الأول، بيروت 1974، ص 122.

الرجل الأعباء والمسؤوليات داخل الأسرة وخارجها. كما أن الرجل، من ناحيته، بدأ يعي وضعية المرأة الفعلية وأهمية مشاركتها وضرورة نمو شخصيتها وبناء كيانها الذاتي، كشرط لارتقائه هو بدوره. إذ لا يمكن مطلقاً أن يرتقي الرجل بمفرده ودون المرأة، مهما دلت الظواهر الخارجية على العكس. ذلك أن رقيه بمفرده سيظل سطحياً أو جزئياً لا محالة، ما دامت المرأة على قهرها وانشدادها نحو الخرافة. فالرقي ليس شيئاً يكتسب فقط من خلال الدراسة والممارسة، بل قبل ذلك تغرس أسسه من خلال تربية الطفل وإعداده للحياة. وهنا تكمن خطورة دور المرأة. فإذا كانت متخلفة ستغرس في نفسه لا محالة بذور الخرافة، وتعطيه عن العالم تصوراً سحرياً، انفعالياً تحيط به الأوهام من كل جانب، مما يحرمه السيطرة على الطبيعة من خلال المعرفة العقلية المنطقية. إن رقي الرجل رهن بارتقاء المرأة، تلك حقيقة تفرض نفسها على الواقع ولا مجال للمكابرة فيها. والمرأة المقيدة تشكّل قيداً صريحاً أو خفياً لانطلاقة الرجل. ولا مراء أننا نستطيع أن نحدد مدى ارتقاء مجتمع ما، دون خطأ كبير، انطلاقاً من وضعية المرأة فيه، ومدى ما بلغته من تحرر.

على أن هذه الفئة في المجتمع النامي، ما زالت تعاني الكثير من رواسب الماضي وذلك عند كلا الجنسين على حد سواء. والصفة المميّزة هي الاختلال في توزيع الأدوار، وغموض المكانة لكلٍ من الرجل والمرأة. فالمرأة تتوق إلى الانطلاق وتعي ضرورته لها وحقها فيه. والرجل يتوق أيضاً إلى الانطلاق له ولقرينته. ولكن كلاً منهما ما زال أسير قيود تكبله من الداخل وفي أساس بنية شخصيته، وتحتاج للتخلص منها إلى مغالبة شديدة للنفس. فالمرأة تريد أن تنطلق ولكنها لا تجرؤ على طرح قضيتها جذرياً. والحق يُقال إن الرجل لا يشجعها على هذا الطرح الذي يضعه هو في المقام الأول موضع التساؤل، ولا بدّ أن يدفع به إلى إعادة النظر بوضعيته وأسلوب علاقته بها.

إن المرأة أسيرة عملية تشريط مزمن تدفعها لتلعب دور الراضخ المقهور، أو دور الأداة، وهي تطمئن لهذا الدور وقد أعدت له نفسياً، ولكنه لم يعد يرضيها على مستوى الوعي بكيانها والوعي بحقوقها. والرجل يتحدث عن المساواة وعن تحرير المرأة، ولكنه لا يستطيع التخلي عن امتيازاته بسهولة. وهكذا يعاني كل منهما من صراعات نفسية وتناقضات داخلية وعلائقية. فهي ما زالت محافظة مقيدة داخلياً مع تحرر ظاهري، وهو ما زال متمسكاً بوضعية السيد وامتيازاته مع ادّعاء المساواة وتأييد حقوق المرأة. وبالمقابل فإن المرأة تخشى الإقدام على تحمل مسؤولية مصيرها، وفرض ذاتها، لما غرس في نفسها من مخاوف بغية إبقائها في حالة تبعية. وهي تجد في تلك التبعية نوعاً من الاستقرار والشعور بالحماية والأمن ضد العالم الخارجي الذي صور لها كغول، أو وحش مفترس يتربص بها. كما أنها تخشى أن يسيئ فهمها الرجال الذين لم يعوا بعد ضرورة تحررها، أو الذين يحرصون على امتيازاتهم. وهكذا

تتراجع إلى مواقعها السابقة مترددة أمام عظم التحديات وكبر المهمة، خصوصاً أنها غير أكيدة من الظفر، وتخشى أن يدفع كيانها أو سمعتها ثمناً لمحاولة فيها قليل أو كثير من الجرأة. ولكنها تعود بعد استكانة تطول أو تقصر ـ فتعبئ نفسها ضد وضعية العبودية المفروضة عليها، وتحس إحساساً ممضاً بثقل ماضيها، وما فرض عليها من غبن من قبل محيط تجاهلها كإنسانة، ولم يرد لها أن تكون سوى أداة. وتصدر عنها ردود فعل متشنجة، على شكل تمرد جزئي وآني ترفض كل رموز الماضي، وكل وظائف دورها التقليدي، ترفض دور المرأة الخادم، المستلب اقتصادياً، ودور آلة التفريخ والمتعة. تثور على صورة الأنثى التي تراها في أمها. وقد تشتط في هذا الرفض كي تصل حد رفض الأنوثة بمجملها، من خلال التنكر لجسدها وخصائصه البيولوجية وحاجاته. ترى أمامها الرجل كنموذج للتحرر والانطلاق، فتحاول أن تقلده، وأن تصبح نسخة عنه. وهي في ذلك تستلب ذاتها لا محالة. إنها تخسر أنوثتها دون أن تربح الرجولة. أو هي تمر بفترات من التذبذب ما بين الإفراط في الأنوثة فتلعب دور الغاوية، والإفراط في التنكر لتلك الأنوثة من خلال الانخراط في ممارسات وتصرفات تتصف بالذكورة. وقد يغلب عليها أن تلعب دور الأنثى ظاهرياً دون أن تعيشه في علاقة حميمة.

أما الرجل فمعاناته، وإن كانت أقل من معاناة المرأة، فإنها ليست بالبسيطة. فهو متحرر فكرياً وثقافياً، وهو من أنصار المساواة ولكنه ينتظر أن تقوم المرأة بذلك، دون أن يشارك فيه بشكل فعّال. والغالب أن يكون حماسه نظرياً، أما في الممارسة اليومية التلقائية فما زال أسير التقسيم العبودي للأدوار، ما زال شديد الحساسية لكل ما يمكن أن يعتبر نيلاً من سلطانه وحقوقه على المرأة. والحقيقة أنه في معظم الحالات يخشى أن تفلت المرأة من سلطته. يخشى أن تنافسه وأن تتفوق عليه، ولذلك فهو يحتمي وراء حقوقه التاريخية، وما تعطيه له من سلطة على المرأة. إنه يخشى إذا أفلتت المرأة من سلطته، أن يجد نفسه أمام امتحان عسير لذكورته، التي ارتبطت لسوء حظه، بالتسلط أكثر مما هي مرتبطة بالقدرة على الوصول إلى المشاركة في متعة اللقاء الجسدي. وهكذا فأكثر الرجال تحرراً، ما زال عملياً يتصرف انطلاقاً من توزيع للأدوار يعطيه بعض المكاسب، ويشد المرأة إلى الوراء، ويتصرف خصوصاً من موقع تجنب وضعية امتحان قدراته الفعلية، ووضعها موضع التساؤل.

بين هذه الفئة، هناك بالتأكيد فروق كبيرة على سلّم المحافظة والتحرر، وعند الجنسين على حد سواء. والصراعات بالتالي كثيرة نظراً لعظم التناقضات الذاتية والعلائقية. وما زالت المرأة على كل حال تدفع الثمن الأكبر. فتحررها الاقتصادي النسبي، لم يحررها بعد من أعباء الأسرة التي ما زالت بدون تقويم. فهي تبذل جهداً مضاعفاً كي تحصل على حقوق ومكانة ليست متوازية مع ذلك الجهد.

3 ـ وضعية المرأة في الفئة ذات الامتياز

لا تعاني المرأة في هذه الطبقة التي تحظى بامتيازات الثورة والمكانة، من القهر بالمعنى المادي. فهي تعزز، وتحتل مكانة رفيعة الشأن، تحظى بكل التسهيلات الحياتية، وتتقلب في ضروب النعيم، على حساب نسوة أُخر يقمن بالعمل بدلاً عنها. ولكنها إذا أفلتت من القهر، فهي لا تفلت مطلقاً من الاستلاب. إنها أداة رغم كل شيء. يطمس عقلها، وتستلب في عالم الأسرة أو الزوج الذي يحتمي وراء حقوقه التاريخية، وما تعطيه له من سلطة على شخصيتها لقاء تقديمات مادية تحظى بها. تحدد لها وظيفة معينة ذات أبعاد عدة، تدور كلها حول خدمة حياة الأسرة والتعبير عنه. المرأة هي أولاً المحافظة على الأسرة وتقاليدها وامتيازها. وهي تذوب كلياً في هذه الأسرة، حتى لا يبقى لها أي كيان خاص، وهي في المقام الثاني أداة زيادة سطوة هذه الأسرة وبسط نفوذها، من خلال المصاهرة، إذ تضم ثروة الأب، إلى ثروة الزوج، أو جاه الأول إلى جاه الثاني، فهي من هذه الناحية أداة احتكار الامتيازات والاحتفاظ بها ضمن أسرة متفاوتة في عرضها. والويل لها إذا أرادت أن تشذ عن هذا الدور، فستحاصر من كل صوب بالترغيب والترهيب. وإذا قاومت، فستوصم بالعقوق، وجحود النعمة، ويكون مصيرها النبذ. والأسرة لن تقبل أن تمس مصالحها، أو جاهها أو ثروتها من خلال اختيار تقوم به البنت ولا يخدم مصلحتها. ذلك أن هامش الحرية المعطاة لها ضئيل جداً، لها الحق في التصرف كما تشاء، ولها أن تشتهي ما تشاء ضمن القفص الذهبي للأسرة ذات الجاه، فإذا تمردت عليه، فليس من المستبعد أن تسجن حريتها فعلياً. إن قيمتها الإنسانية الحقيقية، حياتها العاطفية، لا حساب لهما، حين تزف، لا إلى قرين تتعاطف معه وتنسجم، بل إلى رصيد مالي، أو عقار، أو لقب. تلك هي أهم مواصفات شريك حياتها المختار، والحقيقة أنها لا تختار إنساناً، ولا تزف إلى شريك، بل تقترن بقيمة مادية أو اجتماعية.

تتعرض المرأة في هذه الفئة إلى أخطر أنواع العبودية، وهي الاستلاب العقائدي، حيث تزين لها وضعيتها كأداة، وتربط قيمتها، بمقدار كلفة الجهاز والأثاث، ومدى ترف وفخامة الزفاف. وعندما تتزوج لا يتغيّر وضعها في قليل أو كثير. إنها مجرد أداة ثمينة يقتنيها زوجها، أداة كلّفه الحصول عليها غالياً. ولكنه يعتز بقدرته على ذلك ويتباهى، فالمردود دائماً أكبر من الكلفة أو هو مواز لها على أقل تقدير. فهو على كل حال لم يتزوج امرأة إنسانة، بل أسطورة جمال، أو جاه، أو مال.

بعد الزواج تقوم المرأة بدور هام جداً، تكاد حياتها تقتصر عليه، وهو تحديداً، استعراض جاه الأسرتين، وثروتهما. إنها بكل بساطة أداة دعاية لزوجها ووالدها، من خلال استعراض ما أنفقت، مقدار ما أسرفت في الإنفاق. دورها أن تتبارى في الدعاية، في سوق

الوجاهة، المسمى حفلات ومناسبات اجتماعية، وعائلية، مع وكيلات الدعاية الأخريات (زوجات وبنات بقية الأسر). تعتز بمقدار ما أنفقت، وما تخطط لإنفاقه. وبالمقابل فإن أسرتها بحاجة لتكليفها بهذه الوظيفة التي تكاد تصبح النشاط الوحيد، القادرة على النجاح فيه، والمجال الوحيد كي تحقق ذاتها من خلاله. هذه المرأة، أداة الجاه، ووسيلة الإعلان عنه، هي بكل بساطة المرأة القناع، ونظراً لفراغ حياتها، وفراغ شخصيتها من كل محتوى يحدد قيمتها، ويحقق لها ذاتها، فإنها تسرف في وظيفة القناع هذه، وبمقدار خوائها الداخلي وموت عواطفها، تهرب إلى الأمام، إلى التمسك بالمظاهر، وهكذا تنطلق في سباق محموم مع بقية النساء الأقعنة، فتصبح قضيتها الوحيدة هي الظهور كأسلوب للوجود. وتتحول إلى قشرة خارجية، إلى أداة إعلان عن كل مستجد من السلع، واللباس، والأثاث. تشير الدكتورة نوال سعداوي إلى هذا الواقع بحدس عميق يملؤه الألم حين تقول: «إن إفراغ المرأة من مسؤوليتها، إفراغ لشخصيتها من لب الإنسان وجوهره وتميّزه عن سائر المخلوقات. بهذا الإفراغ لم يعد للمرأة إلاّ قشرتها الخارجية، الظاهرة أمام الأعين، لم يعد للمرأة إلاّ غلافها الجسدي الخارجي. ويؤكد لها المجتمع من حولها هذه الحقيقة. فالصحف والمجلات حين تخاطب المرأة، تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج إلى تدليك بأنواع خاصة من الكريم، وكرموش تحتاج إلى تقوية وتغذية، وكشفاه تحتاج إلى طلاء بلون الورد، وكشعر يحتاج إلى صبغات تتناسب مع لون الفستان». (المصدر نفسه، صفحة 121).

وهكذا فإذا أفلتت المرأة، في هذه الفئة، من القهر المادي، فإنها ستعيش أسيرة قهر قد يكون أمرّ وأدهى، وهو الاستلاب المعنوي لكيانها، الذي لا يقل عن كونه موتاً نفسياً. والضجر هو أبرز ملامح هذا الموت الناتج عن انعدام الالتزام بقضية إنسانية، تمد الوجود بدفقة الحيوية والأمل، وتجعل للحياة طعماً ومعنى. إن الضجر والسأم هما آفة هذا الاستلاب وأبرز أعراضه، وأكثر المؤشرات دلالة على القحط الداخلي. ولا تجد المرأة علاجاً له إلاّ الإسراف في مزيد من الاستلاب ومزيد من الظواهر والاستهلاك.

ثانياً: أوجه القهر ووسائله (الاستلاب والاختزال)

وضعية القهر التي تفرض على المرأة تتخذ أوجهاً متعددة تجسد هذا القهر في القطاعات الأساسية من حياتها. ولقد لخص بعضهم هذه الأوجه في استلابات ثلاثة تتعرض لها المرأة بقدر متفاوت في حدته. وهي الاستلاب الاقتصادي، والاستلاب الجنسي، والاستلاب العقائدي. من خلال هذه الاستلابات تبتز المرأة وتستغل. ولكن هذا الاستغلال لا يتم بشكل خام ومباشر، إنه يتطلب، كأي اعتداء على كيان إنسان ما، تبريراً يجعل ممكناً. إنه بحاجة إلى طمس طابعه الاستغلالي من خلال إحاطة المرأة بمجموعة من الأساطير تجعله يبدو

مشروعاً، وحتى طبيعياً. ولذلك تتعرض المرأة إلى مجموعة من الاختزالات لكيانها، كل منها يختصر وجودها في جانب واحد منه فحسب، متغاضياً عن وحدته الكلية، وبالتالي متنكراً لاستقلاليته وحقه في الإرادة والرغبة والاختبار، من خلال هذه الاختزالات تتحول المرأة إلى أداة لخدمة أغراض متنوعة تصب كلها في قناة مصلحة الرجل والمتسلط.

1 ـ الاستلاب الثلاثي

يتخذ استغلال المرأة شكل الاعتداء على كيانها على ثلاثة أصعدة رئيسية، من خلال ما يفرض عليها من وضعية اجتماعية وعلائقية وجنسية، لا تتيح لها أن تصل إلى الاستقلال، وبالتالي إلى المساواة، والحصول على حقوق المواطنية بالشكل الكامل. والاستلاب الاقتصادي هو والاستلاب الجنسي من موضوعات الساعة في حركة تحرير المرأة. الأمر هنا واضح لا يحتاج إلى تدليل مطول لتأكيده. ولكن هناك استلاباً، أخطر من الاثنين السابقين، وهو الاستلاب العقائدي. ونعني به أن تتبنى المرأة عقيدة استعبادها معتبرة ذلك جزءاً من طبيعتها الأنثوية. وسنرى أن هذا التبني مسؤول إلى حدّ كبير عن تأخير تحرر المرأة.

1.1 ـ الاستلاب الاقتصادي

تتعرض المرأة لعملية تبخيس دائم لجهدها، مما يسمح للرجل باستغلال هذا الجهد دون مقابل أحياناً، وبمقابل هزيل أحياناً أخرى. كما تتعرض لتبخيس إمكاناتها، مما يدفع بها دوماً إلى مواقع إنتاجية ثانوية، بعيدة عن الخلق والإبداع. وتتعرض في المقام الثالث، إلى طمس هذه الإمكانات والطاقات من خلال حرمانها فرص التدريب الملائمة وبشكل متوازن مع الرجل. وتتعرض رابعاً لغرس عدم الثقة بنفسها وإمكاناتها، مما يجعلها تكتفي بمكانة مهنية هامشية وتتوجه كي تحقق ذاتها إلى ميادين أخرى لا تعطيها سوى وهم تحقيق تلك الذات.

هناك طبقية واضحة في توزيع النشاطات المهنية بين الرجل والمرأة. فهي تعطى دوماً الأعمال الثانوية، أو الهامشية، أو الرتيبة التي تخلو من الإبداع. وتظل في حالة تبعية للرجل الذي يحتكر الأعمال الأساسية، مما يتيح له بسط نفوذه عليها. ويقسم العمل عادة انطلاقاً من اعتقاد ضمني بالدونية المهنية للمرأة. وتحاط هذه بمجموعة من الأساطير والمعتقدات حول إمكاناتها الذهنية، أثبتت الدراسات النفسانية الحديثة بطلانها بشكل قاطع، كأسطورة عدم صلاحية المرأة للنشاطات العقلية والرياضية والعلوم المجردة والتطبيقية، والبحث العلمي العالي. وحال المرأة في ذلك تماماً كحال الفئة دون الكادحة التي توكل إليها الأعمال المبخسة، أو فضلات النشاط المهني الذي يرفضه المحظوظون. حتى حين تتساوى الكفاءة المهنية، نجد ميلاً واضحاً نحو تفضيل الرجل على المرأة، إذ إن القناعة بدونية المرأة المهنية، متأصلة في

عقل الإنسان المتخلف المبني على نمط طبقي أساساً، على نموذج السيادة والتبعية، والتفوق والدونية. هذه القناعة تؤدي بدورها إلى فقدان المرأة للثقة بنفسها مهنياً، مما يولد لديها عقدة انعدام الكفاءة الاجتماعية التي تحدثنا عنها بصدد الإنسان المقهور. هذه العقدة متضخمة بالضرورة عند المرأة نظراً لحشرها في أكثر الأمكنة قهراً.

إن الأمر لا يستند إلى أي أساس بيولوجي، أو ذهني، بقدر ما هو نتاج عملية تشريط اجتماعية، تخضع لها المرأة منذ نعومة أظافرها. فمنذ البداية حرمت المرأة في المجتمع المتخلف، كل فرص الارتقاء النفسي والذهني وكل فرص التقدم المهني، من خلال سجنها في البيت، وفرض مهمات الخادم عليها (كنس، ومسح، وغسل، وغيره) بينما احتفظ الرجل بالأعمال ذات القيمة، مترفعاً عن أعمال المنزل التي تستنزف كيان المرأة بحجة أنه كاسب القوت، ومعيل الأسرة، وأن له حق الخدمة على زوجته، التي ستجوع وتعرى من دونه. لقد فرض على المرأة وضع لا خيار لها فيه سوى الرضوخ لهذا المستوى الذي يستنزف كيانها دون مقابل، كي يأتي الرجل فيما بعد، معتداً بذاته لأنه يعيلها ويسترها.

منذ البداية تعد المرأة لمكانة هامشية، ولوضعية التبعية للرجل. إنها في دراستها وفي إعدادها المهني، تحرم الكثير من الفرص التي تسمح بتفتح إمكاناتها وطاقاتها، وتساعدها على الانطلاق في الحياة أسوة بالرجل. حتى إن دراستها هذه، بعد أن بدأت تذهب إلى المدرسة، لا تؤخذ على محمل الجد. إنها وسيلة تزيد من قيمتها كزوجة مقبلة ليس إلا. فإذا كانت تتمتع بقسط من الجمال، اعتبرت الدراسة غير ضرورية، لأنها تمتلك رصيداً يتيح لها الزواج السريع. بينما نرى الأهل يقلقون أيما قلق على دراسة الصبي ويحيطونها بكل الجدية التي تستحقها، لأنها الطريق إلى المستقبل. أما الإعداد المهني للفتاة، فهو جهد ضائع في نظر الأهل معظم الأحيان، أو هو مجرد خسارة مالية، طالما أن مصيرها هو الزواج والبقاء في المنزل. ولذلك فإنهم يختارون لها معظم الأحيان مجالات مهنية متوسطة المستوى، قصيرة المدى، لن تقودها إلاّ إلى مكانة هامشية، أو وضعية تبعية، ومن الطريف هنا ملاحظة ردود فعل الأهل على الفشل الدراسي والتأهيلي لكل من الصبي والبنت. فبينما يعتبر الأمر كارثة في حالة الأول، إذا به يؤخذ بكثير من اللامبالاة في حالة الثانية.

هذا التشريط أدى إلى خمول المرأة وطمس طاقاتها الذهنية، وغرس في نفسها دونية ذهنية ومهنية من الصعب علاجها. لقد حوّل اهتمامها من الكيان الإبداعي، إلى المظاهر المثيرة، وحوّل توجهها إلى ميادين الاستهلاك والظهور التي ألصقت بطبيعة الأنثى، كمجالات لتحقيق ذاتها. وغرس في نفسها القناعة بأن العلم، والعقل، أمران ثانويان طارئان وأن الاهتمام المهني أمر عابر أو مستبعد. وبعد أن يبخس كيانها على هذا الغرار، نرى الرجل

المتسلط يتخذ من هذا التبخيس حجة وسلاحاً يحاربها به، ويطمس كيانها أكثر فأكثر في التبعية. ذلك أن هذا الكيان الضحل، الانفعالي، الذي لا يعرف الجدية، ولا يكترث إلاّ للتفاهات، لا يمكن الاطمئنان إليه والثقة به. لذلك هو دوماً أسلوب المتسلط لتبرير استغلاله للإنسان المقهور، يطمس إمكاناته، ويبخسها كي يتخذ منه سلاحاً لزيادة استغلاله. ولقد تغلغل هذا التشريط في أعماق المرأة لدرجة بدأت معها تقتنع فعلياً أنها غير مخلوقة إلاّ للمكانة التي أُعطيت لها، وأن ليس من مجال للخروج إلى الحياة وإثبات الذات في أعمال بنّاءة تضمن لها الاستقلال والمساواة مع الرجل.

إضافة إلى الإجحاف في نوع العمل، ومستوى الإعداد المهني، يلحق بالمرأة حيف واضح على مستوى التقويم المادي لعملها. إلى وقت قريب كان هناك ميل لتبخيس ثمن عملها، على شكل أجور زهيدة، وإجحاف في الترقية، وجور في قوانين التعويضات والإجازات.

ولكن الأخطر من ذلك والأكثر جوراً هو تجاهل تقويم الجهد المنزلي الذي يكاد يعتبر مجانياً، أو كجزء من مهمات المرأة التي لا تدخل في نطاق التقويم. وهكذا فالمرأة العاملة في الخارج، تعود إلى منزلها كي تعمل عدداً موازياً من الساعات دون مقابل في تدبير شؤون المنزل والعناية بالأولاد، بينما ينصرف الرجل إلى متعه ولهوه في المنزل أو خارجه. وهكذا تبذل المرأة جهداً مزدوجاً كي تحصل على أجر أقل.

وتبلغ حالة المرأة في الريف، وفي بعض الأوساط العشائرية، من هذه الناحية، قمة الاستغلال. إذ لا يكتفى بتبخيس إنسانيتها، ورهنها بالرجل تماماً، بل تستغل الأسرة جهدها لدرجة الاستنزاف الكلي. فهي تدفع إلى أحد البيوت الصغيرة، كي تعمل كخادم تتعرض لقسوة أسيادها وجورهم، ولاستغلال والدها الذي يقبض كل الأجر، كي يظل عاطلاً عن العمل يعيش بشكل طفيلي على جهد بناته وزوجته أو زوجاته، تماماً كما هو شأن المتسلط المستغل. وعندما تكبر تنتقل كخادم من عند الأب إلى عند الزوج، لا يتغيّر شيء كثير في حياتها سوى زيادة همومها، وسوى المزيد من استنزاف صحتها في ولادات متتابعة تؤدي بها إلى الشيخوخة في شرخ الشباب. وعندما تفقد كل طاقة، ويفقد جسدها كل جاذبية تهمل، تطلق أو تهجر لغيرها، كي تستمر عملية الاستغلال. وهي تعيش راضية فلا خيار لها، طالما ظل فيها رمق من شباب وحيوية. ولكن المأساة هي في بروز قلق الطلاق أو الهجر حين تتقدم بها السن، قلق لا تجد له من علاج سوى المزيد من الرضوخ لما يفرض عليها من عبودية، علّها تثير بعض الرضى عند سيدها الذي يقضي أيامه في الثرثرة والكسل، وشرب الشاي. . ذلك هو أفصح نموذج على القهر الذي يقع عليها.

2.1 ـ الاستلاب الجنسي

في الاستلاب الجنسي، يصل القهر الذي يمارس على المرأة درجة صارخة. فو أشد في تأثيره على مصير المرأة من الاستلاب الاقتصادي، وإن كانت الرابطة بينهما وثيقة. إذ يتمشى مقدار الاستلاب الجنسي عادة مع درجة التبعية الاقتصادية التي تفرض على المرأة.

مظاهر وأوجه الاستلاب الجنسي عديدة وتتضمن تناقضات هامة، تجعل وضعية المرأة مأزقية، كما تفجّر عندها الكثير من المآزم النفسية.

في البداية هناك اختزال للمرأة إلى حدود جسدها. واختزال لهذا الجسد إلى بعده الجنسي: المرأة مجرد جنس، أو أداة للجنس ووعاء للمتعة. هذا الاختزال يؤدي مباشرة إلى تضخم البعد الجنسي لجسد المرأة بشكل مفرط، وعلى حساب بقية أبعاد حياتها. إنه يمحور المرأة ويركزها حول المسألة الجنسية، يركّز كل قيمتها في هذا البعد من حياتها، كما يفجّر كل مخاوفها الوجودية حول حلول كارثة ما تعصف بوجودها. هاجس المرأة قبل الزواج، يتحول إلى قلق حول غشاء البكارة وسلامته، وإلى قلق حول قدرات الجسد على حيازة إعجاب الرجل بضمان الزواج. هذا التركيز يفجّر عند المرأة أشد الرغبات وأعظم المخاوف في آن معاً. تلك هي المعضلة الأولى التي تتعرض لها المرأة في الاستلاب الجنسي، خصوصاً أنها تعيش كيانها بشكل مهدد، تتهدده رغباتها الذاتية، وتتهدده رغبات الرجل خارج الزواج، وتتهدده الحوادث على اختلافها (تشويه الجسم، إصابته بعاهة، فقدان البكارة لسبب ما، إلخ. .).

يقابل التركيز الجنسي المفرط والاختزال لجسد المرأة، قمع له يبلغ أقصى درجات الشطط والقسوة. فالممنوعات التي تفرض على جسد المرأة دينياً ومدنياً أشهر من أن تعرّف. قانون المجتمع في أشد وجوهه قمعاً، منقوش منذ الطفولة على جسد المرأة، في حركية هذا الجسد، وتعبيراته، ورغباته. جسد المرأة المختزل إلى بعده الجنسي، هو عورة يجب أن تستر وتصان وتحمى. وهو قبل ذلك ملكية الأسرة ومن ورائها المجتمع، أسرة الأب في البداية، ثم أسرة الزوج فيما بعد. ليس للمرأة سلطة على جسدها (جنايات الشرف تشهد على ذلك بشكل صارخ وفادح).

وهكذا، وكما يقول صديقنا «د .عباس مكي»[1]، كان جسد المرأة وما زال مادة غنية للتشريع، تحديد المسموح والممنوع من تحركات الجسم وتعبيراته ومتطلباته، تبعاً لأنماط مقبولة اجتماعياً، أي في النهاية تبعاً لأنماط تخدم مصلحة المتسلط الذي يمتلك هذا الجسد.

---

(1) د. عباس مكي، المرجع السابق.

هناك قوة المنع المدنية، وقوة التحريم الدينية، التي تثقل جسد المرأة بقيود الخطيئة ومشاعر الإثم. «الحركية الحرة للجسم جنسياً أساس معنى العيب، وضبطها المقنن أساس معنى الشرف» (المرجع نفسه، صفحة 117). جسم المرأة مقيد تاريخياً، إنه جسد مؤسس[1]، كل قوانين التحريم والمنع تهدف لاحتواء هذا الجسد ووضع مفاتيحه في يد الرجل.

فالقوانين هي إذاً وسيلة الرجل وسلاحه لامتلاك جسد المرأة والسيطرة على كيانها بالتالي. إذ من المعروف أن أقصى درجات السيطرة تتم من خلال الجسد والتحكم به. عندما يفلت الجسد ويعبِّر عن طاقاته ورغباته بحرية، يفلت الإنسان من التسلط والقهر. ولذلك فالمرأة حين تتمرد، فإنها تفعل ذلك أساساً من خلال إعطاء نفسها حرية التصرف بجسدها جنسياً في المقام الأول.

وهكذا يمتلك الرجل جسد المرأة، أي يمتلكها بعد اختزال كيانها ضمن حدود جسمها في أغلب الأحيان، لا من خلال رضى وتوافق متبادلين، بل من خلال قوة القانون، العلاقة حقوقية قبل أن تكون عاطفية. ولكن حقوقية العلاقة لا تترك للمرأة أي حق تقريباً، بينما تعطي الرجل كل الحق مما يدفع به إلى الأنانية، حتى في المتعة، إذ إنه لا يراعي حاجاتها ووتيرة الإثارة والمتعة عندها. حتى الجماع يتحول في معظم الأحيان إلى فعل سيادة للرجل على جسد المرأة من خلال إثبات القوة القضيبية، في العلاقات الجنسية المتخلفة المتسمة بالقهر، بدل أن يكون وسيلة للمتعة المتبادلة.

وهذا كله يوقع المرأة في وضعية مأزقية، في حالة تناقض مذهل بين اختزال كيانها إلى مجرد جسد جنسي (تضخيم أهمية الجنس) والقمع المفرط الذي يفرض على هذا الجسد، وعلى إمكاناته التعبيرية، ويزداد المأزق حدة، والتناقض عنفاً نظراً لموقف الرجل الذي تتجاذبه المرأة، فهو ينجذب نحو الجسد الذي يضج بالحياة والجاذبية، ويتمتع، بقدر من التعبير، ولكنه لا يتحمل مسؤولية نتائجها، تقع المسؤولية على المرأة، ويقع الغرم كله عليها. وهو إن أصاب حظاً في محاولاته التي لا تخلو من تغرير وخداع، يزدري المرأة، كي يتزوج من أخرى قد صده جسدها. ولكنه يشكو فيما بعد من برودها الجنسي ويضع اللوم عليها لحرمانه من المتعة، وقد يتوسل القانون للانفصال عنها. وهكذا تتحول المرأة إلى ضحية للقمع والتسلط مرتين، ضحية قمع الحيوية في جسدها، وضحية نتائج هذا القمع بعد الزواج وما قد يعقبه من انفصال. وقد يشكو الرجل من تزمت المرأة، ولكنه يتهرب منها ويخشاها إن هي تجرأت على التعبير عن جسدها. تلك مأساة علاقة التسلط والقهر التي تخضع لها المرأة من خلال الاستلاب الجنسي.

---

(1) جسد مؤسس Corps institutionalisé.

وقد يؤدي القمع الجنسي عند المرأة، إلى جمود كيانها كلياً، وهكذا تصبح جسداً جامداً، تقيده الموانع والصدود، فاقداً كل حياة، فهو مجرد مظهر. ذلك هو الحال حين يختزل المجتمع المرأة إلى مجرد رحم للإنجاب، وكيان يضحى به لتربية الأولاد وخدمة الزوج، دون الاعتراف لها بحق التمتع بجسدها. تلك بالطبع حالة مفرطة من القمع، تلاحظ في المجتمعات المغرقة في تخلفها وتزمتها، التي لا ترى من وظيفة للمرأة، سوى وظيفة الأداة. المرأة في هذه الحالة جسد صنمي ذو تعابير باردة، تخلو من كل حياة. ذلك تناقض آخر صارخ، ينتج عن وضعية القهر، فالجسد مجرد أداة جنس، ولكنه يجب ألاّ يحمل أي رغبة جنسية، أو يبدي أي تعبير جنسي.

نتائج هذه التناقضات كارثية بالنسبة للمرأة وللرجل على حد سواء. أولها تزييف التعبير عندها. فبدل التعبير التلقائي المتكامل مع توجه الشخصية، تقع المرأة في مأزم الازدواجية التعبيرية، ازدواجية الصريح والضمني، القبول والرفض، الاعتراف والإنكار، القرب والبعد. وهنا يعاني الرجل من هذه الازدواجية ويتهم المرأة بالاحتيال والمكر والتلاعب، أو يتهمها بأنها لا تعرف ما تريد. والحقيقة هي أنها أكثر من يعرف ما تريد، ولكنها تعرف إضافة إلى ذلك ما يتهددها من أخطار، إن هي تصرفت تبعاً لما تريد وتمردت على القمع المفروض عليها. هذه المعرفة يتجاهلها الرجل، المستفيد من نظام القهر المفروض عليها. ومن النتائج المرضية لوضعية القمع، كل مظاهر الاستعراض المسرحي، كل الهتاك[1] الذي تبديه المرأة. ذلك أنه عندما تحرم حق امتلاك جسدها، والقدرة على التعبير المعافى عنه، فإنها لا بدّ أن تلجأ إلى التعبير المرضي. فجذوة الحياة في الجسد لا تموت، مهما اشتد القمع، بل تتسرب في مسارب غير سليمة وغير سوية، مسارب تقود إلى اضطراب العلاقة بين الرجل والمرأة لا محالة. من خلال الهتاك تتحول المرأة إلى كائن نرجسي يستعرض جسده، كمظهر، كوسيلة للحصول على الإعجاب، وانتزاع الشهوة. ولكنها تقف عند هذا الحد عاجزة عن المتعة، وحارمة إياها الرجل في آن معاً.

وفيما عدا هذه الحالات، فإنه عندما تقمع الحياة الجنسية للمرأة كلياً في حالة من التنكر الاجتماعي الصريح لها، تتحول المرأة إلى كائن متزمت. وتتحول الطاقة الجنسية إلى مسارب نزوة العدوان متخذة شكل الحقد. والتزمت، مضافاً إلى الحقد، يفتح السبيل أمام التعصب على اختلاف أشكاله، تغرسه المرأة في أطفالها. تنشأ على يديها نماذج بشرية تحمل بذور الفاشية. كما تعاني هذه النماذج من قمع حياتها الجنسية وطاقة الحب لديها. وهكذا فالمرأة التي قهرت في جسدها، سوف تقتص دون أن تدري بتنشئة رجال فاقدين للقدرة الجنسية،

(1) هتاك «Exhibitionisme» اللذة الجنسية من خلال الاستعراض.

للقدرة على الحب والمتعة. ذلك ما يوجزه (ماندل) بشكل فصيح: «كلما كانت المكانة الاجتماعية العاطفية للمرأة ضمن ثقافة ما، هي مكانة خصاء، بمعنى أنها مجرد رجل مخصي (كائن مبتور)، كلما زاد ميلها اللاواعي إلى خصاء طفلها الذكر (بمعنى القضاء على رجولته الجنسية وقدرته على المتعة)[1]. تلك هي كارثة الاستلاب الجنسي، تعطي المرأة لابن الزوج البضاعة نفسها التي أخذتها منه ومن أبيها قبله.

3.1 ـ الاستلاب العقائدي

أخطر من الاستلاب الجنسي، والاستلاب الاقتصادي، الاستلاب العقائدي. فهنا تتبنى المرأة كل الأساطير والاختزالات التي يحيطها بها الرجل، كما أنها تجتاف أحكامه الجائرة بصددها، فتتقبل مكانتها، ووضعية القهر التي تعاني منها، كجزء من طبيعتها، عليها أن ترضى بها وتكيِّف وجودها بحبسها. ولا شك أن خطورة الاستلاب العقائدي تنبع في المقام الأول من مقاومة التغيير التي يشكّلها. فهي لا تتصور لها وضعاً غير وضعها الذي تجد نفسها فيه. وهي تقاوم تغييره، وكأن هذا التغيير خروج على طبيعة الأمور، وعلى اعتبارات الكرامة والشرف.

الاستلاب العقائدي، هو أن تقتنع المرأة بدونيتها تجاه الرجل، وتعتقد جازمة بتفوقه، وبالتالي بسيطرته عليها، وتبعيتها له. والاستلاب العقائدي هو أن توقن المرأة أنها كائن قاصر، جاهل، ثرثار، عاطفي، لا يستطيع مجابهة أي وضعية بشيء من الجدية والمسؤولية، وبالتالي لا تستطيع الاستقلال وبناء كيان ذاتي لها. والاستلاب العقائدي، هو أن تعتقد المرأة أن عالمها هو البيت، وأن الزوج والأولاد والأسرة تشكّل حدود كيانها. والاستلاب العقائدي، هو في تنمية إمكاناتها كأم وخادم، وطمس كل ما عداها من إمكانات مهنية إنتاجية. الاستلاب العقائدي هو في يقين المرأة بأن جسدها عورة، وبأن هذه العورة يجب أن تستر، من خلال الأب والأخ، والزوج والابن بعدهما، وبأن الشرف بالنسبة إليها هو في الحفاظ على هذه السترة. والاستلاب العقائدي هو تبني أسطورة حواء بضعفها واحتيالها، ومكرها، وغيها، حواء مجسدة الآثام والشرور، ومصدر كل غواية. والاستلاب العقائدي هو أيضاً على عكس من ذلك تبني أسطورة الأم المتفانية في خدمة أولادها وزوجها، تلك التي تتلخص سعادتها في استنزاف ذاتها تحت شعار العطاء. والاستلاب العقائدي هو أن تشعر المرأة أنها تحقق ذاتها، وتصل غاية وجودها من خلال القيام بالأدوار التي تناط بها، وأنها عبء، طالما لم تصبح أماً. وإذا كان لكيانها من معنى فهو في هذه الصفة تحديداً.

والاستلاب العقائدي هو في النهاية أن تقتنع المرأة في أعماقها أن من واجبها الطاعة

---

(1) G. mendel. La revolte contre le père. Paris, Payot, P. 411.

للزوج وللأب قبله، وأن لها عليهما حق الستر والحماية والإعالة، وأن طبيعتها تتلخص في جسد يلبس، وقوام يجذب ورحم ينجب، ولسان يشكو ويتطلب ويكذب، وأيد تطهو وتغسل وتمسح.

من خلال هذا الاستلاب يصل القهر أقصاه، لأن المرأة تعتز عندها بمظاهر قهرها، وتعرّف نفسها من خلال استلابها. وبالتالي فإن هذا الاستلاب يطمس إمكانات الوعي بوضعها، ويطمس الرغبة في التغيير، كما يطمس القدرة على التحرير. وهكذا تفتح أبواب استغلال المرأة على مصراعيها، وتكون هي المتواطئة الأولى على مصالحها الحقيقية.

والحق أن المرأة، لم تصل إلى الاستلاب العقائدي بشكل تلقائي. إنه نتيجة عملية تشريط[1] منظمة ومستمرة، تحيط بكيانها من كل جانب، تقوم بها الأسرة منذ طفولتها، من خلال ما تقسم لها من أدوار، وما تحدد لها من وظائف، وما تعطي كيانها من دلالات سالبة أو موجبة، تحاصر المرأة منذ أن تولد بشكل لا يترك لها منفذاً، ولا متنفساً، خارج القوالب المحددة لها. وليس أمامها في معظم الحالات إلاّ الرضوخ لما أعدّ لها، إذا أرادت تجنب المضايقات والضغوط التي تنوء بحملها. فمنذ أن تولد تتعرض لعملية خصاء ذهني وعملية صد لطاقاتها الحيوية إلاّ فيما يخدم الوظائف المعدة لها. ثم تأتي النظريات النفسانية بعد ذلك لتكرس هذا الخصاء الذهني والحيوي والإرادي، وباختصار الخصاء الكياني، من خلال الزعم بعقدة خصاء عند المرأة، وعقدة غيرة من الصبي واشتهاء لامتلاك القضيب الذي جعل في تلك النظريات، خصوصاً التحليل النفسي التقليدي، المرجع الأساسي اللاواعي. وهكذا تعرّف هذه النظريات المرأة أساساً كنقص، أو فراغ، يقابله امتلاء الرجل الذي يمتلك القضيب. نحن نعتقد أن هذه النظريات لم تفعل سوى تكريس وتنظير وضعية القهر التي فرضت على المرأة، من خلال زعم الانبناء المتصف بالنقص «manque» الذي يميزها. إذا كان لاوعي المرأة مبنياً على هذا الغرار (نقص وتمحور حول القضيب)، فما ذاك إلاّ لما فرض عليها من تبعية للرجل، ورضوخ لسيادته. وككل علاقة تسلط ـ رضوخ، تعرّف القيمة على أنها دائماً في السيد الذي يحتل موقع المرجع. لقد تساءلنا في جدل علمي مع نفر من هؤلاء، حول ما إذا كانت الأمور قابلة للتغيير على هذا المستوى اللاواعي، إذا تغيّرت ظروف المرأة في مجتمع يخلو من القهر والطبقية، ويعترف للإنسان بقيمته بذاته، ومساواته للآخرين. ونحن نعتقد أن لاوعي المرأة، كلاوعي الإنسان المقهور، مبني على غرار وضعية القهر، المفروضة على كل منهما. فإن انبناء اللاواعي هو الوجه الآخر لانبناء المجتمع والنظام الذي يسوده.

ولقد قيل إن الأطفال يحتلون قيمة نرجسية كبيرة في حياة المرأة. ذلك صحيح ظاهرياً.

---

(1) تشريط Conditionnement.

وقيل إنهم يحتلون هذه القيمة لأنهم يلعبون وظيفة التعويض القضيبي (الطفل الذكر هو قضيب الأم..) إذا كان الأمر كذلك، أفلا نستطيع أن نرجعه، إلى وضعية المرأة نفسها، وتحديداً إلى انعدام قيمة الأنوثة إلاّ كتابع، للقيمة المرجعية، وهي الرجل وامتيازاته وتسلطه، والتي يرمز إليها بالقوة القضيبية؟ ألا يرجع التعلق النرجسي بالأبناء عند المرأة إلى اختزال كيانها إلى أم، أو رحم ينجب، وإلى سد جميع سبل تحقيق الذات أمامها خارج هذا الإطار. إذا خرجت المرأة إلى المجتمع واحتلت مكانها أسوة بالرجل، وبنت لذاتها كياناً مستقلاً، وإذا وجدت أن لها دوراً فعلياً في عملية البناء الاجتماعي، ألا تتغيّر نظرتها إلى طفلها كأداة تعويضية؟ إذا كانت المرأة الأم تملكية، وإذا كان هذا الحب التملكي مصدر شكوى علماء نفس الطفولة، والمتخصصين في علاج اضطراباتها، فما ذاك إلاّ لأنها حرمت امتلاك نفسها وجسدها وكيانها، حرمت فرصة أن تكون كشخص قائم بذاته، يجد معناه في إسهامه في القضايا العامة.. ذلك هو رأينا على أي حال، وهو مطروح للنقاش.

المهم أن الاستلاب العقائدي للمرأة، وما يتلقاه من تعزيز دائم من الخارج ومن الذات في آن معاً، يحكم عليها بالبقاء رهينة وضعية القهر، لا هي تعيها، ولا هي تقبل أن تغيرها، إنها تتمسك بها باعتبارها طبيعة الأنثى وقدرها. وينعكس ذلك لا محالة على التغيير الاجتماعي بأكمله فيكبحه لا محالة. لا تطوير دون تغيير وضعية المرأة، ولا تغيير لوضعيتها دون تمزيق حجب الاستلاب العقائدي التي تمنع عنها رؤية ذاتها، ورؤية العالم على حقيقته.

2 ـ الاختزالات

لا يمكن للاستلاب في أوجهه التي استعرضناها وغيرها، أن يتم إلاّ من خلال عملية اختزال يخضع لها كيان المرأة. شأن الاستلاب في ذلك هو شأن أي عملية استغلال أو امتلاك أو عدوان، حيث لا بدّ كي تتم من سلب الآخر إنسانيته وكيانه القائم بذاته، وإلحاقه بنا كأداة لخدمة نوايانا ورغباتنا. هذا السلب يتم من خلال تحويل الآخر إلى أسطورة تأخذ شكل اختزال كيانه إلى إحدى صفاته أو خصائصه أو وظائفه، وتوحد بين هذا الجانب الجزئي والكيان الكلي. والاختزال يسجن الآخر في صورة لا يسمح له بتعديها، إنه إذا نفي لتنوع وجوده وتعدد وجوهه ومستوياته، إنه نفي لإرادته في أن يكون غير ما نريد أو نحتاج. بذلك فقط يمكن التحكم بالآخر والسيطرة عليه، دون مشاعر إثم نابعة من اعتداء على إنسانية كائن شبيه بنا. والاختزال عملية ضرورية كي يصبح العدوان على الغير ممكناً، كذلك استغلاله، أو امتلاكه. وبالتالي فهو موجود دائماً في كل عملية قهر.

يخضع كيان المرأة، لأشكال عديدة ومتنوعة من الاختزال تجعل منها امرأة أسطورة. وتقسم هذه الاختزالات إلى فئتين أساسيتين: الأولى إيجابية تبالغ في قيمتها وتمثلنها،

والأخرى سلبية تبالغ في تبخيس هذه القيمة. والنتيجة واحدة في الحالتين، إذ إننا لا نرى من المرأة إلاّ ما نريد ونحتاج، في عملية تعميم مقصودة على بقية جوانب كيانها، تحولها إلى مجرد كائن خرافي، إلى سند هوامي نبيح لأنفسنا أن نتحكم فيه كما نريد.

أما الاختزالات السالبة، أو التبخيسية فهي الغالبة، منها: المرأة القاصر، المرأة الانفعالية، المرأة الغاوية، المرأة العبء، المرأة المظهر، المرأة الماكرة، والمرأة الخادم.

المرأة القاصر، هي الطفلية، العاجزة، التي لا تعرف كيف تتحمل مسؤولية وجودها، ولا بدّ لها من وصاية وإعالة، وهي لقاء ذلك تدفع الثمن على شكل تبعية كلية للرجل. عندما تختزل المرأة إلى هذا البعد من وجودها تطمس كل إمكاناتها على تعددها، وتتحول إلى مجرد ملكية للرجل، إلى مجرد أسطورة يسقط عليها كل عجزه الذاتي، ويسومها مختلف ألوان العسف انطلاقاً من هذا الإسقاط. ويقرب من ذلك صورة المرأة العبء، يعتبرها الأب مصدر همّ له وهي صغيرة، ومصدر قلق على عفتها حين تصبح مراهقة، ومصدر همّ له ولأمها حين تبلغ سن الزواج، ومصدر همّ آخر قبل أن تنجب لزوجها الأطفال (خصوصاً إذا تأخر الحمل، أو هي لم تنجب سوى بنات)، أما الزوج فيعتبرها أيضاً عبئاً عليه، كفم لا بدّ أن يُطعم، وجسد لا بدّ أن يُكسى. وهنا قد تتحول المرأة إلى أسطورة المستنزفة للرجل، لجهده وماله، المرأة التي لا تكتفي، وترهقه من أمره عسراً.

على العكس من ذلك هناك المرأة الخادم، من خلال صورة خلق المرأة كي تسخر لخدمة الرجل. خدمة الاخوة وهي صغيرة، خدمة الزوج وهي كبيرة. لا أهمية لها إلاّ إذا قامت على شؤون المنزل، وتحملت بصمت وصبر كل الأشغال التي تستنزف كيانها، وتقضي على الحياة في نفسها. وإذا كانت المرأة خادماً، فمن الطبيعي إذاً أن يستغلها الرجل دون تورع.. هذه المرأة الخادم تطمس رغباتها وإرادتها. تطمس حاجاتها للبروز وتحقيق ذاتها كما يطمس جسدها وقدرته على الجاذبية، وحاجته إلى الإشباع الجنسي والعاطفي، وكما يطمس أملها في الخروج إلى العالم العريض كي تكون إنسانة قائمة بذاتها.

أما المرأة الغاوية، فهي مجرد جسد يشتهى، مجرد وعاء جنسي، لا يهم بعد ذلك أن تتمتع بأي ذكاء، أو عقل، أو حس، أو قدرة على العطاء الاجتماعي. إنها إناء لذة الرجل ينبذها ويزدريها بعد قضاء وطره. أما أن تكون غاوية جنسياً وتكون أماً في آن معاً فهذا ما لا يمكن تصوره. إنها تشتهى ولا تحترم، كما يوضع عليها اللوم في أنها مصدر الشر والفتنة، مصدر الضلال وصرف الرجل عن مهامه النبيلة، وقضاياه السامية، إنها مجسدة الشيطان، وسبب الآثام.

وأما المرأة الماكرة، فهي الأسطورة التي يسقط عليها الرجل كل تناقضاته، ويحملها

مسؤولية كل صراعاته العلائقية. إنها المرأة التي لا يؤمن لها، والتي يجب الاحتراس لكيدها ودسها. كل خلافات الرجل الأسروية تلصق بالمرأة المحتالة الماكرة، التي تبث بذور الشقاق بين الأشقاء..

في كل هذه الحالات وغيرها ينطلق الرجل في حربه ضد المرأة، ويبرر ما يمارسه عليها من قهر من خلال النعوت التي يلصقها بها، فهو عندما يستغل لا يستغل إنساناً له قيمته، وعندما يعتدي، لا ينال من حرمته، بل هو بكل بساطة يحارب الشر، ويسيطر على العجز والمكر.

أما الاختزالات الإيجابية، فهي الأقل عدداً، وفيها ترفع المرأة إلى مرتبة مثالية، تحاط بهالة من التقدير تبلغ حد التقديس أحياناً. ولكنه تقدير وتقديس يرفض للمرأة إلاّ أن تكون مثالية، يرفض أن تكون لديها نوايا عدوانية، أو تطلعات تمردية، أو رغبات آثمة، أو حاجات جسدية وجنسية. وبقدر حاجة الرجل إلى الاختزال السلبي للمرأة، فهو بحاجة إلى الاختزال الإيجابي، الذي يجد فيه طمأنينة ضد قلق الهجر، وملاذاً ضد آلام ومصاعب وتهديدات الحياة. ولكن الأمر في الحالتين واحد، وهو تسخير المرأة لخدمة غايات الرجل وعدم التعامل معها ككيان قائم بذاته.

أشهر الاختزالات الإيجابية هي المرأة الأم محط أساطير التفاني والتضحية، والحب الذي لا ينضب، والرجاء الذي لا يخيب، والملاذ الأمين، والعزاء الأكيد حين تقسو الحياة ويعز الأصدقاء. ولقد بالغ الرجل في العالم المتخلف في إعلاء شأن الأمومة نظراً لما يعصف بوجوده من أخطار، وأرزاء. ووصل به الأمر حد اعتبار الأمومة غريزة لا يمكن أن يعتورها الخلل، أو يتطرق إلى عطائها الشك. ولكن العلم الحديث أثبت أن غريزة الأمومة عند الإنسان، إذا كان لها أصلها البيولوجي، فإنها تحاط بالعديد من الأساطير، وبالكثير من الرغبات والأفكار المحببة لا تجد لها سنداً من الواقع على الدوام. والدليل على ذلك انتشار اضطرابات الأمومة وتنوعها. مما ليس هنا مجال الخوض فيه. وكادت أسطورة الأم أن تحرم المرأة حقها في أن تكون غاوية، أو تكون صنواً للرجل في المهمات الاجتماعية، أو أن تستقل بذاتها عن الزوج والولد. إنها تسجن الأم في تصورات مثالية من العطاء بدون حدود ولا مقابل.

ويرتبط بالمرأة الأم، المرأة مصدر الحب والحنان، ينبوع الرقة، وكذلك المرأة الملاك، نموذج الطهر (الذي يلغي جسدها ورغباته في الحقيقة).

على عكس المرأة ـ الأم هناك المرأة ـ الوجاهة الاجتماعية، وهي المرأة المختزلة إلى جمالها، أو حسبها ونسبها. إنها دمية يستعرضها الرجل كي يتباهى بملكيتها أمام الآخرين، مدللاً بذلك على ما له من حظ وحظوة. وليس المهم الشكوى من الكلفة المادية لهذه الدمية، بل المهم هو إثارة غيرة الآخرين، كي يتمكن من الشعور بالاستعلاء والتفوق عليهم. ولكنه

في الوقت نفسه سيرهق بالعناية بهذه الدمية وحمايتها من الأعين الحاسدة، والنفوس المشتهية. ما يطلب من المرأة في هذه الحالة، ليس فهم، ولا عاطفة، ولا شخصية، بل مظهر براق يلفت النظر ويدلل على ما حظي به صاحبها من غنم.

في هذه الاختزالات السلبية منها والإيجابية، تحرم المرأة فرصة عيش كيانها بكل أبعاده وتنوعه وتناقضه. إن الاختزال هو اختصار للوجود إلى صفة مستحبة، أو منفردة، اختصار للمرأة إلى موضوع مرغوب فيه، أو موضوع يستقطب كل التناقضات الذاتية عند الرجل، ويجسد كل ما ينفر منه في نفسه. ويتغذى الاختزال من الهوامات الكثيرة اللاواعية التي تحيط بكيان المرأة وصورتها. هذه الهوامات تعزز الاختزال الاجتماعي، لأنها تقوم بدورها على القطيعة من خلال استنادها إلى أوالية الانشطار العاطفي: حب مطلق يتبعه مثلنة الموضوع، وكره صاف يتبعه تبخيس واعتداء.

من خلال الاختزال الاجتماعي والهوامي يتمكن الرجل من تسخير المرأة لأغراضه، ويتم له استلابها دون الشعور بالإثم. إن تفشي ظاهرة الاختزال في المجتمع المتخلف مسؤول عن كثرة الصراعات والتناقضات والاختلافات الزوجية. فالاختزال لا بدّ أن يقود المرأة إلى التمرد على سجنها في صورة تجمد كيانها وتلغي رغباتها وإرادتها. هذا التمرد يفاجئ الرجل الذي يتستر وراء ردود فعل البراءة، واضعاً اللوم على المرأة وطبيعتها، ومنطلقاً كي يدفع التهمة عن نفسه في مزيد من اختزالها وتبخيسها. وهكذا فوضعية القهر التي تفرض على المرأة في المجتمع المتخلف، لا تترك لها من سبيل سوى التمرد والصراع، أو الاستكانة التي هي أسوأ من التمرد، لأنها بالتحديد تتخذ طابع التوافق الزائف بين الرجل والمرأة. فكل توافق ليس معافى بالضرورة، خصوصاً توافق السيد والعبد. تلك مأساة أخرى من مآسي القهر في المجتمع المتخلف.

ثالثاً: دفاع المرأة ضد وضعية القهر

المرأة أكثر الكائنات غبناً وقهراً، تقوم في الوقت نفسه بالنسبة للرجل بوظيفة الدفاع ضد وضعية القهر التي يخضع لها. إنه يتنكر لقهره ويتهرب من مجابهته والوعي به من خلال قلب الأدوار في علاقته بالمرأة، إذ يحتل دور السيد القوي، ليفرض عليها دور التابع، حيث يسقط عليها قصوره النفسي، ملصقاً إياه بالأنوثة وخصائصها الطبيعية.

ولكن المرأة لا تظل هكذا فاترة، مستسلمة إزاء وضعية القهر التي تفرض عليها، إزاء ما يلحق بها من حيف، نتيجة لما يوكل إليها من وظائف، وما ينصب عليها من إسقاطات تبخيسية. إن الاستمرار في وضعية كهذه مستحيل على كل حال من ناحية التوازن النفسي. فلا بدّ للمرء، وتحت كل الظروف من الإحساس بشيء من الاعتبار الذاتي، من وسيلة تضمن

تحقيقاً للذات فعلياً أو وهمياً. وكما تلعب المرأة وظيفة دفاعية ضد القهر الذي يعاني منه الرجل، فإنها بدورها تلجأ إلى أساليب دفاعية عدة لمجابهة مأزقها. تتراوح هذه ما بين الاعتداد بقيم الأنوثة وخصائصها، وبين السيطرة الخفية على الرجل. يتخذ الأمر في الحالة الأولى طابع التضخم النرجسي، أما في الحالة الثانية فإنها تلجأ إلى حرب ضمنية أحياناً، أو صريحة أحياناً أخرى ضد الرجل، ولكنها تكاد تكون تاريخية في كل حال، طالما استمرت وضعية القهر..

1 ـ التضخم النرجسي

ينطلق التضخم النرجسي لكيان المرأة من المثلنة التي يحيطها بها الرجل والمجتمع عموماً، في جسدها وفي بعض وظائفها الأسرية. من خلال هذا التضخم تشعر المرأة بافتخار خاص بجنسها، وبكبرياء يؤمِّن لها الرضى عن ذاتها. فالمثلنة تضعها من الناحية العلائقية في منزلة سامية هي على النقيض تماماً من وضعية القهر التي تخضع لها. ذلك ما يساعدها على الوصول إلى توازن نفسي يجعلها على وفاق مع ذاتها، ويمكّنها من تقبل وجودها.

تعيش المرأة تضخمها النرجسي، من خلال إحساسها بأنها كائن على درجة عالية من الأهمية، وبأنها خصوصاً مرغوب فيها، وذلك في عدة قطاعات، أولها بلا جدال وظيفة الأمومة. إن هذه الوظيفة تضخم اجتماعياً لدرجة مفرطة في المجتمع المتخلف، بشكل يربط قيمة المرأة ومعنى وجودها الأساسي في تلك الوظيفة. المرأة الأم هي قيمة اجتماعية بلا جدال، وبالتالي فإنها تصبح قيمة نفسية، تدفع بها إلى التمركز حول ذاتها، حول جسدها الخصب الذي ينجب الذرية للزوج والأسرة، وحول قدرتها على العطاء العاطفي، والتفاني في خدمة الأبناء. تكاد المرأة في الأوساط المغبونة أن لا تكون شيئاً آخر سوى أم. وهي تشعر بالرضى الداخلي لما يتوجب لهذه الأم من اعتبار الأولاد، ولما تحاط به الأمومة من معاني السمو والقدسية.

وإذا كان الرجل يمتلك المرأة في علاقة السيطرة والتبعية، فإنها تجد لنفسها تعويضاً عن ذلك في امتلاك الأطفال. فمن خلال تضخيم قيمة الأمومة تتضخم قيمة الطفل، ولكن كشيء تمتلكه الأم أساساً، كجزء من كيانها. وهكذا تقع في العلاقة التملكية، ويدفع الطفل في النهاية ثمن تعويض المرأة عن الغبن الذي يلحقه بها المجتمع. وبمقدار ما تتفانى في أمومتها فإنها تطلب من طفلها التحول إلى شيء تمتلكه هذه الأمومة وتوجه إليه اهتمامها. ولذلك فمن النادر أن يستقل الصبي عن أمه نفسياً في المجتمع المتخلف، مهما كبر فسيظل مرتبطاً بروابط خفية بالأم، تجعله في النهاية بشكل ما تابعاً للزوجة، التي تلعب دور الأم نفسه. طبعاً تكون التبعية ضمنية، تتقنع بستار من الاستقلال والسيطرة على المرأة، وتعي المرأة

هذه الحقيقة تماماً، وإن لم تصرح بها، فهي في النهاية تعيش علاقتها الزوجية، تحت الشعار التملكي نفسه، الذي يرضيها تماماً، ويعوض لها غبنها. ومن هنا حالات تشبث المرأة بالرجل وإحاطته من كل ناحية، وما ينشأ عنها من محاولات الرجل للإفلات من أسر المرأة. ومن هنا أيضاً تجاذب الرجل في الإقدام على الزواج، وشيوع الأمثال على حرية الرجل العازب وعلى سجن المتزوج وقيوده.

ويرتبط بوظائف الأمومة، وظيفة هامة ترضي المرأة، وهي احتلال دور المعبِّر عن الشرف (شرف الأسرة في صيانة نسائها) والكرامة (كرامة الرجل في الحفاظ على سمعة بناته). لعب هذه الوظيفة يعطي المرأة انطباعاً بأهمية شأنها في شبكة العلاقات الأسروية، وفي المجتمع بشكل عام، إنها التي تجسد أكثر القيم حساسية وسمواً. وهي لذلك تلعب دور المتزمت، والحارس الأمين لذاتها وجسدها، وتنتظر أن يلعب الجميع الدور نفسه تجاهها. كما يرتبط بهذا الأمر وظيفة الحفاظ على سمعة الأسرة وصيانتها من خلال صيانة الذات، ودور آخر مرافق له، وهو الحفاظ على تقاليد الأسرة وتراثها. المرأة هي التي تجسد التقليد وتحميه وتنقله، ولو أنها في الواقع أكثر الكائنات تعرضاً لغبن ذلك التقليد. هي التي تمد المعايير الاجتماعية بقوة خاصة، ولو أن هذه المعايير تمارس أقصى درجات التزمت تجاهها.

بالإضافة إلى الأمومة، تحصل المرأة على تعويض نرجسي من خلال مثلنة جسدها كموضوع جنسي مرغوب فيه. وتتضخم هذه المثلنة نظراً لحرمان الرجل جنسياً، ولما يحيط بجسد المرأة من ممنوعات، وكل ممنوع للرغبة (خصوصاً الرغبة الجنسية) يتعرض لتضخم قيمته بشكل لا واقعي. وتعتز المرأة بهذا التضخم لقيمة جسدها، وتشعر بالرضى الذاتي. وتحس أنها تمتلك شيئاً ثميناً تملك منعه عن الرجل، كما تملك إمكانية جذبه إليها وربطه بها، من خلال الأمل الذي تثيره في نفسه. يحدث هنا قلب للأدوار يستند إلى أساس طفلي قوامه علاقة الطفل بأمه، كينبوع كل عطاء وتحقيق كل حاجة، ومصدر كل متعة. ينكص الرجل المحروم جنسياً إلى مستوى الطفل المتلهف إلى حنان الأم، وحليبها، وتحس المرأة هذا الواقع مما يمدها بمشاعر الانتصار، فهي التي تعطي أو تمنع. وتلعب كثيراً على أمل الإشباع ووطأة الحرمان عند الرجل. وتستخدم هذا السلاح أفضل استخدام كي تستمد منه أهمية واعتباراً يعوضان لها قهرها. وهكذا فهي تحوّل التحريم الذي فرضه الرجل على جسدها وعلى حرية حركته وتعبيره عن رغباته، إلى سلاح للسيطرة على الرجل، تلك واحدة من مفارقات وضعية القهر.. وهي تتدرب منذ حداثة سنها على إجادة التعبير الجسدي الذي يعد ويمتنع، يجذب الرجل ويفلت منه. وتجد في هذه اللعبة متعة تغطي حرمانها الجنسي ولكنها لعبة مرضية ليس فيها سوى وهم الإشباع، ووهم إرضاء الجسد والنفس.

ثم هناك تضخم نرجسي يحمل تعويضاً هاماً للمرأة، خصوصاً في المجتمع

الاستعراضي، من خلال المظهر، كالتوظيف العاطفي والجنسي الذي يحدث عند المرأة بالنسبة إلى استخدام الملابس والزينة، وهي ظاهرة ليست بحاجة إلى برهان. وهكذا تتباهى المرأة بلعب دور عارضة الجاه والثروة، من خلال ما تلبس، وما تتحلى به (وكأن جسد المرأة لا يتضمن قيمة كافية بحد ذاته، فهو بحاجة إلى الأدوات والأمتعة من كل نوع كي تخفي قصوره، أو ما أسقط عليه من نقص). وهنا أيضاً يزيف كيان المرأة، وتزيف عواطفها الحقيقية من خلال تحولها إلى آلة استعراض، تعتز بهذا الدور لدرجة يلهيها عن القيم الذاتية والإثراء العاطفي والعلائقي.

تلك أمثلة سريعة عن تعويضات تجد المرأة لنفسها قيمة ذاتية من خلالها وتدفعها إلى التمسك بها. ولكنها تنسى أن هذه التعويضات تدخل جميعها ضمن حالات الاستلاب الذي تتعرض له، جنسياً وعقائدياً.

2 ـ السيطرة غير المباشرة على الرجل

يعتقد الرجل أنه يسيطر على المرأة، وتعتقد هذه في دخيلة نفسها أنها هي التي تمتلك زمام السيطرة الفعلية عليه. وأن سيطرته الظاهرية، ليست سوى وسيلة توهمه بقوّته كي لا ينتبه إلى ما تفرضه عليه المرأة من سيطرة. هذا في الحالات العادية، أما في حالات الصراع، فإن الأمر يتخذ طابع حرب سيطرة حقيقية، الحرب الأزلية بين الرجل والمرأة، وتحس هذه بأنها المنتصرة أبداً في هذه الحرب. فهي قد ترضخ، وتتضعف، ولكنها تنتظر وتعرف كيف تصبر، كي تنتصر حين تأنس من الرجل ضعفاً أو عجزاً، أو تهاوناً. إنها تستغل ضعفها الظاهري كسلاح للتمويه على قوّتها الضمنية. وتحس لذلك بأحاسيس الانتصار التي ترضيها، توهم الرجل أنه هو الذي يمتلك زمام الأمور، كي تحركها هي تبعاً لرغباتها بشكل خفي. سلاح الضعف، تستخدمه المرأة حتى تضع الرجل في موضع الضعف، ولذلك تجد في استعمال هذا السلاح متعة خاصة، وقد تبالغ في ذلك أي مبالغة.

بالإضافة إلى سلاح الضعف هناك سلاح الاحتيال والمكر الذي ألصق بحواء. ولكنه سلاح يفصح أكثر عن العدوانية التي لا بدّ أن تكمن في علاقة المرأة المغبونة بالرجل. قدرتها على استعمال هذا السلاح تنمو بالضرورة نظراً لما يفرض على كيانها من حدود وقيود، علاقة المكر هذه هي نتاج مباشر لوضعية القهر، وهي أحد مظاهر التشويه الذي لا بدّ أن يصيب كل علاقة سيطرة ورضوخ.

أحياناً تعلن المرأة الحرب بشكل شبه صريح على الرجل، خصوصاً حين تأنس منه ضعفاً، أو حين يعجز هو عن القيام بخصائص دوره المتسلط. ويتخذ الأمر في هذه الأحوال عدة مظاهر. منها الابتزاز الذي تدرب الأم عليه ابنتها المتزوجة حديثاً، أو تحثها عليه كرد

فعل على إهمال الزوج، أو تسلطه. وهكذا تستنزف المرأة الرجل بالطلبات العديدة والمتنوعة، وترهقه من أمره عسراً. ويعاني الكثير من الرجال في المجتمع المتخلف من ظاهرة الاستنزاف هذه. فالمرأة تحشرهم في وضعية مأزقية، تسلط عليهم نظرتها الحاكمة ولسانها الذي ينطق بتقصيرهم إذا هم لم يستجيبوا لطلباتها، وتستلب مظاهر قوّتهم (خصوصاً إذا ركزها هؤلاء في الامتلاك والثروة) إن هم استجابوا. وليس من تهديد يتعرض له الرجل في الحرب بين الجنسين، أكثر خطراً على كبريائه واعتداده بذاته من حكم المرأة عليه بالتقصير مادياً ومعنوياً، وجسدياً. كل ميدان يدّعي فيه الرجل التفوق على المرأة والسيطرة عليها من خلاله، تقف هي بالمقابل من موقع الضعف لتتحول إلى حاكم قاس يضع سطوته وتفوّقه وقوّته على المحك. ذلك محتوم، طالما استمرت وضعية القهر التي تفرض على المرأة. وتجد المرأة لا شك نوعاً من التعويض، وتحس بأحاسيس الانتصار من خلال استنزاف الرجل والحكم عليه، أو التهديد بنطق حكم النقص والعجز عليه.

يضاف إلى الأسلحة السابقة، سلاح التنغيص الذي تتفنن فيه بعض النساء فتطارد الرجل بلا هوادة حتى تسمم حياته، وتقضي على سكينته. وتثير في وجهه الصراعات، لتخرجه عن طوره وتدفع به إلى الهروب بعيداً عن العلاقة الزوجية (التي فرضت عليها العبودية)، أو تدفع به إلى فقدان سلطته المعنوية في الأسرة من خلال حشره في سلوك عدواني يدينه في المقام الأخير. ذلك أيضاً محتوم، بما تفرضه عليها وضعيتها من استلاب وجودي حرمها تحقيق ذاتها.

وإذا عجزت عن استخدام هذه الأسلحة الهجومية، لا تفقد المرأة القدرة على ردّ الفعل الدفاعي. إنها تحتمي بالمرض، أو تلجأ إلى محاولات السيطرة الخرافية على المصير من خلال السحر والشعوذة والأولياء، والكتابات وغيرها.. تلك هي درع الحماية الأخيرة يلازمه عادة الدفاع من خلال التماهي بالرجل المتسلط وإدانة الأنوثة التي تلجأ إليها المرأة في وضعية القهر المفرط. تتنكر لذاتها كإمرأة معبِّرة عن القصور في حالة من الذوبان في الرجل كقيمة وحيدة.

دفاعات المرأة، التي أوردنا نماذج منها، تذهب جلها في اتجاه مرضي، لأنها وليدة علاقة مرضية بين الرجل والمرأة (علاقة التسلط والقهر). وهي دفاعات لا تفسح مجالاً أمام بروز علاقات معافاة، تحمل الإثراء المتبادل لكل من الرجل والمرأة. ذلك مستحيل في وضعية القهر، لأنها تنخر إنسانية الإنسان في العالم المتخلف، وتلقي به في كل أشكال الاضطراب والاختزال. ولا يمكن في هذه الحالة، أن يصل إنسان هذا العالم إلى التوازن النفسي وإلى الشخصية المعافاة والمتوازية والغنية، إلاّ إذا تحرر من وضعية القهر التي تفرض عليه. لا يمكن للرجل أن يتحرر إلاّ بتحرر المرأة، ولا يمكن للمجتمع أن يرتقي إلاّ بتحرر وارتقاء أكثر فئاته غبناً، فالارتقاء إما أن يكون جماعياً عاماً، أو هو مجرد مظاهر وأوهام.

خلاصة

تعود فكرة هذا البحث إلى عدة سنوات خلت. فلقد برزت الحاجة تدريجياً ثم بإلحاح إلى وضع دراسات خاصة ببنية شخصية إنساننا العربي وديناميتها، خلال التعامل العيادي والإرشادي مع الأحداث والأطفال ممن يؤمون مؤسسات الرعاية، ومع ذويهم والراشدين عموماً الذين يلجأون إلى خدمات مراكز الخدمات الاجتماعية. اتضح أن النظريات النفسانية الموضوعة في البلاد الصناعية، إذا كانت مفيدة للاختصاصي من ناحية الدرس المنهجي، فهي في محتواها لا تحيط بالخصائص النوعية لإنسان العالم المتخلف، وتوجهاته الحياتية وممارساته السلوكية. الكثير من التفسيرات الجاهزة كانت مضللة تخفي مشكلات محلية ذات طابع مغاير.

وإذا كان المجتمع المتخلف، قد حظي بالعديد من الأبحاث والدراسات القيّمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فإنه محروم إلى الآن من دراسات نفسية خاصة به تعكس واقع إنسانه الحي.

من هذين الاعتبارين، ألحت علينا فكرة القيام بهذه الدراسة، المشروع طموح جداً ويحتاج واقعياً إلى تضافر جهود نفر كبير من العلماء والباحثين، يكرسون طاقاتهم له خلال ردح طويل من الزمن. هذه المحاولة ليست إذاً سوى بداية متواضعة على طريق إقامة علم نفس خاص بمجتمعنا. همها أن تقترح طريقاً وتطرح منهجاً، يمهد السبيل بعض الشيء أمام الأبحاث اللاحقة. وإذا انطلقت الأفكار الواردة في هذا البحث من العمل العيادي والإرشادي، فإنها قد تغذت من ملاحظات وقراءات حول الواقع العربي. من ذلك تبرز ملامح أولية لسيكولوجية الإنسان العربي.

بدت لنا بنية شخصية الإنسان المتخلف، حين التعامل السطحي الأولي معها، سكونية جامدة. ثم ما لبثت حيويتها أن اتضحت تدريجياً أثناء التقدم في البحث، فإذا بها في غاية الغنى والدينامية. ولقد بدت بسيطة ثم ما لبث تعقيدها أن اتضح. وبدت مفتتة ومشتتة فإذا

بها تظهر على درجة عالية من التماسك. أكثر الظواهر اختلافاً وبعداً عن بعضها البعض، اتضح ارتباطها فيما بينها في بنية جدلية لها تاريخيتها. ومن المهم إذاً قبل هذه أو تلك من الظواهر التي قد تستهوي القارئ أو تثير اهتمامه بشكلها المعزول، من المهم النظر إلى الروابط الانبنائية والوظيفية بينها. فالأمر لا يتلخص في تعداد خصائص وردت في مختلف الفصول بقدر ما هو محاولة استخلاص بنية تعطي صورة متماسكة ومنطقية عن واقع الإنسان المتخلف من الناحية النفسية.

وإذا كان التخلف درجات ومستويات، فلا بدّ أنه يتضح بأشد درجاته وضوحاً في أكثر الفئات تخلفاً، وهي تحديداً، أكثر القطاعات غبناً في المجتمع. شخصية الإنسان المتخلف هي نتاج المجتمع المتخلف بالضرورة. كل خصائصها هي انعكاس بنية ذلك المجتمع في حركته التاريخية.

وراء المنظور التقني والاقتصادي والاجتماعي للتخلف الذي شاع في الدراسات التقليدية للموضوع، هناك بنية التخلف ذات الطابع العلائقي المميّز. تتصف هذه البنية بخصائص أساسية أهمها اعتباط الطبيعة الذي يتعرض له إنسان العالم المتخلف، فهو لا يملك مصيره ولا يتحكم برزقه وعمله على هذا الصعيد. وهو متروك إزاء غوائل الطبيعة دون ضمانات أو حماية كافية. الوجه الآخر لاعتباط الطبيعة هو اعتباط المتسلط الذي يتحكم بإنسان هذا العالم على شكل قهر يفرضه صريحاً أو ضمنياً. من خلال هذين الوجهين المتكاملين والمتضافرين يبدو التخلف أساساً، كهدر لقيمة الإنسان جسدياً ومادياً ومعنوياً. ولذلك فإن التخلف الاجتماعي قد ظهر لنا على المستوى النفسي، على شكل قهر لا حماية للإنسان منه، ولا ضمانة له ضده. وهكذا فسيكولوجية الإنسان المتخلف، هي سيكولوجية الإنسان المقهور. من خلال اعتباط الطبيعة والتسلط وانعدام الضمانات، يتخذ الأمر طابع علاقة جامدة تذهب في اتجاه واحد هو التسلط ـ القهر. هذا النموذج يعمم على مجمل العلاقات وينبث في مختلف النشاطات حتى الذهنية منها. ولذلك فإذا كانت ذهنية الإنسان المتخلف تتصف بالجمود والقطيعة والحسية، وتفتقر إلى التجريد والجدلية والمرونة، وإذا كانت انفعالية مفرطة يعوزها العقلانية والضبط المنطقي، فما ذلك إلاّ نتيجة استفحال العلاقة ذات الاتجاه الواحد وبشكل جامد، وهي علاقة التسلط والرضوخ. هذا التسلط وما يرافقه من اعتباط طبيعي يستحكم بالذهن مفقداً إياه مرونته ودافعاً إياه إلى حيّز الانفعال والخرافة والسيطرة السحرية على ظواهر الحياة.

موقف الإنسان المتخلف من وضعية القهر والاعتباط هذه، دينامي تاريخياً. فهو يتراوح ما بين الرضوخ المستسلم، مع ما يرافقه من عقد نقص وعار ومهانة واستكانة وفقدان للثقة بالنفس والجماعة، وبين العدوانية المفرطة التي تتخذ شكل علاقات اضطهادية تفرز مناخاً

عاماً من العنف العلائقي، وبين التمرد المتفجر فردياً وبشكل عابر، أو جماعياً بشكل يهز بنية المجتمع وقد ينتهي بتغييرها.

وضعية القهر وانعدام الضمانات مع ما تتصف به من هدر جذري لقيمة الإنسان، تفجر أكثر أشكال القلق عنفاً عند الإنسان المقهور، إذ إنها تحرك أكثر الدوافع اللاواعية بدائية، التي ترتبط بقلق الفناء وقلق الخصاء. وهكذا تحاصر الإنسان المقهور من كل جانب قوتان لا قبل له بمجابهتهما منفردتين، فكيف الحال إذا اجتمعتا. نقصد بذلك أن القهر الاجتماعي وهدر القيمة وفقدان الشعور بالأمن والضمانة يفجر صنوه ونتاجه اللاواعي، ويتبادل وإياه التعزيز، مما يجعل وطأة القلق على الإنسان المقهور غير محتملة. إنه يعيش وجوده كوضعية مأزقية تحتاج إلى حلول تؤمن له حداً أدنى من التوازن الحيوي، من خلال تخفيف وطأة القلق وتأمين شيء من الاعتبار الذاتي وتحقيق الذات اللذين دونهما تصبح الحياة غير ممكنة. بالإضافة إلى الخصائص النفسية لهذا الوجود المأزقي، هناك إذاً الحلول التي يلجأ إليها الإنسان المتخلف. وهي كثيرة ومتنوعة، ولكنها مترابطة فيما بينها في بنية جدلية، تتكون من ثنائيات متعارضة تشكل محاور حركة الإنسان المقهور، تبعاً للظروف التاريخية التي تحدد في كل لحظة معادلة ضغط قوى القهر والاعتباط، مع قوى الدفاع والمجابهة الذاتية. كلما زاد الضغط الخارجي برزت الحلول الاستسلامية والانكفاء على الذات، اللجوء إلى السيطرة الخرافية على المصير، وكذلك الذوبان في المتسلط. أما حين تتأكد قوى الدفاع والمجابهة بعض الشيء، فإن ما يبرز هو الحلول العنيفة التي تتخذ أشكالاً متعددة، فتتوجه إلى الأقران المشابهين أو إلى الجماعات الغريبة أو تنحو نحو التمرد المباشر والتصدي للمتسلط. يبقى أن العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع المتخلف تلعب دوراً هاماً من الناحية الدفاعية. يتهرب الرجل من مأزقه بصبه على المرأة من خلال تحميلها كل مظاهر النقص والمهانة التي يشكو منها، في علاقته مع المتسلط وقهره والطبيعة واعتباطها. ولذلك يفرض على المرأة أكثر الوضعيات غبناً في المجتمع المتخلف، إنها محط كل إسقاطات الرجل السلبية والإيجابية على حد سواء. وهي تدفع نتيجة لذلك إلى أقصى حالات التخلف. ولكنها من هوة تخلفها وقهرها ترسخ تخلف البنية الاجتماعية من خلال ما تغرسه في نفوس أطفالها من خرافة وانفعالية ورضوخ.

لم نستعرض في هذا البحث سوى بعض الملامح البارزة لبنية التخلف الاجتماعي، وما تولده من سيكولوجية خاصة عند الإنسان المقهور. كما أننا لم نتناول بالبحث سوى بعض الأساليب الدفاعية الأكثر بروزاً التي يجابه الإنسان المتخلف من خلالها مأزقه الوجودي. هنالك لا شك جوانب هامة كثيرة على كل صعيد لا بدّ للأبحاث الميدانية أن تكشف عنها، فالميدان لا زال بكراً، وقد يكون ما يخبئه من معطيات أهم وأخطر مما ظهر لنا منها. ما

نستطيع توكيده منذ الآن هو أن الخصائص النفسية التي تميّز شخصية الإنسان المتخلف وأوالياته الدفاعية تشكّل في الكثير من الحالات عقبات جدية في وجه التغيير الاجتماعي، وتكوّن كوابح هامة لمشاريع التنمية. وهنا يكمن خطرها تحديداً، وتبرز أهمية اكتشافها والوعي بها ومعرفة كيفية تحريكها لحياته وتحكمها بها. ذلك هو أيضاً المبرر الأساسي لبذل جهد كبير للأبحاث في هذا الميدان، إذا أردنا لمشاريع التغيير والتطوير في مجتمعنا العربي أن تنطلق من أسس صلبة تحيط بالواقع وتتحكم بالقوى التي تحركه. بذلك وحده يمكن للآمال التي نضعها، فيما نرسم من مخططات تنموية، أن تؤتي بعض أكلها.

المراجع الوارد ذكرها في النص

- د. إبراهيم بدران ود. سلوى الخماش، دراسات في العقلية العربية ـ الخرافة، بيروت، دار الحقيقة، 1974.
- د. إبراهيم سعد الدين، في «مجلة دراسات عربية»، السنة السادسة، عدد 5، بيروت 1970.
- بسام الطيبي في «مجلة دراسات عربية»، السنة السادسة، عدد 7، بيروت 1970.
- عباس محمد علي، في «مجلة دراسات عربية»، السنة السابعة، عدد 7، عدد 2، بيروت 1971.
- د. عباس مكي، الجسم، حرماته، تشريعاته، وتعبيراته الانفجارية، مجلة دراسات نفسانية، كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية، العدد 1، بيروت 1974.
- فالكووسكي، مشكلات تنمية العالم الثالث، بيروت، دار الحقيقة، 1971.
- نجيب يوسف بدوي، سيكولوجية التطير، مجلة علم النفس، مجلد عدد 1، يونيو/ سبتمبر 1949، القاهرة، دار المعارف.
- نجيب يوسف بدوي، الفرج والضيق في أحلام المصريين، مجلة علم النفس، مجلد 8، عدد 3، فبراير/ مايو 1953، القاهرة، دار المعارف.
- د. نديم البيطار، في «مجلة دراسات عربية»، السنة العاشرة، عدد 9، بيروت 1974.
- د. نزار الزين، تعريب التعليم العالي في لبنان، مجلة المقاصد، العدد 1، بيروت 1973.
- د. نوال سعداوي، المرأة والجنس، القاهرة ـ بيروت، الناشرون العرب، 1971.

- Antonini (Fausto), L'homme furieux, Paris, Hachette, 1970.
- Encyclopaedia Universalis, vol. V.
- Freud (Anna): Le moi et les mécanismes de défense, 4e éd., Paris P.U.F. 1067.
- Heinmann (Paula). In développements de la psychanalyse, Paris, P.U.F. 1972.
- Hesnard (A.) psychologie de crime: Payot, 1963.

- Klein (Melanie). Notes sur quelques mécanismes Schizoïdes, in dévelopements de la psychanalyse, Prais, P.U.F.1972.
- Klein (Melanie) et J. Rivière, L'amour et la haine, Paris P.B. Payot, 1972.
- Klinberg (Otto). Social psychology, New York, N, holt and co.
- Lacoste (Yves). Géographie du sous - développements: Paris, P.U.F. 1968.
- Laplanche et pontalis, vocabulaire de psychanalyse, Paris, P.U.F. 1968.
- Lorenz (Konrad). L'agression, (l'histoire naturelle du mal). Paris Flammarion, 1969.
- Malinowski (B). Myth in primitive psychology. London, Kegon Paul, 1926.
- Pinatel (Jean) et Bouzat (P).Ttraité de droit pénal et de criminologie, Tome III, Paris, Dalloz, 1963.
- Reich (W.). Fonction de l'orgasme, Paris, l'Arche, 1952.
- Safouan (M.). Etudes sur l'oedipe, Paris Seuil, 1974.

معجم المصطلحات الواردة في البحث

> يتناول هذا المعجم الموجز المصطلحات ذات الطابع الفني المتخصص الواردة في النص، بالتبسيط مما يقربها إلى ذهن القارئ غير المتخصص. فهو إذاً لا يهدف إلى عرضها بشكل شمولي وأكاديمي مفصل ودقيق، بقدر ما يبتغي تيسير فهمها، مما يمكّن القارئ من متابعة النص بالسهولة الضرورية، ويجنبه عناء الرجوع إلى القواميس المتخصصة.

اتجاه إنصافي (انتصاف) — **Attitude justicère**

تحول نفسي ضروري في الصراع العلائقي الذي ينتهي إلى العدوان على الآخر. فالمعتدي يحس أنه ضحية غبن مفروض عليه لغير ما ذنب اقترفه، وبالتالي يحس أنه بريء في حالة من إسقاط كل المسؤولية الذاتية، والعدوانية الذاتية على ضحيته المقبلة. هذه الأحاسياس وذلك الإسقاط، تجعل العدوان يبدو كفعل مبرر، كدفاع مشروع عن النفس، كتخليص للحق المهضوم والكرامة المستلبة. العدوان الموجه إلى الضحية يتخذ عندها طابع إحقاق الحق وإقامة العدالة وإعادة الأمور إلى نصابها. الوظيفة الأساسية للاتجاه الإنصافي هي إذاً تبرئة الذات من مسؤوليتها ومن عدوانيتها في آن معاً. الاتجاه الإنصافي، والغبن المفروض الذي يستند عليه (انظر هذا المطلح) هما أساس شرعنة الفعل العدواني.

أثر الاستعراض (الإدلال) — **Effet de démonstration**

مصطلح يستخدمه علماء اجتماع واقتصاد التنمية. ويقصدون، تحديداً، توجه الفئات الميسورة والقادرة مادياً في المجتمع المتخلف، إلى الإفراط في اقتناء وسائل الاستهلاك المادي، وتبديد الثروة الوطنية على المظاهر الخارجية وذلك على حساب التوظيف من أجل التنمية الفعلية بعيدة المدى. يحاول الواحد من هؤلاء أن يتنكر لوضعه كمتخلف من خلال إحاطة نفسه بكل مظاهر الوجاهة المادية، بكل ما يبهر. وقد نجد أثر الاستعراض نشطاً على مستوى الحكومات التي تنطلق في مشاريع تنموية ذات وجاهة وطنية، ولكنها لا تنعكس على بنية المجتمع الكلي كي تطورها، بل تظل كواحة تقدم في محيط متخلف.

اجترار سوداوي (اجترار اكتئابي) — **Rumination mélancolique**

السوداوية (الاكتئاب) مرض عقلي يتميّز بطغيان مشاعر الذنب الشديدة على المريض، مما يدفع به إلى عملية إدانة ذاتية وتحقير ذاتي، وإلصاق جميع النعوت المحطة غير الخلقية بنفسه، فهو يعتقد أنه ارتكب إثماً لا يمكن غفرانه.

مظهرياً وعلى مستوى الأعراض يتصف السوداوي بشلل النشاط العام، الجمود في حالة من الاستسلام، بطء العمليات الذهنية والنفسية، بطء الحركة، فقدان الاهتمام بالعالم الخارجي، طغيان مشاعر الحزن، فقدان الحيوية العامة على مستوى الجسم. في خضم كل ذلك يجد المريض أفكاراً سوداء عما أقدم عليه من آثام، وما سيحل به من عقاب مستحق. ومن خلال اجترار لمعاناته هذه يجمد الديمومة ويضع نفسه في وضعية المدان الذي لم يعد يخشى شيئاً مجهولاً، بذلك وحده يتمكّن من السيطرة على القلق.
الاجترار السوداوي بهذا المعنى هو نوع من السيطرة على مأساة وجودية، وما تسببه من آلام من خلال الغرق فيها. فالسوداوي لا ينفك يستعيد ويكرر هذه المأساة وكأنه في حالة حداد دائم. يلجأ الإنسان المقهور إلى هذه الأوالية أحياناً لمجابهة آلام المعاناة الوجودية من خلال الانغماس الكلي فيها.

اجتياف (إدماج) Introjection

عملية نفسية لاواعية إجمالاً، يتمثّل الشخص بواسطتها موضوعات وخصائص وصفات خارجية، كي يجعلها جزءاً من ذاته. وعلى غرار إدماج الطعام جسدياً، فالشخص يجتاف (أي يدخل في جوفه) أنماط العلاقات بينه وبين الآخرين، يجتاف في البداية تصوره عن أمه من خلال علاقته بها. ولذلك فالاجتياف هو عملية نشطة جداً في الطفولة، يستوعب الطفل الرضيع العالم من خلالها، بما يصطبغ به من شحنات وخصائص وجدانية.

والاجتياف عملية فعّالة جداً في التماهي Identification وهي تتواجد دوماً مع عكسها المكمل لها وهو الإسقاط projection. التفاعل مع العالم من الناحية النفسية، يتم في البدء من خلال هاتين الأواليتين: تلقي وتمثّل كل ما هو مرغوب فيه، ونبذ وإسقاط كل ما هو منفر ومؤلم داخلياً. دور هذه الأوالية هام جداً في الحياة النفسية الأولى في الصحة والمرض وفي تكوين الشخصية.

إحباط Frustration

أي عرقلة أو صد لتحقيق حاجة، أو رغبة أو أمل بسبب ظروف خارجية، يعاش وجدانياً كتفشيل وجودي، أو حرمان مادي أو معنوي. يولّد الإحباط إجمالاً مشاعر الغبن غير المستحق. وهذه تفجر العدوانية ومشاعر الحقد التي تتوجه إلى الخارج إلى الموضوع المسؤول عن الإحباط، أو إلى موضوع بديل، أو هي ترتد إلى الذات على شكل قسوة عليها. الإحباط يولّد إذاً مشاعر العداء أو مشاعر القهر والمهانة.

احتماء دمجي Protection fusionnelle

تشير إلى وضعية نكوصية أساساً، يرجع فيها المرء إلى حالة الطفل الصغير الذي يلوذ بأمه أو بوالديه يلتصق بهما، وكأنه يذوب كجسد في جسديهما، أو كأنه يعود رمزياً وهوامياً إلى بطن الأم، حيث كان ينعم بالسكينة والاطمئنان بعيداً عن كل مثيرات الألم والقلق. الاحتماء الدمجي لا يتخذ بالطبع شكلاً جسدياً، بل هو علاقة رمزية، علاقة تبعية وذوبان في شخص أو صورة، يعتبر مصدر الحب والحدب والحماية ويتمتع بقوة كبيرة تستطيع التصدي للأخطار التي يخشاها من يلجأ إلى تلك الوسيلة. الثمن هو فقدان الاستقلالية والتخلي عن وضعية الرشد. تظهر هذه الحالة بكثرة في أوقات الكوارث أو الأخطار التي تثير الذعر الشديد، مع إحساس بالعجز عن رد الخطر بالوسائل والقوى الذاتية.

إرجاع الأثر (تغذية عكسية) Feed - Back

أحد قوانين نظرية الاتصال. فالأمور تبعاً لهذه النظرية لا تسير في اتجاه واحد من مصدر محدد إلى مصب

جامد. التواصل عملية تفاعل أساساً. المعلومات التي يبعث بها الطرف (أ) إلى الطرف (ب)، يتلقاها هذا الأخير ويفسرها تبعاً لوضعيته وظروفه وإمكاناته من ناحية، وتبعاً لنمط علاقته بالطرف (أ) من ناحية ثانية. وهو لا يتلقاها بشكل فاتر، بل يستجيب لها. هذه الاستجابة تشكّل معلومات أو رسالة جوابية موجهة إلى الطرف (أ) ويفهمها بشكل معين، مما يؤدي إلى تعديل بثه لرسالته الأصلية: قد يستمر في حالة الإحساس بتشجيع، أو يوضح، أو يلطف، أو يؤكد أو يتوقف في حالة تلقيه رسالة برفض الاستجابة. وهكذا يحدث ضبط وتوجيه متبادل بين الطرفين. مبدأ إرجاع الأثر هو أحد القوانين التي اكتشفتها القبطانية (Cybernetique) ولقد سمح بفهم عمل الجهاز العصبي عند الإنسان بشكل دينامي جدلي، وفتح المجال أمام ابتكارات عديدة في عالم الإلكترونيك، والأدوات المؤللة (automation). كل هذه الأدوات تبنى على مبدأ إرجاع الأثر كوسيلة للضبط الداخلي، كل طرف يضبط حركة الطرف الآخر بشكل متبادل.

إرصان (صياغة) Elaboration

يقصد بها تنسيق وتوليف عقلاني لمعطيات وضعية ما، مما يعطيها وحدتها وتماسكها بعد أن كانت مشتتة، مفككة. أساس الإرصان كعملية ذهنية هو إذاً الوصول إلى نظرية متماسكة ودينامية عن الظواهر كوحدات منطقية مفهومة، من خلال توضيح العلاقات بين عناصرها.

استجابة حرجة Réaction critique (Critical reaction)

مصطلح يستخدمه كونراد لورنز في حديثه عن العدوانية بين الحيوانات وخصوصاً السلوك القتالي. هذا السلوك يصل حده الأقصى، ويعبئ كل طاقات الحيوانات بشكل مركّز عندما يقع هذا الأخير في وضعية مأزقية تحمل إليه خطر التهديد الخارجي أو العدوان الخارجي، بشكل لا يستطيع تجنبه بالهروب أو الإستسلام. الخيار الوحيد هو بين الحياة والموت. ولذلك يستجيب الحيوان بأقصى طاقته ويبدي قدرة قتالية ندر أن ظهرت لديه في الأحوال العادية.

والاستجابة الحرجة ليست خاصة بالحيوان وحده، الإنسان أيضاً يستجيب بسلوك قتالي مذهل في عنفه وفعاليته في بعض الوضعيات المصيرية، بشكل يفاجئ المهاجم الذي يفوقه قوة وعدداً. الاستجابة الحرجة هي التي تقلب أحياناً القتال لمصلحة الفئة الأضعف والتي تهدَّد في مصيرها على عكس كالتوقعات.

إسقاط Projection

عملية عامة عصبية ونفسية يميل المتعضي من خلالها إلى تحويل كل ما يزعجه إلى الخارج، على شكل نبذ. بالمعنى التحليلي النفسي، الإسقاط هو أوالية يطرد الشخص من خلالها صفات، أو مشاعر، أو رغبات، أو نزوات، أو أفكار، لا يعترف بها ولا يستطيع أن يقبلها كجزء من ذاته. إنه يطردها كي يركزها في الخارج في الأشخاص والظواهر المادية والعلاقات ملصقاً إياها بهم، ونافياً للتهمة عن ذاته. وحيث إن ما يسقط عادة يثير مشاعر ذنب أو خجل أو عار إذا وعاه الشخص كجزء من ذاته، فهو يتهرب منه بإلصاقه بالغير أو إتهام الغير به في نوع من تبرئة الذات.

الإسقاط أوالية نفسية بدائية جداً، تعتبرها ميلاني كلاين هي والاجتياف الأسلوب الأول الذي يستخدمه الطفل للتعامل مع العالم وإبعاد كل ما يؤلمه أو يؤذيه عن ذاته. إنه عبارة عن تخلص من كل ما هو سيئ باتهام الآخرين به.

اضطهاد Persécution

الاضطهاد هو البعد النفسي العلائقي للعدوانية. وهو فاعل في اتجاهين: صبّ العدوانية على الآخرين والنيل منهم، أو الوقوع ضحية لعدوانهم وكيدهم.

الاضطهاد هو عدوانية تنطلق من إدانة الآخر وإلصاق الذنب فيه وتحميله المسؤولية التي نخشى أن نجابهها إزاء ضميرنا. في الاضطهاد يتحول الآخر إلى مذنب يجب عقابه، مما يجعل العدوانية التي تصب عليه مبررة ومشروعة. ذلك هو جوهر الاضطهاد. أما الإحساس بالاضطهاد فينطلق على العكس من ردّ فعل البراءة، من نفي تهمة العدوانية، ونفي المسؤولية عن الذات، واعتبار المعتدي هو المذنب، وبالتالي التهجم عليه كردّ فعل دفاعي مشروع عن النفس.

ذلك هو لبّ مرض العظام Paranoïa الذي يتنكر فيه المريض لعدوانيته ونواياه الآثمة فيصبها على الآخرين، معتبراً نفسه بريئاً ومعطياً إياها الحق في التهجم على الغير دفاعاً عن نفسه.

ولذلك فالاضطهاد يدور حول مسألة الذنب والبراءة في العدوانية: مَن يحمل وزر العدوانية ومَن هو البريء. وكل معتدٍ يقوم عادة بعدوانه من خلال هذه الأوالية بتأثيم الآخرين والشعور بالبراءة والدفاع المشروع عن النفس.

الأفكار المنمطة Les stéreotypes

مجموعة أفكار، تأخذ شكل الأحكام المسبقة الجامدة والقطعية ذات الطابع الإداني أو التحقيري التي تلصق بمجموعة سكانية انطلاقاً من فروق عرقية أو دينية أو قومية، أو سياسية. يعمم الحكم الإداني على جميع أفراد هذه الفئة بدون استثناء. ويؤدي ذلك إلى بروز تحيزات ومواقف عدائية: مثلاً الموقف من الزنوج انطلاقاً من أحكام منمطة يطلقها عليهم الأميركان البيض.. الأسود الكسول، الخامل، الخرافي، الحيواني، الشهواني، المتخلف ذهنياً.

وللأفكار المنمطة وظيفة تبريرية، فمن خلالها يصبح العدوان والاستغلال مشروعين تجاه من ألصقت بهم التهمة المُحطة. وبالتالي فهذه الأفكار تخلق حواجز إنسانية بين مختلف الفئات والجماعات مما يمنع تفاعلها الإنساني ولقاءها، ويسد السبيل أمام التفاهم والتفهم المتبادلين.

تشيع هذه الأفكار كثيراً في الجماعات التي يطغى عليها التعصب، وتعاني من إحباطات وصراعات داخلية، توجهها نحو الخارج حتى لا تتفجر داخلياً وتؤدي بوحدة الجماعة.

التماس Approche

في الأصل أسلوب محدد بتقنيات معينة لمجابهة وضعية ما، بغية دراستها منهجياً والخروج باستنتاجات محددة تصنف الظاهرة أو تشخصها.

يستعمل هنا بمعناه العيادي من زاوية تلمس الاختصاصي لطريقة كي يفهم الآخر، ويكوّن صورة متماسكة عن انبناء شخصيته وديناميتها. وهو بهذا المعنى قريب من المقابلة العيادية (Interview clinique). ويقوم الالتماس العيادي أساساً على فهم دينامية التفاعل بين الاختصاصي النفساني والمفحوص كأسلوب رئيسي في الدراسة، باعتبار أن الشخصية تتفصح من خلال هذا التفاعل الذي يتخذ أبعاداً ومستويات متعددة وغاية في الغنى.

اللاوعي (اللاشعور، العقل الباطن قديماً) Inconscient (Unconscious)

يعتبر التحليل النفسي، أن النفس الإنسانية تقسم إلى قسمين أساسيين: النفس الواعية وتسمى الوعي (الشعور) وهي مركز العمليات الذهنية العادية من تفكير وإدراك وإحساس وإرادة وتخطيط، وتفاعل مع العالم. والنفس اللاواعية وهي التي تضم كل القوى النزوية وكل الميول الطفلية والبدائية ذات الطابع الحيواني التي لا تعرف المنطق ولا تراعي الزمان ولا المكان.

هذه القوى تظل بعيدة عن إدراكنا ولكنها تؤثر فينا، توجه سلوكنا، وعلاقاتنا، واختباراتنا، بدون أن ندري حتى أنها قد تتقنع باعتبارات عقلانية منطقية.

واللاواعي في رأي التحليل النفسي، يشكل الجانب الأكبر من الحياة النفسية، وتأثيره حاسم في بنية الشخصية وتوجهاتها الأساسية. تظهر محتويات اللاوعي المكبوتة عادة بشكل مقنّع في الأحلام، والأغراض المرضية، والهفوات، وفلتان اللسان. وهي إجمالاً من النوع غير المقبول خلقياً واجتماعياً ولذلك فإن صاحبها يتنكر لها أشد التنكر، ويقاوم الوعي بها بشدة.

الوعي بها يثير قلقاً شديداً يصعب على الشخص احتماله. اللاوعي يتبع مبدأ اللذة، ويهدف إلى إشباع النزوات المكبوتة فيه. ولكن هذا الإشباع لا يتم بشكل خام بل يتخذ أشكالاً رمزية ومقنّعة، وينبث في كل تصرفاتنا اليومية.

علم النفس الحديث، في جله، لم يعد بإمكانه تجاهل هذه الحقيقة المكونة للنفس البشرية.

الأنا الأعلى Surmoi (Superego)

أحد أركان الجهاز النفسي الثلاثة: الأنا، والأنا الأعلى والهو (Moi, Surmoi et ça) (Ego, Superego) تبعاً لنظرية التحليل النفسي في بنية الشخصية. الأنا هو الجزء الواعي مركز الإرادة والتعامل، مع العالم الخارجي، مصدر العقلانية والمنطق. أما الهو فهو مركز النزوات البدائية والرغبات المكبوتة لأنها غير مقبولة ذاتياً واجتماعياً، وهو مركز كل ما يهدف إلى اللذة من النوع المدان خلقياً. أما الأنا الأعلى فهو يلعب دور القاضي المسؤول عن مراعاة النواهي الخلقية في السلوك والرغبات. إنه الضمير الخلقي الذي يراقب الهو ونزواته ويمنعها من التحقيق، نظراً لما تتضمنه من اعتداء على محرمات وخرق للنواهي، كما يراقب الأنا في سلوكه كي يمنعه من الانسياق وراء ضغط رغبات الهو. إنه يشكّل بمعنى آخر الرقابة الذاتية وهو يتحرك كلما هُددِّت الأوامر والنواهي بالخرق، على شكل إثارة موجات من الشعور الشديد بالذنب، والميل إلى عقاب الذات. في الحالات العادية، حالة الصحة النفسية، يرتبط الأنا الأعلى أيضاً بالمثل العليا للشخص.

انبناء (بنية، هيكل) Structure

كل كيان عضوي أو غير عضوي، اجتماعي أو نفسي، يتكون في الأصل من انبناء، أي تركيب معين للعناصر التي يتكون منها. هذا التركيب يحدد شكل التفاعل بين تلك العناصر، ويعطي الانبناء دينامية خاصة به قابلة للدراسة والتحديد والانبناء ليس ساكناً أو جامداً إنه متطور دوماً بدرجات متفاوتة من السرعة والوضوح. يتخذ هذا التطور شكل سلسلة من التوازنات الداخلية، والتوازنات مع المحيط.

الانبناء قد يكون مادياً أو نفسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً. ولكن الانبناء نفسه له عدة أبعاد على الدوام.

هذا المصطلح ينطلق من مدرسة منهجية في بحث الظواهر الإنسانية يطلق عليه اسم الانبنائية أو البنيانية

أو الهيكلية، على عكس المدرسة الوظيفية، والمدرسة التطورية.

أنسنة Anthropomoephisation

إعطاء الظواهر الطبيعية، أو الأدوات والآلات المادية صبغة إنسانية. النظر إليها ليس كوقائع مادية تخضع لقوانين الفيزياء الطبيعية، بل اعتبارها قريبة أو شبيهة بالذات الإنسانية من الناحية الوجدانية.
وهو ميل شائع جداً عند البدائيين الذين يعتقدون أن لظواهر الطبيعة أرواحاً كأرواح البشر وأنها تتصرف انطلاقاً من قصدية ذاتية. إنه أسلوب طفلي في النظر إلى الأمور من خلال إسقاط الذات ورغباتها ونواياها على الظواهر والأدوات المادية.

انشطار Clivage (Cleavage, Splitting)

أوالية نفسية بدائية جداً عرّفتها بتفصيل ميلاني كلاين وهي تعتبرها من أكثر الأواليات بدائية للدفاع ضد القلق المرتبط بالنزوة العدوانية.
فالطفل الصغير كي يبعد الخطر التدميري الذي تتضمنه عدوانيته عن الشخص المحبوب (الأم) وما يولده هذا العدوان عليها من قلق شديد، يفصل العدوانية عن الحب، أو نزوة الموت عن نزوة الحياة اللتين تتلازمان عادة بشكل مزيج في مختلف العلاقات. من خلال هذا الفصل يتمكن من توجيه محبة خالصة إلى الأم، وتوجيه عدوانية خالصة إلى موضوع آخر يتركز فيه كل السوء والشر. كذلك قد ينشطر أنا الطفل إلى جزء طيب محبوب يرضى عنه، وآخر سيء مصدر كل خطر وشر ينبذه.
الانشطار يؤدي إلى القطعية (حب خالص، أو عداء خالص) وبالتالي إلى قطعية النظرة إلى الذات والوجود والآخرين. إنهم مثال الطيبة، أو مثال السوء. وهكذا فالانشطار يهدف إلى تركيز المحبة في الذات والموضوعات المقربة منها وتركيز العدوانية في الخارج الذي يهاجم ويدمر. أوالية الانشطار نشطة جداً في تصرفات العنف ويصاحبها عادة إسقاط الذنب على الضحية، مما يجعل العدوان عليها مبرراً ومشروعاً.

انعدام الكفاءة الاجتماعية Incapacité sociale

إحساس ذاتي يعيشه الإنسان الذي يرزح تحت وطأة مشاعر النقص والذنب. حيث يشعر أنه أقل من الآخرين، وأنه دوماً دون مستوى الوضعيات الاجتماعية. وهو إحساس داخلي معظم الأحيان أكثر منه موضوعياً فعلياً.

يعاني من هذا الإحساس الإنسان المقهور، والإنسان المعزول الذي لم تُتح له فرصة العيش في مجتمع معقد. انعدام الكفاءة الاجتماعية نجد نموذجاً بارزاً عليه عند الفلاح الذي ينزل من قريته المعزولة عن العمران إلى العاصمة لأول مرة. هذه المشاعر تدفع به عادة إلى تجنب المجابهة والمواجهة، نظراً لافتقاره إلى الثقة بنفسه، وإحساسه بعدم القدرة، مما يؤدي به إلى الانحسار ضمن حدود ضيقة هي حدود الظواهر المألوفة لديه.

أنوية (تركز حول الذات) Egocentrisme

يعني هذا المصطلح حرفياً التركز حول الذات [ذات (Ego) وتركز أو تمحور (centrisme)] ويقصد به باختصار، ردّ كل الأمور إلى الأنا، الانطلاق من وجهة نظر فردية، العجز عن رؤية أو اعتبار وجهة نظر أو رغبة خارجاً عن الذات. وبالتالي فالأنوية هي ضد الغيرية = الاعتراف بالآخرين. في الأنوية يتركز كل الاعتبار وكل المحبة في الذات التي تتضخم على حساب العالم الخارجي الذي تنحسر قيمته بالقدر

نفسه. الأنوية ظاهرة طفلية أساساً، لأنها تشكل إحدى مراحل النمو. وهي تكون عقبة جدية أمام التعاطف مع الآخرين والتفاعل معهم واعتبار مصالحهم. هؤلاء يتحولون عند الأنوي إلى مجرد أفلاك تدور في عالمه، وكأن الكون قد وجد لخدمة مصالحه وتحقيق أغراضه. يستجيب الشخص الأنوي عادة بعدوانية شديدة تجاه رغباته، يشعر بالحقد والغبن إذا لم تسخّر له كل الأمور.

اهتياج (هياج، هوس) Agitation maniaque

حالة مرضية تميّز المرض المعروف بهذا الاسم Manie، حيث تتسارع كل العمليات العقلية والنفسية ويستثار الجهاز الحسي الحركي. فينطلق المريض في نشاط عارم ومشتت: يرقص، يغني، يركض، يتحرك، يتحدث بدون انقطاع، منتقلاً من فكرة إلى أخرى بدون أي ترابط سوى تداعي الأفكار والألفاظ. كل ذلك في حالة من النشوة العارمة، الشعور بالسعادة والوفاق مع الوجود والرضى عن الذات وتضخم الذات بشكل يعطي الإحساس بنسف كل الحدود والقيود. إذا لم يتخذ الأمر طابع المرض العقلي الصريح والكامل، فقد يكون الاهتياج عبارة عن رد فعل نفسي وجداني من الإحساس بالقوة والجبروت والسطوة على العالم الخارجي يرافقه مشاعر غبطة ورضى عن الذات، لا تستند جميعاً إلى أي أساس من الواقع. والاهتياج بهذا المعنى قد يكون ردّ فعل على مشاعر العجز والتقصير والمهانة وما تولده من قلق شديد. الاهتياج هو نوع من القلب السحري للمعادلة الوجودية لمصلحة الإنسان المسحوق والعاجز.

أوالية Mécanisme (Mechanism)

خصوصاً أوالية دفاعية، تعني مجموعة عمليات تلجأ إليها النفس الإنسانية للاحتماء من القلق النابع من وطأة النزوات الداخلية، أو مشاعر الذنب النابعة من الأنا الأعلى، أو الخطر والتهديد الخارجي: خطر مادي أو معنوي يمس القيمة الذاتية.

أواليات الدفاع متعددة، كل شخص يلجأ عادة إلى نوع سائد منها، أشهرها: الكبت، الإسقاط، القلب إلى الضد، النفي، النكوص، الاجتياف، التسامي، التماهي بالمعتدي، الإزاحة.

الأوالية الدفاعية الأساسية هي الكبت، وكل ما عداها يأتي كتتمة له عندما لا ينجح بمفرده في إبعاد شبح القلق.

تتعدّد الأواليات الدفاعية، تبعاً للسن ولنوع النزوات والمآزم النفسية الناتجة عنها. ولكن كل شخص يلجأ عادة إلى عدد محدد منها في مختلف المآزم الداخلية والخارجية، مما يعطيه نمطاً خاصاً به.

تبخيس Dépréciation

الحط من قيمة شيء أو إنسان. تحدث هذه الظاهرة كثيراً في العلاقات الصراعية، وخصوصاً في علاقات الاستغلال والسيطرة. فلا بدّ حتى نتمكن من توجيه عدوانيتنا تجاه كائن آخر من الحط مسبقاً من قيمته، مما يجعل العدوان عليه مشروعاً ومبرراً. ولا بدّ كي نستغل ونسيطر أو نتسلط من تبرير العدوانية التي تتضمنها هذه المواقف بالضرورة من خلال الحط من شأن من نستغلهم. المثل الأبرز على ذلك هو استغلال المستعمر لشعوب العالم الثالث بعد تبخيسها، كشعوب متخلفة جاهلة، خاملة، لا تعرف كيف تستثمر ثرواتها الوطنية ولا تعرف كيف تحكم نفسها.

تجاذب وجداني Ambivalence

حرفياً تعني تذبذب الإنسان بين ميلين متعارضَين متواجدين معاً، كل منهما يشده في اتجاهه. وهو مصطلح يستخدم في وصف الحياة العاطفية للإنسان، حيث يعني تواجد متآنٍ لميول أو اتجاهات أو عواطف متعارضة في علاقتنا خصوصاً عواطف الحب والحقد.

والتجاذب الوجداني هو الخاصية الأساسية للحياة العاطفية. فليس هناك مطلقاً في علاقتنا بكائن ما عواطف صافية. كل عاطفة لا بدّ أن تتضمن نقيضها في آن معاً، ولو أنه في الحالات العادية لا يبرز إلاّ وجه واحد: الحب، أو الحقد. إلاّ أن الوجه الآخر كامن وضمني قد يتفجر في ظروف معينة، ومن هنا نفهم تحول الحب إلى حقد، أو تحول النفور إلى حب.

التجاذب الوجداني، يتخذ شكلاً صريحاً في بعض حالات الصراع النفسي والاضطراب النفسي، فيتذبذب الإنسان ما بين الحب والحقد يتجاذبانه في الوقت نفسه. في حالات السواء عواطف المراهق تشكل نموذجاً ممتازاً للتجاذب الوجداني، حيث يتذبذب هذا بين الرغبة والنفور، بين الحب والحقد بشكل واضح.

تخريف Fabulation

تزوير الواقع باتجاه المبالغة والاختلاق الذاتيين، بغية تغيير المكانة الذاتية، أو طمعاً في تغيير نظرة الآخرين إلينا. والتخريف هو مجموعة ادعاءات نحاول من خلالها تزيين واقعنا تستراً على نقص، أو بؤس، أو قصور وأملاً في الحل الوهمي لوضعية تتجاوزنا. وبهذا المعنى، التخريف يهدف دوماً إلى إثارة إعجاب وإكبار الآخرين بنا، إذا لم نحصل على ذلك من خلال واقعنا الفعلي. وأساس التخريف هو التضخيم. وقد يتخذ التخريف طابع التخويف في حالات الدفاع عن النفس، أو التهرب من الحساب. ويشجع التخريف عند الأطفال بعد مرحلة الكمون. فيروي الطفل قصة مختلقة هي عبارة عن مغامرة قام بها مليئة بالبطولات ومحفوفة بالأخطار. كذلك تلجأ البنات المراهقات إليها. ويجد الطفل نوعاً من العزاء ورفع الشأن في ذلك كما يجد فيه وسيلة للتهرب من الحساب من خلال التضليل. يلاحظ التخريف في بعض الأمراض العقلية في اتجاه المبالغة في تصور الجاه والثروة، خصوصاً عند النفاجيين (Mégalomane)، كما يلاحظ كثيراً في الحياة اليومية في المجتمعات المتخلفة التي يحتاج فيها المرء للتستر على مهانته من خلال تضليل الآخرين وإيهامهم بارتفاع شأنه.

تشريط (اشتراط) Conditionnement (Conditioning)

نظرية في التعلم قال بها خصوصاً العالم الروسي الشهير بافلوف. وأكثر من طورها من الناحية التطبيقية والنظرية العالم الأميركي المعاصر سكنر.

يعني التشريط حرفياً ربط مثير طبيعي يثير سلوكاً محدداً (اللحم يثير لعاب الكلب) بمثير اصطناعي لا يثير هذا السلوك تلقائياً (ربط الجرس بتقديم اللحم في تجربة بافلوف الشهيرة على تعلّم الكلاب). وهكذا من خلال تكرار هذا الربط يكتسب المثير الثاني فاعلية المثير الأول. (يكتسب الجرس فاعلية اللحم في إثارة لعاب الكلب) ويصبح مجرد تقديمه منفرداً قابلاً لإثارة السلوك موضوع البحث (سيلان اللعاب). ويسمى هذا المثير الثاني بالمثير الشرطي، ويسمى السلوك الذي أثير من خلاله باسم السلوك الشرطي. وللتعلم الشرطي قوانين أساسية تحدد هذه العملية من حيث تعزيزها وانطفائها.

ونقصد بالتشريط في النص عملية تدريب مقصودة تمارس على الإنسان في وضعية ما بغية قولبته في اتجاه

معين من خلال غرس تصرفات، أو انتقاء تصرفات وتوجهات مفضلة وتحريم أخرى.
وكذلك غرس نظرة معينة عند الشخص عن نفسه وعن العالم وعن الآخرين تترسخ عنده حتى تصبح وكأنها طبيعية.

Chosification

تشييء

هو اختزال وجود كائن إنساني إلى مرتبة الشيء. يتعلق هذا المصطلح بعمليات التبخيس التي تصيب قيمة الإنسان، كآخر شبيه بنا ومعادل لنا في علاقة تكافؤ، فيحل محلّ الاعتراف بإنسانيته انهيار لقيمته في نظرنا. وبالتالي فقدان هذه الإنسانية لقدسيتها وما تستوجبه من احترام، وما تتطلبه من التزام تجاهها. يتحول الآخر في هذه الحالة إلى مجرد أداة، أو رمز، أو أسطورة، يفقد خصوصيته واستقلاليته كلياً، ويدمج في مخططاتنا. تحدث هذه العملية في وضعيات حياتية كثيرة وهي أساساً ذات طابع سلبي خصوصاً في حالات القتل والاعتداء والاستباحة. الآخر يفقد صفته الإنسانية ويتحول إلى شيء، إلى رمز الشر الذي يجب إبادته.
كذلك تحدث في العلاقات العاطفية، مثلاً الأم التي تمتلك طفلها ولا تقبل استقلاله، تستخدمه في أغراضها المتنوعة (الحرب ضد الآب، تحقيق الرغبات، إلخ..). بدون اعتبار لكيانه. التشييء إذاً على صلة بانهيار العلاقة الإنسانية التي تقوم على الاعتراف بغيرية الآخر.

Catharsis (Méthode cathartique)

تفريج (تصريف، تنفيس)

عبارة عن تفريغ الشحنة العاطفية ذات الطبيعة المؤلمة، من خلال وضعية تثار فيها الوجدانات لدرجة تزول معها الضوابط الواعية، في حالة من المشاركة الوجدانية بين الشخص الذي يعاني وآخرين يتعاطفون معه. والتفريج يعقبه عادة ارتياح عام وعودة السكينة إلى النفس التي تنقاد للتعبير عن المعاناة أو المأساة بحرية تسمح بتصريف كل التوتر المتراكم. المشاركة الوجدانية في حالات الحزن والنوائب (كالموت مثلاً) لها قيمة تفريجية.
علماً استخدمت الطريقة التفريجية في بدايات التحليل النفسي. كان يعتقد أن المرض ناتج عن تراكم التوترات النفسية المقموعة. ويكفي رفع هذا القمع بوساطة التنويم المغناطيسي، حتى يتمكّن المريض من استرجاع الحادثة المؤلمة، وتصريف الانفعالات الشديدة التي صاحبتها. هذا التصريف يؤدي إلى الشفاء لأنه يخلص المريض من ضغط الانفعالات وما تحدثه من آلامه.

Identification

تماهي (توخد، تعيين)

عملية نفسية يتمثّل الشخص من خلالها، جانباً، أو خاصية، أو صفة من الآخر، ويتحول كلياً أو جزئياً على غراره. تتكون الشخصية عادة من سلسلة من التماهيات الجزئية بأشخاص مرجعيين (الأهل، الأساتذة، الرؤساء، الأصدقاء، الزعماء، إلخ...).
التماهي يختلف عن المحاكاة في أن هذه الأخيرة تظل سطحية وواعية، أما التماهي فهو عملية نفسية لاواعية، تؤدي إلى انبناء الشخصية تبعاً لنموذج معين. فتأثير التماهي، (أي أن يصبح الشخص هو الآخر، أو يكتسب هويته) حاسم في تكوين الشخصية.
يظل التماهي في الحالات العادية جزئياً، يكتسب الإنسان من خلاله صفات مرغوباً فيها يتمتع بها الآخر. وأساس التماهي هو الإعجاب. في الحالات المرضية يصل التماهي درجة كلية مما يفقد المريض كل استقلاليته وذاتيته في حالة من الذوبان في الآخر.

يعتمد التماهي من الناحية الدينامية على أواليتي الاجتياف والإسقاط: تمثّل صفات مرغوبة ثم إسقاطها مضخمة على الآخر، مما يؤدي إلى تدعيم الاجتياف، وإعلاء شأن الآخر بالتالي.

تماهي إسقاطي Indentification projective (Projective indentification)

مصطلح أدخلته ميلاني كلاين لتدل به على أوالية يحاول الشخص من خلالها إدخال ذاته هوامياً داخل شخص آخر (موضوع الحقد عادة) كي يسيء إليه يمتلكه ويسيطر عليه. تشيع هذه الأوالية كثيراً عند الفصاميين أثناء العلاج. فهم يحاولون السيطرة على المعالج والقلق الذي يثيره في نفوسهم من خلال التماهي الإسقاطي.

بشكل أكثر عمومية، نعني بهذا المصطلح، إدراك الآخر كجزء من أنفسنا وتحديداً كمعبر ومجسد لإحدى نزعاتنا التي نخشاها أو صفاتنا التي ننفر منها، وذلك من خلال التنكر لها في أنفسنا وإسقاطها على الخارج. يفقد الشخص في هذه الحالة غيريته كي يتحول إلى مجرد سند لخاصيته نسقطها عليه. ونحن نعامله تبعاً لموقفنا من تلك الخاصية. نعتدي عليه ليس ككائن بل كأسطورة، كرمز لما هو ممنوع ومكروه في داخلنا. بهذا المعنى كل إسقاط هو تماه إسقاطي. وقد يعمل التماهي الإسقاطي باتجاه الحب. فقد نحب شخصاً ليس لما هو عليه ككائن مستقل، بل لما نسقطه عليه من مثالية نرغبها جاعلين منه رمز الحب أو الطهر أو الخير. مبالغات الحب تقوم على هذه الأوالية.

تماهي بالمعتدي Identification à l'agresseur

أوالية قالت بها آنا فرويد (1936) خلال بحثها للأواليات الدفاعية التي يستخدمها الأنا لمجابهة القلق. التماهي بالمعتدي هو تمثّل عدوانيته التي نخشاها أيما خشية، نخشى خطرها علينا عندما نحس بالعجز عن التصدي لهذا الخطر بقوانا الذاتية. فهنا نلعب دوراً عدوانياً، نتمثّل العدوان لحسابنا ونصبه على ضحية، على كائن أضعف منا في حالة من نفي خوفنا وضعفنا وإسقاطه على الآخر. في التماهي بالمعتدي يحدث إذاً قلب للأدوار: أنا لا أخاف هو (الضعيف) يخاف، أنا لست ضعيفاً، أنا قوي، أنا أخيفه، بذلك يسيطر الإنسان على قلقه.

تشيع هذه الأوالية كثيراً عند الأطفال في مجابهة قلقهم: فالطفل الذي يخشى اللص، يلعب دور اللص محاولاً بث الذعر في نفس طفل أصغر. بذلك يسيطر على خوفه. والطفل الذي يخشى عقاب الأم، يلعب دور الأم المعاقبة التي تعنف أخاً أصغر على غلطته.

والتماهي بالمعتدي قد يتخذ شكل التماهي بسلوكه، أو بخصائصه، أو بأدواته، أو بعدوانه. تشيع هذه الظاهرة بين الشعوب المستعمرة التي تتماهى بعدوان المستعمر (انظر الفصل السادس التماهي بالمتسلط).

توليف (تنسيق) Synthèse

بعد خطوة تحليل ظاهرة ما إلى عناصرها المكونة لها ودراسة خصائص كل منها. وبعد تحليل العلاقة بين مختلف هذه العناصر. تأتي مرحلة تنسيق هذه الروابط والعلاقات في صورة متماسكة ذات قيمة معرفية. فالتوليف هو عملية عقلية عليا تسمح بتنسيق شتات معطيات الواقع في وحدات دينامية. وهي عملية تسمح بالوصول إلى استنتاجات وقوانين وبالتالي اتخاذ قرارات منطلقة من سيطرة فعلية على الواقع. بدون توليف يظل الواقع مشتتاً ويفلت منا. التحليل والتوليف هما قوام التفكير الجدلي من الناحية المنهجية وهما وسيلة الارتقاء إلى التفكير المجرد والإبداعي. فالإبداع الفكري هو في النهاية توليف جديد لمعطيات قديمة.

جَبَروت Toute puissance (omnipotence)

إسباغ القوة المطلقة على أشخاص، أو رموز سلطة خارجية، أو على الأفكار والنوايا والرغبات الذاتية. وهي حالة يعيشها الطفل أساساً حيث يعتقد في مرحلة ما أن أفكاره ونواياه ورغباته لها قوة التحقيق الفعلي منذ ساعة بروزها إلى حيز الوعي. يكفي أن يرغب حتى تتحقق هذه الرغبة آنياً. يكفي أن يفكر بشيء حتى يكون. وذلك ما يبث في نفسه الطمأنينة والخوف في آن معاً. يطمئن إلى قوته الذاتية، قدرته على مغالبة الصعاب والأخطار الخارجية، ويخشى أن تتحقق رغباته وأفكاره العدوانية تجاه من يحب (الوالدين والاخوة تحديداً).

في مرحلة تالية يسقط الطفل الجبروت على الوالدين خصوصاً الأب معتقداً أن هذا الأخير قادر على كل شيء. وفي ذلك إحساس بالطمأنينة لأن قدرة الأب على حمايته وتحقيق رغباته لا تحد.

جبروت الأفكار هو في الأساس النفسي للممارسات السحرية والخرافية للسيطرة على المصير. والجبروت عموماً هو ردّ الفعل الدفاعي ضد الإحساس بالعجز والنقص.

جرح نرجسي Blessure narcissique

النرجسية ترجع من حيث اشتقاقها اللغوي إلى أسطورة نرسيس اليونانية، ذلك الإنسان الجميل الذي أعجب بصورته على صفحة الماء وما زال منكباً عليها يتأملها حتى أودى به الغرق. تعني النرجسية نفسياً تركز كل نزوة الحب في الذات بشكل يمنعها عن رؤية ما عداها، يسجنها في حدودها في حالة من الفتنة والإعجاب، ويؤدي إلى موتها بالتالي نظراً لحرمانها العلاقة والتفاعل مع الغير باعتبارهما: أساس كل وجود وكل تحقيق للذات.

يعتقد فرويد أن طاقة الحب تتركز كلها في البداية في الذات فتضخمها بشكل مفرط، ثم تتوزع فيما بعد بين الذات والموضوعات الخارجية. ويؤدي ذلك إلى اعتبار الذات وتقديرها من ناحية والتعلق بالموضوعات الخارجية التي استقطبت نزوة الحب (أشخاص، قضايا، قيم، إلخ..) من ناحية ثانية. وتتفاوت قيمة الذات من وجهة نظر شخصية محض تبعاً لمقدار نزوة الحب التي تركزت فيها.

الجرح النرجسي يعني انطلاقاً من ذلك المساس بأعمق جوانب الذات والنيل من التقدير الذاتي والاعتبار الذاتي المحوري. والجرح النرجسي يولد بالتالي آلاماً معنوية وحميمة شديدة جداً ويفجر القلق، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون اعتبار ذاتي، كما أنه يولد عدوانية هائلة صريحة أو ضمنية تجاه العوامل التي أدت إلى ذلك الجرح النرجسي. أبرز مثل على الجرح النرجسي أن تنجب الأم طفلاً مشوهاً أو ذا عاهة مما يمس أنوثتها بالصميم.

جُمدة Catatonie

هي أحد أعراض مرض الفصام. تتخذ طابع التخدير الكلي للإحساسات في حالة من الإعراض عن العالم وإدارة الظهر كلياً للوجود. حتى الجهاز الحركي يتوقف عن الرد والتفاعل مع المحيط متخذاً طابع المواقف الشخصية (الثبات على الوضعية الجسدية نفسها وعدم التأثر بالمثيرات الخارجية)، وتتضمن الجمدة عدوانية داخلية هائلة تنفجر في فورات غضب فجائية تتخذ طابعاً خطيراً. كما تتضمن عناداً ذهنياً شديداً ورفضاً للتجاوب مع الآخرين. الجمدة هي أساساً دفاع متطرف ضد طغيان التهديد الخارجي للذت، أو بكلمة أدق الإحساس بذلك التهديد. إنها تعني التأثر بالمحيط وما يتضمنه من قلق وآلام وإحباطات. فإذا انتفى التأثر من خلال إبطال الإحساس وصد الاستجابات الحركية يتمكّن المريض الذي يعيش حالة تهديد كارثي

لتوازنه الوجودي من الاحتفاظ بشيء من تماسكه تجاه القوى الخارجية التي يسقط عليها، في الواقع، قوة مبالغاً فيها، هي بالتحديد التهديد الذي يعاني منه من داخله على شكل انفجار في شخصيته.

خصاء (عقدة) Complexe de castration (Castration complex)

عقدة مركزة حول هوام الخصاء، أي فقدان القضيب كعقاب على ذنب اقترفه الصبي. هذا الذنب على صلة برغبات جنسية آثمة أساسها الرغبة في امتلاك الأم والاستحواذ عليها من خلال إبعاد الأب والقضاء عليه. ولذلك فعقدة الخصاء على علاقة بعقدة أوديب التي تعتبر نفسياً الجسر الذي يمر عليه الطفل الصبي للدخول إلى العالم الإنساني، عالم الثقافة والقانون، ويصل في الوقت نفسه إلى هويته الذكرية.

وتثار عقدة الخصاء أيضاً انطلاقاً من الممارسات ذات الدلالة الرمزية على الفعل الجنسي (الاستمناء، البوال)، ولا يندر أن يهدد الأهل الطفل حين يعبث بعضوه التناسلي أو حين يبول في ملابسه بحرقه بالنار أو قطع ذلك العضو.

وترتبط عقدة الخصاء بلغز الفروق التشريحية بين الجنسين خصوصاً عدم وجود قضيب عند المرأة (والأخت) مما يثير قلقاً عند الطفل على قضيبه. وهو يعتقد أن أخته فقدت قضيبها عقاباً لها على رغبة آثمة أو فعلة ممنوعة.

والخصاء من الناحية النفسية الرمزية هو التعبير عن قانون الأب الذي يحد من حرية الرغبة عند الطفل. أما عقدة الخصاء فتأخذ على المستوى النفسي نفسه طابع عدم الاكتمال، طابع النقص والعجز على مستوى الذكورة، وعلى مستوى التعبير الرمزي عنها، على شكل احترام مفرط للسلطة (رمز الأب) وعجز عن توكيد الذات إزاءها في حالة من الرضوخ والتسليم. وعندما تستفحل هذه العقدة تقعد الإنسان عن توكيد ذاته وتؤدي به إلى الفشل لأنه يحس بانعدام الجدارة، أو انعدام الحق في النجاح الحياتي - كل نجاح هو كبر وهو مضاهاة الأب. ومن يعاني من عقدة الخصاء ممنوع عليه أن ينافس الأب ويضاهيه، ولذلك يظل في وضعية العجز والقصور. عقدة الخصاء ترتبط بمشاعر ذنب شديدة، وتثير القلق. وقد يتسجيب الإنسان لها ليس بالرضوخ وإنما بالإفراط في السلوك التعويضي على شكل مبالغة وتضخيم لمظاهر الذكورة والقوة والرجولة والإقدام، إلخ. . . كل ضعف حياتي، كل فشل وجودي يعاش على المستوى اللاواعي كخصاء.

خُصاء ذهني Castration mentale

تعبير مجازي للدلالة على حالات صد الذهن، وعجزه عن توكيد ذاته والتعبير عن ديناميته وخصوصاً عجزه عن التعبير عن قدرته على السيطرة على العالم الخارجي. فالذهن هو أداة سيطرتنا الأولى والأرقى على المحيط. وعندما نصاب بالصد نفقد تلك السيطرة، ذلك هو المقصود تحديداً بالخصاء الذهني. والتعبير مجازي لأن الذهن هو في قوته وسطوته هو كالقضيب رمز الذكورة والسيطرة على الأنثى الأم. الطبيعة ترمز إلى الأم.

والخصاء الذهني قد يتخذ شكلاً مفرطاً في شدته فيتحول إلى ضعف عقلي صريح، ولكن ذو أسباب نفسية قابلة للعلاج على عكس الضعف العقلي ذي الأسباب العصبية العضوية. وفي الحالات البسيطة قد يتخذ الخصاء الذهني شكل صد القدرة على الاستيعاب، والتركيز والتحليل والتوليف، وبكلمة موجزة يتخذ طابع فقدان السيطرة الفكرية على العالم.

خُواف (ذعار) Phobie (Phobia)

الخواف هو خوف مرضي من أشياء أو كائنات أو أماكن أو وضعيات لا يفترض أن تثير الخوف عند

الإنسان الراشد العادي. يصاب المريض من هؤلاء بذعر شديد عندما يلتقي بموضوع خوافه وهو لذلك يتجنب ذلك اللقاء من خلال طقوس عديدة واحتياطات كثيرة.

موضوعات الخواف متنوعة (خواف الحشرات والحيوانات، خواف الأماكن المغلقة، خواف الأماكن الفسيحة، خواف الارتفاع، خواف الجمهرة في الشارع، خواف وسائل المواصلات كالطيارة، والسيارة والقطار).

موضوع الخواف يثير عند المريض نوبة قلق بكل مظاهرها النفسية والفسيولوجية. ويستند في الواقع إلى إسقاط القلق الداخلي المتأزم مرضياً على موضوع محدد، وحشره بالتالي في زاوية معينة من الوجود، مما يترك حرية الحركة كاملة للمريض بعيداً عن موضوع خوافه. ولذلك قد نجد أحياناً ظواهر خوافية حتى عند أبطال الحرب والمغامرة، كالخوف من حشرة ما، أو من حقنة، إلخ..

الموضوع المخيف له أغلب الأحيان دلالة رمزية عامة أو خاصة عند المريض، ويشير إلى مأزم ذات طبيعة جنسية أو عدوانية أو الاثنين معاً.

ديمومة — Durée

وحدة الزمن في مساره. وحدة الماضي والحاضر والمستقبل كما تعاش نفسياً. والزمن المعاش يختلف عن الزمن الفيزيقي المكاني. فالزمن الفيزيقي لا يضطرب، إنما الديمومة قد تتعرض للاضطراب، سواء في مسارها، أم في وطأتها، أم في التوازن بين مراحلها الثلاث. وقد تتجمد الديمومة على الماضي، كما في بعض الأمراض النفسية، أو قد تنسد آفاق المستقبل. وقد يهرب الإنسان من واقعه في العيش بالحاضر في اللحظة الراهنة كما يحدث للجانح، وذلك على عكس العصابي الذي يهرب من الحاضر في الماضي، وعلى عكس السوداوي الذي تسد أمامه آفاق المستقبل.

والديمومة في اضطرابها أو توازنها على علاقة وثيقة بالتكييف الحياتي العام، إذ إن هذا التكييف يندرج دائماً في ديمومة متحركة.

سلوك التفاف — Conduite de détour

من المفاهيم التي تحدثت عنها نظرية الجشطلت ومن بعدها نظرية الحقل بصدد الذكاء والسلوك التكيفي. فالسلوك المتكيف هو القادر على الالتفاف، أي الذي يبدي قدراً من المرونة تمكّنه من الابتعاد الآني عن الهدف بقصد الوصول الأكثر فعالية ودواماً إليه. وهو السلوك الذي يتوسل أدوات مباشرة أو غير مباشرة للوصول إلى هدفه. بالطبع سلوك الالتفاف (ويعني حرفياً الالتفاف حول الحاجز أو العقبة التي تقف بين الكائن وهدفه عن منفذ يسمح بالوصول إليه، ولو أدى الأمر إلى شيء من الانتظار، أو الابتعاد المؤقت عنه)، يسمح للكائن الحي بالتغلب على الكثير من الصعوبات التي يصطدم بها لا محالة للوصول إلى الهدف إذا اتخذ طريقاً مباشراً وبشكل جامد. ويرتبط سلوك الالتفاف بمدى اتساع المجال الحيوي الذي يوضع فيه الهدف وطرق الوصول إليه. كلما ضاق هذا المجال قلّت فرص الالتفاف، والعكس صحيح، كلما اتسع المجال ارتقى السلوك.

سلوك طقسي — Comportement rituel (Ritual behavior)

مصطلح يستخدمه كونراد لورنز في الحديث عن العدوانية بين الحيوانات. ففي حالة القتال بين حيوانين من الفصيلة نفسها، يقدم الحيوان الأضعف، بعد أن تتضح له قوة خصمه، على سلوك طقسي يعبّر عن الرضوخ المستسلم، ويبرز الضعف أو يلعب دور الضعيف أمام الحيوان الأقوى.

هذا السلوك ذو طبيعة استرضائية، يؤدي إلى نتيجة مباشرة هي كبح عدوانية الحيوان الأقوى، مما يوقف القتال عند حدود غير مؤذية، وقد يؤدي أيضاً إلى بروز سلوك الصداقة بين الحيوانين، وحلولها محل العدوان. ويبرز هذا التحول تجاه الصغار والإناث.

شرعنة (استبرار) Légitimation

عملية نفسية علائقية تهدف إلى تبرير العدوان على الغير من خلال تأثيمه، من خلال وضع كل اللوم عليه وتحميله مسؤولية المأزق الذاتي أو المآزق العلائقية. عندما يصبح هو المذنب، وهو مصدر الخطر والتهديد، ومصدر العلة في حالة من تبخيس إنسانيته والحط من قدره وتحويله إلى عقبة وجودية في وجه السعادة الذاتية والوصول إلى تحقيق الذات. عند هذا الحد يحدث ردّ فعل براءة تجاه الذات التي تصوّر كضحية يقع عليها كل الغرم من الخارج. ومع رد فعل البراءة هذا يفتح السبيل أمام إطلاق العنان للعدوانية الذاتية في فعل تهجمي تدميري ضد الآخر المسؤول. وتعاش هذه التصرفات التدميرية تحت شعار الدفاع المشروع عن النفس.

عماد شرعنة العدوان على الغير هما إذاً الإحساس بالغبن المفروض، وبروز الاتجاه الإنصافي (انظر هذا المصطلح).

صدّ (كف) Inhibition

الصد هو كف النشاط السلوكي أو الذهني أو التعبيري أو العاطفي نتيجة لقيود وكوابح داخلية نفسية، وذلك على عكس القمع الذي يكف هذا النشاط بفعل قوى خارجية ضاغطة.

والصد عملية لا إرادية يتحكم بها اللاوعي ويعاني منها الشخص على شكل تجربة مؤلمة من القصور الذاتي والقيد الداخلي الذي يمنع الانطلاق. وقد يحاول مغالبتها دون كبير جدوى معظم الأحيان. والصد على علاقة عكسية بدرجة الحرية النفسية الداخلية التي يتمتع بها الإنسان. كلما انحسرت حرية التعبير عن الذات، كان الصد أكبر، وعلى العكس كلما كبرت هذه الحرية، انحسر الصد.

والصد على علاقة وثيقة بمشاعر الإثم، إنها في الواقع وليدة هذه المشاعر بشكل مباشر، وهذه تنبع من تشدد الأنا الأعلى وإرهاقه للشخص بسبب وجود ميول ورغبات مكبوتة لأنها لا أخلاقية وغير مقبولة.

صورة أموية (أمومية) Image (maternelle)

بشكل عام النموذج اللاواعي الأولي للأشخاص، الذي انطلاقاً منه يدرك الشخص الآخرين. وتبنى الصورة عموماً انطلاقاً من العلاقات الأولى بين الطفل ووالديه، خصوصاً الأم، هذه العلاقات بما فيها من واقعية، وما يدخل هذه الواقعية من عناصر ذاتية من خلال الإسقاط.

والصورة هي المثل النفسي اللاواعي للنزوة (نزوة الحب، أو نزوة العدوان، أو امتزاجهما بمقادير متفاوتة). وهي كذلك لأن النزوة تتوجه حتماً إلى موضوع خارجي هو الأم في البداية ثم الأب. وهكذا ينشأ عند الطفل صورة عن الأم هي نتاج موقفها وتصرفها الفعلي نحوه متفاعلاً مع توقعاته ونزوات الحب والعدوان عنده. وقد تكون صورة الأم طيبة إذا طغت على العلاقة معها تجربة الحب، أو تكون سيئة إذا طغت تجربة الإحباط والعدوانية والحقد. الصورة الأولى هي نموذج كل علاقة حب، وكل علاقة وفاق تالية مع العالم. أما الثانية فهي نموذج كل علاقة خوف وعداء وخطر واضطهاد وتشاؤم.

صورة الأم هي إذاً ينبوع وسند الحياة العاطفية في مختلف أحوالها. على العكس منها صورة الأب (التي تتخذ أيضاً شكلين مرحب وعدواني) فهي سند حياة العقل والتمايز والاستقلال.

ضد خوافي Contraphobique

مجموعة من الإجراءات التجنبية (أساساً) يقوم بها الخوافي (المريض بالخواف) للاحتماء من خطر مجابهة موضوع خوفه المرضي، وتجنب نوبة القلق التي تصاحب هذه المجابهة. ويلتقي الخوافي في ذلك مع المتطير في إسقاط قلقه الداخلي على موضوع خارجي واتخاذ الاحتياطات المتنوعة لتجنبه وإبطال تأثيره.

ضعف عقلي زائف Pseudo - débilité

على عكس الضعف العقلي الفعلي الناتج عن اضطرابات عضوية، عصبية أو شراحية، أو وراثية، إلخ.. الذي يشكّل تخلفاً ذهنياً حقيقياً يصعب علاجه وشفاؤه تماماً، هناك الضعف الزائف. هذا الأخير له معظم السمات الدينامية المعرفية للآخر، ولكنه لا يستند إلى أساس عضوي، إنه وظيفي أو نفسي، وهو قابل للتحسن والشفاء بدرجات متفاوتة.

وللضعف العقلي الزائف أسباب رئيسية أهمها ثلاثة:

- الاضطراب النفسي المتفاوت في شدته والذي يتخذ شكل الصد المفرط للنشاط الذهني، كما يحدث في حالات الذهان الطفلي.
- الاختلال الحسي: في السمع أو البصر مما يجعل الذهن محروماً من قسط هام من المثيرات الخارجية التي تحفزه على النشاط.
- نقص المد الثقافي، أو البؤس الثقافي، كالعيش في وسط جاهل وبائس، يفتقر إلى المثيرات الثقافية والفكرية، مما يبقي الإنسان في حالة بدائية ساذجة، كما هو شأن الجماعات السكانية التي تقطن مناطق نائية ومعزولة تماماً عن المثيرات الثقافية الشائعة. وقد تتلاقى هذه الأسباب الثلاثة لتعزز درجة التخلف وتجعله صعب العلاج.

طقس هجاسي Rite obsessionnel

مجموعة تصرفات منمطة، تطبق مع مراعاة الكثير من الدقة في تسلسلها وتنفيذها، ومراعاة الثبات في أسلوب ذلك التنفيذ، يقوم بها المريض بالهجاس. وهي ذات هدف دفاعي أساساً، غايتها الحرب ضد خطر بروز نزوات أو رغبات أو أفكار، أو الإقدام على تصرفات مرفوضة نفسياً وخلقياً من قبل الهجاسي، ولكنها تمثّل في الواقع رغبته اللاواعية. إذا منع الهجاسي من القيام بطقوسه، فإن القلق الشديد ينتابه. لا يشعر بالأمن إلاّ إذا قام بها، ولذلك فهي تأخذ طابعاً إرغامياً قهرياً.

غُظام (جنون العظمة والاضطهاد) Paranoïa

ذهان (مرض عقلي) مزمن يتصف بطغيان هذيان منظم يغلب عليه طابع التأويل، وغياب التدهور العقلي. ويسمى جنون العظمة والاضطهاد لأن المريض تطغى عليه معتقدات مرضية (هذيانات) لها بنظره صفة اليقين القاطع ولكنها لا تستند إلى واقع موضوعي وهي غير قابلة للتغيير بالإقناع أو البراهين العملية.

هذه المعتقدات ذات طابع اضطهادي يقتنع المريض أنه ضحية مؤامرة تحاك ضده وتريد النيل منه ويستجيب لها بمجموعة الإجراءات الدفاعية والهجومية التي تستغرق كل وقته وتصرفه عن الاهتمام بمصالحه الحياتية، أشدها: هذيان الدعاوى، هذيان الاضطهاد، هذيان التأويل.

ويستجيب إذاً بشكل عدواني يتخذ طابع الدفاع المشروع عن النفس، من خلال سلوك الاضطهاد المضاد. ويرافق ذلك نوع من مشاعر العظمة، حيث يضع المريض نفسه في مرتبة من الأهمية تبلغ حداً كونياً.

يحتفظ الواحد من هؤلاء بكل صفائه الذهني خارج إطار الهذيان ويتمتع بذاكرة حادة وميل مرضي للملاحظة والتحليل المتربص بكل شيء.
العظام من أشد الأمراض العقلية المزمنة وشفاؤه صعب إجمالاً.

علم الأنام Ethnologie (gy)

من (Logos) علم و(Ethnie) شعب أو مجموعة سكانية. هو أحد فروع العلوم الإنسانية وثيق الصلة خصوصاً بعلم الاجتماع. أو هو كما جرت العادة قديماً علم اجتماع الشعوب البدائية التي لم تصل مستوى الحضارة الصناعية المميّزة لبلدان العالم الغربي وما يماثلها.
يدرس ثقافة الشعوب في بناها الفوقية والتحتية: أساطيرها، معتقداتها، مؤسساتها، أنظمتها، تقنياتها وأدواتها، أنظمة الإنتاج والتوزيع والعلاقة.

علم اللسان (الألسنيّات) Linguistique

أحد فروع العلوم الإنسانية الحديثة. موضوعه دراسة اللغة ليس كمجموعة كلمات، بل كبنية أو انبناء لغوي، ينطلق من مهمة أساسية هي أن الكلمة لا تجد معناها في ذاتها، بل من خلال موقعها في سياق الخطاب. وهي على صلة بذلك الخطاب ذات مستويين، مستوى تاريخي انسيابي (Diachronie) حيث يتحدد معنى الكلمة انطلاقاً مما سبقها وما يليها، ومستوى تزامني عمقي (Synchronie) حيث ترجعنا الكلمة من معناها إلى معنى آخر. وهذا إلى معنى ثالث. وهكذا فالكلمة يتحدد معناها من خلال موقعها في سلسلتين جدليتين تتكون منهما اللغة: سلسلة تراتب المعاني وسلسلة تتابع الكلمات.
علم اللسان غني جداً بمعطياته، منه انطلق تطبيق النظرية الانبنائية كمنهج بحث في العلوم الإنسانية.
ولقد ساهم هذا العلم الناشئ في إلقاء أضواء قيّمة على مشكلات هامة في العلوم الإنسانية وفهم الإنسان معبّراً عنه من خلال اللغة.
وعلم اللسان هو أخيراً أكثر العلوم الإنسانية دقة واقتراباً من العلوم المضبوطة، لأنه قابل أكثر من غيره لتكميم مواده.

علاقة أثرية Rélation archaïque

يقصد بها العلاقة الأولية تماماً مع الأم كما تكوّنت صورتها في اللاوعي. هذه العلاقة تتصف بالتطرف العاطفي وبشدة الطاقة النزوية المركزة فيها نظراً لعدم قدرة العقل على التدخل في تلك المرحلة المبكرة من العمر كي يلطف من طغيان الانفعالات.
عندما تكون العلاقة الأثرية ذات طابع سلبي، متميّز بالعدوانية، فإنها تصبح مصدراً لأكثر أشكال القلق شدة وبدائية، القلق غير القابل للضبط العقلاني. وهي في رأي ميلاني كلاين ذات طبيعة اضطهادية نظراً لشدة تركز نزوة العدوان فيها. وهكذا فإثارة هذه العلاقات الأثرية مع الأم أو الأب، أو معهما متحدين تفجر أقصى درجات القلق النفسي، الذي يصل الفصام العظامي. هذه العلاقة تكبت في أعماق اللاوعي. ولكن الوضعيات المأزقية الشديدة قد تفجرها مما يجعلها تسقط على الواقع الخارجي وعلى الأشخاص الفعليين في علاقة عظامية. العلاقة الأثرية هي باختصار السند الهوامي لأشد درجات نزوة العدوان تدميراً.

علاقة دمجية (ذوبانية) Rélation Fusionnelle

هي علاقة تنتفي منها الاستقلالية والغيرية. فعلى عكس علاقة اللقاء بين طرفين شبيهين على درجة ما من

التساوي ولكنهما يتمتعان بالغيرية، فإن العلاقة الدمجية هي نفي للغيرية، ذوبان للذات في الآخر إلى حد استلاب الشخصية. والعلاقة الدمجية هي نموذج علاقة الطفل الأولى بأمه، هي نموذج الوضعية الطفيلية حيث يتحدد الطفل كهوية انطلاقاً من علاقته بالأم. والعلاقة الدمجية هي النمط السائد للعلاقة في الحب التملكي حيث لا يقبل الحبيب من محبوبه الاستقلال ويريده له كاملاً، يستحوذ عليه من خلال إلغاء استقلاليته وإرادته. وقد يذوب الحبيب في شخصية المحبوب لدرجة الاستلاب.
العلاقة الدمجية هي إذاً على عكس العلاقة الراشدة التي تقوم بين طرفين لكل منهما استقلاله. وهي من أساليب الدفاع الشائعة ضد قلق الانفصال. هذا القلق لا يهدأ إلاّ إذا انتفت كل مؤشرات الافتراق والاختلاف مهما هزل شأنها. ولا يتم ذلك إلاّ من خلال الدمج: دمج الآخر في الذات، أو الاندماج في ذات الآخر.

الغبن المفروض — Injustice subie

شعور يطغى على الجاني، أو الجانح، أو الشخص المقبل على فعل عدواني تدميري مؤذ ضد شخص آخر. يحس الواحد من هؤلاء أنه ضحية ظروف ظالمة، أو ضحية اعتداء وقع عليه من قبل ضحيته المقبلة. ويؤدي هذا الإحساس إلى تراكم العدوانية ضدها وتفجير الحقد، واصطباغ العلاقة معها أو مع المحيط بصبغة اضطهادية يتحول العالم، إلى وجود لا مكان فيه للحب. ويفجر هذا الإحساس ردّ فعل البراءة، نفي المسؤولية فيما آلت إليه الأمور عن الذات، ونفي تهمة العدوانية بالتالي. وهنا يتحول العدوان على الضحية أو المحيط إلى قمع مبرر ومشروع متخذاً صفة الدفاع عن النفس. ويؤدي الشعور بالغبن المفروض إلى بروز الاتجاه الإنصافي وكلاهما عماد شرعنة (انظر هذا المصطلح) العدوان على الغير وتبريره.

فاتر — Passif

صفة لموقف من الوضعيات الحياتية والعلائقية يتصف بانعدام المبادرة، بالتلقي والانتظار، عكسه نشط (Actif) وهو موقف مبادر مؤثر فعّال يتدخل في الوضعية فيغيّرها أو يحور اتجاهها في وجهة مقصودة.
والفاتر هو غير السالب (négatif) كما يشيع خطأ في الاستعمال الدارج. فالسالب هو أساساً موقف معارض قد يكون نشطاً أو فاتراً، عكسه إيجابي (positif) أي موقف بنّاء يتدخل في الظواهر كي يؤثر فيها نحو غايات معتبرة طيبة ومرغوب فيها.

قلق الهجر — Angoisse d'abandon

قلق يعاني منه الطفل المفصول عن والديه، أو الذي يخشى أن يتخلى عنه هؤلاء، خصوصاً الأم ويرتبط قلق الهجر عادة بشعور ضمني بخطيئة ارتكبها الطفل ويكون نبذه عقاباً عليها. كما أنه يثير الخوف من الفناء نظراً لفقدان السند والحماية. يحس الطفل الذي يعاني من حالة الهجر أو من قلق الهجر، أنه معرض لأخطار خارجية تتهدده من كل ناحية، العالم يتلوّن بصبغة اضطهادية مخيفة، مسكون بقوى تريد به الشر ولا قبل له في القضاء عليها أو مجابهتها. ومصدر قلق الهجر هو الحقيقة البيولوجية التي تفرض نفسها كحتمية لا مفر منها، وهي القصور البيولوجي الفعلي في الطفولة والحاجة إلى الاعتماد على قوى خارجية، على العلاقات مع الوالدين لتأمين الحماية والغذاء. يولّد قلق الهجر معاناة وجودية تأخذ شكل المساس المؤلم بقيمة الذات (لو كنت ذات قيمة لما هجرت، إذاً أنا لم أحب فلأني لا أستحق الحب).

الكبت (المكبوت) — Réfoulement (refoulé) (Repression)

الكبت هو الأوالية الدفاعية الأساسية. بواسطته يتمكّن الأنا الواعي، من طرد الرغبات والأفكار

والانفعالات المصاحبة لها خارج حيز الوعي، طردها إلى اللاوعي هرباً مما يسببه الوعي بها أو تنفيذها من قلق نظراً لتعارضها مع رغبات أخرى أو مع أوامر الأنا الأعلى الذي يفرض تزمتاً خلقياً صارخاً على الشخصية، محرماً إشباع تلك الرغبات. كل الأواليات الدفاعية من إسقاط أو قلب إلى الضد، وإزاحة، وغيرها مساعدة للكبت تدعمه عندما لا ينجح بمفرده في عملية الإبعاد هذه. وهكذا فالكبت هو أحد العوامل الأساسية لتكوين اللاوعي. وهو وبهذا المعنى عملية تدل على تأثير الحضارة. فكلما كان هذا التأثير أكبر، كان كبت النزوات بشكلها البدائي الحيواني أشمل.

الرغبات المكبوتة لا تزول، بل تظل نشطة جداً في لاوعي الإنسان تمارس ضغطاً مستمراً كي تبرز إلى حيّز الوعي والتحقيق من خلال السلوك. في الحالات العادية تبرز بوسائل مقنّعة أو مركزية أشدها الأحلام والأعراض النفسية المرضية. ولذلك فإن الأنا يستنفد جزءاً من طاقته في إبقاء الكبت فعّالاً. وهو يفشل في ذلك في بعض الظروف: المرض، الإرهاق، الكوارث، شدة ضغط المكبوتات. وهنا يعود المكبوت إلى الظهور، وتتخذ هذه العودة شكل تفجر الاضطراب النفسي أو العقلي.

الهستيريا هي أشهر الأمراض النفسية التي ساعدت على اكتشاف أوالية الكبت.

عندما تكبت رغبة ما، يحدث انفصال بينها وبين الانفعالات المصاحبة لها والأفكار الخاصة بها. في الهستيريا مثلاً تكبت الرغبة والأفكار وتفلت الانفعالات من الكبت. أما في الهجاس فيحدث العكس حيث تكبت الانفعالات وتفلت الأفكار التي تظل واعية.

مؤسس، مؤسسي Institutionnel

نسبة إلى مؤسسة (Institution) وهي نظام اجتماعي في المقام الأول. والإنسان منذ أن يولد يجد نفسه مباشرة منخرطاً أو متموضعاً في عدد من المؤسسات تسن له قواعد سلوكه وتحدد مكانته ومعناه، وتفرض عليه المحرمات والنواهي، كما تحدد المسموحات. من أشهر المؤسسات الأسرة والمدرسة، والمرجع الديني، والجيش. تأثير المجتمع على الفرد وإدماجه فيه يتم عادة من خلال مؤسسات من هذا القبيل.

أما الجسد المؤسس فنعني به أن جسم الإنسان عموماً والمرأة خصوصاً ليس مجرد متعض بيولوجي، بل هو دلالة اجتماعية وإنسانية من خلال ما تسن لحركته وتعبيراته وتصرفاته ورغباته من قوانين تحددها، ومن خلال الدلالات والقيم التي تعطى له. وكذلك من خلال ما يعطى لمختلف أعضائه من مرتبية (الأعضاء النبيلة والأعضاء أو المناطق المعيبة، الأعضاء التي يسمح بظهورها وتلك التي تحجب). الجسد المؤسس هو إذا تحوّل الجسم من كيان طبيعي إلى كيان نفس اجتماعي. وجسد المرأة على هذا المستوى يخضع لتأسيس مفرط نظراً لشدة القواعد وشموليتها التي تحدد تفصحاته.

مَثْلَنة Idéalisation

أي رفع إنسان، أو موضوع، إلى مرتبة المثل الأعلى وتنزيهه من الشوائب والنقائص، في حالة من تضخيم قيمته وأهميته وجاذبيته بالنسبة للشخص الذي وضعه في ذلك المقام.

المثلنة مصطلح تستخدمه ميلاني كلاين في الحديث عن انشطار النزوات وانشطار الموضوعات. في هذه الحالة تنفصل نزوة الحب تماماً عن نزوة العدوان، توجّه نزوة الحب عندها إلى موضوع خارجي (محبوب) هو الأم في الأصل، مما يجعلها رمز الحب، مثال الموضوع المرغوب فيه، المنزه عن كل شوائب الحقد والتحديد والاضطهاد.

المثلنة هي إحدى الأواليات الدفاعية التي يحاول بواسطتها الطفل الصغير أن يحفظ الموضوع من الأخطار التي تشكلها عليه نزوة العدوان. إنه نفي مطلق للميول أو النوايا العدوانية تجاه ذلك الموضوع من خلال

تحويلها إلى موضوع ثانٍ يصبح رمز الشر والسوء والتهديد. هذه الأوالية نجدها فاعلة في العلاقات الاضطهادية بين الجماعات، حيث تحدث مثلنة للجماعة التي تنتمي إليها وتضخيم لقيمتها من خلال توجيه ذلك العدوان إلى جماعة غريبة.

المرحلة الفمية **Stade oral (ou phase) (Oral stage)**

أولى مراحل تطور الليبيدو. تتركز خلالها اللذة الجنسية بالفم وترتبط أساساً بالأحاسيس الخاصة بالتجويف الفمي والشفتين. وهي ترافق في تلك المرحلة من النمو عملية التغذية (خصوصاً الامتصاص والرضاعة). من خلال طبيعة ومنحى هذه التجربة (سارة أو مؤلمة) تتكوّن عند الطفل الوليد أولى الصور عن حياة العلاقة، صورة الأم، وصورته عن نفسه وعن الوجود عموماً، تصطبغ بطابع فمي. وتقسم هذه المرحلة إلى مرحلة امتصاص وهي مرحلة التلقي، ومرحلة العض وخلالها تبدأ العدوانية الفمية في إرساء أسسها الأولى. الموقف من العالم يصبح اقتحامياً تملكياً.
صعوبات الحياة المتنوعة والإحباطات الجذرية قد تقود الإنسان إلى النكوص إلى تلك المرحلة الأولى من النشاط الذي كان يؤمن المتعة. وقد تتشبث الشخصية على هذه المرحلة فيصبح المرء اتكالياً، يميل إلى الطفلية في علاقاته، يجب أن يتلقى أكثر مما يعطي أو يبادر. للنشاط الفمي قيمة تعويضية كبيرة: الإقبال على الطعام، لذة الكحول والتدخين كلها تستقي أصولها من تلك المرحلة الفمية المبكرة من الحياة.

مُكاملة (تكامل) **Intégration**

هذه العملية النفسية هي في أساس وحدة الشخصية واتزانها وتوافقها تعني حرفياً قدرة الذات على استيعاب تجاربها المختلفة ومآزقها وصراعاتها ورغباتها، والتنسيق بين الذات والخارج بشكل متوازن وإيجابي، يسمح للشخصية أن تصل مرتبة متقدمة من النضج والارتقاء. فالنضج وما يرافقه من حيوية ودينامية مشروط في النهاية بدرجة مكاملة التجربة الحياتية (عاطفياً وعقلياً وعلائقياً). في المرض النفسي تنخفض درجة التكامل الحيوي، مما يولد صراعات بين قطاعات الشخصية التي تفتقر إلى التنسيق والتوليف. ويؤدي ذلك عادة إلى بروز قطاعات منفصلة، يعمل كل منها بمفرده، مما يلقي بالشخصية في التفتت والتبعثر. ويصل انهيار التكامل حداً واضحاً في مرض الفصام حيث تتفكك الشخصية تماماً، ويفقد التنسيق بين الانفعالات والأفكار والسلوك والعلاقات.
أما المكاملة فيقصد بها القدرة على استيعاب خبرة أو رغبة ذات طابع وجداني مفرط، فإذا حدثت هذه المكاملة بنجاح، فقدت الانفعالات قوّتها الضاغطة التي تعرقل تكيف الشخصية ووحدتها.

مَيْل اختزالي (اختزال) **Tendance réductioniste**

الاختزال عملية نفسية علائقية، يختصر فيها الشخص الآخر إلى أحد أبعاده، أو أوجه وجوده، أو إحدى خصائصه فقط. يبنى انطلاقاً من ذلك حكم يعمم على كل وجوده. وهكذا لا نعود ندركه إلاّ باعتباره تلك الصفة أو الخاصية. وفي هذا بالطبع اعتداء على إنسانيته وغناها، واعتداء على حريته في أن يكون غير ما نريد. ويتخذ الاختزال طابعاً سلبياً معظم الأحيان، كأن لا نرى من الشخص إلاّ إحدى خصاله السيئة ونوحده معها، وهنا تتدخل التحيّزات والأحكام المسبقة والأفكار المنمطة كثيراً، وتؤدي إلى مواقف إدانة وتعصب.
ولكن قد يختزل الآخر إلى إحدى خصاله الطيبة، كاختزال المرأة إلى مجرد دور الأم فقط مع ما له من قيمة. وهكذا فالميول الاختزالية تمنع رؤية الآخر على حقيقته، فهي قد تبخسه، أو ترفعه إلى مصاف المثل

الأعلى. وتنطلق الميول الاختزالية من اتجاهات أنانية، أنوية، أن لا يكون الآخر سوى ما نريده له. هذه الميول تتضمن لا محالة بذور الصراع العلائقي.

نزوة Pulsion (Instinct, drive)

نسق دينامي متكوّن من شحنة دافعة (طاقة حيوية) تدفع بالمتعضي نحو موضوع محدد لها كهدف، بقصد تخفيف التوتر الناتج عن تراكم تلك الطاقة داخل الجسم، والعودة به إلى حالة التوازن.
النزوة هي إذاً الطاقة الحيوية التي تدفع السلوك (أهمها نزوة الحياة ونزوة الموت من وجهة نظر التحليل النفسي).
والنزوة هي صنو الغريزة بمعنى أن لها موضوعاً تتوجه إليه وهدفاً هو الوصول إلى ذلك الموضوع والحصول على الإمتاع من خلال ذلك. ولكن يفضل عند الإنسان، الحديث عن النزوة (خصوصاً بشأن الحب والعدوان)، إذ إن الغريزة مقننة وراثياً ومحددة من حيث هدفها وطرق الوصول إليها بشكل جامد. أما النزوة فهي تتمتع بدرجة أكبر من الحرية، ولذلك فقد تستبدل موضوعها الأصلي وأهدافها وطرق الوصول بغيرها، كما يحدث خلال الاضطرابات الجنسية، وكما يحدث حين تنصبّ العدوانية على موضوعات غير مباشرة أو ترتد إلى الذات أو تأخذ طابعاً رمزياً.

نزوة الحياة Pulsion de vie (life Instinct)

إحدى النزوتين الأساسيتين اللتين تحركان المتعضي من ناحية الطاقة الحيوية الدافعة. النزوة الأخرى هي نزوة الموت.
نزوة الحياة، وتسمى أيضاً إيروس (Eros)، تهدف إلى الصلة والربط والعلاقة، إلى تجميع وتكوين وحدات حيوية أكبر فأكبر. الطاقة الجنسية وعاطفة الحب هما التعبير المباشر لنزوة الحياة ويطلق عليهما اسم الليبيدو (Libido). نزوة الحياة ذات طابع دينامي متحرك فهي تتوزع ما بين الذات فتؤدي إلى مشاعر الاعتبار ومحبة الذات وتقديرها وقد تؤدي إلى الأنوية فالنرجسية إذا حدث توظيف مفرط لها في الذات. وتتجه إلى الخارج نحو موضوعات الحب فتمد العلاقات بلحمتها العاطفية، أو هي تتوجه إلى موضوعات مجردة ومثل عليا وعقائد.
ونزوة الحياة هي على صراع دائم داخل المتعضي مع نزوة الموت التي تهدف إلى التدمير. فهي توازنها وتؤمن بذلك توازناً مقبولاً للمتعضي، كما أنها تمتزج معها بمقادير متفاوتة في كل أنماط العلاقات التي تضم دوماً جانبين متكاملين: حباً وحقداً.

نزوة السطوة Pulsion d'emprise (Instinct to master)

مصطلح استخدمه فرويد أحياناً، دون أن يحدد معناه بدقة. ويقصد به نزوة غير جنسية، لا ترتبط بالجنس إلاّ فيما بعد، وتهدف إلى استعباد الموضوع الجنسي بالقوة. ويرتبط هذا المصطلح أكثر مما يرتبط إضافة إلى ذلك بمفهوم السادية، باعتبارها تتغذى أساساً من الرغبة في السيادة على الآخر، والإحساس بالقوة من خلال ضعفه، واعترافه بقوة السادي وسيطرته عليه. منهم من يضع نزوة السطوة في أساس الاتجاه التملكي الاقتحامي من العالم.

نَظّار (تملكي) Voyeurisme (possessif)

كل نظّار، هو في الواقع تملكي، لأنه أساس تملك أو محاولة تملك وسلب الآخر ما يملكه بالنظر. في

المعنى العيادي الدقيق، النظار هو أحد أشكال الشذوذ (perversion) الجنسي. فعوضاً عن الوصول إلى الإشباع الجنسي من خلال العضو التناسلي في فعل الجماع، يقتصر الأمر على مرحلة تمهيدية من الفعل الجنسي العادي وهو الإثارة من خلال البصبصة. في هذه الحالة يمتلك المريض الموضوع الجنسي المرغوب فيه من خلال النظر وما يرافقه من إثارة بدل امتلاكه من خلال علاقة جسدية فعلية وتامّة. والنظار بهذا المعنى يختلف عن شدة الرغبة في الموضوع الجنسي التي تصاحب حالات الحرمان العادية نتيجة الفصل بين الجنسين، والتي لا تسمح سوى بتفاعل من خلال الاستعراض والبصبصة. النظاري يكتفي بذلك مع أن بإمكانه واقعياً الوصول إلى مستوى الفعل الجنسي السوي.

يخفي النظار عقدة خصاء فعّالة، تضع المريض في حالة عجز جنسي واضح، وحالة خوف من القرين الجنسي أو الاقتراب منه.

النظار التملكي بالمعنى المستخدم في النص هو امتلاك بديل لمظاهر الثروة أو النعمة، أو الحظ من خلال النظرة المشتهية والعدوانية.

نُفاج Mégalomanie

عبارة عن حالة من التضخم الذاتي الذي يأخذ طابع المبالغة الخرافية لقدراتها وممتلكاتها ومكانتها، مع حالة من الامتداد الوجودي بشكل يجعل المحيط يبدو منحسراً أمام الذات. فالنفاج هو مبالغة في الادعاء لا تستند إلى أي إحساس من الواقع الذاتي أو الموضوعي. والنفاجي هو كائن مهووس بالعظمة وارتفاع الشأن، أو هو يقدم نفسه هكذا مباشرة بدون جهد فعلي للوصول إلى تلك العظمة. يبالغ النفاجي في كل ما يمتّ إليه بصلة، خصوصاً في تصوير قدراته. وقد يصل النفاج حد المرض الفعلي فيتخذ عندها شكل هذيان العظمة، حيث يعطي المريض من هؤلاء لنفسه بعداً كونياً أو يدعي امتلاكه لثروة خرافية (جبال من الذهب، مئات من النساء) أو لألقاب مفرطة في تفخيمها.

والنفاج هو نوع من رد الفعل التعويضي على مشاعر نقص ذاتية شديدة. إنه ردّ فعل تمرد خرافي على العجز. وهو على صلة ما بعقدة الخصاء ورفضها، وبقلق الهجر، ونبذ الأم له. التضخيم الخارجي متواز عموماً مع النقص الداخلي.

نفسدي (نفس جسمي ــ نفسي جسمي) Psychosomatique

نوع من الاضطرابات، والأمراض الجسمية التي لا ترجع إلى علة جرثومية، أو كلمية (جروح، إصابات)، أو اختلالات فسيولوجية شراحية، بل تنشأ عن صراعات نفسية مكبوتة أو صريحة، والأغلب أن تكون مكبوتة. فالمرض النفسدي هو إذاً المرض الجسمي ذو الأصل النفسي. ولقد أصبح الطب النفسدي أحد فروع الطب المتزايدة في انتشارها. ومصدر المرض في هذه الحالة هو الوحدة الجدلية الدائمة بين النفس والجسم. كل معاناة نفسية شديدة ومزمنة لا يسمح لها بالتعبير المباشر على المستوى النفسي تؤدي لا محالة إلى اختلالات جسدية وتظهر فيما بعد كاضطرابات جسمية. فمن خصائص الطاقة النفسية سواء أكانت سوية أم في حالة مأزمية أن تنصرف من خلال الجسد ووظائفه.

ولكن لا بد في حالة المرض النفسدي من تواطؤ جسمي على شكل ضعف جبلي أو شراحي في العضو الذي ستظهر من خلاله الاضطرابات. ومن أمثلة الاضطرابات النفسدية الأكثر شهرة قرحة المعدة، وارتفاع ضغط الدم.

نُكوص Regression

نكص تعني حرفياً رجع من حيث أتى. وتعني نفسياً العودة إلى أساليب في التعبير والتماهي والسلوك تجاوزها المرء خلال نموه وتقدمه نحو النضج الراشد. فالنكوص يفترض أن عملية النمو تمر بعدة مراحل على المستوى العاطفي الجنسي، العلائقي والسلوكي والانبنائي. ويحدث فيها إذاً عودة إلى الوراء من مرحلة نضج متقدم، إلى أخرى طفلية، مثلاً النكوص من مرحلة الاستقلال والمسؤولية، إلى مرحلة أكثر طفلية تتميّز بالاتكال والتبعية. والنكوص ظاهرة شائعة عند الأطفال الذي يتقهقرون في نموهم إذا اعترضتهم أزمات جدية. فقد يعود الطفل إلى البوال في فراشه ليلاً بعد أن يكون قد ترك هذه العادة. وقد يعود إلى التشبث بالأم بعد أن بدأ يستقل.

أما عند الراشد فالنكوص يحدث أيضاً كرد فعل على مآزق لا يجد له منها مخرجاً، ولا تؤمن له إشباعاً لحاجاته الحيوية، فينكص إلى أساليب أكثر بدائية في مجابهة الواقع. إنه لا يعود طفلاً بشكل فعلي، بل يتصرف انطلاقاً من وضعية الطفل وأسلوبه.

وقد يكون النكوص عاماً: تتقهقر الشخصية بشكل إجمالي فيه، أو جزئياً يمس قطاعاً محدداً منها، خصوصاً القطاع الجنسي. وقد يكون مؤقتاً كرد فعل على مأزم عابر أو دائم يطبع الشخصية كلها بطابع أدنى ارتقاء من الناحية النفسية.

هِتاك Exhibitionisme

اضطراب جنسي يتلخص في استعراض الأعضاء التناسلية (عند الرجل خصوصاً) كوسيلة للحصول على اللذة الجنسية، وذلك بدل الحصول عليها من خلال الفعل الجنسي. فالهتاكي يكتفي بمرحلة أولية من الوصال الجنسي، وهي إغراء الآخر وإثارته. يتلخص الفعل الجنسي إذا بإحدى مراحله التمهيدية، ولكنه يتخذ طابعاً قهرياً أو سادياً. في الحالة القهرية يقف الفاعل موقف الضعف ويستعرض أعضاءه تحت شعار الخجل والعار، وبشكل اضطراري. أما في الحالة السادية فيحاول الفاعل أن يصدم من خلال منظر أعضائه التناسلية فتاة صغيرة، عادة يتحرش بها في مكان منعزل.

والهتاك هو إحدى حالات العجز الجنسي، إذ ندر أن يكون الفاعل قادراً على القيام بجماع ناجح مع امرأة ناضجة.

المقصود في النص ليس الهتاك بمعناه التناسلي، بل بالمعنى الجنسي العام، حيث تجد المرأة رضى ومتعة من خلال عرض مفاتن جسدها وإثارة الرغبة عند الرجل، رغبة تبقى بدون إشباع. إنها محاولة السيطرة على الرجل من خلال إثارة رغبته وعدم تحقيقها، في نوع من نشوة قوة الإغراء تشعر به المرأة.

هُجاس (حواز، وسواس، افعال قهرية) Obsession

مرض نفسي مشهور، من علاجه وعلاج الهستيريا انطلق التحليل النفسي. وهو مرض وظيفي أي أن منشأه نفسي ولا أساس عضوي له.

من ناحية الأعراض، تسيطر على المريض مجموعة متنوعة من الأفكار أو الأفعال التي تتخذ طابعاً قهرياً، يجد المريض نفسه مرغماً على القيام بها، رغم رفضه لها وما تسببه من إزعاج. من أمثلة الأفعال القهرية: العد القهري مرات لا متناهية، القيام بطقوس معينة قبل النوم كغسل اليدين عدة مرات متالية وبدون مبرر منطقي سوى إحساس المريض أنه قد لا يكون قد طهر يديه تماماً، التأكد عدة مرّات من إقفال الأبواب أو صنابير المياه إلخ...

ومن الأمثلة على الأفكار القهرية الوقوع تحت حالة من انعدام اليقين والحاجة إلى التكرار. إلحاح أفكار ذات طابع جنسي أو عدواني تثير القلق والذعر في النفس نظراً لتعارضها مع الأخلاق (الخوف مثلاً من قتل شخص عزيز عليه، إلحاح صورة امرأة عارية على ذهن رجل دين أثناء الموعظة، إلخ..).

من الناحية النفسية يتصف الهجاسي بالدقة المفرطة، الاهتمام بالتفاصيل، التزمت، شحاح العاطفة وتحفظها.

الهجاس في أعراضه هو تعبير عن صراع حاد بين رغبات تلح كي تشبع ولكنها تلقى مقاومة خلقية ضارية لأن الفرد يعيشها كرغبات غير مقبولة. الأعراض الخارجية هي دفاع مضن ضد تلك الرغبات الملحة.

هُوام (تطييف) (Phantasy) Fantasme

نوع من السيناريو الحسي (خصوصاً بصري) أو حركي عضلي، يجتاز المجال الإدراكي بسرعة خاطفة، تماماً كومضة برق، يمثّل وضعيات، أو مشاهد، أو أعمال، أو مخاوف، تبدو جميعاً دخيلة على الذهن وكأنها ليست نابعة منه.

الهوام هو في الواقع سيناريو تمثيل رغبة تتحقق مع ما يصاحبها من لذة وخوف من التحريم الذي يضرب هذه الرغبة اللاواعية عادة. فهو إذاً تحقيق رغبة وعقاب عليها في آن معاً، يظهر بشكل يفاجئ ويمتع، أو يخيف. والهوام هو تمثيل لأشكال الإشباع البدائية جداً واللاواعية للرغبات: هوام قتل، هوام اغتصاب، هوام جماع، إلخ.. الشكل الواعي للهوام هو أحلام اليقظة ولكن الواقع هو أن هذه الأحلام ليست سوى القناع الذي يخفي الهوامات اللاواعية، ولا يمكن اكتشافها إلا بالتحليل. فهي التي تغذي الأحلام، والأعراض المرضية على اختلافها.

النزوة (جنس، أو عدوان) لا تظهر عادة بشكلها الخام عند الإنسان، بل تأخذ شكل الرغبة. والرغبة هي أصلاً في علاقة، رغبة في موضوع خارجي (شخص) أو خوف من هذه الرغبة. وهذه الرغبة في علاقة تأخذ شكلاً دينامياً هو السيناريو الهوامي، حيث تتحقق متضمنة العقاب عليها أو القلق النابع من العقاب عليها.

وهكذا تنتظم الحياة اللاواعية بما فيها من نزوات ومكبوتات في مجموعة من الهوامات الأولية أو الأصلية: هوامات الخصاء، هوامات الجماع، هوامات الحياة الرحيمة، هوامات الغواية الجنسية، هوامات المشهد الأولي (فعل الجماع بين الوالدين). هذه الهوامات اللاواعية هي التي تمد الحياة الواعية بتخيلاتها وأحلامها في اليقظة والنوم، وفي تحريفاتها، وفي أعراضها المرضية.

والواقع أن العلاقات بين الذات والآخرين تتأثر جداً بنوع السند الهوامي الذي تستمد زخمها وطاقتها منه. ليس هناك علاقة واقعية مادية بالمعنى الدقيق للكلمة عند الإنسان. كل علاقة لا بدّ لها أن تصطبغ بالهوامات اللاواعية، أي بنوع التجارب الانفعالية والنزوية التي رافقت العلاقات البدائية بين الطفل وأمه، وبالتالي الصور عن الذات والآخر ودور كل منهما في إشباع الرغبة. وهكذا فالعلاقة الواقعية لها بعد هوامي بالإضافة إلى بعدها المادي. الهوام من أهم أوجه نشاط الحياة اللاواعية، إنه منظم هذه الحياة ومجسد لها في سيناريو، وهو إلى ذلك أكثر الأفكار غموضاً بالنسبة لغير المتخصصين في علم نفس الأعماق.

د. مصطفى حجازي

التخلف الاجتماعي

إن تجاهل كون التخلف على المستوى الإنساني كنمط وجود مميز، له دينامياته النفسية والعقلية والعلائقية النوعية، أوقع دارسي التخلف وعلماء التنمية، ومن ورائهم القادة السياسيين الذين يقررون عمليات التغيير الاجتماعي، في مآزق أدت إلى هدر الكثير من الجهد والوقت والإمكانات المادية، بشكل اتخذ طابع التبذير الذي لا يمكن للمجتمع المتخلف، ذي الأعباء الثقال، أن يسمح لنفسه به. انطلق هؤلاء جميعاً في مشاريع تنموية طنانة، ذات بريق ووجاهة، قائمة على دراسات ومخططات جزئية، لم تتجاوز السطح معظم الأحيان، كي تنفذ إلى دينامية البنية المتخلفة من ناحية، أو إلى التكوين النفسي والذهني للإنسان المتخلف الذي أريد تطويره من ناحية ثانية. وضعت خطط مستوردة عن نماذج طبقت ونجحت في بلدان صناعية، ولكن مسيرة هذه الخطط لم تخط بعيداً، فلقد أخفقت التجارب المستوردة، والمشاريع الملصقة من الخارج، كما فشلت المشاريع ذات الطابع الدعائي الاستعراضي في تحريك بنية المجتمع ككل، وفي الارتقاء بإنسان ذلك المجتمع.

ذلك لأن إنسان هذه المجتمعات لم يُنظر إليه باعتباره عنصراً أساسياً ومحورياً في أي خطة تنموية. التنمية، مهما كان ميدانها، تمسّ تغيُّر الإنسان ونظرته إلى الأمور في المقام الأول. لا بد إذاً من وضع الأمور في إطارها البشري الصحيح، وأخذ خصائص الفئة السكانية التي يراد تطوير نمط حياتها بعين الاعتبار. ولا بد بالتالي من دراسة هذه الخصائص ومعرفة بنيتها وديناميتها، وهو ما ترومه هذه المحاولة، بما قد تحمل من ثغرات، تطمح إلى فتح الطريق أمام أبحاث نفسية ميدانية، تحاول فهم الإنسان المتخلف بنوعيته وخصوصية وضعه، وبشكل حي وواقعي، لتكون مرتكزات علم نفس التخلف.

ISBN: 9953-68-075-2

المركز الثقافي العربي

ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت- لبنان

ص.ب 4006 - الدار البيضاء- المغرب